تاريخ العرب

(مُطوَّل)

بقلم

الدكتور فيليب حتي

الدكتور أدورد جرجي

الدكتور جبرائيل جبور

الجزء الثاني

١٩٥٠

دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع

فهرس المحتويات

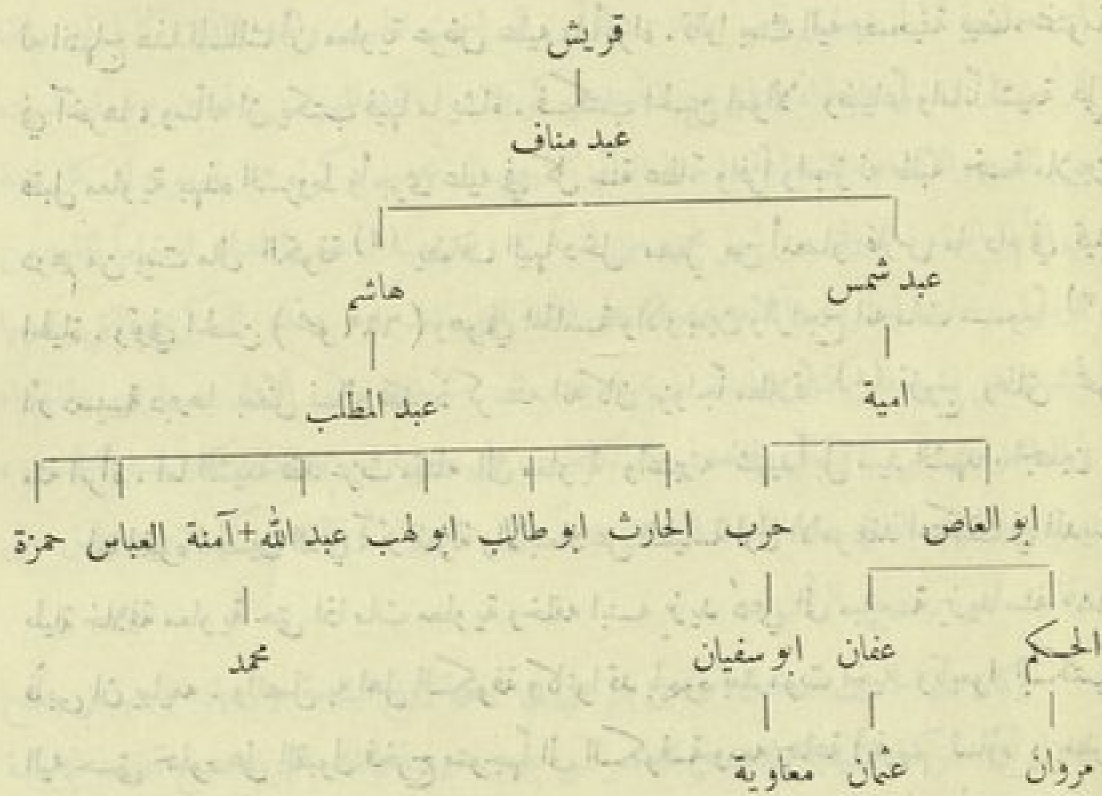
القسم الثالث ـ الدولتان الاموية والعباسية

القِسمُ الثالِثُ

الدّولتانِ الأمويّةِ والعبّاسيّة

الفصل السابع عشر

الخلافة الأموية . معاوية يؤسس دولة



التخلص من طالبي الخلافة

نودي بمعاوية خليفة في ايليا (بيت المقدس) سنة ٤٠/٦٦١ (١) وباعتلائه عرش الخلافة أصبحت دمشق (التي كانت مركز حكومة اقليمية) عاصمة الامبراطورية الاسلامية . ولكن هذه الامبراطورية لم تكن آنذاك تضمّ العالم الاسلامي كله . وكان عمرو ابن العاص وهو يد معاوية اليمنى قد انتزع مصر من العلويين بعد التحكيم . ولكن

١) الطبري ج ٢ س ٤ ؛ قابل المسعودي ج ٢ ص ١٤

اهل العراق بايعوا الحسن ابن علي خليفةً شرعياً لعليّ . اما مكة والمدينة فلم يكن ولاؤهما لآل سفيان قوياً ولم تؤخذا بالمواثيق او العروض التي قدمها السفيانيون ، ولم يكن هؤلاء قد قبلوا الاسلام إلا بعد سقوط مكة ومن هنا فقد اتهموا أن اسلامهم كان عن مصلحة لا عن إيمان . غير ان الحسن ابن علي لم يكن يهتم كثيراً بامور السياسة والادارة والحكم بل انقطع الى أمور حياته الشخصية وما لبث ان نزل عن الخلافة لمعاوية واعتزل في المدينة. وقد يسّر (١) له انتهاج هذا المسلك أن معاوية عرض عليه ما أغراه . قالوا بعث اليه بصحيفة بيضاء مختومة في آخرها ، وسأله ان يكتب فيها ما يشاء . فكتب الحسن اموالاً وضياعاً واماناً لشيعة علي فقبل معاوية بهذه الشروط وأجرى عليه في كل سنة عطاءً وافراً واجاز له طلبه خمسة ملايين درهم من بيت مال الكوفة (٢) يضاف اليها دخل مصرٍ من أمصار فارس ما دام في قيد الحياة . وتوفي الحسن (نحو ٦٦٩) وهو في الخامسة والاربعين والراجح انه مات مسموماً (٣) اثر دسيسة دبرها بعض نسائه فقد ذُكر عنه انه كان مزواجاً مطلاقاً (٤) تزوج وطلق نحو مئة امرأة . اما الشيعة فقد عزت مقتله الى معاوية واعتبرته شهيداً بل سيد الشهداء اجمعين .

اما اخوه الحسين الذي آثر العزلة والابتعاد عن السياسة اول الامر فقد اعتكف في المدينة طيلة خلافة معاوية حتى اذا مات معاوية وخلفه ابنه يزيد دُعي الى مبايعة يزيد سنة ٦٨٠ فأبى ان يبايعه . واتصل به اهل الكوفة وكانوا قد بايعوه بعد موت اخيه وتابعوا الكتب اليه حتى حملوه على القبول فخرج متوجهاً الى الكوفة ومعه جماعة (فيهم نساؤه و بعض أقربائه وانصاره) . وكان عامل الامويين على العراق في ذلك العهد عبيد الله بن زياد . وزياد هو الذي ألحقه معاوية ببيته واعترف به أخاً من ابيه اكتساباً لصداقته وتألفاً له . واقام عبيد الله للحسين الأرصاد على جميع طرق الحجاز المؤدية للعراق ثم ارسل كتيبة من اربعة آلاف مقاتل عليهم عمر ابن سعد ابن ابي وقاص ، وهو ابن فاتح العراق ، وذلك في

---

١) ابن حجر ج ٢ ص ١٣ ؛ الدينوري ص ٢٣١ .
٢) الطبري ج ٢ ص ٣ .
٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٦٦ .
٤) ابن عساكر ج ٤ ص ٢١٦ .

العاشر من محرم سنة ٦١/١٠ تشرين الاول سنة ٦٨٠ . فوافى عمر ابن سعد الحسين في كربلاء على مسيرة خمسة وعشرين ميلاً الى الشمال الغربي من الكوفة وكان الحسين قد نزلها مع جماعته التي لا تزيد عن مئتي نفس . وأحرج سبط الرسول فآثر القتال على الاستسلام فأحاطوا به من كل ناحية وقاتلوه حتى قتل اكثر اصحابه وفيهم بضعة عشر شاباً من اهل بيته ثم أمر بحبرة فشققها ثم لبسها وخرج بسيفه فقاتل حتى قتل . واحتز رأسه وحمل الى يزيد ابن معاوية (١) بدمشق فأمر يزيد برد الرأس الى اخت الحسين وابنه اللذين كانا قد رافقا الرأس الى دمشق فاخذاه ودفن مع الجسد في كربلاء . ولقد ظهر من الحسين يوم استشهاده من الصبر والاقدام والشجاعة ما حدا بالعالم الشيعي الى تجديد ذكراه بما يقيمونه له كل سنة في الأيام العشرة الاولى من شهر محرم من المآتم وضروب الندب والحداد احتراماً لمقامه من الرسول وتخليداً لبطولته وآلامه وصبره على المحنة التي المت به . وهذه الذكرى التي تحييها الشيعة هي اشبه ما يكون بمأساة تاريخية تقسم الى مشهدين يختم الاول منهما يوم عاشوراء (العاشر من محرم) وتمثل وقائعه في الكاظمين على مقربة من بغداد تذكاراً لمقتل الحسين ، ويقام المشهد الثاني بعد انقضاء اربعين يوماً على عاشوراء وذلك في كربلاء ويطلق على وقائعه اسم رجوع الرأس .

وكان دم الحسين اكثر اثراً من دم علي في تنمية روح الشيعة وازدياد اتباعها بل يصح القول أن الحركة الشيعية ولدت في العاشر من محرم . ومنذ ذلك اليوم اصبح عقد الامامة لذرية علي سنّة لها في عقائد الشيعة ما لنبوءة محمد من قدر في الاسلام . وكان من يوم كربلاء للشيعة فوق ذلك صيحة حرب جديدة هي « يا لثارات الحسين » . وقد أثبتت الوقائع فيما بعد ان هذه الصيحة نفسها كانت من العوامل التي قوضت بنيان الدولة الاموية . اما أهل السنّة فقد ذهبوا الى أن يزيد ابن معاوية انما كان الخليفة الذي بايعته جمهرة العالم الاسلامي وأن الخروج عليه خيانة يستوجب صاحبها العقاب . واتسعت شقة الخلاف بين الفريقين وحدث الصدع في الأسلام ولم يُرأب حتى اليوم .

---

١) ابن حجر ج ٢ ص ١٧ ؛ الطبري ج ٢ ص ٢٨٢ .

وما ان استقر الملك لبني امية وقد تخلصوا من العلويين حتى اتضح ان النزاع على الخلافة انما هو مثلث الاركان فالامويون في ركن والعلويون في آخر وأتباع عبد الله بن الزبير في ركن ثالث . وكان عبد الله ابن اخت عائشة ام المؤمنين وقد لزم المدينة طوال حكم معاوية متظاهراً بالرضى . اما الان وقد اعتلى كرسي الخلافة يزيد ابن معاوية المعروف بلهوه وفسقه فقد تبدلت الحال . وهنا اعلن ابن الزبير عدم رضاه عن الخليفة الجديد وما زال بالحسين حتى اغراه على القيام بتلك المغامرة التي كلفته حياته فخلا لابن الزبير الجو واصبح بذلك المنافس الوحيد ليزيد . وما كادت الحجاز تبايع ابن الزبير وتثور على بني امية حتى اسرع يزيد الى تجريد حملة تأديبية على الثائرين فيها . وسارت الحملة الى المدينة وكان من رجالها عدد كبير من نصارى الشام وعلى رأسها مسلم ابن عقبة وكان شيخاً مسناً وبه عوَر (وليس له صلة قربى بعقبة ابن نافع فاتح شمالي افريقية وباني القيروان (١)) وعسكر مسلم في السهل البركاني المعروف بالحرة بظاهر المدينة شرقاً . ونازل الثائرين يوم ٢٦ آب سنة ٦٨٣ فغلبهم . اما ما رواه بعض الرواة من ان اهل الشام استباحوا المدينة ثلاثة ايام وانتهكوا حرمتها فأمر يُشك في صحته . وقد شخص مسلم بعد ان فتح المدينة متوجهاً الى مكة فمات في الطريق وخلفه الحصين ابن نمير السكوني (٢) فتابعت الحملة سيرها الى مكة . وكان ابن الزبير قد احتمى بالبيت الحرام فقصده الحصين وحاصره ورمى البيت بالمجانيق . وفي اثناء الحصار اتصلت النار بستار الكعبة فأحرقته واحرقت الكعبة وانصدع الحجر الاسود في ثلاثة امكنة (٣) . وورد نعي يزيد في تلك الاثناء فخشي ابن نمير الفتنة في الشام فأوقف الحرب في ٢٧ ايلول . وبهذا انتهت الحرب الاهلية الثانية في الاسلام وكانت كأختها الاولى التي نشبت بين علي ومعاوية قد قامت على التنازع في سبيل الخلافة .

واشتد امر ابن الزبير بعد موت يزيد وجلاء جيش الامويين عن الجزيرة فبويع

---

١) من « كاروان » الفارسية ومنها « caravan » بالانكليزية اي قافلة .

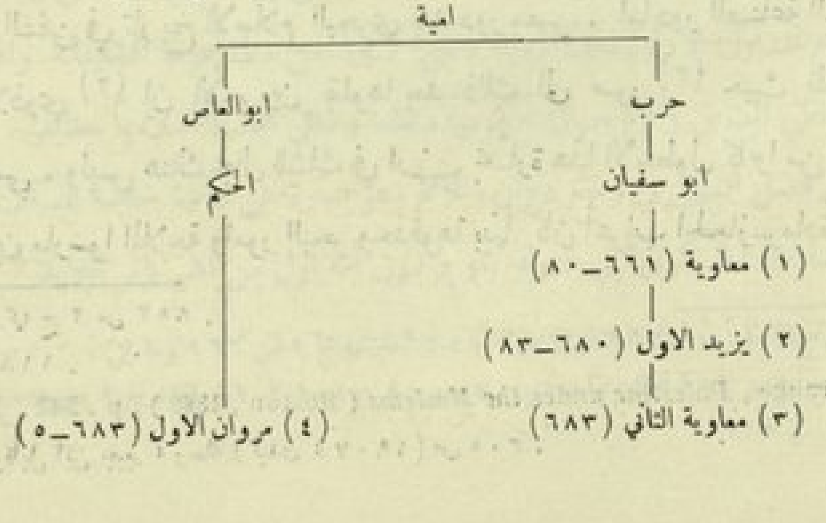
٢) من قبيلة كندة وكان عاملا على حمص قبل ذلك : الطبري ج ٢ ص ٢٢٠ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٩٩ .

٣) الطبري ج ٢ ص ٤٢٧ ؛ الفاكهي ص ١٨ وما يلي ؛ الازرقي ص ٣٢ وقد رمم الكعبة ابن الزبير بعد جلاء الامويين .

له بالخلافة لا في الحجاز مقر ولايته فحسب او في العراق حيث جعل اخاه مصعباً والياً بل في جنوب الجزيرة ومصر ايضاً وفي بعض انحاء الشام. وكان الضحاك ابن قيس الفهري وهو زعيم القيسية (عرب الشمال) قد اظهر ميله للزبيريين وولاءه لهم فالتفت قيس حوله واخذت تناوىء المطالبين بالعرش من بني امية. وانتهى الامر اخيراً في ان التقى الجمعان بمرج راهط (١) وغُلبت قيس وقتل الضحاك في تموز سنة ٦٨٤. وكانت هذه المعركة صفّيناً ثانية للامويين تغلب فيها بنو كلب اليمنيون على القيسيين. وكانت قبيلة كلب تقيم في سورية من قبل الهجرة وكان اكثر بنيها متنصرين. وهكذا فقد بايع اليمنيون مروان ابن الحكم خليفة وهو ابن عم الخليفة عثمان ابن عفان ووزيره فاقبل الى الشام وأسس الفرع المرواني من دوحة الأسرة الاموية وذلك بعد موت الخليفة المستضعف معاوية الثاني (٦٨٣). وكان معاوية هذا قد حكم نحو ثلاثة أشهر ولم يترك بعده خلفاً. (٢) وظل ابن الزبير خليفة في الحجاز والعراق يناهض بني امية في الشام حتى ايام عبد الملك ابن مروان. واخيراً وجّه هذا حملة الى العراق فانتزعه من مصعب أخي عبد الله ثم سيّر الحجاج ابن يوسف القائد الشهير الى مكة فحاصرها ابتداء من ٢٥ آذار سنة ٦٩٢ ونصب المجانيق

١) سهل الى الشرق من قرية عذراء قرب دمشق. انظر وصف الخطة الحربية التي توخاها مروان في هذه المعركة الفاصلة في كتاب العقد ج ٢ ص ٣٢٠ - ٢١؛ المسعودي ج٥ ص ٢٠١ وان هذه العصبيات والضغائن التي قامت بين عرب قيس النازحين من شمال الجزيرة وبين بني كلب اليمنيين الذين ناصروا بني امية ودعموا ملكهم كانت من العوامل التي ادت آخر الامر الى سقوط الدولة الاموية وقد ظل لهذه العداوة بين الحزب القيسي والحزب اليمني أثر في تكييف السياسة الحديثة في لبنان وسورية حتى القرن الثامن عشر.

٢) جدول نسب يبين علاقة الفرع السفياني من الامويين بمؤسس الفرع المرواني:



عليها ورمى أهلها بالحجارة . وكان الحجاج في اول أمره يحترف التدريس في الطائف ثم انخرط في جند بني امية وظهرت مواهبه العسكرية في اخضاع العراق فاختاره عبد الملك لاخضاع الحجاز . وطال الحصار نحو ستة اشهر ونصف وتخلف الناس عن ابن الزبير حتى اضطر ان يقاتل وحيداً . وقد لجأ الى امه اسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين طالباً نصحها حين أحرج وعُرض عليه ان يستسلم فقالت له أمه : « أرى ان تموت كريماً ولا تتبع فاسقاً لئيماً » فعاد الى القتال ولم يزل يدافعهم عن نفسه حتى قتل فاحتز رأسه و بعث الحجاج به الى دمشق (١) وعلقت جثته على خشبة ثم دفعت الى امه أسماء . و بموت ابن الزبير زال ركن من اركان السلف الصالح من رجال الاسلام وخلا الجو للامويين وتم الانتقام لعثمان وتحطمت قوة الانصار فاخذ بعضهم ينزح عن مكة والمدينة للاندماج في جيوش الاسلام التي كانت تقاتل في شمالي افريقية واسبانية وسواهما من ساحات الحرب . ومنذ ذلك اليوم أصبح تاريخ الجزيرة العربية يتناول أثر العالم الخارجي فيها لا أثرها هي في العالم الخارجي . ان الحيوية التي ابدتها الجزيرة الأم قد تلاشت الآن .

معاوية مثال الملك العربي

و بعد ان ظفر معاوية بالسيطرة على الاحزاب المعارضة انطلق يوجه جهوده لقهر عدو الاسلام الاكبر ـ الروم . وكان قد وجد في عكا بعد فتح الشام دورَ صناعةٍ بيزنطية فاستعان بها على انشاء الاسطول الاسلامي . والراجح ان دور الصناعة هذه التي عرفت في عكا كانت اعظم دور لانشاء السفن في تاريخ الاسلام البحري بعد دور مصر . اما دور الصناعة السورية فقد روى البلاذري (٢) ان الأمويين نقلوها بعد ذلك الى صور (٣) حيث ظلت حتى العصر العباسي . وليس هناك مجال للشك في ان بحّارة هذا الاسطول كانوا من السوريين الأروام الذين مارسوا الملاحة وامور البحر وحذقوها بينما كان أعراب الحجاز ـ مادة الاسلام ـ

١) الطبري ج ٢ ص ٨٥٢ .
٢) ص ١١٨ .
٣) انظر , Guy Le Strange , *Palestine under the Moslems* (Boston , 1890) , p . 342
وقابل ابن جبير ، رحلة (ليدن ، ١٩٠٧) ص ٣٠٥ .

يجهلون شؤونها وليس لهم كثير المام بركوب البحر. فقد كانت سياسة عمر الأ يفصل بينه وبين جنده بحر. ومن هنا نستطيع ان ندرك الباعث الذي حدا به الى منع معاوية من غزو قبرس. وكان عثمان هو الذي أذن لمعاوية بذلك (سنة ٦٤٩) بعد شيء من التردد شرط ان يستصحب زوجه معه وكتب اليه يقول: « اذا ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً والاّ فلا. » ولقد كان مسيرها معه دليلا على قرب هذه الجزيرة من الشام وعلى السهولة التي يمكن ان تفتح بها.

ولم يكن ملك معاوية عهد توطيد الدولة فحسب بل كان عهد توسع في رقعتها ايضاً. ففي هذا العصر كانت الفتوحات في شمالي افريقية التي تمت على يد عقبة ابن نافع. اما في الميدان الشرقي فقد تم فتح خراسان كلها (٦٦٣ – ٧١). وكانت البصرة [١] مركز القيادة العامة وعبر المسلمون جيحون (الاكسوس) وغزوا بخارى (٦٧٤) من اعمال تركستان النائية. وبذلك لم يعد معاوية مؤسس دولة فحسب بل اصبح بعد عمر المؤسس الثاني للخلافة.

ولقد اعتمد معاوية في توطيد عرشه وتوسيع الفتوح الاسلامية على أهل الشام وسوادهم الاعظم يومئذ نصارى. واستعان كذلك بالعرب السوريين واكثرهم يمانيون ولم يعتمد كثيراً على اهل الحجاز. ولقد زخرت المصادر العربية بالاخبار عن طاعة أهل الشام له وتعلقهم به. [٢] ولا جدال في ان معاوية كان دون عليّ في الفروسية والحرب ولكن احداً من معاصريه لم يتقدمه في مضمار الادارة والتنظيم الحربي. فلقد اوجد من اهل الشام مادّة حربية لتأليف جيش مُدرّب فكان اول جيش منظم في الاسلام وطهّره من آثار العصبية القبلية المتخلفة عن العهود السابقة واستخدمه لضبط الأمن والنظام في الداخل واثارة الجهاد في الخارج. ثم تناول الادارة الحكومية فالغى كثيراً من مظاهرها التقليدية وانشأها على الاساس البيزنطي السابق واقام جهازاً حكومياً منظماً وخلق مجتمعاً اسلامياً جديداً. وينسب اليه المؤرخون فضل السبق في وضع ديوان الخاتم وهو عبارة عن دائرة خاصة للكتاب الذين تولوا أمر المراسلات الحكومية في الدولة. ويزعمون أنه اول من اهتم بأمر البريد [٣] الذي

١) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٨؛ البلاذري ص ٤١٠؛ الطبري ج ٢ ص ١٦٦ وما يلي.
٢) الطبري ج ١ ص ٣٤٠٩؛ المسعودي ج ٥ ص ٨٠، ١٠٤؛ قابل العقد ج ١ ص ٢٠٧.
٣) الفخري ص ١٤٨.

صار في ايام عبد الملك مصلحة راقية تربط اجزاء الدولة المترامية الاطراف . وكان لمعاوية عدد من الزوجات ربما كانت احظاهن عنده ميسون وهي عربية سورية من بني بحدل من قبيلة كلب وكانت تحتقر حياة البلاط في دمشق وتؤثر عليها حياة البادية التي ألفتها . واليها ينسب الرواة الأبيات المشهورة التي منها :

للبس عباءة وتقرّ عيني احبّ الى من لبس الشفوف
وبيت تخفق الارياح فيه احب اليّ من قصر منيف [(١)]

وسواء أصحت نسبة هذه الابيات اليها أم لا فأنها تعبر عن الحنين الذي كان يشعر به البدوي نحو البادية حين ينقطع عنها ويتصل بحياة الحضر .

وكانت ميسون نصرانية على مذهب اليعاقبة كنائلة زوجة عثمان التي كانت تنتمي ايضاً الى قبيلة كلب . وكثيراً ما كانت تصطحب ميسون معها ابنها يزيد الى البادية حول تدمر حيث كانت تقيم قبيلتها . وهناك تيسر لولي العهد ان يتعلم الصيد والفروسية وشرب الخمر وقرض الشعر . واصبحت البادية الشامية منذ ذلك الحين مدرسة للامراء الامويين يتعلمون فيها العربية الخالصة [(٢)] من الهجنة أو الرطانة الآرامية وينجون من اوبئة المدن . وقد حذا الخلفاء الامويون فيما بعد ومن بينهم عبد الملك وهشام والوليد الثاني هذا الحذو فبنوا منازل ريفية لهم على حدود الصحراء كانت تعرف بقصور البادية .

كذلك كان منصور [(٣)] ابن سرجون (سرجيوس في اليونانية) الذي ساهم في تسليم دمشق للعرب نصرانياً من اسرة سورية كان يتولى بعض رجالها شؤون بيت المال ايام البيزنطيين . [(٤)] وكان حفيد منصور القديس يوحنا الدمشقي الذي عرف عنه انه كان في شبابه احد ندماء يزيد . وكان طبيب الخليفة ايضاً نصرانياً ـ ابن أثال ـ وقد ولاه معاوية

---

١) ابو الفداء ج ١ ص ٢٠٣ .

٢) العقد ج ١ ص ٢٩٣ .

٣) ولقد التبس الامر على مؤرخي العرب فخلطوا بين هذا الرجل وبين سرجون ابنه . راجع الطبري ج ٢ ص ٢٠٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩ ؛ المسعودي ، التنبيه ص ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٢ ، وقابل Theophanes, p. 365 .

٤) لقد أصبحت ولاية المال في الاسلام اهم الوظائف بعد قيادة الجيش .

على جباية خراج حمص (١) وهي وظيفة عليا لم يسبق لنصراني قبله ان وصل اليها في تاريخ الاسلام (٢) . وكان الاخطل التغلبي النصراني شاعر العرش الاموي وكان من ندماء يزيد واصدقاء القديس يوحنا المذكور وكان يدخل على الخليفة عبد الملك والصليب مدلّى من عنقه ولحيته تنفض خمراً فينشده الشعر ويطربه . ولقد كان اليعاقبة والموارنة يحتكمون الى الخليفة (٣) في الامور الدينية التي يختلفون عليها فيقضي فيما بينهم . ويعزو ثيوفانس (٤) الى معاوية بناء بيعة للنصارى في الرهاء وقد هدمها الزلزال فيما بعد .

ولما جعل معاوية ولاية العهد ليزيد (٥) سنة ٦٧٦ وحمل الوفود على ان تأتي من مختلف الامصار لمبايعته ادخل بذلك الى الخلافة مبدأ الوراثة واصبح قاعدة سارت عليها الدول الاسلامية ومنها دولة العباسيين . وجرياً على هذه السابقة كان الخليفة يرشح من يرى فيه الكفاءة من ابنائه او انسبائه ويحمل الناس على مبايعته سلفاً . وكان يبدأ في ذلك بالعاصمة فتؤخذ البيعة من اهلها ثم تتلوها امهات المدائن في سائر الامصار .

وليس من شك في ان قسماً غير قليل من النجاح الذي احرزه معاوية انما يرجع الى عصبة من الاعوان الذين قربهم اليه نخص بالذكر منهم عمرو ابن العاص عامل وادي مصر الخصيب والمغيرة ابن شعبة امير الكوفة المتمردة وزياد ابن ابيه والي البصرة الساخطة . وقد كان هؤلاء وعلى رأسهم معاوية دهاة الاسلام الاربعة . وكان زياد قد كني بابن ابيه لريبة في معرفة من هو ابوه وكانت امه سمية أمة في الطائف او مومساً عرفها ابو سفيان ثم صارت لرجل آخر قبل مولد زياد . ونشأ زياد فاذا هواه مع العلويين . وفي ساعة من الساعات الحرجة استلحق معاوية نسب زياد بابيه واعترف به أخاً شرعياً . وقد برهن زياد على انه نعم العون لاخيه فقد اخضع البصرة وكانت مركزاً للشيعة واشتدت وطأته على اهلها حتى حملهم على السكون . ثم مات المغيرة عامل الكوفة فرقي زياد الى امارة الكوفة واصبح بذلك

---

١) ابن عساكر ج ٥ ص ٨٠ .

٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٦٥ ويعتقد فلهوسن في كتابه *Das arabische Reich* ص ٨٥ ان امر تعيينه غير ثابت .

٣) wellhausen *Reich*, p. 84 .

٤) Theophanes, p. 356.

٥) الطبري ج ٢ ص ١٧٤–٧ ؛ المسعودي ج ٥ ص ٦٩–٧٣ .

الحاكم المطلق على شرقي الامبراطورية الاسلامية ومنها الجزيرة العربية نفسها وفارس. وقد اتخذ زياد له حرساً خاصاً مدرباً قوامه ٤٠٠٠ رجل كانوا له العيون والارصاد وكان منهم الشرطة لحفظ النظام. واستطاع بهذا الحرس ان يحكم بشدة و بطش واستبداد متعقباً كل من كان هواه مع علي او بدرت منه بادرة عداء لمعاوية.

وأوتي معاوية نصيباً من اللباقة والحنكة السياسية لم ينل مثله فيما نرجح خليفة آخر. وقد ذكر المؤرخون ان اظهر فضائله كانت الحلم (١) الذي اشتهر به — هذه المقدرة على ان لا يلجأ الانسان الى العنف الا حين لا يرى محيصاً عنه وان ينزع في الاحوال الاخرى الى اللين والمسالمة — شدة في غير عنف ولين في غير ضعف — فكان يقرن لينه بالحزم فينتزع بذلك من خصمه سلاحه ويخجل معارضه وكان يملك نفسه ويكظم غيظه ومن هنا استطاع ان يكون دائماً سيد كل موقف. ولقد روي عنه انه كان يقول: « لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو ان بيني و بين الناس شعرة ما انقطعت، اذا مدوها خليتها واذا خلوها مددتها ».(٢) وكان في كتابه الى الحسن ابن علي حين نزل له عن الخلافة: « اما بعد فأنت أولى بهذا الامر وأحق به لقرابتك ولو علمت انك اضبط له وأحوط على حريم هذه الامة وأكيد لبايعتك فسل ما شئت. »(٣)

ولم يسلم معاوية — على ما عرف عنه من حلم وسياسة — من نقد المؤرخين. ذلك انهم يعتبرونه اول ملك في الاسلام. والعرب يكرهون هذا اللقب والغالب عندهم أن يطلق على سلاطين الاعاجم. وفي اقوال المؤرخين صدى لميول القدماء الذين اتهموا معاوية بتحويل الاسلام الى دولة وجعل الخلافة ملكاً (٤) أي زعامة دنيوية. فقد اخذوا عليه احداثه المقصورة (٥) في الجامع وجعلها مقاماً للصلاة خاصاً به. واخذوا عليه انه اول من خطب

---

١) الفخري ص ١٤٥ ؛ العقد ج ٢ ص ٣٠٤ ؛ المسعودي ج ٥ ص ٤١٠.
٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٨٣ ؛ العقد ج ١ ص ١٠.
٣) الطبري ج ٢ ص ٥.
٤) ابن خلدون، المقدمة ص ١٦٩ وما يلي ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٧.
٥) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٦٥ ؛ الدينوري ص ٢٢٩ ؛ الطبري ج ٢ ص ٧٠.

قاعداً (١) وانه اول من اتخذ سرير الملك (٢) . غير ان معظم ما دوّن من تاريخ العصور الاولى يرجع الى العصر العباسي وقد ألّف بعضه تزلفاً للعباسيين او تحت تأثير الشيعة فأنكرت على معاوية فضائله وشُك في تقاه . اما رأي المدرسة الشامية من المؤرخين - هذا الرأي الذي يحفظه ابن عساكر في تاريخه - فمناصر لمعاوية يظهره مسلماً ورعاً تقياً . ولقد تأثر خلفاء بني امية بهذه الصفات التي عرفت عن معاوية من لين وحنكة ودراية ودهاء وسياسة وهمة ونشاط ، واراد كثيرون منهم ان يحاكوه (٣) فيها فلم يصلوا الى حلمه ولا بلغوا اتقانه للسياسة . ومن هنا نرى ان معاوية لم يكن اول ملك في الاسلام فحسب بل هو بلا جدال من اعظم ملوك العرب على الاطلاق .

١) ابن العبري ص ١٨٨ .
٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢١٧ ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى (القاهرة ، ١٩١٣-١٨) ج ٤ ص ٦ .
٣) المسعودي ج ٥ ص ٧٨ . ولا يزال قبر معاوية في مقبرة باب الصغير بدمشق يزار الى اليوم .

الفصل الثامن عشر

العلاقات العدائية بين العرب والروم

وبينما كان معاوية يحاول ان يخمد الفتن الداخلية التي تهدد مركزه رأى من مصلحته ان يساوم (٦٥٨ او ٩) امبراطور الروم كونستانس الثاني (٦٤٢ – ٦٨) على الصلح ويؤدي اليه جزية سنوية ذكرها ثيوفانس (١) وأشار اليها البلاذري (٢) إشارة سطحية. ولكنه ما كاد يستتب له الأمر حتى رفض دفع الجزية وجدد الغارات على ممتلكات البيزنطيين براً وبحراً على شكل لم يستطع ان يجاريه فيه احد من خلفائه المباشرين بحيث كادت أن تصل يده مرتين الى الاستيلاء على عاصمة العدو نفسها. وكان اكبر دافع الى شن الغارات على مناطق الروم في آسية الصغرى هو الرغبة في الغنيمة على الرغم من ان شبح القسطنطينية البادي في الافق البعيد كان يستهوي الغزاة الى حد كبير. ثم تدرجت هذه الغارات حتى اصبحت حملات حولية تعرف بالصوائف لانها كانت تشن كل صيف وكانت خير ما عوّل عليه الخلفاء من خطط لتدريب الجيش وترويض الجند واثارة الحماسة فيهم. الا ان العرب لم يفلحوا قط في تثبيت اقدامهم في آسية الصغرى وذلك لان معظم قواهم كانت توجه شرقاً وغرباً الى الاقاليم التي قلت المقاومة فيها. ولولا هذا لكان شأن العلاقات بين العرب والبيزنطيين في آسية الصغرى وفيما وراء مضيق الدردنيل غير ما نرى. ولقد قامت جبال طورس والجبال التي تقابلها حاجزاً منيعاً امام العرب كأن الطبيعة جعلتها حداً ابدياً بين البلدين. ونستطيع ان نقول على سبيل المجاز ان اللغة العربية تجمدت على منحدرات هذه الجبال فلم تجزها الى بر الاناضول. وعلى الرغم من ان السلاجقة والعثمانيين الترك قد استطاعوا فيما

---

١) P. 347

٢) ص ١٥٩.

بعد أن ينتزعوا آسية الصغرى من الروم ويدخلوها في رقعة الاسلام فان جزءاً منها لم يصبح يوماً عربي اللسان . والواقع ان عمدة السكان في الاناضول منذ عهود الحثيين كانوا دائماً غير ساميين وان اقليم البلاد بارد بطبيعته فلم يطب العيش فيها للعربي ولم تتأصل جذور مدنيته هناك .

أما نطاق الحصون الاسلامية التي امتدت من ملطيَة (اوملطيّة ـ مليتني اليونانية) على اعالي الفرات الى طرسوس بقرب البحر المتوسط فلقد شملت أذنة والمصّيصة (موبسوستيا) ومرعش (جرمانسيا) وهي مراكز ستراتيجية عند تقاطع الطرق العسكرية او مداخل الممرات الجبلية . وقد سميت هذه المعاقل وما يحيط بها بالعواصم . ولكن لفظ العواصم في معناه الأدق كان يقصد به خط الحصون الداخلي في الجنوب فقط . اما خط الحصون الخارجي الشمالي فسمي بالثغور . (١) ولقد تقلص خط الثغور على عهد العباسيين فكان يمتد من أولاس على البحر المتوسط الى طورس فسُميساط على الفرات (٢) . اما خط المعاقل التي اتخذت للدفاع عن العراق فقد اطلق عليه اسم الثغور الجزرَية كما ان خط الدفاع عن سورية هو الثغور الشامية (٣) . وهيمنت طرسوس على مركز الدفاع عن مدخل البلاد الجنوبية الشهير بابواب كيليكية وهو ممر طورس فجعلها العرب قاعدة حربية شنوا منها الحملات على مناطق الروم . ولا تبعد طرسوس اكثر من اربعمئة وخمسين ميلاً من البوسفور في خط مستقيم . وكان هناك ممر آخر لاختراق جبال طورس في الشمال الشرقي وهو يعرف بدرب الحدَث ويتجه من مرعش شمالا الى أبُلستين (٤) الا ان الناس لم تسلكه كما سلكت الممر الآنف الذكر . ولم تكن هذه التخوم ملكاً لفريق دون آخر بل كانت معاقلها متداولة بين العرب والروم تبعاً لتقلبات الزمن وقوى الفريقين . ولقد قاتل العرب في سبيل كل شبر من هذه الاراضي قتالا عنيفاً

---

١) قابل Guy Le Strange, *The Lands of the Eastern Caliphate*, (Cambridge, 1905), p. 128 .

٢) الاصطخري ص ٦٧ ـ ٨ .

٣) البلاذري ص ١٨٣ وما يلي ، ص ١٦٣ وما يلي .

٤) ياقوت ، بلدان ج ١ ص ٩٣ ـ ٤ وقابل Le Strange, *Eastern Caliphate*, p. 133. واسمها البيزنطي أبلستا . وفي اليونانية أربسس وفي العربية المتأخرة البستان .

في فترات متعددة في عهود الامويين والعباسيين . ولعله ليس في آسية كلها ارض خضبت بدماء المتقاتلين في الحروب المختلفة كما خضبت هذه الارض .

وسير معاوية حين كان عاملاً على الشام في خلافة عثمان اسطولا الى الشمال عليه بُسر ابن أبي ارطأة (١) اشترك مع اسطول مصر الذي كان يقوده عبد الله ابن ابي سرح في مقاتلة عمارة الروم وعليها كونستانس الثاني ابن هرقل وذلك في فينكس (فنكي اليوم) على ساحل ليسيا سنة ٣٤ / ٦٥٥ . واسفرت المعركة عن اول انتصار بحري احرزه المسلمون . ولقد عرفت هذه المعركة البحرية في الاخبار العربية بذي (أو ذات) الصواري (٢) ولقد قلب فيها العرب قتال البحر وجعلوه قتال بر إذ ربطوا السفن العربية الى السفن البيزنطية (٣) فوثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على ظهور السفن ويتواجئون بالخناجر فكانت هذه المعركة يرموكاً ثانياً على الروم (٤) . وقد وصف الطبري (٥) ماء البحر فيها فقال ان الدم كان غالباً على الماء وطرحت الامواج جثث القتلى ركاماً . ولكن العرب مع ذلك لم ينتهزوا هذه الفرصة فيهجموا على القسطنطينية . والراجح ان مقتل الخليفة عثمان وما تلاه من الفتن الداخلية حال دون ذلك .

ولقد حاصر جيش الامويين القسطنطينية ثلاث مرات ولم يتمكن العرب في غيرها من بلوغ الاسوار الثلاثية القائمة حول هذه العاصمة المنيعة . وكان اول حصار بقيادة يزيد سنة ٤٩ / ٦٦٩ حين كان ولياً للعهد . فكان جنده اول من شاهد (٦) بيزنطة من جند الاسلام . وقد قصد معاوية من ارسال يزيد على هذه الحملة البحرية ان يجعله سنداً لفضالة ابن عبيد الانصاري الذي توجه براً وكان قد قضى شتاء ٦٦٨-٩ في خلقيدونة (ضاحية

---

١) ابن عبدالحكم ص ١٨٩-٩٠ ؛ ابن حجر ج ١ ص ١٥٣ .
٢) ترجع هذه التسمية اما الى الموضع الذي كثر فيه السرو الذي تصنع منه صواري السفن او لوفرة الصواري التي بانت عند التحام الاسطولين العظيمين .
٣) ابن الحكم ص ١٩٠ .
٤) Theophanes, pp. 332, 345 - 6.
٥) ج ١ ص ٢٨٦٨ .
٦) الطبري ج ٢ ص ٨٦ وقابل ص ٢٧ .

القسطنطينية الاسيوية) وان يرد من ناحية ثانية على هؤلاء الذين كانوا يرتابون في كفاءة يزيد لولاية العهد ولا يرضون عن بيعته . اما الحصار الذي وليه يزيد وفضالة في ربيع سنة ٦٦٩ فقد انتهى في صيف تلك السنة . وكان ان ارتقى عرش بيزنطة في تلك الاثناء امبراطور حازم نشيط هو قسطنطين الرابع (٦٦٨ـ٨٥) .

ولقد جاء في الروايات والاساطير العربية ان يزيد اظهر في هذه الحرب من الشجاعة والبأس ما اكسبه لقب فتى العرب . وذكر صاحب الاغاني [١] انه في اثناء الحصار نظر يزيد الى قبتين مبنيتين عليها ثياب الديباج فاذا كانت الحملة للمسلمين ارتفع من احداهما اصوات الدفوف والمزامير واذا كانت الحملة للروم ارتفعت اصوات من الاخرى فسأل يزيد عنها فقيل له هذه بنت ملك الروم وتلك بنت جَبَلة ابن الايهم وكل واحدة منها تظهر السرور بما تفعله عشيرتها فتحمس يزيد يريد ان يقبض على ابنة ملك غسان . الا ان بطل هذه الصائفة الحقيقي في الاساطير هو ابو ايوب الانصاري الذي نزل محمد في بيته عند الهجرة [٢] الى المدينة وكان يحمل راية النبي في المعارك . وقد اصطحبه يزيد على تقدم سنه للتبرك بحضوره لا للانتفاع من درايته الحربية . وكان ان أصيب ابو ايوب بزحار فمات ودفن قريباً من الاسوار . قالوا فكان النصارى من اليونان بعد ذلك يتعاهدون قبره ويرمُّونه ويستسقون به اذا قحطوا . [٣] وفي سنة ١٤٥٣ حاصر الترك القسطنطينية فعثروا على هذا القبر وقد اظهرته لهم فيما رُوي اشعة نور عجيبة . وهذه القصة تذكرنا بقصة الكشف عن الحربة المقدسة في انطاكية ، هذا الكشف الذي تم على يد أوائل الصليبيين . و بنى الاتراك بعد ذلك عند قبر ابي ايوب مسجداً فأصبح هذا الرجل وهو شيخ تقي من انصار المدينة ولياً عند العرب والروم والترك .

وحاول العرب مرة ثانية اقتحام القسطنطينية اثناء الحرب المعروفة بحرب السنين السبع [٤]

---

١) ج ١٦ ص ٣٣ .

٢) البلاذري ص ٥ .

٣) ابن سعد ج ٣ قسم ٢ ص ٥٠ وقد تبعه في ذلك الطبري ج٣ص ٢٣٢٤ والمصدران يجعلان وفاة ابي ايوب في سنة ٥٢ هـ . ومعنى يرم يصلح .

٤) انظر J.B. Bury, *A History of the Later Roman Empire* (London, 1899), vol. ii, p. 310.

(٥٤-٦٠ / ٦٧٤-٨٠) . وقد اشترك في هـذه الحرب اسطولا الفريقين تجاه القسطنطينية . وكان العرب قد اتخذوا قاعدة بحرية لهم في بحر مرمرا على شبه جزيرة سيزيكس [١] التي سموها « جزيرة ارواد » [٢] وجعلوها مقراً للجيش الغازي ومشتى يتربصون فيه مقدم الربيع فيعيدون الكرة على العدو . وتضطرب الروايات العربية عن هذه الحملات ويختلط الامر على المؤرخين . ولقد قيل ان المدينة نجت من ايدي العرب بفضل النار اليونانية وقد كانت من مادة شديدة الاشتعال بحيث تلتهب على سطح الماء ، ويعزى اكتشافها الى مهاجر دمشقي اسمه كالينيكوس . وقد اسهبت المراجع اليونانية في ذكر هذه النار ووصف ما انزلته من الضرر بسفن العرب . كذلك اكد اغابيوس المنبجي [٣] الذي اخذ عن ثيوفانس ان الروم قد تعودوا استخدام النار في الحرب وكانوا اسبق الشعوب الى استعمالها .

والى هذه الحقبة يرجع احتلال رودس (روديس [٤] ٦٧٢) وكريت (اقريطش ٦٧٤) احتلالا موقتاً . واحتل العرب رودس مرة اخرى من سنة ٧١٧ الى ٧١٨ وكان العرب قد غزوها قبلاً سنة ٦٥٤ ونهبوها وباعوا سنة ٦٥٦ بقايا المعدن من تمثالها الشهير لتاجر قيل انه استكرى تسع مئة جمل لنقلها وكذلك فتحت رودس بعد ذلك مرة اخرى على يد جماعة من المغامرين العرب وقد اتوها من اسبانية .

وعند موت معاوية (٦٨٠) انسحب اسطول العرب من البوسفور وبحر ايجه ولكن الحملات على « بلاد الروم » لم تتوقف ونجد في الاخبار ذكر الصوائف التي كادت ان تكون سنوية . غير انه لم يكن بين هذه الغزوات غزوة ذات بال الى ان كانت خلافة سليمان ابن عبد الملك (٧١٥ – ١٧) . ولقد حسب سليمان انه هو المقصود في الحديث الذي يذهب الى ان خليفة يحمل اسم نبي يفتح القسطنطينية. ووقع الحصار الأخير الذي ضيق به المسلمون الخناق على

---

١) Theophanes. pp. 353 - 4.

٢) الطبري ٢ ص ١٦٣ ؛ البلاذري ص ٢٣٦ .

٣) كتاب العنوان القسم الثاني نشر فاسيليف في Patrologia Orientalis, (Paris, 1912), vol. viii, p. 492.

٤) البلاذري ص ٢٣٦ .

القسطنطينية (آب ٧١٦ ـ ايلول ٧١٧) (١) وقد قام به مسلمة ابن عبد الملك اخو سليمان . وهذا الحصار الباهر الذي يعتبر اشد هجوم قام به العرب على القسطنطينية وأكثره خطراً على الدولة الرومانية الشرقية هو اشهر حصار لكثرة ما ذكر عنه في كتب التاريخ المحفوظة . وقد تسنت الامدادات للمحاصرين براً وبحراً وانجدهم الاسطول المصري . واستخدم العرب النفط واستعانوا بنوع من المدفعية (٢) لمحاصرة الروم من كل جانب . وكان على حرس مسلمة رجل يدعى عبد الله البطّال تميز في تلك الحرب وأبلى بلاء حسناً فلقبوه بزعيم الاسلام . ثم قتل بعد ذلك (٧٤٠) (٣) في حملة لاحقة . وفي التقاليد التي نشأت بعدُ أصبح عبد الله البطال يعرف بالسيد غازي واعتبر من ابطال الامة التركية . ولقد انشىء على قبره بالقرب من اسكي شهر تكية ومسجد لأبناء الطريقة البكتاشية لا يزالان الى اليوم . وكان البطال فيما زعموا أحد أهل البأس والنجدة من المسلمين الذين صورتهم الروم في بعض كنائسها (٤) .

وأخيراً نشط الامبراطور ليو الايصوري (٧١٧ ـ ٤٠) وهو سوري الاصل من اسرة وضيعة كانت تسكن مرعش وكان يحسن العربية كاليونانية (٥) فاستطاع أن يتفوق بدهائه على مسلمة وأنقذ العاصمة منه . وفي ما تخلف من انباء هذا الحصار أول اشارة في التاريخ للسلسلة التي اقيمت في وجه الاسطول العربي المهاجم دون القرن الذهبي . واستعان الروم بالنار وآزرهم البلغار وحلت المجاعة والاوبئة وأهوال برد الشتاء المريع فزادت بلية الجيش العربي وكان ان توفي الخليفة في دمشق فلم يثبط وقع هذا النبأ من عزيمة مسلمة بل والى الحصار الى أن وجه عمر ابن عبد العزيز (٧١٧ـ٢٠) اليه يأمره بالقفول بمن معه فقفل . وفيما هو راجع بجيشه استهدف لعاصفة هوجاء أكملت ما الحقته الروم به من الدمار .

واذا كان لنا أن نصدق ما رواه ثيوفانس (٦) فانه لم ينج من اسطول مسلمة المؤلف من

---

١) الطبري ج ٢ ص ١٣٤٦ قابل Bury, vol. ii, p. 401.

٢) كتاب العيون والحدائق نشر دي غويه (ليدن ، ١٨٦٨ ـ ٧١) ج ٣ ص ٢٤ .

٣) الطبري ج ٢ ص ١٧١٦ .

٤) المسعودي ج ٨ ص ٧٤ .

٥) كتاب العيون والحدائق ج ٣ ص ٢٥ .

٦) Pp. 395 , 399.

الف وثمانمئة سفينة سوى خمس . وابتهجت اوربا بزوال هذا الكابوس عن صدرها واعتبرت مؤسس الاسرة الايصورية السوري مخلصاً انقذها من الخطر الاسلامي كما كان هرقل مؤسس الاسرة الهرقلية الارمني قبله قد انقذ النصرانية من خطر فارس الوثنية. ولم يجرؤ جيش الاسلام على الظهور بوجه القسطنطينية بعد هذا الآ مرة واحدة وذلك حين عسكر هارون ابن الخليفة المهدي في سكوتاري (كريوسوليس) سنة ٧٨٢ فسارعت الامبراطورة ارنه الى عقد الصلح على ان تؤدي الجزية للمسلمين . ولم تر مدينة قسطنطين بعد ذلك جيش الاسلام عند اسوارها حتى انقضت سبعة قرون وظهر عنصر جديد فتي يحمل راية الاسلام هو العنصر التركي المغولي.

وعلى الرغم من أن هذه الحملة التي تولاها مسلمة البطل الحازم قد انتهت بالفشل فانها قد خلفت وراءها ـ كالحملة التي تقدمتها ـ تراثا من القصص والأساطير كالذي رُوي عن مسلمة من انه ابتنى مسجداً في القسطنطينية (١) وانه احدث فيها عين ماء (٢) كما شيد مسجداً آخر في أبدُس (٣) وأنه دخل كنيسة القديسة صوفيا على فرس . وكتب المقدسي في جغرافيته التي وضعها سنة ٩٨٥ يقول : اعلم ان مسلمة ابن عبد الملك لما غزا بلد الروم ودخل هذا المصر شرط على كلب الروم بناء دار (٤) بازاء قصره في الميدان ينزلها وجوه الاشراف اذا اسروا .

المردة

ومن العوامل التي آلت الى فشل العرب في التوسع غرباً ظهور جماعة من الثوار النصارى.

---

١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نشر بير (بركيلي ، ١٩٠٩ ــ ١٢) ج ٢ قسم ٢ ص ٤٠ يشير الى انه كان يخطب للعزيز [الفاطمي] في جامع القسطنطينية . انظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، نشر امندوز (بيروت ، ١٩٠٨) ص ٦٨ والقد بقي ذكر هذا الجامع في اخبار عصر المماليك .

٢) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، نشر دي غويه (ليدن ، ١٨٨٩) ص ١٠٤ ؛ المسعودي ج ٢ ص ٣١٧ يسمي الموضع اندلس .

٣) ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، نشر دي غويه (ليدن ، ١٨٨٥) ص ١٤٥ ؛ ياقوت ، بلدان ج ١ ص ٣٧٤ يجعل اسم البلدة اندس والصواب أبدس .

٤) عرفت هذه الدار بالبلاط ونقل ياقوت، بلدان ج ١ ص ٧٠٩ انها كانت محبس الامراء ايام سيف الدولة ابن حمدان (٩٤٤ ــ ٦٧ م) .

ـ هم المردة ـ وقيامهم على خدمة مصالح الدولة البيزنطية . والمردة شعب مجهول الاصل تمتع بقسط وافر من الاستقلال في مواطنه بمعاقل جبال اللكام (امانوس) فكان أبناؤه الذين عرفهم العرب بالجراجمة (١) يمدون الروم بجيوش غير نظامية و يهددون سيادة العرب في الشام . وأقام هؤلاء الجراجمة من أنفسهم بين بلاد العرب و بلاد الروم « جداراً حديدياً (٢) » يصون آسية الصغرى . وحوالى سنة ٦٦٦ تطرقت شراذم منهم الى قلب لبنان فكانوا نواة التف حولها عدد كبير من الناقمين والمضطهدين ومنهم الموارنة . وكان معاوية قد صالح امبراطور الروم على قدر كبير من المال يؤديه كل سنة شرط ان يقطع الامبراطور الاعانات عن هذا العدو الداخلي وقبل في الوقت نفسه ان يؤدي جزية للمردة انفسهم أيضاً . وفي سنة ٦٨٩ عاد الامبراطور يوستنيانوس الثاني الى تحريض أهل الجبل المردة وحضهم على الفتنة والعبث بالأمن في ارض الشام فاضطر الخليفة عبد الملك جرياً على سياسة معاوية قبله (٣) ان يقبل بالشروط التي فرضها عليه الامبراطور وان يصالح الجراجمة على الف دينار كل اسبوع . وأخيراً نزح اكثر الجراجمة عن الشام فنزلوا بعض انحاء آسية الصغرى الداخلية او الساحل حيث احترفوا الملاحة . و بقي بعضهم في البلاد وكانوا عنصراً من العناصر التي تألف منها الموارنة المعروفون اليوم في شمال لبنان .

---

١) بفتح الجيم الاولى او ضمها والفتح اقرب الى الصواب .
٢) او نحاسياً كما يسميه ثيوفانس: Theophanes, p. 346.
٣) البلاذري ص ١٦٠ .

الفصل التاسع عشر

الدولة الأموية في أوج عزها

حكم مروان مؤسس الفرع المرواني في الدولة الاموية من سنة ٦٨٣ـ٨٥ ثم خلفه ابنه عبد الملك « ابو الخلفاء » فحكم من سنة ٦٨٥ـ٧٠٥ . وفي عهده وعهد بنيه الاربعة (١) الذين خلفوه بلغت الدولة في دمشق أوج عزها ومجدها . وقد وصلت الامبراطورية الاسلامية في عهد الوليد وهشام الى أقصى اتساعها بحيث امتدت من شواطىء المحيط الاطلسي وجبال البرنه غرباً الى نهر الاندس وتخوم الصين شرقاً وهو اتساع قلّ أن تجد له مثيلاً في العصور القديمة ولم تبلغه في العصور الحديثة الا الامبراطوريتان البريطانية والروسية . وفي هذا العصر الزاهر تم للعرب أن يفتحوا ما وراء النهر ويحتلوا شمالي افريقية مرة ثانية ويخضعوها ويستولوا على اسبانية وهي أكبر مملكة اوربية دانت لهم .

وفي هذا العصر نقلت الدواوين الى العربية وتسلمها العرب انفسهم وضربت اول نقود عربية صرفة وأنشئت ادارة البريد وشيدت المباني الفخمة كقبة الصخرة في بيت المقدس حرم الاسلام الثالث .

ولقد احدقت بعبد الملك عند تسنمه العرش وفي السنوات العشر الاولى لخلافته شتى المصاعب فكان كسلفه العظيم معاوية مضطراً الى مكافحة الاعداء في جبهات متعددة . وقد كان خليقاً ان يعتبر نداً لمعاوية فانه لما أدركته الوفاة في ختام السنوات العشر الثانية من حكمه ترك لابنه الوليد امبراطورية موحدة ثابتة الاركان يسودها الامن . ولم تقتصر هذه الامبراطورية على العالم الاسلامي وحده بل شملت امصاراً جديدة تم فتحها في عهده . ولقد أثبت الوليد أنه

١) الوليد (٧٠٥ ـ ١٥)وسليمان (٧١٥ ـ ١٧) ويزيد الثاني (٧٢٠ - ٢٤) وهشام (٧٢٤ ـ ٤٣) ولقد توسط بين هؤلاء الخلفاء الاربعة خليفة هو عمر ابن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٢٠) وهو ابن اخي عبدالملك .

خير خلف لابيه القدير.

لقد كان فتح الشام والعراق وفارس ومصر في خلافة عمر وخلافة عثمان خاتمة الدور الاول في الفتوحات الاسلامية وقد بدأ الآن دور الفتوحات الثاني في عهدي عبد الملك والوليد.

الحجاج : عامل الامويين الحازم

تدور الاعمال الحربية الكبيرة في هذا الدور حول شخصيتين بارزتين هما الحجاج ابن يوسف الثقفي في الشرق وموسى ابن نصير في الغرب.

اختار الامويون الحجاج وكان معلماً في الطائف (١) فالقى القلم وامتشق الحسام للدفاع عن عرشهم المتزعزع فقد عُين عاملا على الجزيرة العربية بعد ان قضى (٦٩٢) وهو في الحادية والثلاثين من عمره على عبد الله ابن الزبير الذي قام في الحجاز ينازع الامويين على الخلافة تسع سنوات. ولم تمض غير سنتين حتى أعاد الحجاج الأمن الى الحجاز واليمن حتى اليمامة شرقاً. وفي كانون الاول سنة ٦٩٤ استقدمه عبد الملك اليه وعهد اليه ان يخمد الفتنة في بلاد العراق ويعيد هيبة الامويين ونفوذهم اليها. وكانت بلاد العراق متمردة ساخطة تعج بالفتن والثورات (٢) وكان العلويون والخوارج فيها يقضّون على الامويين مضاجعهم فوصل الحجاج اليها. وكان في رفقته بضعة من الرجال على هجنهم لا يزيدون عن اثني عشر وظهر فجأة في مسجد الكوفة فاعتلى المنبر بخفة ثم خلع عمامته وكشف عن محياه والقى خطبته النارية التي لا يزال يحفظها غيباً الناشئون من الطلاب العرب. ولقد أعلن الحجاج سياسته في لغة صريحة لا تحتمل التأويل وأفهم العراقيين أنه سينهج خطة الحزم. وأنه لن تأخذه هوادة في معاملة من يخرج عن الطاعة. ولقد استهل خطابه ببيت لشاعر قديم:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامه تعرفوني

ثم أردف يقول: «يا أهل الكوفه! اني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها واني لصاحبها وكأني أنظر الى الدماء بين العمائم واللحى ...» (٣)

١) ابن رسته ص ٢١٦ ؛ ابن دريد، الاشتقاق ص ١٨٧.
٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٢٦ ؛ المسعودي ج ٥ ص ٢٩٠.
٣) المبرد، الكامل ص ٢١٥ـ ١٦ ؛ قابل اليعقوبي ج ٢ ص ٣٢٦ ؛ المسعودي ج ٥ ص ٢٩٤.

والواقع انه لم يرتفع بعد هذا رأس على الحجاج الصارم الا وقطعه او تطاول عنق الا وناله حتى انه عمد الى أنس ابن مالك الصحابي المحدث المشهور وكان قد اتهم بالعطف على المعارضة فختمه (١) في عنقه اذلالاً له . وقد زعم المؤرخون ، ومعظمهم من الشيعة او من أهل السنة الذين كتبوا في ظل الحكم العباسي ، ان عدد الذين قتلهم الحجاج بلغ ١٢٠ الفاً (٢) وصوروه طاغية مستبداً اشبه بنيرون ونعتوه فوق هذا بالجشع وقلة الدين (٣)

وسواء أكان الحجاج على حق فيما فعل ام لا فان الوسائل الصارمة التي اتخذها اقرت النظام في البصرة الثائرة وفي الكوفة كما اقرته في سائر البلدان التي استعمل عليها ومنها العراق وفارس . وتمكن قواد الحجاج وفي طليعتهم المهلب ابن ابي صفرة من استئصال الازارقة بالفعل (٦٩٨ او ٦٩٩) (٤) وكانوا اشد فرق الخوارج خطراً على الوحدة الاسلامية وكانوا قد امتلكوا زمام الامور في كرمان (٥) وفارس وسواهما من الامصار الشرقية تحت قيادة قطري ابن الفجاءة . وكانت عمان على ساحل الخليج الفارسي الشرقي قد دخلت في حوزة الاسلام منذ أيام الرسول وصدر الاسلام ولكن بالاسم فقط فتم الآن ادماجها بالفعل في المملكة الاموية . وابتنى الحجاج على ضفة دجلة الغربية بلدة سماها واسطاً لتوسطها بين البصرة والكوفة (٦) وجعلها مقراً لحكمه وأسكنها اهل الشام واخضع بهم المناطق التي حكمها . وكانت ثقته بجند اهل الشام كولائه للبيت الأموي لا تعرف حداً .

ولما أخمد الفتن في البلاد التي وليها وتوطدت قدمه تطلع نحو الشرق فأرسل اعوانه للفتح ومنهم عبد الرحمان ابن محمد الاشعث المتحدر من اسرة ملوك كندة وكان امير سجستان فوجهه

---

١) الطبري ج ٢ س ٨٥٤ – ٥ .

٢) ابن العبري ص ١٩٥ ؛ قابل المسعودي ج ٥ ص ٣٨٢ ؛ المسعودي التنبيه ، ص ٣١٨ ؛ الطبري ج ٢ ص ١١٢٣ .

٣) الدينوري ، اخبار ص ٣٢٠ – ٢٢ ؛ المسعودي ج ٧ ص ٢١٨ ؛ الطبري ج ٢ ص ١١٢٢ – ٣ ؛ بن عساكر ج ٤ ص ٨١ .

٤) اصحاب نافع ابن الازرق وهم يكفرون كل من لم يقبل عقيدة الخوارج ويحكمون بانه في النار هو ونساؤه واطفاله ؛ الشهرستاني ص ٨٩ – ٩٠ .

٥) او كرمان بكسر الكاف كما في ياقوت ، بلدان ج ٤ ص ٢٦٣ .

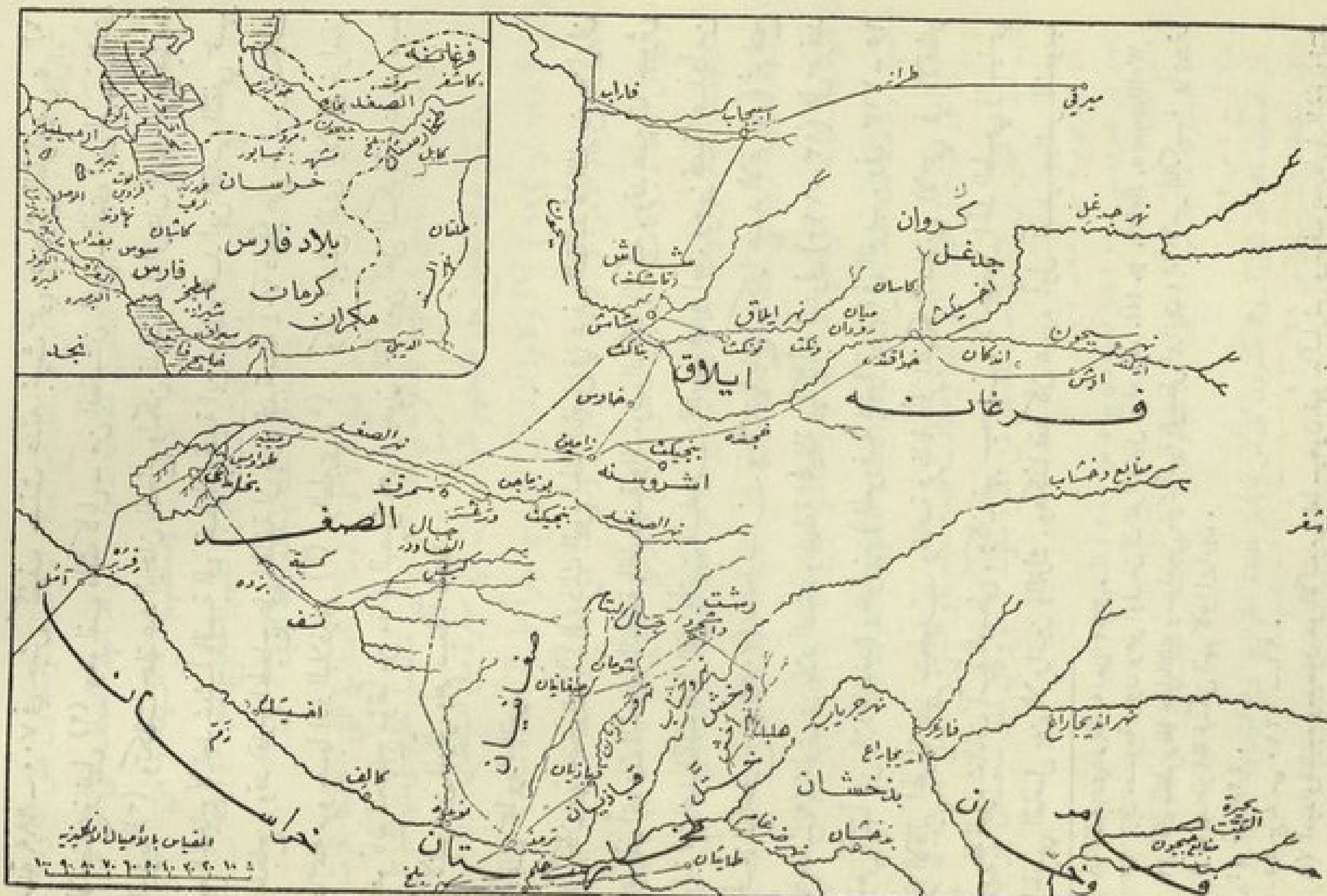
٦) ياقوت ، بلدان ج ٤ ص ٨٨١ – ٢ ؛ قابل الطبري ج ٢ ص ١١٢٥ – ٦ وهي اليوم خراب .

سنة ٦٩٩ ـ ٧٠٠ في جيش كثيف حسنت عدته بحيث سمي «جيش الطواويس» (١) لاخضاع زنبيل (٢) وهو لقب ملك كابل ـ من افغانستان اليوم ـ الذي ابى ان يؤدي الجزية (٣) وتكللت حملة عبد الرحمان بالنجاح ولكن غارات عبد الرحمان الذي خرج فيما بعد مع الحجاج لا تعد شيئاً بالنسبة الى غارات قتيبة ابن مسلم ومحمد ابن القاسم الثقفي صهر الحجاج. وقد اقترح الحجاج على الخليفة ان يعين قتيبة سنة ٧٠٤ عاملاً على خراسان فكانت عاصمته مرو حسبما افاد البلاذري (٤) والطبري (٥). وكان الجيش الذي تولاه في خراسان وهو تابع للحجاج مؤلفاً من مقاتلة البصرة وهم اربعون الفاً ومن اهل الكوفة وعددهم سبعة آلاف ومن الموالي وهم سبعة آلاف.

الفتوح فيما وراء النهر

كان نهر جيحون (٦) الى ذلك اليوم الحد الفاصل في عرف التقاليد لا التاريخ بين ايران وطوران أي بين الشعوب الناطقة بالفارسية والشعوب الناطقة بالتركية. وقد عبرت جيوش الوليد ابن عبد الملك هذا النهر وأثبت المسلمون قدمهم فيما وراءه. وجهز قتيبة عدداً من الحملات استرجع بها (٧٠٥) طخارستان وعاصمتها بلخ (بكترا عند الاغريق) ثم فتح (٧٠٦ ـ ٩) بخارى في بلاد الصغد والمنطقة المحيطة بها كما أنه استولى (٧١٠ ـ ١٢) على سمرقند (وهي أيضاً من بلاد الصغد) وخوارزم (المعروفة بخيوا اليوم) في الغرب. وفي ٧١٣ ـ ١٥ غزا الاقاليم المحيطة بنهر سيحون وخاصة فرغانة فأقر الحكم الاسلامي الاسمي في الاقطار المعروفة اليوم بخانات آسية الوسطى. وكان نهر سيحون لا جيحون الحد الطبيعي والسياسي والجنسي الفاصل بين الايرانيين والترك. وهكذا فقد كان عبوره أول تحد مباشر للشعوب

١) المسعودي، التنبيه ص ٣١٤.
٢) بزين مضمومة ونون وهو أولى من ان تقرأ رتبيل براء وتاء. Wellhausen, *Reich*, p. 144.
٣) كان معظم رعايا هذا الملك وسواه من ملوك آسية الوسطى ايرانيين، اما الاسر المالكة والجيوش فاتراك ما عدا الزنابلة فيمكن انهم كانوا ايرانيين.
٤) ص ٤٢٣.
٥) ج ٥ ص ١٢٩٠ ـ ٩١.
٦) آموداريا اليوم وجيحون هو الاكسوس اما سيحون فهو جاكسارتس ويعرف بسيرداريا اليوم وقد ورد اسم كل من النهرين في تك ٢: ١٣، ١١.

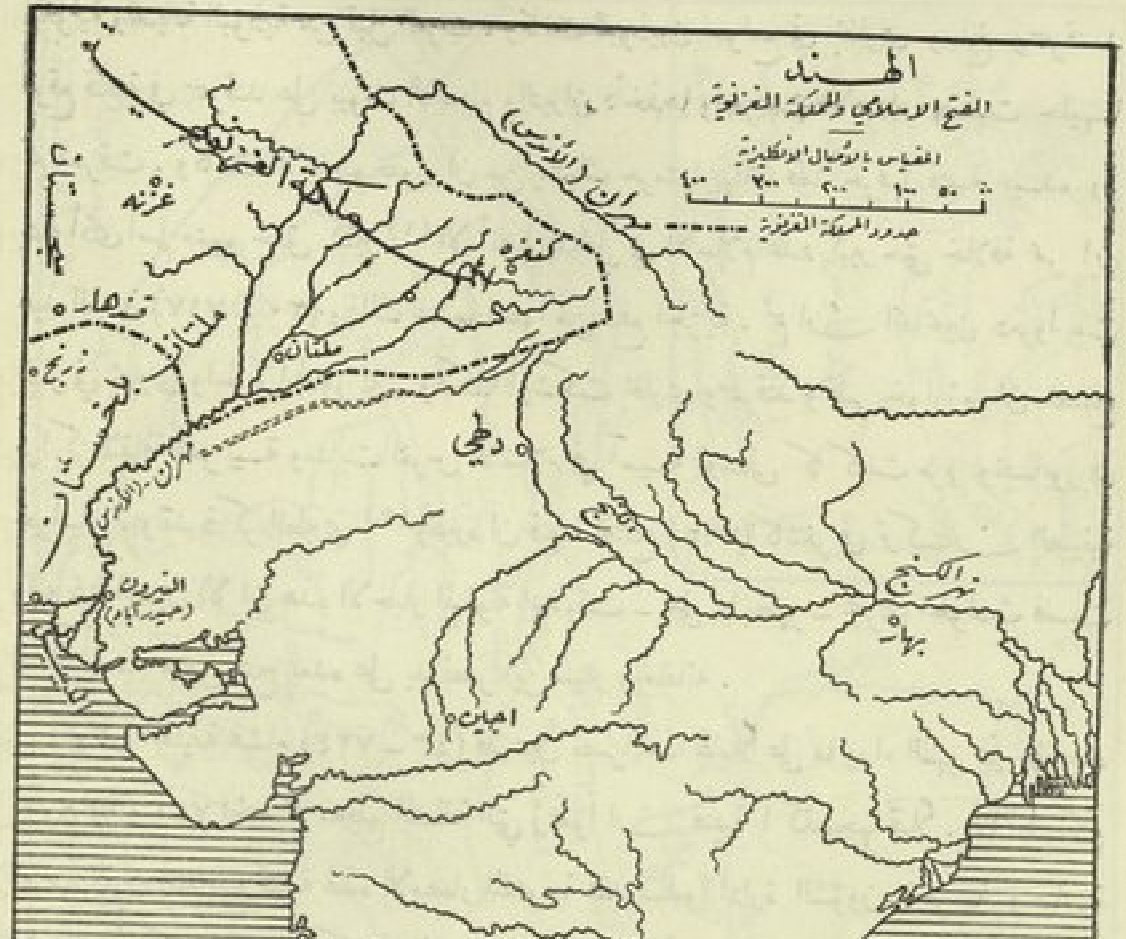


مقاطعات جيحون وسيحون

المغولية وللديانة البوذية من قبل العرب . وكانت للبوذيين صوامع في بخارى و بلخ وسمرقند فوقع قتيبة في سمرقند على بيوت الاصنام والنيران فأخذها واخرجت الاصنام وسلبت حليها ثم احرقت . وكانت الاعاجم تقول ان من ينتهك حرمتها يهلك فلما أحرقها قتيبة بيده ولم ينله أذى أسلم منهم خلق كثير [١] الا أنه لم يدخل في الاسلام عدد كبير حتى خلافة عمر ابن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٢٠) وذلك عندما اعفوا من دفع الجزية . ثم ان الفاتحين دمروا بيت النار في بخارى والحرم المجاور له . وهكذا أوشكت بخارى وسمرقند واقليم خوارزم ان تصبح مراكز للثقافة العربية ومنابت لغرس الاسلام في آسية الوسطى كما كانت مرو ونيسابور في خراسان . ولقد ذكر الطبري [٢] وغيره ان قتيبة افتتح (٧١٥) كاشغر في تركستان الصينية وانه غزا الصين الا ان هذه الاخبار المنقولة استبقت ـ على ما يظهر ـ مجرى الحوادث فنسبت الى قتيبة ما تم من فتح بعده على يد نصر ابن سيار وخلفائه .

وكان الخليفة هشام (٧٢٤ ـ ٤٣) قد عين نصراً هذا عاملاً على ما وراء النهر فتم على يده بين ٧٣٨ و ٧٤٠ اخضاع معظم المنطقة التي زعموا ان قتيبة اكتسحها قبلاً . اما الحكام العرب الذين انتدبهم قتيبة لهذه الامصار المفتوحة فقد تسلموا ادارة الشؤون الحربية وجباية الاموال وتُركت ادارة الحكومة المدنية الى حكام من أهل البلاد نفسها . وفي ٧٥١ احتل العرب شاش (تاشكند) في الشمال الشرقي من سمرقند ونشروا راية الاسلام بذلك على آسية الوسطى ومهدوا السبيل الى انشاء ملك لم تنازعهم اياه الصين [٣] من بعد . و بهذا اندمج ما وراء النهر بامبراطورية الاسلام الناشئة . ولقد احتك الاسلام بعنصر جنسي جديد له ثقافته القديمة الخاصة ـ الثقافة المغولية. وسنعود فيما بعد الى البحث عما قدمه هؤلاء المسلمون المحدثون من خدمات جليلة للمدنية .

١) البلاذري ص ٤٢١ .
٢) ج ٢ ص ١٢٧٥ .
٣) لعل حكام سمرقند وخوارزم وشاش كانوا ذوي صلة رحمية بالخان او الخاقان من امراء الترك الغربيين. الا انهم يظهرون في كتب العرب بالقاب فارسية مثل خداه وشاه ودهقان . اما حاكم الصغد المقيم في سمرقند فسمي بالاخشيد وهو لقب فارسي . ومثله ملك فرغانة . انظر ابن خرداذبه ص ٣٩ ـ ٤٠ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧٩ وقد اطلق العرب لفظة تركي على كل شعب غير الفرس ممن كان شرقي جيحون .


الهند
الفتح الإسلامي والمملكة الغزنوية
المقياس بالأميال الإنكليزية
٠ ٥٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠
حدود المملكة الغزنوية
غزنه
ملتان
دهلي
نهر الكنج
بهار
اجين

الفتوح في الهند

وفي هذه الاثناء كان هناك جيش آخر يقاتل في جبهة الحرب الشرقية بقيادة محمد ابن القاسم متجهاً نحو الجنوب . ولقد نشط هذا القائد وهو صهر الحجاج في سنة ٧١٠ وسار بجيشه المؤلف من ستة آلاف جندي من أهل الشام فأخضع مكران وقطع ما يعرف اليوم باسم بلوخستان . وفي سنة ٧١١ ـ ١٢ ظفر على السند واسفل وادي الاندس وارض الدلتا منه (سندو) وفتح الديبل وهو مرفأ فوجد فيه تمثالا لبوذا (البد) طوله في السماء اربعون ذراعاً (١) ثم فتح النيرون (حيدر آباد اليوم) . ولقد امتدت الفتوحات سنة ٧١٣ الى مُلتان شمالا في جنوب البنجاب وهي مركز ديني شهير لبوذا فعثر الفاتحون فيها على جمع من الحجيج الاعاجم واسروهم . ونجم عن ذلك احتلال السند وجنوبي البنجاب احتلالا دائماً . اما باقي الهند فلم يصلها الفتح الاسلامي الى اواخر القرن العاشر وذلك حين وجهت اليها غارة تحت لواء محمود الغزنوي . وهكذا فقد تم اسلام اقطار الهند الواقعة على الحدود . وظل الامر كذلك حتى سنة ١٩٤٧ حين نشأت دولة اسلامية جديدة هي دولة الباكستان . وعلى هذه الحدود تمت اول الصلات المتينة بين الاسلام وهو دين ساميّ و بين البوذية وهي ديانة هندية كما كان قد اتصل الاسلام ايضاً بالديانات والثقافات التركية في جهة ابعد شمالا . وكان الحجاج قد سبّق بين قائديه محمد ابن قاسم وقتيبة جائزة هي الامارة على الصين وتكون لايهما وصلها قبل الآخر . ولكن حدود الصين لم يقطعها هذا او ذاك منهما . واذا استثنينا تركستان فان الصين لم تدخل قط في حوزة المسلمين مع ان فيها اليوم ما بين خمسة وسبعة ملايين من المسلمين . وهكذا فقد كانت السند جنوباً مثل كاشغر وتاشكند شمالا اقصى حد بلغته الخلافة في الشرق.

الحملات على البيزنطيين

لم يهمل المسلمون أمر الجبهة البيزنطية في غضون الاعمال العسكرية الجسيمة التي قاموا بها في الشرق . وكان عبد الملك قد شغل بحرب ابن الزبير. فاضطر ان يقتدي بمعاوية (٢)

---

١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٤٦ .
٢) البلاذري ص ١٦٠ .

قبله ويؤدي الجزية لطاغية الروم (٧٠ / ٦٨٩ - ٩٠) . وكان المردة - عمال الروم - يتوغلون في جبل لبنان ، حتى اذا صفا الجو امام عبد الملك وهدأت الفتن السياسية الداخلية عاد فأثار الحرب من جديد على الروم اعداء الخلافة الاسلامية الدائبين . وفي سنة ٦٩٢ استطاع عبد الملك ان يغلب يوستنيان الثاني بقرب سباستبوليس من اعمال كليكية . ثم انتزع العرب سنة ٧٠٧ من الروم الطوانة (تيانـة) اعظم حصون كبدوكية . و بعد الاستيلاء على ساردس و برغامس جرد مسلمة ابن عبد الملك كما قدمنا حملة على القسطنطينية (آب ٧١٦ - ايلول ٧١٧) وضيق عليها الخناق في حصاره المشهور . ولقد استعان الجيش الاسلامي الذي عبر الدردنيل عند ابدس بمعدات خاصة للحصار . أما العمارة البحرية فقد ارست قرب اسوار المدينة في بحر مرمرا وفي البوسفور لان الممر الى القرن الذهبي حالت دونه السلسلة المشهورة كما أسلفنا . ولم يفلح مسلمة وارتد الجيش عن عاصمة الروم بعد ان حاصرها سنة كاملة [١] وكان سبب ارتداده قلة المؤن التي كانت ترد اليه وشدة الهجمات التي قام بها البلغاريون . وكانت ارمينية قد خضعت من قبل لمعاوية حين فتحها له بين ٦٤٤ و ٤٥ حبيب ابن مسلمة الفهري فانتهزت الفرصة في الفتنة التي أثارها ابن الزبير وانتقضت على الفاتحين فاعيد فتحها في هذه الحقبة [٢] .

شمالي افريقية واوربا الجنوبية الغربية

ولم تكن انتصارات موسى ابن نصير واصحابه في الجبهة الغربية أقل اهمية ونجاحاً من انتصارات الحجاج وقواده في الجبهة الشرقية اذ لم تكد مصر تسقط في ايدي الغزاة سنة ٦٤٠ وما بعدها حتى تحفز المسلمون للغارة على افريقية [٣] . الا ان فتح هذا الاقليم لم يتم في الواقع حتى بنى عامل معاوية عقبة ابن نافع القيروان [٤] سنة ٦٧٠ واستعملها قاعدة لحملاته

---

١) راجع Theophanes, pp. 386 - 99 ؛ الطبري ج ٢ ص ١٣١٤ - ١٧ ؛ ابن الاثير ج ٥ ص ١٧ - ١٩ .

٢) البلاذري ص ٢٠٥ وما يلي .

٣) بكسر اوله وتخفيف الباء وهو اصح من تشديدها . وقد اطلق العرب هذا الاسم على القسم الشرقي من افريقية الشمالية كما اطلقوا لفظة « المغرب » على القسم الغربي منها .

٤) في تونس اليوم .

على قبائل البربر . وقد حدث لهذا القائد الكبير ، الذي ذكرت الاساطير انه ظل مندفعاً نحو الغرب في فتوحاته حتى اقحم فرسه امواج المحيط الاطلسي ، ان قضى شهيداً (٦٨٣) قرب بسكرا في ما يدعى اليوم بالجزائر واصبح قبره مزاراً وطنياً . ولم تكن سيطرة العرب على افريقية حتى ذلك العهد قوية . ومن هنا فانه لم يمر وقت طويل على موت عقبة حتى اضطر خلفه الى الجلاء عن البلاد . ولم ينته امر النفوذ البيزنطي على شمالي افريقية وامر المقاومة التي لاقاها المسلمون من البربر حتى امارة حسان ابن النعمان الغساني (نحو ٦٩٣ ـ ٩٩) . فلقد استعان حسان بالاسطول الاسلامي على طرد البيزنطيين من قرطجنة (٦٩٨) وسواها من مدن الساحل . ثم تسنى له ان يحمل على البربر وكان يتولى امرهم كاهنة [١] فذة لها سلطة وتأثير عظيم عليهم فصمدت له وهزمته . الا ان حساناً غزاها ثانية فقهرها وقتلها في مكان يعرف اليوم ببئر الكاهنة .

وهكذا فقد استرجع حسان افريقية للاسلام ونشر لواء الأمن على ربوعها . ثم تسلم مقاليد الحكم عليها بعده موسى ابن نصير الشهير وفي عهده اصبحت حكومة هذه الاقطار تساس من القيروان مستقلة عن مصر وامرها منوط بالخليفة في دمشق مباشرة . والى موسى [٢] يرجع الفضل في توسيع الحدود الى طنجة وقد نتج عن هذا ان اتصل الاسلام اتصالا مستمراً ثابتاً بعنصر جنسي آخر هو البربر . وينتمي البربر الى الفرع الحامي من دوحة الجنس الابيض ولعلهم كانوا في العصور السابقة للتاريخ هم والساميون من جنس واحد.

وكان معظم هؤلاء البربر [٣] الذين قطنوا الشقة الضيقة الخصبة الواقعة على البحر قد اعتنقوا النصرانية قبل الفتح الاسلامي بقليل وفي هذه الشقة نفسها نشأ ترتليان والقديس قبريانوس وفوق ذلك القديس اوغسطينوس الشهير نفسه . ويعتبر هؤلاء من ألمع الشخصيات

---

١) البلاذري ص ٢٢٩ ؛ ابن خلدون ج ٧ ص ٨ـ٩ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب في اخبار المغرب ، نشر دوزي (ليدن ، ١٨٤٨) ج ١ ص ٢٠ ـ ٢٤ اما نسبتها الى قبيلة يهودية فهو امر مشكوك فيه .

٢) كان والده كما كان والد ابن اسحاق صاحب السيرة من النصارى الذين أسرهم خالد ابن الوليد اذ رآهم يقرأون الانجيل في بيعة بعين التمر . ويزعم البعض انه من بني لخم ويذهب آخرون الى انه يماني . قابل البلاذري ص ٢٣٠ ؛ ابن عذاري ج ١ ص ٢٤ .

٣) من *barbari* اللاتينية التي اطلقها الرومان على من لم يحسن اللغة اللاتينية من سكان شمالي افريقية .

بين أحبار الدين المسيحي المتقدمين . وفيا عدا هذا فانه لم تكن قد أثرت في البربر الحضارة الرومانية تأثيراً يعتد به ، لأن الرومان والبيزنطيين سكنوا بالاكثر مدن الساحل وهم أهل ثقافة لا تخرج عن كونها اجنبية بالنسبة الى عقلية اهالي افريقية الشمالية من البدو أو شبه البدو . اما الاسلام فلقد كانت له مزية خاصة في التأثير على من كانوا في مستوى البربر من الحضارة . زد على هذا ان العرب ، وهم ساميون كالفينيقيين القدماء الذين استعمروا أنحاء افريقية الشمالية وأنشأوا في قرطجنة دولة ناوأت رومة في عزها ، استطاعوا أن ينشئوا صلات وثيقة بينهم و بين أبناء عمومتهم الحاميين . ومن هنا نستطيع ان نعلل هذه المعجزة التي اتاها الفاتحون في بلاد البربر حين عربوها لغة بمثل هذا اليسر وجعلوا أهلها يعتنقون الاسلام ، ثم استطاعوا ان يجندوا منهم جنداً جدداً تسابقوا في مضمار الفتوحات الاخرى التالية . وفوق ذلك فقد غني دم الفاتحين المسلمين بما اكتسبه من خصائص الفتوة والشباب عند امتزاجه بدم البربر الجديد وتسنى للغة العربية مجال للانتشار في ميدان جديد واسع وخطا الاسلام في تقدمه خطوة اخرى في ميدان النفوذ العالمي .

و بعد ان اخضع موسى ابن نصير (١) ساحل افريقية الشمالية الى حدود المحيط الاطلسي مهد السبيل للاستيلاء على الانحاء المتدانية من اوربا الجنوبية الغربية . ففي سنة ٧١١ اقدم طارق البربري مولى موسى ابن نصير على عمل جريء ، وجاز البحر الى اسبانية غازياً . ولقد كان من هذه الغارة أن اصبحت فتحاً لبلاد الاندلس برمتها . و بها تمت آخر حملات العرب الكبرى وأروعها . ولقد نجم عنها توسيع رقعة العالم الاسلامي باكتساب اكبر منطقة اوربية وقعت في ايدي المسلمين . و بعد ان استولى جيش الفاتحين من عرب و بربر على اكثر الاندلس وعبروا الثنايا وفتحوا عدداً من المدن في جنوبي غاليا انبرى لهم شارل مارتل فصدهم وأوقف تقدمهم في سنة ٧٣٢ بين تور و بواتيه فتعين بهذه النقطة أبعد حد في الشمال الغربي بلغه التوسع العربي .

لقد كان عام ٧٣٢ العام المئوي الاول لوفاة النبي العربي وهو نقطة تاريخية يجدر بنا

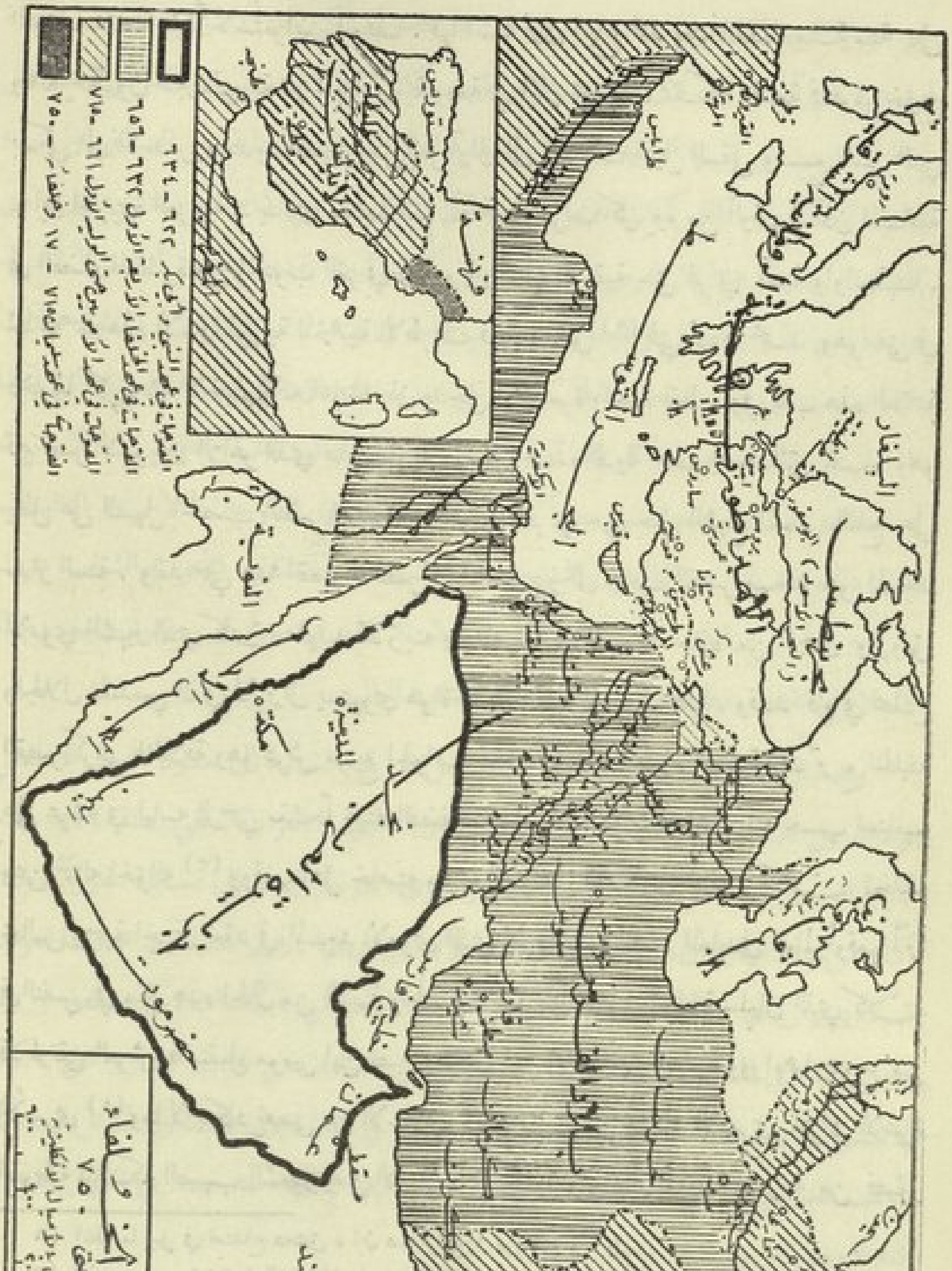
---

١) ابن عبد الحكم ص ٢٠٣ — ٥ .

التوقف عندها قليلاً لاستعراض الموقف . فها اننا نرى اتباع محمد بعد انقضاء مئة سنة على وفاته يحكمون امبراطورية تبز امبراطورية رومة في ابّان مجدها ــ مملكة واسعة تمتد من خليج بسكي الى الاندلس وحدود الصين ومن بحر آرال الى شلالات النيل السفلى ونسمع اسم النبي ــ ابن الجزيرة العربية ــ ينادى به بعد اسم الله خمس مرات كل يوم من ألوف المآذن المتسامية في الفضاء المنتشرة من الجنوب الغربي في اوربا وشمالي افريقية حتى غربي آسية واواسطها . اما عاصمة هذه الامبراطورية المترامية الاطراف فهي دمشق [١] التي تردد محمد وهو فتى في دخولها كما روت الاخبار لانه انما شاء ان يدخل الجنة مرة واحدة فقط . وفي قلب هذه العاصمة قام قصر الامويين الزاهر الذي بناه معاوية مؤسس هذه الدولة تحف به حدائق غناء وهو يطل على السهل المخصب النضر الممتد الى الجنوب الغربي حتى جبل الشيخ المعمم بالثلج على مدار السنة . ولقد سمي هذا القصر بالخضراء [٢] . وبرز الى جانب القصر مسجد هو المسجد الاموي الشهير الذي كان الوليد قد زينه وجعله آية في الفن بما حازه من الجمال والرونق والجلال الهندسي الذي لا يزال يستهوي هواة الآثار الفنية الى يومنا هذا . وقد قام في مجلس القصر كرسي الخلافة وهو عرش مربع الجوانب تستره الوسائد المطرزة الفخمة وقد تربع الخليفة على عرشه في لباسه الرسمي متشحاً بجبته الفضفاضة واصطف عن يمينه اهل بيته حسب اسنانهم وعن شماله اخواله [٣] ووقف اهل خاصته والشعراء واهل الشكاوى خلفه . وكان للخليفة مجالس رسمية اخرى تعقد في المسجد الاموي الذي لا يزال من افخم المعابد في العالم وأوقعها أثراً في النفس. في مثل هذه الحال من الابهة والمجد فيما يخيل لنا استوى الخليفة سليمان الذي كان قد ارتقى العرش فاستقبل موسى ابن نصير وطارق ابن زياد فاتحي اسبانية ووراءهما جموع من الأسرى [٤] وما لا يكاد يحصى من الاسلاب . وكان من هؤلاء الاسرى افراد الاسرة القوطية المالكة الصهب الشعور ومن الأسلاب الكنوز والذخائر النفيسة المنتزعة من قصور

---

١) انظر ما قيل في امتداح دمشق ، ابن عساكر ج ١ س ٤٦ وما يلي .
٢) ابن جبير س ٢٦٩ ؛ القبة الخضراء في الاغاني ج ٦ س ١٥٩ .
٣) الاغاني ج ٤ س ٨٠ .
٤) ثلاثون الفاً في المقري ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، نشر دوزي وريت (ليدن، ١٨٥٥)، ج ١ س ١٤٤ وقابل ابن الاثير ج ٤ س ٤٤٨ .


دولة الخلفاء
حتى ٧٥٠

الاندلس وكنائسها . واذا كان هناك مشهد من مشاهد التاريخ يمكن ان يمثل قمة ازدهار الدولة الاموية فهو هذا .

تعريب الدولة

لقد شمل تعريب الدولة في ايام عبد الملك والوليد نقل لغة الدواوين من اليونانية الى العربية في الشام ومن البهلوية الى العربية في العراق والامصار الشرقية من ناحية وسك النقود العربية من ناحية ثانية . وكان طبيعياً ان يعقب تغيير لغة الكتابة تغيير الموظفين . ولم يكن للفاتحين الأول القادمين من الحجاز علم بالادارة المالية وضبط الدفاتر فاضطروا في بادىء الأمر الى استخدام الموظفين القدماء في الشام والعراق وفارس ممن المّوا باصول الدواوين وشؤونها . الّا ان هذه الوضعية قد انقلبت الآن . ولا شك في أن اولياء الأمر من العرب احتفظوا بالموظفين غير العرب الذين كانوا قد اتقنوا اللغة العربية كما احتفظوا بالنظام القديم نفسه ايضاً . ومن هنا فقد كان الانتقال بطيئاً بطبيعة الحال وقد شُرع به في ايام عبد الملك واستمر حتى عهد الوليد . والراجح ان هذا هو السبب الذي حدا ببعض المؤرخين أن ينسبوا نقل الدواوين الى عبد الملك بينما نسبه آخرون الى ابنه الوليد .(١) وقد تم نقلها طبقاً لسياسة مرسومة ولم يكن نتيجة امر تافه كالذي رووا (٢) من ان رجلاً من كتاب الروم احتاج أن يكتب فلم يجد ماءً في الدواة فبال فيها . اما في العراق وتوابعها الشرقية فلقد كان الحجاج صاحب اليد الطولى في الأخذ بهذا التعريب .

وكانت النقود الفارسية متداولة في الحجاز أيام الجاهلية وكذلك كانت نقود الروم و بعض النقود الفضية الحميرية كتلك التي تحمل صورة البومة الاثينية . ولقد أقرّ عمر ومعاوية وسواهما من الخلفاء الأول هذه المسكوكات الاجنبية المتداولة (٣) ولعل منهم من طبع على أحد وجهي بعض النقود شيئاً من آي القرآن . (٤) ومن المسكوكات الذهبية والفضية مـا

١) البلاذري ص ١٩٣ ، ٣٠٠ - ٣٠١ ؛ الماوردي ص ٣٤٩ ـ ٥٠ ؛ العقد ج ٢ ص ٣٢٢ .
٢) البلاذري ص ١٩٣ .
٣) البلاذري ص ٤٦٥ ـ ٦ .
٤) انظر وصفاً لدرهم ساساني (٢٤هـ) في مجلة المجمع العربي ج ١١ (١٩٣١) ص ٥٧٢ ـ ٣ .

« ٣ »

عرف قبل عهد عبد الملك الّا ان هذه ضربت على غرار النقود البيزنطية والفارسية . ولقد ضرب عبد الملك في دمشق سنة ٦٩٥ اول دنانير ذهبية ودراهم فضية من النوع العربي الصرف . (١) وفي السنة التالية (٢) سك الحجاج النقود الفضية في الكوفة .

وفضلاً عن ضرب النقود الاسلامية الصرفة وتعريب دواوين الدولة فقد انشأ عبد الملك مصلحة بريد (٣) منتظمة واستعمل لها الخيل تجري اشواطاً لنقل المسافرين والرسائل بين دمشق وعواصم الأمصار . وقد انشئت هذه المصلحة في الأساس لسد حاجات موظفي الدولة وحمل مراسلاتهم وكان على مديري البريد فوق هذا ان يواصلوا الخليفة بالأنباء عن جميع الحوادث الخطيرة التي تجري في مناطقهم .

الاصلاحات المالية وغيرها

وعلى ذكر التغيير في النقد يجدر بنا ذكر الاصلاحات التي اجريت في ادارة المال في الوقت نفسه . فلقد كان من الامتيازات التي تمتع بها المسلم مهما كانت جنسيته انه لم يفرض عليه مبدئياً غير الزكاة او الصدقات ، ولكن العرف جعل هذا الامتياز يسري في الغالب على المسلمين العرب دون سواهم. ولقد استغل المسلمون المستجدون هذا الامتياز فأخذ كثير منهم، ولاسيما أهل العراق وخراسان ممن يتعاطون الزراعة ، يرحلون عن ضياعهم ويفدون الى المدن طمعاً بالالتحاق بالجيش كموالي (٤) فأدى ذلك الى خسارة مزدوجة عانتها الخزينة لأن الضرائب التي كانت تفرض عليهم قد خفضت بعد اعتناقهم الاسلام كما انهم اصبحوا جنوداً يتناولون من بيت المال ما فرض لامثالهم من الأعطيات . ولقد آلى الحجاج على نفسه ان يتخذ الاجراآت اللازمة لترحيل هؤلاء من الامصار واعادتهم الى القرى (٥) ووضع عليهم ما اعتادوه من الجزية التي كانوا يدفعونها قبل اسلامهم أي ما يقابل الجزية والخراج . وعلاوة على ذلك فقد جعل العرب الذين تملكوا ارضاً في

---

١) الطبري ج ٢ س ٩٣٩ ؛ البلاذري س ٢٤٠ .

٢) قابل ياقوت ، بلدان ، ج ٤ س ٨٨٦ .

٣) العمري ، الطريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ، ١٣١٢) س ١٨٥ .

٤) لم تكن هذه اللفظة قد اطلقت بعد على المعتوق من الرقيق ولهذا لم يكن لها مدلول وضيع .

٥) المبرد س ٦٨٦ .

مناطق الخراج يدفعون الخراج المعتاد .

وحاول الخليفة عمر ابن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٢٠) أن يعالج روح التذمر والشكوى التي فشت بين المسلمين بسبب هذا فأعاد خطة سلفه عمر ابن الخطاب ولم يرسم على المسلم سواء كان عربياً او مولى دفع ضريبة على الاطلاق . إلا انه اصر على ان ارض الخراج هي ملك للأمة الاسلامية جمعاء . ثم أمر (بعد سنة ١٠٠ / ٧١٨ ـ ١٩) ان يخلي بين أهل الارض و بين بيع ما في ايديهم من ارض الخراج لأنها فيء المسلمين (١) سواء اعتنق صاحبها الاسلام ام لم يعتنقه . ولقد سمح للمزارع اذا أسلم بالبقاء على ارضه كمستأجر لها الى أجل من السنين .

ولم تنجح خطة عمر بالرغم مما كان وراءها من قصد نبيل فانها قد أدت الى نقصان الدخل وزادت في عدد الموالي في المدن (٢) واخذ كثيرون من البربر والفرس يدخلون في الاسلام طمعاً بالحصول على امتيازات اقتصادية . وقضت التطورات بعد ذلك العودة الى نظام الحجاج مع بعض التعديلات الجزئية . ولم يتقرر الفرق بين الجزية وهي تسقط بالاسلام و بين الخراج الذي يبقى في الحالتين (٣) الا ابتداء من هذا العهد . ولما كان ايراد الدولة من الجزية ضئيلاً فلقد بقي الخراج أهم مصدر من مصادر الدخل ولم ينقص ايراد بيت المال كثيراً .

وهناك اصلاحات اخرى في حقلي الثقافة والزراعة يعزى القسم الاكبر منها لهمة الحجاج ونشاطه. فقد حفر عدداً من الاقنية وأعاد حفر قناة كبيرة بين دجلة والفرات. كذلك فانه جفف بعض المستنقعات وأحيى بعض الارض الموات . وكان الحجاج من الذين عنوا بأمر علامات الاعجام في الخط العربي وضبطها للتميز بين الحروف (٤) المتشابهة كالباء والتاء والثاء . كما انه ساعد على نقل صور الحركات من ضم وفتح وكسر عن السريانية وقد دفعه الى هذا

١) ابن سعد ج ٥ ص ٢٦٢ ، ٢٧٧ ؛ ابن عساكر ج ٤ ص ٨٠ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٦٢ ؛ ابن الجوزي ، سيرة عمر ابن عبدالعزيز (القاهرة ، ١٣٣١) ص ٨٨ـ٩ .

٢) ابن الجوزي سيرة ، ص ٩٩ـ١٠٠ .

٣) بندلي جوزي في المقتطف ج ٧٥ (١٩٢٩) ص ٨٠ـ٨٤ .

٤) ابن خلكان، وفيات الاعيان (القاهرة ، ١٢٩٩) ج ١ ص ٢٢٠ ـ ٢١ ؛ قابل السيوطي ،الاتقان ج ٢ ص ١٧١ وانظر Theodor Noldeke, *Geschichte des Qorâns* (Gottingen, 1860) pp. 305 - 9.

الاصلاح في الخط رغبته في ان يضع حداً لّلحن الذي اخذ يفشو بين القراء في العراق. ويظهر انه وقف على ضبط نسخة من القرآن الكريم لتكون مرجعاً يرجع اليها. وهكذا فان الحجاج الذي بدأ حياته معلماً لم يفقد شغفه واهتمامه بالأدب والخطابة. فقد عني بالشعر والعلم واتخذ جريراً الشاعر البدوي الهجاء شاعراً له فصار بعدئذ شاعر الخليفة عمر ابن عبد العزيز. وكان جرير والفرزدق والاخطل ثالوث الشعر في العصر الاموي. وجعل الحجاج تياذوق (١) النصراني طبيبه الخاص. ومات عبد ثقيف كما كان يلقبه خصومه العراقيون بمدينة واسط في حزيران سنة ٧١٤ وله من العمر ثلاث وخمسون سنة وقد ترك ذكراً ليس من شك في انه قليل المثال في تاريخ الاسلام.

المنشآت في البناء

وقد تم في هذه الحقبة كثير من المنشآت في فن البناء، ولا يزال بعضها قائماً الى اليوم. ففي فلسطين ابتنى الخليفة سليمان مدينة الرملة (٢) على انقاض بلدة قديمة وجعلها مقراً له. ولقد بقيت آثار قصره فيها حتى الحرب العالمية الاولى. اما مئذنة مسجده الابيض التي أعاد بناءها المماليك في أوائل القرن الرابع عشر للميلاد فلا تزال قائمة الى الآن. وكان يعتبر مسجده بعد المسجد الاموي بدمشق وقبة الصخرة في بيت المقدس ثالث محارم الشام.

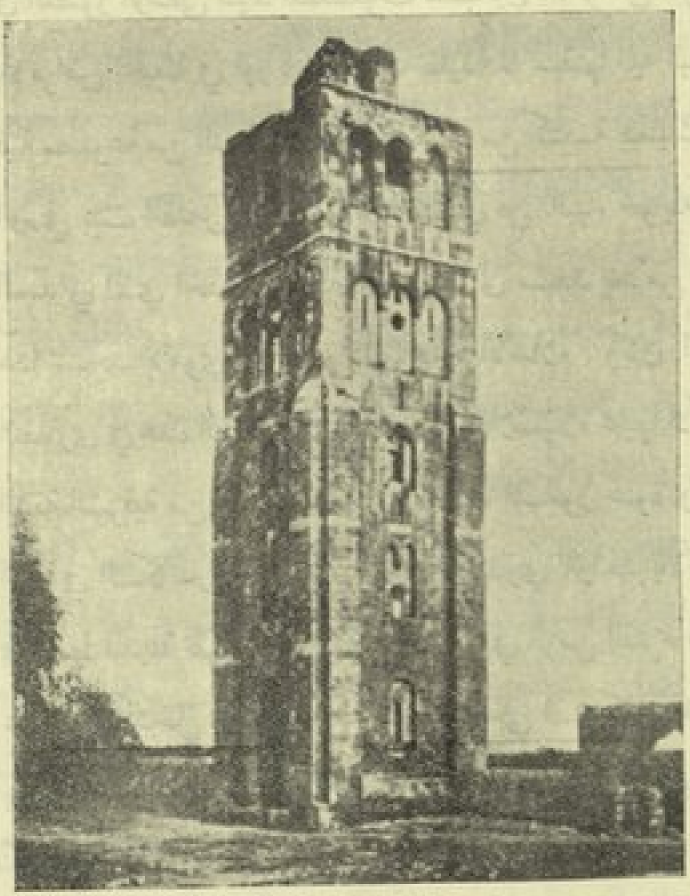
ومنذ خلافة سليمان اخذت انظار الخلفاء تتحول عن دمشق فلم تعد موطناً لسكناهم. فقد سكن هشام الرصافة وهي مستعمرة رومانية بالقرب من الرقة. وكان عبد الملك سنة ٦٩١ قد ابتنى في بيت المقدس قبة الصخرة الفخمة التي يسميها الافرنج خطأ ـ مسجد عمر. وكان غرضه ان يحول اليها افواج الحجاج عن مكة التي استقر فيها منافسه ابن الزبير. وليس من شك في أن باني القبة هو عبد الملك ويؤيد ذلك الكتابة الكوفية المنقوشة حول القبة. والظاهر ان البناء قد تداعى بعد مئة سنة فرمّم على عهد الخليفة العباسي المأمون (٨١٣ - ٣٣) فغيّر هذا اسم عبد الملك في النقش وجعله « عبد الله » وأضاف اليه اسم المأمون إلا

---

١) ابن العبري ص ١٩٤.

٢) البلاذري ص ١٤٣.

انه سها عن تغيير التاريخ (١) . ولقد سعى الرسام العباسي الى التقريب بين حروف الاسم الجديد وحشرها في الفراغ الضيق الذي احدثه (٢) . كذلك شيّد عبد الملك مسجداً آخر بالقرب من القبة في القسم الجنوبي من الحرم في مكان لعله كان موقع كنيسة قديمة . ولقد أطلق الاهلون على هذا المسجد اسم المسجد الاقصى . (٣) ولكن قد يطلق هذا الاسم بمعنى أعم على جميع الأبنية المقدسة في هذه البقعة وتعرف هذه الأبنية ايضاً بالحرم الشريف . وهو يلي حرم مكة وحرم المدينة من حيث الاهمية ومن هنا قيل فيه ثالث الحرمين .



مئذنة الرملة

ومهما يكن من أمر فان الوليد ابن عبد الملك كان أعظم الخلفاء الامويين أثراً في فن البناء . وعهده عهد رخاء وأمن اذا قيس بغيره من العهود وكان ولعه بالبناء عظيماً بحيث كان اذا التقى الناس في المجالس بدمشق تذاكروا في أمر الابنية والعمارات كما كان حديث المجالس في خلافة سليمان عن الطعام والنساء . اما عمر ابن عبد العزيز فقد كان أخا زهد وورع فكان الناس اذا تلاقوا

١) هذه الكتابة كما هي الآن : بنى هذه القبة عبد الله عبد [الله الامام المأمون أ] مير المؤمنين في سنة اثنين وسبعين يقبل الله منه ورضي عنه آمين .

٢) De Vogüé, *Le Temple de Jérusalem* (Paris, 1864) pp. 85 - 6. وقد كان دو فوغوه اول من اكتشف التزوير .

٣) استناداً الى سورة الاسراء الآية : ١ .

في أيامه سأل بعضهم بعضاً عمّا يحفظه من القرآن الكريم (١) . ولقد وسع الوليد المسجد الحرام بمكة (٢) ، وحمل اليه عمد الحجارة والرخام والفسيفساء كما رمم مسجد المدينة وابتنى في الشام المدارس والجوامع ووقف المال لبيوت البرص والعرج والعمي . (٣) ولعله اول ملك في العصور الوسطى شيّد المستشفيات للمصابين بالامراض المزمنة . ولقد كانت مآوي المصابين بالامراض الخبيثة في اوربا بعد ذلك تقليداً لما سبقتها اليه البلدان الاسلامية . (٤) ونقل الوليد قبّة مصنوعة من النحاس مغشاة بالذهب من كنيسة ببعلبك الى المسجد الذي كان قد شيده ابوه في بيت المقدس . وان أبدع اعماله في فن البناء تحويله موقع كاتدرائية القديس يوحنا المعمداني الذي اخذه من رعاياه النصارى الى مسجد يعدّ من اروع دور العبادة في العالم.ولا يزال هذا المسجد الاموي الى اليوم رابع محارم الاسلام . وكان المسلمون قبل عهد الوليد يشاركون النصارى في هذه البقعة المقدسة . وتبريراً للاستيلاء عليها ادّعى الاخباريون المتأخرون ان الشقة الشرقية من مدينة دمشق انما اخذها المسلمون عنوةً والشقة الغربية صلحاً وان الفريقين التقيا في الكاتدرائية المركزية دون ان يدري الواحد بالآخر . ولقد قامت هذه الكنيسة في وسط المدينة تقريباً في بقعة كان عليها في الزمن القديم هيكل روماني . وقد ظهر على عتبة عليا فوق المدخل الجنوبي من السور الخارجي الذي كان قد تهدم ورمم نقش قديم كتب باليونانية لا يزال الى اليوم وفيه : « ان ملكك ايها المسيح ملك كل الدهور وسلطانك في كل دور فدور . » (٥) .

اما بقية الخلفاء في هذه الحقبة المجيدة من عصر بني امية فليس هناك مجال لذكر شيء عنهم سوى عمر ابن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٢٠) وهشام . اما عمر فقد عرف بورعه وزهده وتأثره بآراء علماء الدين وقد تمتع على ممر الاجيال بشهرة واسعة لتقاه . وهو من هذه الناحية متفرد بين الخلفاء الامويين الذين لم يتقيدوا كثيراً بامور الدين ،ويعد ولياً بين خلفاء بني امية.

---

١) الفخري ص ١٧٣ ؛ الطبري ج ٢ ص ١٢٧٢ ـ ٣ .
٢) البلاذري ص ٤٧ .
٣) الطبري ج ٢ ص ١٢٧١ ؛ وابن الفقيه ص ١٠٦ ـ ٧ .
٤) راجع Hitti, art. « Chivalry : Arabic, » *Encyclopaedia of the Social Sciences.*
٥) قابل المزامير ١٤٥ : ١٣ ؛ سفر العبرانيين ١ : ٨ .

وفي الاحاديث التي تناقلها الناس فيما بعد ان الله يبعث على رأس كل مئة سنة مبعوثاً يحيي ما اندثر من الاسلام . ومن هنا فقد زعموا ان عمر ابن عبد العزيز هو الذي بُعث على رأس المئة الثانية . وقد زعموا كذلك ان الامام الشافعي هو الذي بُعث على رأس المئة الثالثة (١) . وقد أنبأنا مترجم حياة عمر (٢) ان هذا الخليفة كان يلبس الخلق من الثياب ويختلط برعيته دون تكلف او ترفع حتى ان الغريب اذا جاء يقصده لم يميزه عن عامة الشعب . ويروى ان احد عماله كتب اليه يوماً يقول ان الاصلاحات التي ادخلها الخليفة على بيوت المال لفائدة الداخلين في الاسلام جعلت الناس كثيرين في الاسلام وانه يخشى قلة الخراج ، فكتب اليه عمر : « والله لوددت ان الناس كلهم أسلموا حتى نكون انا وانت حرّاثين نأكل من كسب ايدينا . » (٣) وقطع عمر ما أُحدث في ايام معاوية من سب علي على المنابر في الخطبة . (٤) وتوفي عمر وهو في التاسعة والثلاثين من عمره وكان زهده وورعه سبباً في ان ينجو قبره من الخراب الذي أوقعه العباسيون بقبور الخلفاء الأمويين .

وكانت خلافة هشام ابن عبد الملك (٧٢٤ ـ ٤٣) خاتمة عصر بني امية الذهبي وكان هشام رابع ابناء عبد الملك الذين ولوا الخلافة وقد اعتبره المؤرخون بحق ثالث الساسة (٥) من خلفاء بني امية ، بعد معاوية وعبد الملك ، وخاتمتهم . وذكروا عنه انه كان له ولد اسمه معاوية ـ وهو جد اموي الاندلس ـ وكان يحب الصيد فركض فرسه مرة وراء ثعلب فعثرت به وسقط فاحتملوه ميتاً وأتي به الى ابيه فقال : « تالله لقد اجمعت ان ارشحه للخلافة ويتبع ثعلباً » (٦) . وكان عامل هشام على العراق خالد ابن عبد الله القسري الذي ازدهرت في عهده بلاد العراق بما اجرى فيها من محدثات الهندسة من فتح الترع والاقنية وتجفيف الاراضي

١) ابن الجوزي ، سيرة ص ٦٠ .
٢) ابن الجوزي ص ١٧٣ ـ ٤ ، ١٤٥ وما يلي .
٣) ابن الجوزي ص ٩٩ ـ ١٠٠ ؛ كتاب العيون والحدائق في اخبار الحقائق نشر دي غويه (ليدن ، ١٨٦٥) ص ٤ .
٤) الفخري ص ١٧٦ .
٥) المسعودي ج ٥ ص ٤٧٩ ؛ قابل اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٣ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ص ١٨٥ ؛ ابوالفداء ج ١ ص ٢١٦ ؛ كتاب العيون والحدائق ص ٦٩ .
٦) الطبري ج ٢ ص ١٧٣٨ ـ ٩ .

المعمورة على يد حسان النبطي . وقد استباح خالد لنفسه مقدار ١٣ مليون درهم بعد ان بدد ثروة تساوي ثلاثة اضعاف هذا الرقم[١] . ولم يطل به الامر حتى نال جزاء تهوره ففي عام ٧٣٨ فشا سر اختلاساته وزج في السجن وسيم العذاب وحوسب على ما بدده من مال وفرض عليه ان يعيد ما ابتز من الارزاق . وليس امره إلا مثالا لسوء الادارة والفساد اللذين اخذا يتسربان الى جسم الدولة السياسي بحيث افضى ذلك آخر الامر الى زعزعة العرش الاموي وايقاع اصحابه لقمة سائغة بايدي خصومهم بني العباس .

١) الطبري ج ٢ ص ١٦٤٢ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٧ .

الفصل العشرون

السياسة والاجتماع في العصر الأموي

ان الاقسام الادارية في امبراطوريتي الامويين والعباسيين كانت بوجه عام تشابه الايالات في الدولتين البيزنطية والفارسية وقد شملت : ١ً سورية وفلسطين ٢ً الكوفة وما يليها من العراق ٣ً البصرة وما يليها من فارس وسجستان وخراسان والبحرين وعمان (وربما أضيف الى هذه المنطقة نجد واليمامة) ٤ً ارمينية ٥ً الحجاز ٦ً كرمان والمقاطعات الهندية الواقعة على الحدود ٧ً مصر ٨ً إفريقية ٩ً اليمن وانحاء الجنوب من الجزيرة (١). وقد ادمجت بعض هذه الاقسام بالبعض الآخر فنشأ عن ذلك خمس ولايات. وقد جعل معاوية مصري البصرة والكوفة ولاية واحدة (٢) سماها العراق وضم اليها فارس وشرقي الجزيرة واصبحت عاصمتها الكوفة. ثم جرت العادة ان يبعث امير العراق عاملاً يمثله على خراسان وما وراء النهر يتخذ له مركزاً في مرو وعاملاً آخر لادارة شؤون السند والبنجاب. كذلك جعلت الحجاز واليمن وأواسط الجزيرة عملاً واحداً خاضعاً لحاكم فرد ينتدبه الخليفة. وكانت الجزيرة (شمالي ما بين النهرين) هي وارمينية وآذربيجان وبعض الانحاء الشرقية من آسية الصغرى عملاً ثالثاً. اما العمل الرابع فهو مصر بقسميها ــ الصعيد وارض الدلتا. وكان العمل الخامس افريقية وهو في الواقع شمالي افريقية من حدود مصر الغربية الى المحيط الاطلسي مع اسبانية وصقلية والبلدان المجاورة وكانت القيروان مركزاً لأمير هذه المناطق.

وتألفت الحكومة من ثلاثة فروع وهي وظائف الحكومة المعروفة آنذاك اي ادارة

---

١) قابل ابن خلدون ج ٣ ص ٤، ١٠، ١٥، ١٧، ١٣٤ ــ ١٤١ وانظر Alfred von Kremer, *Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen*, vol. i (Vienne, 1875), pp. 162—3.

٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٧٢ .

السياسة وجباية المال والامامة الدينية . ولكل منها موظف كبير يتولى امورها . وكان الامير او الصاحب يعيّن العمال على المناطق الداخلة ضمن نفوذه ثم يبعث اسماءهم الى الخليفة . والظاهر انه في زمن الخليفة هشام كان الامير الذي عهد اليه امر ارمينية وآذر بيجان مقيماً في دمشق نفسها وكان ينوب عنه موظف يمثله في قصبة حكمه . وكان يُسند الى الامير جميع المهام سواء أكانت سياسية ام عسكرية ولكن الضرائب كان يشرف عليها في الغالب موظف خاص يدعى صاحب الخراج وهو مسؤول لدى الخليفة رأساً . ويظهر ان معاوية كان اول من نصب للخراج صاحباً ولاه الكوفة (١) . الا ان الامارة على الامصار في الامبراطورية الاسلامية كانت في اول العهد تقوم بالاكثر على ادارة المال .

اما واردات الدولة فقد كانت تجبى من المصادر نفسها التي عرفت زمن الخلفاء الراشدين واخصها الجزية التي كانت تؤديها الشعوب المغلوبة . وكانت النفقات في كل ايالة او عمل ، ويدخل فيها مخصصات الادارة ورواتب كبار الساسة واعطيات الجند وغيرها ، تدفع من صندوق المنطقة الى بيت مال المسلمين . وقد جعل معاوية الزكاة اثنين ونصفاً بالمئة من اعطيات المسلمين (٢) اي ما يقارب ضريبة الدخل المعروفة عند الدول العصرية .

ولم يتناول القضاء الا امور المسلمين دون سواهم من الناس فالعناصر الاخرى كانت تتمتع باستقلال داخلي يخولها حق الخضوع لأنظمة دياناتها . وهذا ما يعلل وجود القضاة في المدن الكبيرة فقط . وكان الرسول وخلفاء الصدر الاول يقيمون العدل بانفسهم وهكذا فعل القواد والامراء في الامصار . وذلك لأن وظائف الحكومة المتنوعة لم تكن قد توزعت بعد . وكان امراء الاعمال يعينون الموظفين ذوي الصلاحية القضائية الصرفة الى ان جاء دور العباسيين فصار تعيين هؤلاء بيد الخليفة في الاغلب . غير ان بعض الاخبار تعزو الى عمر الفاروق انه عيّن قاضياً منذ سنة ٢٣/٦٤٣ (٣) . وبعد سنة ٦٦١ اخذ يتعاقب على القضاء في مصر جماعة

---

١) ابن خلدون ج ٣ ص ٤ .

٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٧٦ .

٣) الكندي ، كتاب الولاة ، نشر غوست (بيروت ، ١٩٠٨) ص ٣٠٠ – ٣٠١ وانظر ايضاً ابن قتيبة ، عيون الاخبار ج ١ ص ٦١ .

من القضاة بشكل منتظم وكانوا يختارون من طبقة الفقهاء وهي الطبقة التي تضم نخبة العلماء الاختصاصيين بعلوم القرآن والحديث . وكان هؤلاء القضاة يفصلون في القضايا المرفوعة اليهم ويتولون النظر في الاوقاف وادارتها كما انهم عالجوا قضايا مواريث الايتام والمعتوهين .

واتضح لمعاوية ان بعض رسائله الرسمية كانت عرضة للتزوير فأنشأ ديوان الخاتم (١) وامر بأن تحفظ نسخة من كل رسالة رسمية قبل ان تصدر مختومة بالشمع . ولما جاء دور عبد الملك كان الامويون قد نظموا بيت القراطيس في دمشق (٢) وهو عبارة عن خزانة للوثائق الرسمية في الدولة .

الجيش

لقد نُظم الجيش الاموي على غرار الجيش البيزنطي فكانت وحدة الجيش تتألف من خمسة اجزاء : القلب والميمنة والميسرة والطليعة والساقة . وله نظام يراعى فيه الشكل القديم المبني على الصفوف المتوازية . وظل الامر كذلك حتى عهد الخليفة الاموي الاخير مروان الثاني (٧٤٤ ـ ٥٠) فابطل التنظيم القديم واستحدث للجيش تنظيما أصبحت الوحدة فيه كتلة صغيرة متراصة من الجند تسمى كردوساً (٣) . اما لباس الجندي العربي وسلاحه فلم يختلفا كثيراً عن المألوف عند مقاتلة الروم . فقد استعمل الفرسان سروجاً بسيطة مستديرة تشاكل ما عند البيزنطيين وهي لا تزال معروفة الى اليوم في الشرق الأدنى . اما المدفعية فقد كان قوامها العرّادة والمنجنيق والدبابة (الكبش) وقد كان العرب يحملون هذه المعدّات الثقيلة وسواها من ادوات الحصار مع امتعتهم على جمال الحقوها بالجيش .

ولقد تشكلت قوى الجيش المقيم في دمشق من اهل الشام ومن العرب الذين استقروا في ربوع الشام . وكانت البصرة والكوفة المركزين الرئيسيين للتجنيد في جيش المناطق الشرقية . وبلغت وحدات الجيش في عهد بني سفيان ستين الف جندي وكان عطاؤهم السنوي

---

١) الطبري ج ٢ ص ٢٠٥ ـ ٦ ؛ الفخري ص ١٤٩ .

٢) المسعودي ج ٥ ص ٢٣٩ .

٣) الطبري ج ٢ ص ١٩٤٤ ؛ ابن خلدون ج ٣ ص ١٦٥ وقابل ص ١٩٥ ؛ ابن الاثير ج ٥ ص ٢٦٧ .

ستين مليون درهم ويشمل عطاء العيال (١) ، وقد انقص يزيد الثالث (٧٤٤) اعطيات الناس فسمي يزيد الناقص . (٢) ويقال ان عدد الجيش في ايام الخليفة الاموي الأخير بلغ مئة وعشرين الف (٣) مقاتل والراجح ان هناك خطأ في هذا الرقم وان الصواب اثنا عشر الفاً .

وكذلك تشكل الاسطول البحري عند العرب على غرار الاسطول البيزنطي . وقد كانت السفينة عند البيزنطيين وحدة القتال في البحر . وفيها ما لا يقل عن خمسة وعشرين مقعداً للتجديف في كل واحد من ظهري السفينة الأسفلين يجلس على المقعد رجلان وكان كل من هؤلاء الملاحين مسلحاً . اما الذين خصصوا للقتال فلهم مراكزهم على ظهر السفينة الأعلى .

حياة البلاط

ولقد خصصت ليالي الخلفاء لمجالس الأنس والسمر . وكان لمعاوية ولع بالاشعار والنوادر وقصص الرواة والتاريخ والاخبار القديمة لا سيما اخبار جنوبي الجزيرة . وقد بلغ به حبه اياها على ما يزعمون ان استدعى فيما يزعمون عبيد ابن شرية من اليمن وهو من الاخباريين القدماء ليسامره في الليالي الطوال ويقص عليه اخبار الابطال الغابرين . وكان الشراب المستطاب عندهم ماء الورد المذكور في قصائد العرب (٤) وكان اكثر ما يشربه اذ ذاك النساء ولاهل دمشق وسواها من مدن الشرق العربي شغف به الى اليوم .

ولعل اول من شرب المسكر من الخلفاء يزيد ابن معاوية فقد روي عنه انه كان لا يمسي إلا سكران ولا يصبح إلا مخموراً فقيل له يزيد الخمور . (٥) وكان له قرد يكنى بأبي قيس يحضر مجلس منادمته فيلاعبه . (٦) اما الوليد ابن عبد الملك فكان فيما رووا يشرب

١) المسعودي ج ٥ ص ١٩٥
٢) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٢٠ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠١ .
٣) الفخري ص ١٩٧ ؛ ابو الفداء ج ١ ص ٢٢٢ .
٤) الاغاني ج ١٥ ص ٨ ؛ .
٥) العقد ج ٣ ص ٤٠٣ ؛ النويري ، النهاية ج ٤ ص ٩١ .
٦) المسعودي ج ٥ ص ١٥٧ .

يوماً ويدع يوماً . واعتاد هشام الشرب ايام الجمعة بعد الصلاة . وكان عبد الملك يشرب في كل شهر مرة حتى لا يعقل افي السماء هو او في الماء ويقول : انما اقصد في هذا الى اشراق العقل وتقوية منّة الحفظ وتصفية موضع الفكر . غير انه كان اذا بلغ آخر هذا السكر افرغ ما كان في بدنه حتى لا يبقى في اعضائه منه شيء . (١) وشغف يزيد الثاني باثنتين من القيان هما سلاّمة وحَبابة . وحدث ان ماتت حبابة من حبة عنب او رمان التهمتها وهو يداعبها فشرقت فيها فبلغ من جزع يزيد وحزنه وكمده عليها ان هلك بعدها بايام . (٢) غير ان الوليد ابنه (٧٤٣ – ٤) بزّ الجميع في الشراب والتهتك . وقد حكي عنه انه اتخذ بركة في قصره فكان يملأها خمراً ثم ينزع ثيابه ويغتسل فيها ويشرب منها ويظلّ كذلك حتى يظهر النقص في البركة . (٣) وهو الذي روي عنه انه فتح المصحف يوماً فوافق ورقة فيها : « واستفتحوا وخاب كل جبّار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماءٍ صديد » (٤) فقال أسجعاً سجعاً علقوه ثم اخذ القوس والنبل فرماه حتى مزقه ثم قال :

اتوعد كل جبّار عنيد ... فها أنا ذاك جبّار عنيدُ

اذا لاقيت ربك يوم حشر ... فقل لله مزقني الوليدُ (٥)

وكان الوليد يقضي أيامه في قصوره بالبادية وكان أحدها في القريتين الواقعة على منتصف الطريق بين دمشق وتدمر . ولقد اورد صاحب الاغاني (٦) خبراً يصور مجلساً من مجالس شرب رواه شاهد عيان ووصف فيه ما كان يمارسه هذا الخليفة من التهتك والمجون . ولم يكتف الخلفاء بالشراب بل استهواهم الغناء والموسيقى و بعض ضروب الرقص . فاذا كان

---

١) الجاحظ ، التاج في اخلاق الملوك ، نشر احمد زكي باشا (القاهرة ، ١٩١٤) ص ١٥١ . ان معظم ما نعرفه عن حياة الخلفاء مستقى من كتاب الاغاني وما جرى مجراه وهي كتب ادب في الدرجة الاولى فينبغي الا يؤخذ ما فيها حرفياً وقد ذكر صاحب الاغاني ج ١ ص ٣ مقياسه في اختيار الاخبار فقال انه يتوخى ما فيه « رونق يروق الناظر ويلهي السامع » .

٢) كتاب العيون والحدائق ص ٤٠ – ٤١ ؛ قابل الاغاني ج ١٣ ص ١٦٥ .

٣) النواجي ، حلبة الكميت (القاهرة ، ١٢٩٩) ص ٩٨ .

٤) سورة ابراهيم : ١٨ – ١٩ .

٥) الاغاني ج ٦ ص ١٢٥ .

٦) ج ٢ ص ٧٢ .

الخليفة ممن لا يريد ان يشهر عنه ذلك جعل ستارة بينه و بين الندماء . اما الوليد فلم يتحاش عن الرفث والمجون بحضرة هؤلاء . (١)

على أن مجالس الشرب لم تكن خلواً من العناصر الثقافية فقد كان فيها مجال لتشجيع الشعر والموسيقى وتذوق الجمال .

ومن انواع اللهو البريء الذي اخذ به الخلفاء والامراء واهل بطانتهم الصيد وسباق الخيل واللعب بالنرد وغيره . اما لعبة الكرة والصولجان على ظهور الخيل التي اصبحت من امتع انواع الرياضة ايام العباسيين فالراجح انها تطرقت الى العرب عن الفرس في اواخر العصر الأموي . ولم يكن اللهو في مشاهدة قتال الديكة مجهولا عندهم في تلك الايام . ولقد عرف الصيد قديماً في الجزيرة حيث كان يستعان بالكلب السلوقي (٢) في اول الأمر دون سواه من الكلاب . وقد روي ان كليباً ابن ربيعة بطل حرب البسوس كان اول عربي استعمل السلوقي للصيد . الا ان الفرس والهنود دجنوه قبل العرب بزمن بعيد . واول صياد شهر في الاسلام هو يزيد ابن معاوية وهو الذي شرع بتعليم الفهود الركب على اكفال الجياد ، وكان يلبس كلاب الصيد اساور الذهب و يعين عبداً (٣) لكل منها يقوم بامره . اما سباق الخيل فقد عُني به الامويون كل العناية . ومن الخلفاء الذين ولعوا بالخيل وأقاموا الحلبات للسباق الوليد ابن عبد الملك (٤) وجاء اخوه سليمان بعده فلم يهمل امرها وقد ذكر عنه أنه اعد العدة لسباق عظيم تشترك فيه خيول الامة ولكنه مات(٥) قبل ان تجرى الحلبة. وفي احدى الحلبات التي اجراها هشام اخوهما كانت الجياد التي اجتمعت من خيله وخيل غيره اربعة آلاف فرس « ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا اسلام لأحد من الناس » . (٦) وكانت احب بنات هشام اليه ولوعة مثله باقتناء الخيل للسباق (٧).

---

١) الجاحظ ، التاج ، ص ٣٢ .
٢) من سلوقي اليمن .
٣) الفخري ٧٦ .
٤) المسعودي ج ٦ ص ١٣ — ١٧ .
٥) ابن الجوزي ، سيرة عمر ص ٥٦ .
٦) المسعودي ج ٥ ص ٤٦٦ .
٧) كتاب العيون والحدائق (١٨٦٥) ص ٦٩ .

وتمتعت سيدات البلاط نسبياً بقسط وافر من الحرية . فهذا الشاعر المكي ابو دهبل الجمحي لا يخشى ان يكتب الى عاتكة بنت معاوية الحسناء بل انه نظم فيها الشعر وتغنى به المغنّون . وكان الشاعر قد رآها في بعض منازلها في ايام الحج في يوم اشتد حره وانقطع الطريق فأمرت جواريها فرفعن الستر وهي جالسة في مجلسها عليها شفوف فراقه جمالها ووقف ينظر اليها طويلاً وهي غافلة عنه . فلما صدرت عن مكة خرج معها الى الشام وشاع شعره بها فاحتال معاوية اخيراً لقطع لسانه بان وعده بمال يصله به كل سنة وزوجه من أحب بنات عمه اليه. (١) وتصدى شاعر آخر فيما يروون هو وضاح اليمن ، وكان جميلاً ، لأم البنين احدى زوجات الوليد ابن عبد الملك في دمشق فذكر حبه لها بشعره ، ولم يعبأ بانذار الخليفة ، فأخذ الوليد عليه السبيل حتى قتله. (٢) وزوجت عاتكة بنت يزيد ابن معاوية من عبد الملك ابن مروان فكانت احب الناس اليه كما يظهر من قصة تروى عنهما . قيل غضبت عليه يوماً لأمر كان بينهما فطلب رضاها بكل شيء فأبت واختلت الى نفسها واقفلت بابها فلم تفتح لأحد حتى احتال عليها الخليفة بان أجلس احد الخاصة ببابها يطلب توسطها كذباً عليها مدعياً ان احد ابنيه عدا على الآخر فقتله وان الخليفة عبد الملك أبى الا ان يقتل المعتدي (٣) . اما نظام «الحريم» وما رافقه من استعمال الخصيان في القصر فلم يعرف حتى ايام الوليد الثاني (٤) . وكان اغلب الخصيان في اول الأمر من الاغريق . ولعل عادة اتخاذ الخصيان في البلاط قد نقلت عن البيزنطيين (٥) .

العاصمة

ومع ان دمشق اليوم قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه زمن الامويين فانه لا يزال فيها

---

١) الاغاني ج ٦ ص ١٥٨ ــ ٦١ .

٢) الاغاني ج ٦ ص ٣٦ وما يلي ، وانظر ج ١١ ص ٤٩ .

٣) المسعودي ج ٥ ص ٢٧٣ ــ ٥ .

٤) الاغاني ج ٤ ص ٧٨ ــ ٩ .

٥) انظر G. B. Bury, *The Imperial Administrative System in the Ninth Century* (London, 1911) pp. 120 *seq*; Charles Diehl, *Byzance : grandeur et décadence* (Paris, 1919) p. 154 .

حتى الآن كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في ذلك العصر . فقد كانت شوارعها الضيقة المسقوفة تعج بخليط من السكان . منهم الشامي بسراويله الفضفاضة وحذائه الأحمر وعمامته البيضاء ، والبدوي الذي لوحته الشمس وقد ارتدى عباءة وستر رأسه بكوفية وعقال . وترى هنا او هنالك احد الاشراف او الأثرياء ممتطياً صهوة جواده وعليه سيماء النبل والكرم مرتدياً عباءته الحريرية متقلداً سيفه او حاملاً رمحه . وليس غريباً ان ترى بين هذه الجموع امرأة تجتاز طريقها وقد اتزرت بمئزرها وتقنعت واخرى تسترق النظر من خلال الشرفات المشبكة في أعلى منزلها المطل على السوق او الساحة وترى فوق هذا كله باعة الشراب والحلوى والأثمار المختلفة يطوفون بسلعهم وهم ينادون معلنين عنها بعبارات جذابة بكل ما اوتوا من صوت وهم يزاحمون السابلة الطريق ويشقون لأنفسهم ممراً بينها و بين ما يسير في الشوارع نفسها من دواب مختلفة من حمير وجمال وقد حمل بعضها منتجات القرى او البادية . وتشعر بفضاء المدينة وقد عبق بروائح شتى فيها جميع ما يمكن ان تدركه حاسة الشم .

وقد سكن العرب في دمشق احياء خاصة بهم شأنهم في غيرها من المدن وحافظوا في هذه الاحياء على رابطتهم القبلية . ولا تزال امثال هذه الاحياء او الحارات في دمشق وحمص وحلب وسواها الى يومنا هذا . وكان مدخل كل دار في الغالب من باب على الشارع فاذا دخل منه الزائر كان اول ما يرى البهو او الدار يتوسطها حوض ماء في وسطه نافورة ينبعث الماء منها والى جانبه شجرة من البرتقال او الاترج . وحول الدار غرف يتفتح امامها رواق في المنازل الكبرى . ومن مآثر بني امية الخالدة انهم وضعوا لدمشق نظاماً لاجراء الماء اليها لم يعرف الشرق له مثيلاً في ذلك العهد وهو لا يزال قائماً فيها الى الآن . ولقد لصق اسم يزيد ابن معاوية باحدى هذه الاقنية وهي تعرف اليوم بنهر يزيد . وقد حفر القناة واستجلب الماء فيها من بردى او لعله اعاد فتحها(١) لاصلاح الري في الغوطة. وان هذه الواحة الخصبة و بساتينها الغناء مدينة بحياتها لبردى . وقد تفرع هذا النهر الى اربعة فروع اخرى غير الفرع المعروف

---

١) راجع الاصطخري ص ٥٩ وقابل H. Sauvaire « Description de Damas : Oyoûn et-Tawarikh, par Mohomad ebn Chaker », *Journal asiatique* ser. 9 vol. vii (1896) p. 400.

بنهر يزيد وجرت فروعه كلها تنساب وسط دمشق فتنعشها وتجعلها وما يحيط بها من اخصب البقاع وانضرها .

الهيئة الاجتماعية

لقد انقسم السكان في جميع انحاء الدولة الى طبقات اجتماعية اربع وكانت اعلى طبقة بطبيعة الحال هي طبقة المسلمين الحاكمة . وعلى رأسها اسرة الخليفة والارستقراطية المؤلفة من العرب الفاتحين . ولا نعلم بالتدقيق عدد الناس في هذه الطبقة فلقد كان عدد الرواتب المفروضة للمسلمين العرب في دمشق وجندها ايام الوليد الاول خمسة واربعين الفاً . وفي ايام مروان الاول فرض لحمص وجندها عشرون الفاً . ولم يكن عدد الذين اعتنقوا الاسلام كبيراً قبل القيود التي وضعها عمر ابن عبد العزيز . وعلى الرغم من أن عاصمة الخلافة كانت قد اصطبغت في آخر العهد الاموي بصبغة الاسلام فان سورية بوجه عام ظلت محافظة على صبغتها النصرانية حتى القرن الثالث للهجرة . ولقد حافظت المدن الصغيرة والقرى وبنوع خاص المناطق الجبلية - مأوى المغلوبين والمضطهدين - على طابعها الوطني ومميزات حضارتها القديمة . والواقع ان لبنان ظلّ نصراني المذهب سرياني اللغة الى ما بعد الفتح بأجيال طويلة . ولم يقرّر الفتح فيه الاّ امراً واحداً هو انتهاء النزاع الحربي اما من حيث الدين والجنس والاجتماع وبنوع أهم اللغة فان النزاع في الواقع لم يبدأ الاّ بعد انتهاء الفتوح .

الموالي

ويلي طبقة العرب المسلمين طبقة الموالي اي المسلمون من غير العرب ممن قبلوا دعوة الاسلام طوعاً او كرهاً فاصبحوا يتمتعون ولو اسمياً بحقوق الرعوية الاسلامية . وقد قامت الأثرة العربية سداً منيعاً في وجه تلك الحقوق المكتسبة ضمناً وحالت دون تطبيقها وتحقيقها . ولا ريب أن ملاكي الارض - مسلمين او غير مسلمين - كانوا يطالبون بالخراج . وليس لدينا ادلة تثبت ان أهل الامصار دخلوا في الاسلام دفعةً واحدة او جماعات كبيرة الاّ بعد الاحكام الصارمة التي وضعت في عهد عمر ابن عبد العزيز والخليفة العباسي المتوكل (٨٤٧

ـ ٦١) . وكانت مصر اقل البلدان مقاومة للدين الجديد . وقد نقص دخل هذا القطر من اربعة عشر مليون دينار زمن عمرو ابن العاص الى خمسة ملايين في عهد معاوية ثم تدنى الى اربعة في خلافة هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) (١) . اما العراق فقد نقص دخل الخزينة فيه من مئة مليون في خلافة عمر ابن الخطاب الى اربعين في عهد عبد الملك (٢) . وليس من شك في ان كثرة الداخلين في الاسلام كانت من عوامل هذا النقصان . ففي اوائل العصر العباسي اخذ عدد المصريين والفرس والآراميين الداخلين في الاسلام يفوق عدد العرب المسلمين :

وشعر الموالي انهم احط الطبقات الاجتماعية في البيئة الاسلامية فاستنكروا هذا الوضع ولم يرضوا به قط . ومن هنا نستطيع ان ندرك الباعث الذي دفع بهم الى مناصرة حركات متنوعة كحركة الشيعة في العراق والخوارج في فارس . الا ان البعض منهم اصبحوا ـ كما يحدث غالباً في مثل هذه الحال ـ اشدّ عصبية للاسلام من العرب أنفسهم بحيث بلغت غيرتهم حد التعصب فاضطهدوا غير المسلمين. وقد كان من اشد المسلمين تعصباً في الصدر الاول اولئك النصارى واليهود الذين دخلوا في الاسلام .

وكان من الطبيعي ان يقبل هؤلاء الموالي في هذا المجتمع الاسلامي على الدروس العلمية والفنون الجميلة فهم ابناء ثقافة عريقة في القدم . وما كادوا يتفوقون على اخوانهم المسلمين العرب في ميدان الحياة الفكرية حتى اخذوا يتطاولون للوصول الى الزعامة السياسية . وامتزجوا بالزواج هم والعنصر الفاتح فتهجّن الدم العربي وضاع بين خليط العناصر .

اهل الذمة

وتألفت الطبقة الثالثة من اهل الذمة ـ وافراد هذه الطبقة هم من اهل الكتاب ـ ابناء الاديان المنزلة ـ الذين شملهم أمان الاسلام وعهده اي النصارى واليهود والصابئة . اما الصابئة فهم المنديون المعروفون بنصارى القديس يوحنا وهم يسكنون الاغوار الواقعة على مصب

١) اليعقوبي ، كتاب البلدان نشر دي غويه (ليدن ، ١٨٩٢) ص ٣٣٩ .

٢) قابل اليعقوبي ج ٢ ص ٢٧٧ ؛ T. W. Arnold, *The Preaching of Islam*, 2 nd ed. (London, 1913), p. 81

الفرات . ولقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم ثلاث مرات (البقرة : ٦٢ ، المائدة : ٧٣ ، الحج : ١٧) بما يشعر انهم حسبوا في منزلة عباد الله . واننا نرى في هذا الالتفات الخاص الذي ناله اهل الكتاب حدثاً من اعظم الاحداث السياسية التي تمت على يد محمد . واسبابه الرئيسية احترام النبي للتوراة من ناحية وتأثره بنفوذ زعامة بني غسان وبكر وتغلب وسواها من القبائل النصرانية . غير انه قد اشترط على هؤلاء النصارى الا يحملوا السلاح وان يؤدوا الجزية مقابل الحماية الاسلامية .

وقد تمتع اهل الذمة في هذه الوضعية بقسط وافر من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج . وارتبطت بالفعل قضاياهم في الامور المدنية والجنائية القضائية برؤسائهم الروحيين الا اذا كانت القضية تمس المسلمين . اما الشريعة المحمدية فلم تطبق عليهم لأنها لم توضع لهم . ولقد بقيت بعض اقسام هذا النظام الخاص تسري على اهل الذمة حتى آخر العهد العثماني ومنها ما ظل مرعياً في عهد السلطات المنتدبة في العراق وسورية ولبنان وفلسطين .

وانحصرت معاملة اهل الذمة لأول مرة في اهل الكتاب (١) فحسب . الا انها سرت بعدئذ على عبدة النار (المجوس) من اتباع زرادشت والوثنيين من اهل حرّان والبربر وكانوا عبدة اصنام . ولم يكن للفرس من اتباع زرادشت دين منزل ولهذا فقد كانوا خارج نطاق الأمان الا انهم حظوا مع معاشر البربر من سكان افريقية الشمالية بالحقوق نفسها التي منحها الاسلام لأهل الكتاب خاصة وخيروا اسوة بهؤلاء بين الاسلام والسيف والجزية ، لا بين الاسلام او السيف فقط . ولم يستطع سيف الاسلام ان يبلغ جميع الرقاب فقضت الضرورة بالتساهل لأن التساهل اقرب منالاً . وفي الاماكن المنيعة كأرجاء لبنان بقيت للنصارى السيطرة بحيث استطاعوا ان يتحدّوا خلفاء بني امية حتى عبد الملك نفسه في زمن سطوتهم ومجدهم . على ان النصارى في عهد الامويين كانوا حتى استخلاف عمر ابن عبد العزيز يعاملون بالحسنى . ولقد رأينا ان ميسون زوجة معاوية كانت نصرانية كما كان شاعره نصرانياً وكذلك كان طبيبه وامير المال في دولته . ولا نعلم الا حادثة واحدة تستثنى من هذا الحكم وهي ان الوليد

---

١) سورة التوبة : ٢٩ ؛ البقرة : ٩٩، ١٠٣ ؛ آل عمران : ٦٢-٦٥ الخ .

الاول امر بقتل زعيم بني تغلب القبيلة النصرانية العربية لانه أبي ان يُسلم [١]. حتى في مصر فان الاقباط قد انتقضوا مراراً على سادتهم المسلمين قبل ان يخضعوا الخضوع التام ايام الخليفة العباسي المأمون (٨١٣ ـ ٣٣) [٢].

ميثاق عمر

ولم تقم شهرة عمر ابن عبد العزيز على زهده وتعبده او الغائه الضرائب المترتبة على الداخلين في الاسلام فحسب بل قامت ايضاً على كونه الخليفة الاموي الاول والوحيد الذي وضع قيوداً صعبة على رعاياه النصارى ـ قيوداً اخطأ من نسبها الى عمر ابن الخطاب جده الاعلى لأمه . ولقد دونت بنود هذا الميثاق الذي نسب الى عمر ابن الخطاب في صيغ مختلفة [٣] ورد معظمها في المصادر المتأخرة . وفي تضاعيف هذا الميثاق من العلاقات بين المسلمين والنصارى ما لم يكن قد حصل في اوائل ايام الفتح في عهد عمر ابن الخطاب . ولكن ابرز المراسيم التي اصدرها الخليفة الاموي هي تلك التي حظرت على النصارى تقلد المناصب في الدولة ومنعتهم لبس العمامة وشرطت عليهم ان يجزّوا مقادم رؤوسهم والا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم بل تكون لهم ملابس خاصة بهم وان يشدوا الزنانير في اوساطهم وألا يركبوا على سرج بل على إكاف ولا يحدثوا كنيسة ولا ديراً ولا صومعة والا يرفعوا اصواتهم في الصلاة . وكان بموجب تشريع ابن عبد العزيز هذا انه اذا قتل مسلم نصرانياً فالعقوبة دية مفروضة وانه يجب ان لا تسمع شهادة نصراني على مسلم امام القضاء . والظاهر ان اليهود ايضاً سرت عليهم بعض نصوص هذا القانون كما أنهم حرموا من حق التوظف [٤] الا ان هذه القوانين الصارمة لم يعمل بها طويلاً. فقد ابتنى خالد ابن عبد الله القسري عامل هشام على العراق كنيسة لأمه النصرانية [٥]

---

١) الاغاني ج ١٠ ص ٩٩ وانظر H. Lammens in *Journal asiatique*, ser 9, vol. iv (1894) pp. 438—9 .

٢) الكندي ص ٧٣، ٨١، ٩٦، ١١٦، ١١٧ ؛ المقريزي ، خطط (بولاق ، ١٢٧٠) ج٢ ص ٤٩٤ .

٣) ابن عبدالحكم ص ١٥١ـ٢ ؛ ابن عساكر ج١ ص ١٧٨ـ٨٠ ؛ الابشيهي ، المستطرف (القاهرة، ١٣١٤) ج١ ص ١٠٠ـ١٠١ .

٤) ابو يوسف، الخراج ص ١٥٢ـ٣ ؛ ابن الجوزي، سيرة عمر ص ١٠٠ ؛ العقد ج٢ ص ٣٣٩ـ٤٠ ؛ ابن الاثير ج٥ ص ٤٩ ؛ A. S. Tritton, *The Caliphs and their non - Muslim Subjects* (Oxford, 1930) pp. 5—35 .

٥) ابن خلكان ج١ ص٣٠٢ .

تتعبد فيها كما انه منح النصارى واليهود حق ابتناء المعابد لهم وانتدب اتباع زرادشت ايضاً لمناصب الدولة .

وكان في آخر طبقات الهيئة الاجتماعية الرقيق [١] .وقد احتفظ الاسلام بنظام الرقيق السامي القديم الذي أقرته التوراة من قبل . ومع ان الاسلام أوصى باصلاح شأن العبد، ومنع الشرع استرقاق المسلم فان الرقيق لم يكن من حقه ان يعتق بمجرد دخوله في الاسلام . وكان معظم العبيد في فجر الاسلام من اسرى الحرب او الغزو او من الذين شروا بالمال . واصبحت تجارة الرقيق في العهود الاسلامية الاولى ذات موارد وارباح في جميع البلدان الاسلامية . وكان العبيد اجناساً شتى منهم الزنجي الاسود من افريقية ومنهم الاصفر من فرغانة او تركستان الصينية والأبيض من الشرق الأدنى او من شرقي اوربا وجنوبيها . وتختلف اثمان العبيد بالنسبة الى اجناسهم ومهارتهم . فالاسبان منهم وقد سموا صقالبة [٢] من لفظة « اسكلابو » الاسبانية بلغ ثمن الواحد منهم الف دينار . أما العبد التركي فلم يزد ثمنه في الغالب على ستمئة دينار . ونصت الشريعة الاسلامية ان مولود الأمة من غير سيدها عبد سواءٌ أكان الوالد عبداً او حراً وكذلك يحسب ولدها من سيدها ما لم يعترف ببنوته . اما اولاد العبد من زوجة حرة فأحرار .

ومن الأرقام التي وصلتنا و بعضها مبالغ فيه ـ نستدل على عدد الرقيق الذين طما سيلهم على الامبراطورية الاسلامية اثر الفتوح. فقد أخذ موسى ابن نصير ٣٠٠ الف اسير من افريقية فأرسل خمسهم الى الوليد [٣] وغنم كذلك ثلاثين الف عذراء [٤] من بنات ملوك القوط واعيانهم . وقيل شرط قتيبة في صلح الصغد وحدها مئة الف اسير [٥] وخلّف الزبير ابن

---

١) تطلق هذه اللفظة على كل من كان مملوكاً مستعبداً بقطع النظر عن لونه او جنسه وقد آثرناها على كلمة « عبيد » لان العبد في اصطلاح المولدين هو الزنجي وبعرف اللغة هو الانسان حراً كان او مستعبداً .

٢) اطلق العرب اللفظة نفسها على السلاف وهم من شعوب اوروبا الشرقية الجنوبية .

٣) المقري ج ١ ص ١٤٨ .

٤) ابن الاثير ج ٤ ص ٤٤٨ .

٥) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٥٤ .

العوام الف فرس والف عبد وأمة (١) . اما الشاعر المكي الشهير عمر ابن ابي ربيعة فقد كان له من الرقيق اكثر من سبعين (٢) . ولم يكن غريباً ان يقتني الامير الأموي من الحشم نحو الف عبد حتى الجندي في الجيش السوري ايام صفين كان له عدد من الخدم يتراوح بين الواحد والعشرة يقومون على خدمته (٣) .

ولم يكن للأمة حق ان تكون زوجة شرعية لسيدها وكان التسرّي هو المألوف وما يولد من البنين في مثل هذه الحالة هم ابناء السيد ولهذا فهم احرار وتصبح امهم ام ولد فترتفع بذلك مكانتها الاجتماعية ولا يحق للزوج بعد ذلك بيعها او اهداؤها الى سواه حتى اذا مات عنها اعتقت . وقد كان لتجارة الرقيق اثر عظيم في عملية الامتزاج والاندماج التي أدى اليها اختلاط العرب بالاغراب .

المدينة ومكة

كانت الحياة الهادئة في المدينة حيث دفن النبي وما يخالطها من معاني الجلال والتقديس من ذكريات السلف الاول عاملا دفع بالكثيرين من طلاب العلم والراغبين في جمع السنة وفهم المقررات الشرعية ان يفدوا اليها . وما لبثت أن غدت اول مركز لدراسة علم الحديث الذي زها زمن انس ابن مالك (المتوفى بين ٧٠٩ و ٧١١) وعبد الله ابن عمر ابن الخطاب (٤) (المتوفى ٦٩٣) واصبح في مقدمة العلوم الاسلامية .

أما مدرسة مكة فترجع شهرتها الواسعة الى عبد الله ابن عباس المعروف بابي العباس (المتوفى نحو ٦٨٨) وهو ابن عم الرسول وجدّ الخلفاء العباسيين . وقد اجمع الناس على الاعجاب به لتبحره في الحديث والاخبار والفقه ولبراعته في تفسير القرآن بحيث دعي « حبر

١) المسعودي ج ٤ ص ٢٥٤ .
٢) الاغاني ج ١ ص ٣٧ .
٣) المسعودي ج ٤ ص ٣٨٧ ؛ وراجع جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، الطبعة الثالثة (القاهرة ، ١٩٢٢) ج ٥ ص ٢٢ وما يلي .
٤) يعرف بابن عمر وهو اكبر ابناء الخليفة عمر ابن الخطاب واحد الصحابة المقدمين وقد وثقه علماء الحديث اكثر مما وثقوا ابن مالك الذي حفظت احاديثه في مسند احمد ابن حنبل .

الأمة » وهو لقب يغبطه عليه الكثيرون . الا ان النقد العلمي اظهر انه قد اسند اليه كثير من الاحاديث الملفقة .

ولقد اكتسبت مدينتا الحجاز صبغة جديدة في عهد الامويين فقد كان يفد الى المدينة ـ العاصمة المهجورة ـ كثيرون من معتزلي السياسة وطالبي الراحة ليكونوا بعيدين عن الضوضاء والاضطراب وليتنعموا بما اغدقته عليهم الفتوحات من فيء وما حظوا به من ثروة وجاه. ولقد سلك نفر كبير من « الاغنياء المستجدين » سبيل الاسراف فتوافدوا على المدينة فازدهرت بهم وشيدت فيها الدور الجديدة و بنيت في ضواحيها القصور الفخمة وقد جمعت لهؤلاء الاغنياء والاشراف في قصورهم طوائف من الخدم والرقيق يقومون على خدمتهم و ييسرون لهم سبل اللهو والترف . (١) ولم يكن حظُّ مكة في هذا السبيل أقل بكثير من حظ المدينة . و بازدياد الترف في هاتين الحاضرتين و بنوع خاص في المدينة ازدادت بيوت القيان وكثر اللهو والمجون (٢) . وكانت وفود الحجاج القادمة كل سنة من مختلف البلدان الاسلامية وما تنفقه من اموال طائلة في مواسم الحج عاملاً آخر ادى الى ازدهار المدينتين وانتقالهما من حال الى حال .

علل شربه ووارد خمس و بعيد ما بين وارد رفه

وفي الواقع فقد اختلفت الحياة الجديدة في هاتين المدينتين حين فاضت الدنيا عليهما عن الحياة التي الفناها في عهد عمر ابن الخطاب حين اتاه عامله من البحرين ومعه ٥٠٠ الف درهم فدهش عمر وقام يخطب في الناس ويقول : « انه قدم علينا مال كثير فان شئتم ان نعدّ لكم عداً وان شئتم ان نكيله لكم كيلاً » (٣).

وهكذا فقد كان لازدياد الثروة في المدينتين المقدستين أثر في ازدياد الترف فانصرف الناس فيهما الى المجون والعبث واصبحت كل منهما مركزاً للغناء واللهو وموئلاً للقيان والعابثين .

---

١) المسعودي ج ٤ ص ٢٥٤ ـ ٥ .
٢) الاغاني ج ٢١ ص ١٩٧ .
٣) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ٢١٦ ؛ البلاذري ٤٥٣ .

وقد أسس بعضهم في مكة نادياً يؤمه الزائرون « فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتدٍ منها ثم جر دفتراً فقرأه او بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم » (١) . وازداد عدد القيان من بنات الفرس والروم وانتشرت بيوت الفسق. وكان ينتابها من القوم كثيرون نذكرمنهم على سبيل التمثيل الفرزدق الشاعر المشهور (٢) . وسار الشعر الغزلي جنباً الى جنب مع الحياة الجديدة فنما وارتقى .

وكان يسكن المدينة في مطلع عهد بني مروان ألمع نساء ذلك العصر السيدة (٣) الحسناء سكينة بنت الحسين (المتوفاة ٧٣٥) وحفيدة الامام علي وكانت مكانتها الاجتماعية وعلمها وحبها للادب والشعر والغناء وما اتصفت به من جمال وحسن ذوق وسرعة خاطر من الامور التي يسرت لها ان تكون زعيمة بين نساء الحجاز تُستشار وتحكم في امور الزي والجمال والادب . وكانت ظريفة مزاحة(٤) وكان من مزاحها مرة ان اجلست شيخاً فارسياً على قفة فيها بيض وامرته ان يقاقي كالدجاجة ايناساً للحاضرين ويروى عنها ايضاً انها بعثت الى صاحب الشرطة تقول : انه دخل علينا شامي فارسل الينا بالشرط فركب ومن معه فلما أتى الى الباب فتحت له ثم امرت جارية فأخرجت اليه برغوثاً (٥)وقالت هذا الشامي الذي شكوناه . وكانت تعقد في دارها مجالس للشعراء والعلماء تجالس فيها الأجلة من قريش وتجاذبهم اطراف الحديث والمناظرة . وكانت شديدة الاعجاب بنسبها كثيرة الاهتمام بابنتها بحيث كانت تغمرها بانواع الجواهر والحلي وتقول ما ألبستها اياه الا لتفضحه (٦) وهي الى ذلك شديدة الاتقان لزينتها تصفف شعرها تصفيفاً لم يرَ احسن منه حتى عرفت تلك الجمة بالجمة السكينية نسبة اليها وفتنت بعض الرجال فكانوا يأخذون بها (٧) وكان عمر ابن عبد العزيز (٨) اذا وجد رجلاً

---

١) الاغاني ج ٤ ص ٥٢ .
٢) الاغاني ج ٢١ ص ١٩٧ .
٣) خص هذا اللقب اصلا بالنساء من آل البيت .
٤) الاغاني ج ١٤ ص ١٦٤ – ٥ ؛ ج ١٧ ص ٩٧ ، ١٠١ – ٢ .
٥) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٦٦ ؛ ج ١٧ ص ٩٤ .
٦) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٦٨ .
٧) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٧ .
٨) الاغاني ج ١٤ ص ١٦٥ .

يصفف جمته على الطريقة السكينية جلده وحلقه . وقد كان لهذا الخليفة اخٌ تزوج من سكينة ولكنه لم يساكنها . اما الرجال الذين وقعوا في شباك سحرها وتعاقبوا على الزواج منها وساكنوها واحداً بعد الآخر فعددهم يتجاوز العشرة (١) وقد اشترطت غير مرة على بعض طالبي يدها انها لا تتخلى عن حريتها المطلقة .

وكان لسكينة في الطائف المصيف المشهور في ذلك العصر مناظرة شهد اهل الطائف كثيراً من الحوادث المتعلقة بها وهي عائشة بنت طلحة . وقد كان ابوها كما هو معروف من كبار الصحابة وكانت امها بنت ابي بكر واخت السيدة عائشة زوج النبي . وقد اجتمعت لبنت طلحة هذه مزايا من كرم المحتد وبارع الجمال وسمو النفس وخفة الروح - وهي شروط الكمال النسائي عند العرب - ما جعلها تفوق حتى مناظرتها سكينة . وكان لها في عيشها ما تريد (٢). حدثوا انها حجت الى مكة في ولاية الحارث ابن خالد المخزومي فارسلت اليه تسأله ان يؤخر الصلاة حتى تفرغ من طوافها فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة حتى فرغت من طوافها فأنكر اهل الموسم ذلك الامر واعظموه وبلغ عبد الملك ما فعل عامله فعزله وكتب اليه يؤنبه فقال الحارث : ما أهون والله غضبه اذا رضيت . والله لو لم تفرغ من طوافها الى الليل لأخرت الصلاة الى الليل (٣). غير ان ازواج عائشة لم يزيدوا عن الثلاثة (٤) . ويحكى ان زوجها الثاني مصعب ابن الزبير أمهرها مليون درهم كما كان قد امهر سكينة من قبل (٥) وكانت وهي عنده لا تستر وجهها من احد فعاتبها مصعب في ذلك فقالت : « ان الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال احببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم فما كنت لأستره . » (٦)

---

١) راجع اسماءهم في ابن سعد ج ٨ ص ٣٤٩ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ص ١٠١ ، ١٠٩ - ١١٠ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ٢٨٩ - ٩٠ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٧ ، الاغاني ج ١٤ ص ١٦٨ - ٧٢ .
٢) الاغاني ج ١٠ ص ٦٠ .
٣) الاغاني ج ٣ : ١٠٣ .
٤) ابن سعد ج ٨ ص ٣٤٣ .
٥) الاغاني ج ٣ ص ١٢٢ .
٦) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٥٤ .

الفَصْلُ الحَادِي وَالعِشْرُون

مناحي الحياة الفكرية في العصر الاموي

لم يكن للعرب حين حلوا الامصار التي فتحوها أي ثقافة او تراث فكري . ففي سورية ومصر والعراق وفارس تعلق الفاتحون بحضارة الامم التي غلبوها فنقلوا عنها وكانوا مهرة في النقل واظهروا قابلية فائقة للغذاء العقلي .

غير أن قرب عهد الأمويين بايام الجاهلية والحروب والفتن الداخلية والخارجية التي قاست شرها البلدان الاسلامية في العصر الأموي وما رافق ذلك من اضطراب الاحوال الاجتماعية والاقتصادية – كل هذه الامور قضت ان يكون سير الحياة الفكرية في ذلك العهد بطيئاً . ولكن النواة التي تنمو منها شجرة الفكر كانت قد زرعت وكانت هذه الشجرة التي ظهرت منها وازدهرت في العصر العباسي قد تأصلت جذورها في ثقافات العهود السالفة في ايام الاغريق والسريان والفرس . فالعصر الاموي اذن كان بوجه عام عصر حضانة واستعداد .

ولقد بادر الفرس والسريان والاقباط والبربر وسواهم الى الدخول في حظيرة الاسلام وامتزجوا مع العرب بالزواج فاقتضى ذلك أن يزول الحاجز المنيع الذي وضعه الاولون بين العرب والاعاجم واخذت معالم الجنسيات المختلفة تذوب في بوتقة الاسلام بحيث ان المسلم بقطع النظر عن جنسيته القديمة اصبح حين اعتنق الاسلام وتعلم العربية وكتبها يعتبر من ابناء العربية . وهي ظاهرة من اهم الظواهر في تاريخ المدنية الاسلامية . فاذا ما أشرنا الى ما كان عند العرب من طب وفلسفة وعلوم رياضية فلسنا نعني بذلك ان هذه العلوم كانت نتاج العقل العربي الصميم او ان واضعيها كانوا من ابناء الجزيرة بل نقصد ان هذه العلوم قد وضعها في اللغة العربية رجال نشأ اكثرهم في عصور الخلافة وكانوا من جنسيات مختلفة

ويدينون بأديان مختلفة . فمنهم فرس وسريان ومصريون وعرب من نصارى ويهود ومسلمين ولا يبعد ان يكون بعضهم قد استمد علمه من مصادر يونانية او آرامية او هندية او فارسية .

البصرة والكوفة

وكما اصبحت مكة والمدينة في الحجاز موطن الموسيقى والغناء والحب والغزل في ايام الامويين هكذا اصبحت البصرة (١) والكوفة في العراق موئل الحركة الفكرية في العالم الاسلامي في ذلك العصر .

الصرف والنحو

ولقد تقدم معنا ان هاتين البلدتين كانتا في اول عهدهما معسكرين للجيش امر الخليفة عمر ابن الخطاب ببنائهما سنة ١٧ / ٦٣٨ (٢) . ولقد أنشئت الكوفة بالقرب من انقاض بابل القديمة وجعلها الامام علي فيما بعد عاصمة له واصبحت مركزاً لحركة ادبية فكانت بذلك وريثة الحيرة عاصمة اللخميين . ولقد تمتعت كل من هاتين الحاضرتين ــ البصرة والكوفة ــ بمكانة كبرى نظراً لأهمية موقعهما الجغرافي واستفادتا من التجارة والهجرة بحيث تبوأتا مركزاً سامياً في حياة العرب الاقتصادية فبلغ سكان الواحدة ما يزيد عن مئة الف نفس . ويقال ان البصرة وهي مركز حكومة خراسان ايام الامويين بلغ مجموع سكانها سنة ٥٠ / ٦٧٠ ثلاثمئة الف وكان فيها بعدئذ مئة وعشرون الف قناة (٣) (كذا) . وقامت البصرة على تخوم فارس فنشأت فيها دراسات اللغة العربية . ومنها أصول الصرف والنحو وذلك بالأكثر لتعليم الاعاجم الداخلين في الاسلام . على ان بعض هؤلاء اصبحوا فيما بعد من مدرسي هذه العلوم وحملتها . وانما دفع الاعاجم الى العربية اولاً رغبتهم في ان يدرسوا القرآن ويشغلوا المناصب الادارية ويخاطبوا الفاتحين بلغتهم . أضف الى ذلك ان الشقة كانت تتسع بين لغة القرآن الفصحى واللهجات العامية فاقتضى الاتجاه الى هذه الدروس اللغوية .

---

١) تقع البصرة اليوم على بعد ستة اميال في الشمال الشرقي من المدينة القديمة .
٢) لعل الكوفة بنيت بعد البصرة بسنة او سنتين ؛ ياقوت ج ٤ ص ٣٢٢ ــ ٣ .
٣) الاصطخري ص ٨٠ ؛ ابن حوقل ص ١٥٩ .

واذن فليس صدفة أن يظهر في البصرة اول واضع للنحو العربي (على قول الرواة) وهو ابو الاسود الدؤلي (المتوفى ٦٨٨) . وقد زعم ابن خلكان (١) ان علياً وضع للدؤلي: « الكلام كله ثلاثة اضرب اسم وفعل وحرف ثم دفعه اليه وقال له تمم على هذا » فأتم موفقاً . الا ان النحو العربي نفسه ينمّ عن نشوء بطيء طويل وقد اصطبغ بتأثير المنطق اليوناني . وظهر بعد ابي الاسود الدؤلي من علماء البصرة الخليل ابن احمد وهو اول من وضع معجماً عربياً « كتاب العين » واليه ينسب اصحاب التراجم استنباط بحور الشعر واصول العروض التي لا تزال مرعية الى اليوم كما ينسبون الى تلميذه الفارسي سيبويه (المتوفى نحو ٧٩٣) اول مصنف مدرسيّ منظم في النحو يعرف باسم « الكتاب » يعتمده ابناء العربية مرجعاً أخيراً في دراسة النحو .

الحديث والشرع

افضت دراسة القرآن وضرورة شرحه الى ظهور علم جديد هو فقه اللغة (الفيلولوجيا) وعلم مفرداتها كما افضت ايضاً الى علم الحديث وهو ابرز العلوم الاسلامية . والحديث بالمعنى الوضعي هو عمل او قول منسوب الى النبي او احد الصحابة . ولقد كان القرآن والحديث بمثابة الاساس الذي بني عليه علم اصول الدين والفقه وهما ناحيتان ملازمتان للشريعة . والشريعة الاسلامية اشد علاقة بالدين وأصوله من علم الحقوق المعروف عند محترفي المحاماة في العصر الحديث . ولقد أثر القانون الروماني مباشرة او بواسطة التلمود في التشريع الاموي الا ان المدى الذي بلغه ذلك الأثر لم يتحقق بعد . والواقع ان هذه الحقبة التي لم يصل الينا من مدوناتها شيء يذكر تكاد تكون مجهولة الأثر فلا يُعرف فيها الا رجال قلائل من المحدثين والفقهاء اخصهم بالذكر الحسن البصري وابن شهاب الزهري (المتوفى ٧٤٢) وهذا الأخير قرشي وقد روي عنه انه « كان اذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من امور الدنيا فقالت له امرأته يوماً : والله لهذه الكتب اشد عليّ من ثلاث ضرائر » (٢).

١) ج ١ ص ٤٢٩ — ٣٠ .
٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٢٣ ؛ ابو الفداء ج ١ ص ٢١٥ — ١٦ . ويروى شيء مثل هذا عن الزبير ابن بكار . ابن خلكان (بولاق ، ١٢٧٥) ج ١ ص ٢٦٦ .

اما الحسن البصري فمن اعلام نقلة الحديث قيل انه عرف سبعين رجلاً ممن شهدوا بدراً . وكان الحسن مبعثاً لكثير من الحركات الفكرية في الاسلام . وقد تغذت الصوفية طوال الأجيال بآثار زهده وتقاه . اما اهل السنة فيتناقلون عنه الحكم والاقوال الرشيدة كما ان المعتزلة تحسبه منها . فلا عجب بعد هذا ان نسمع ان كل سكان البصرة ساروا في جنازته يوم الجمعة في العاشر من تشرين الاول سنة ٧٢٨ فلم تتم صلاة العصر بالجامع ، ويقول ابن خلكان انه لا يعلم « انها تركت مذ كان الاسلام الا يومئذ . » (١)

اما الكوفيون وكثيرون منهم شيعة او علويون فقد اتحفوا فقه اللغة والعلوم الاسلامية بما يكاد يعادل ما قدمه البصريون . ولقد نشأ عن المناظرة بين علماء المدينتين مدرستان معروفتان في النحو والأدب . وقد نزل الكوفة في عهد عمر وعثمان من اعلام الصحابة عبد الله ابن مسعود (حوالي ٦٥٢) وهو ثقة في الحديث وكان احمر الشعر دقيق الساقين وقد نسبوا اليه انه نقل عن الرسول ثماني مئة واربعين حديثاً (٢) . ومن مزاياه انه كان اذا حدّث عن الرسول ارعد وارعدت ثيابه حتى يتحدر العرق من جبهته وكان يزن كلماته ويدقق فيها فيقول : « نحو ذا » او « شبه ذا » اعتناء بنقل الحديث مضبوطاً (٣) .
ومن مشاهير محدثي الكوفة ايضاً عامر ابن شراحيل الشعبي (المتوفى نحو ٧٢٨) وهو من اهالي جنوبي الجزيرة الذين ادركوا وجاهةً في صدر الاسلام قيل انه سمع الحديث من مئة وخمسين صحابياً (٤) رواه عن ذاكرته ولم يدوّن منه حرفاً . ويميل النقادة المحدثون الى اعتباره بالاجمال صادق الرواية . وقد حكى الشعبي عن نفسه ان الخليفة عبد الملك ابن مروان انفذه بمهمة الى امبراطور الروم في القسطنطينية . وكان من ابرز الذين تخرجوا على الشعبي الامام ابو حنيفة المشهور .

وبلغت مدينتا البصرة والكوفة قمة مكانتهما الفكرية في عصر العباسيين كما سيتضح

---

١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٨ .
٢) النووي ، تهذيب الاسماء ص ٣٧٠ .
٣) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١١٠ ـ ١١ .
٤) السمعاني ، الانساب ، نشر مرغوليوث (ليدن ، ١٩١٢) ورقة رقم ٣٣٤ وقابل ابن خلكان ج ١ ص ٤٣٦ .

فيما بعد . ولم ينهج علماؤهما في ميدان الحديث والفقه نهج القدماء المحافظين من علماء الحجاز .

تدوين التاريخ

وكان ان بدأ تدوين التاريخ عند العرب في هذا العصر ايضاً واتخذ شكل الحديث . فقد كان التاريخ احد المناهج التهذيبية الاولى التي نهجها العرب المسلمون . اما البواعث التي اضرمت جذوة الابحاث التاريخية فشتى . منها غيرة الخلفاء الأول على تصفح اخبار الملوك والامراء الماضين وانصراف المسلمين الى جمع الاخبار والقصص التي تلم بسيرة الرسول وصحابته - وقد اصبحت هذه القصص بعدئذ اساساً لما نشأ من كتب السيرة وكتب المغازي . ومنهـا الحاجة الى اثبات نسب كل مسلم عربي لتقرير ما يُفرض له من اعطيات بيت المال ، وايضاح المعمّى في مقطعات الشعر العربي القديم ، والاحاطة باسماء الاشخاص والامـاكن الواردة في كتب الدين ، ورغبة الشعوب المغلوبة في تدوين الغابر من مآثر اسلافها كما تقـاوم بذلك العصبية العربية المتطرفة . ومن اقدم الرواة البارزين عَبيد ابن شريه وهو من جنوبي الجزيرة صلاً استدعاه معاوية الى دمشق من صنعاء اليمن فسأله عن الاخبار المتقدمـة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسن (١) . ولقد صنف عَبيد للخليفة كتباً في دائرة اختصاصه منها «كتاب الملوك واخبار الماضين» الذي كان متداولا في ايدي الناس في ايام المؤرخ المسعودي (٢) (المتوفى ٩٥٦) . وقد اشتهر في علم الأوائل ايضاً وهب ابن منبّه (المتوفى في صنعاء حوالي ٧٢٨) وهو يهودي يماني فارسي الأصل ، والراجح انه أسلم في صباه وتنسب اليـه كتب نشر احدها اخيراً (٣) . ومع انه يشك جداً في صدق رواياته فهو يعتبر من المصـادر الأوليـة عن جاهلية الجنوب والبلدان الجنوبية (٤) . اما كعب الأحبار (المتوفى في حمص ٦٥٢ أو ٦٥٤) فهو يهودي يماني ايضاً اسلم في خلافة ابي بكر وقيل بل في خلافة عمر . وكان معلماً ومرشداً

---

١) الفهرست لابن النديم، نشر فلوغل (ليبزغ، ١٨٧٢) ص ٨٩ ؛ قابل ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٥ .

٢) ج ٤ ص ٨٩ .

٣) التيجان في ملوك حمير (حيدر آباد، ١٣٤٧) وقد اضيفت اليه مواد (ص ٣١١ - ٨٩ ؛) تحت عنوان « اخبار عبيد » .

٤) ابن خلكان ج ٣ ص ١٠٦ - ٧ ؛ الطبري ج ٣ ص ٢٤٩٣ - ٤ ؛ النووي ص ٦١٩ .

التحق بمعاوية يوم كان هذا أمير الشام (١) . واصبح كعب اقدم الاخباريين في موضوع الاحاديث اليهودية والاسلامية . و بواسطة كعب وابن منبه وسواهما من اليهود الذين أسلموا تسربت الى الحديث طائفة من اقاصيص التلمود ـ الاسرائيليات ـ وما لبثت هذه الروايات ان اصبحت جزءاً من الاخبار العربية التاريخية .

ويرى الباحث في الحقبة الاموية اصولا لكثير من الحركات الدينية الفلسفية التي ما عتمت ان عبثت بالاسلام فزعزعت اركان وحدته . ففي الشطر ألاول من القرن الثالث ظهر في البصرة واصل ابن عطاء (المتوفى ٧٤٨) وهو مؤسس المدرسة الفكرية التي اعتمد اصحابها على العقل دون النقل وقالوا بالمنزلة بين المنزلتين اي ان الفاسق المرتكب للكبائر يعتزل عن جماعة المؤمنين فهو ليس بمؤمن ولا كافر بل له مقام وسط بين الاثنين وهو الاعتزال ومنه عرفوا بالمعتزلة (٢) ولقد سمع واصل من الحسن البصري الذي كان في اول امره يقول بحرية الارادة فاصبح هذا القول ركناً ثانياً في عقيدة المعتزلة . وكان القول بحرية الارادة آنذاك يأخذ به القدرية اي اصحاب القدرة التي جعلها الله لهم بخلاف الجبرية (٣) . والقدرية تمثل رد فعل لما جاء به الاسلام من تسليم ليد القضاء والقدر الناجم عن الاذعان لعظمة الله وسلطانه هذا الاذعان الذي شدد عليه القرآن (٤) . وهي تنم عن مؤثرات اغريقية نصرانية . والقدرية اقدم مدارس الفكر في الاسلام ويدلنا على سعة انتشار مبادئها ان اثنين من خلفاء بني امية هما معاوية الثاني ويزيد الثالث كانا من اتباعها . (٥)

واضافت المعتزلة الى الاعتقاد بحرية الارادة مبدأ آخر هو نفي وجود الصفات الالهية كالقوة والحكمة والحياة مستندة الى ان وجود هذه الصفات يناقض وحدة الله وهذا هو

---

١) راجع النووي ص ٥٢٣ ؛ ابن سعد ج ٧ قسم ٣ ص ١٥٦ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ص ٢١٩ .

٢) المسعودي ج ٦ ص ٢٢ ؛ ج ٧ ص ٢٣٤ ؛ قابل الشهرستاني ص ٣٣ ؛ البغدادي ، اصول الدين (استنبول ، ١٩٢٨) ج ١ ص ٣٣٥ وله ايضاً مختصر الفرق بين الفرق ، نشر حتي (القاهرة ، ١٩٢٤) ص ٩٨ ؛ النوبختي ، فرق الشيعة ، نشر رتر (استنبول ، ١٩٣١) ص ٥ .

٣) قابل الايجي ، كتاب المواقف ، نشر سورنسن (ليبزغ ، ١٨٤٨) ص ٣٣٤ ، ٣٦٢ .

٤) آل عمران : ٢٥ ـ ٢٦ ؛ الحجر : ٢١ ؛ الشورى : ٢٦ ؛ الزخرف : ١٠ ؛ القمر : ٩ ؛ الخ وقابل ابن حزم ص ٣١ .

٥) ابن العبري ص ١٩٠ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٢ .

السر في ان اتباع مذهب الاعتزال يطلقون على انفسهم لقب « اهل العدل والتوحيد » . وقد ادركت هذه النزعة الفكرية التي ترمي الى تحكيم العقل مقاماً سامياً في عهد العباسيين وبالاخص في زمن المأمون (٨١٣ ـ ٣٣) كما سنرى ونستطيع القول ان عهد بغداد من الناحية الفكرية بدأ يوم انتهى عهد البصرة والكوفة .

القديس يوحنا الدمشقي

وكان من اعظم الرجال الذين ساهموا في نقل بعض النزعات النصرانية والافكار الاغريقية يوحنا الدمشقي (١) ، وكان يوحنا هذا يلقب لفصاحته بدفاق الذهب اسوة بسميه الاسبق يوحنا الانطاكي الذي كان يلقب بفم الذهب . ولم يكن القديس يوحنا اغريقياً وان كتب باليونانية بل كان سورياً آرامي اللسان وكان جده منصور ابن سرجون هو القائم على ادارة المال في دمشق خلال الفتح العربي . وهو الذي واطأ اسقف دمشق على تسليم المدينة للمسلمين فابقى المسلمون له منصبه الذي خلفه فيه ابنه والد القديس يوحنا . اما يوحنا فكان في شبابه نديم يزيد ابن معاوية ثم خلف اباه وجده في استلام زمام الادارة المالية في الدولة العربية ولم يزل مشرفاً عليها حتى خلافة هشام (٧٢٤ ـ ٤٣) حينما اعتزل الادارة وانصرف الى حياة الزهد والتعبد واقام في دير القديس سابا بالقرب من بيت المقدس حيث قضى نحبه حوالي ٧٤٨ . ومن مؤلفات القديس يوحنا محاورة مع مسلم في موضوع الوهيةالمسيح وحرية الارادة البشرية وهي بمثابة دفاع عن النصرانية . ومنها كتاب لارشاد النصارى في مجادلاتهم مع المسلمين . والراجح ان يوحنا نفسه باحث في كثير من هذه المسائل في حضرة الخليفة . وكان له تأثير في تكوين المدرسة القدرية . والى القديس يوحنا تنسب التقاليد القديمة قصة برلام الزاهد ويوصافات الامير الهندي ولعلها اشهر ما في العصور الوسطى من الاساطير الدينية . ويعتبرها نقاد العلم الحديث نسخة نصرانية لحادثة او فصل من حياة بوذا . ومن الغريب ان كنيستي روما والقسطنطينية قد اثبتتا قداسة يوصافات هذا (او ايوصاف) قانونياً فاصبح بوذا قديساً عند النصارى مرتين . اما كاتب قصة برلام ويوصافات فالظاهر

١) انظر سيرته في Migne, *Patrologia Graeca* vol. xciv (1860) p. 429—489

انه راهب خامل الذكر اسمه يوحنا عاش في دير القديس سابا خلال القرن السادس . وقد اورد الفهرست (١) ذكراً لكتاب البدّ (اي بوذا) وكتاب يوداسف اللذين ترجما عن اصل بهلوي لا يوناني . ومهما يكن من امر فان يوحنا الدمشقي هو آخر لاهوتي قام في كنيسة الروم الشرقية . وفي الآداب الكنسية اصبحت التراتيم التي نظمها (ولا يزال بعضها مستعملاً في كتب التراتيم الانجيلية) أعلى ما وصل اليه شعراء الكنيسة النصرانية من روعة وابداع . فالقديس يوحنا اذاً مفخرة من مفاخر الكنيسة التي ازدهرت في ظل الخلافة وذلك لما اتصف به من النضوج والمقدرة كمرنم ولاهوتي وخطيب وكاتب بارع في الجدل .

الخوارج

واذا كانت القدرية اقدم مدارس الفكر الفلسفي في الاسلام فالخوارج اقدم الفرق الدينية السياسية . وقد كانوا قبل خروجهم من أصحاب علي ثم انقلبوا عليه واصبحوا من اشد خصومه وقد ناهضوا بقوة السلاح مبدأ حصر الامامة بقريش (٢) وسعوا الى اقرار المبادىء الديمقراطية التي جاء بها الاسلام فقاموا بثورات وحروب جرت فيها الدماء غزيرة طيلة القرون الثلاثة الاولى من تاريخ الاسلام . وكان من عقائدهم التي ظهرت وتبلورت بعد خروجهم بزمن ان انكروا وقبحوا كرامة الأولياء وما يحيط بذلك من عبادة ومراسيم وزيارة الى قبور الصالحين وحرموا ايضاً الطرق الصوفية . ويعرف من فِرق الخوارج اليوم فرقة تسمى الاباضية (بكسر الالف وتفتح في العامية) نسبة الى عبد الله ابن اباض (٣) (من اهل النصف الثاني من القرن الاول للهجرة) وهو اكثر مؤسسي الفرق الخارجية تساهلاً . والاباضية اليوم منتشرون في الجزائر وطرابلس الغرب وعمان وزنجبار (وقد عبروا البحر اليها من عمان) .

المرجئة

ومن الفرق الدينية التي نشأت في العصر الأموي المرجئة وهي قليلة الشأن وقد قالت

---

١) ص ٣٠٥ .

٢) ابن الجوزي ، نقد العلم والعلماء (القاهرة ، ١٣٤٠) ص ١٠٢ .

٣) الشهرستاني ص ١٠٠ ؛ البغدادي ، مختصر ص ٨٧ – ٨ ؛ الايجي ص ٣٥٦ .

بالارجاء في اصدار الحكم على المؤمنين الذين يرتكبون الكبائر فلم تحسبهم كفاراً (١) . ولم تسلم المرجئة بان انصراف خلفاء بني امية عن تطبيق الشريعة كاف لحرمانهم من حقوقهم كأولياء الأمر في الاسلام . وقالت المرجئة ايضاً ان عثمان وعلياً ومعاوية كلهم عبيد الله وان الله وحده يحاسبهم . لذلك اكتسب اتباع هذه الفرقة مزية التساهل في الامور . وابرز ممثلي المعتدلين منهم الامام الكبير ابو حنيفة (المتوفى ٧٦٧) الذي وضع الاساس لأول مدارس الشرع الاربع في الاسلام .

الشيعة

لقد اتخذت حركة الشيعة شكلها النهائي في العصر الاموي . وهي احدى الفرقتين الرئيسيتين اللتين انشق اليهما المؤمنون في صدر الاسلام مختلفين على مسألة الخلافة . ولقد اصبحت الامامة بعدئذ ولا تزال موضوع النزاع بين السنّة والشيعة . ولا يفرق كثيراً الاعتقاد الراسخ بنفوس الشيعة بصحة الامامة وانها من حق علي وابنائه عما توليه الكنيسة الكاثوليكية في عقائدها للقديس بطرس وخلفائه . وهي الصفة البارزة التي تتميز بها الشيعة عن غيرها من الملل الاسلامية . ان مؤسس الاسلام جعل الواسطة بين الله والانسان الوحي او قل القرآن اما الشيعة فقد جعلت تلك الواسطة شخصاً هو الامام (٢) فكأن الشيعة اضافت الى الايمان بالله والايمان بنزول القرآن المحفوظ في السماء السابعة منذ الازل مادة جديدة هي الايمان بان الامام الذي يختاره الله ويلقي عليه شيئاً من روحه هو الواسطة الى الهداية .

فالامام بموجب نظام الامامة المناقض لرأي أهل السنة (٣) هو رأس الجماعة الاسلامية الشرعي دون سواه وقد اختصه الله بهذا المنصب السامي . وهو من آل البيت من ذرّية فاطمة وعلي ويجمع بين الرئاسة الروحية والدينية والزمنية . وهو وارث سرّ القوة الخارقة التي انتقلت

١) قابل البغدادي ، مختصر ص ١٢٢ ــ ٣ ؛ ابن حزم ج ٢ ص ٨٩ .

٢) الامام لفظة مشتقة من فعل « أم » فيقال ام فلان القوم في الصلاة يؤم أماً واماماً وامامة اي تقدمهم وكان لهم إماماً . ولقد وردت في القرآن (البقرة : ١١٨ ، النحل : ٧٩ ، الفرقان : ٧٤ ، يس : ١١) بلا معنى فني معين . والامام في الأصل من تقدم الناس في الصلاة وكانت هذه الرئاسة للنبي اولا ومن بعده للخلفاء ومن انتدبوه . ابن خلدون . المقدمة ص ١٥٩ ــ ٦٠ .

٣) راجع هذا الرأي في الايجي ص ٢٩٦ وما يلي .

اليه عن سلفه اي انه اختص بالعلم الذي يتوارثه الائمة (١) . وهكـذا فهو أعلى من البشر. وقد قال علماء الشيعة بعصمة (٢) الائمة بـل جنح بعض غلاتهم الى الاعتقـاد بتجسد الالوهية في الامام اي ان الامام بما له من صفات الذات الالهية النورانية هو شبه الله تعالى . وحسبوا علياً واولاده الائمة سلسلة متصلة الحلقات للحلول الالهي المتمثل في الشكل البشري .

ويصعب تقرير ما اخذته الشيعة في اول عهدها من الافـكار الفارسية وما استمدته من الآراء من مصادر يهودية ونصرانية . على ان الاعتقاد بالمهدي الذي نشأ فيما بعد واصبح يقوم على انتظار مخلص يكون ظهوره فاتحة عصر حرية وفلاح هو بلا ريب صدى للافـكار المتعلقة بمجيء المسيح الثاني . اما عبد الله ابن سبأ صاحب الشخصية الغامضة الذي أسلم في خلافة عثمان واحرج علياً بفرط اجلاله بحيث صار مؤسس مذهب غلاة الشيعة (٣) ، فقد كان يهودياً من اهل اليمن . ولقد ساهمت ايضاً دون شك فـكرة « المعرفة » الصوفية في انشاء فـكرة الامامة . ولم يكن بين بلدان العالم الاسلامي ارض خصبة كالعراق لنمو العقائد العلوية ، ولا تزال ايران الى هذا اليوم بسكانها البالغين نحو ١٣ أو ١٤ مليوناً معقل الشيعة (٤) الاكبر . وقد ظهر داخل الشيعة فرق ونزعات عديدة واخذ الـكثيرون من الناقمين او غير الراضين عن عقائد السنة لأسباب اقتصادية او اجتماعية او سياسية يلتفون حول آل البيت كما انضم اليهم جماعات ممن كانوا منذ القرن الاول يبطنون في نفوسهم الاحتجاج على زعامة العرب التي اقرّها الفتح الديني اذ وجدوا في الشيعة الحزب المعارض الأكبر لسلطة العرب القائمـة . وما الاسماعيلية

---

١) الشهرستاني ص ١٠٨ ــ ٩ ؛ المسعودي ج ١ ص ٧٠ .

٢) العصمة هي التحرر من الضلال والذنب وينسبها السنة بدرجات متفاوتة الى الانبياء فقط وخاصة الى محمد ، ابن حزم ج ٤ ص ٢ ــ ٢٥ ؛ I. Goldziher in *Der Islam*, vol. iii (1912), pp. 238 — 45; الايجي ص ١٢٨ وما يلي .

٣) الايجي ص ٣٤٣ .

٤) الشيعة اليوم نحو ٢٠ مليونا اي سبعة بالمئة من مجموع المسلمين منهم نحو ١٤ مليونا في ايران ونحو مليونين في الهند ومليون ونصف في العراق ومليون ونصف في اليمن حيث يعرفون باسم الزيدية . وفي لبنان وسورية مئة وثلاثون الفاً يعرفون بالمتاولة . ومن متطرفة الشيعة الاسماعيليون والدروز والنصيرية واليزيدية والعلي الهية وبهؤلاء يبلغ مجموع ابناء هذه الطوائف نحو ثلاثين مليوناً اي ما يقارب العشرة بالمئة من مجموع العالم الاسلامي .

القرامطة والدروز والنصيرية وغيرها مما سنلم به فيما بعد الا اغصان من دوحة الشيعة .

الخطابة

ازدهرت الخطابة في ايام الامويين وارتقت الى درجة لم تعهد قبلاً وادركت شأواً لم نفقه بعد . فقد كان يلجأ اليها الخطيب لتأدية رسالته الدينية ايام الجمع وعليها يعول القائد في إثارة الحماسة بين الجند وبها يستعين امراء الامصار في بعث الروح الوطنية في الرعية بحيث غدت في ذلك العصر الذي لم تتوفر فيه سبل الدعاية وسيلة فعالة لبث الافكار واثارة العواطف . فالحكم الادبية والاقوال البليغة المسجوعة التي تركها علي ومواعظ الحسن البصري الزاهد (المتوفى ٧٢٨) التي كتبها او ألقاها في حضرة الخليفة عمر ابن عبد العزيز فدوّنها مؤرخو سيرته (١) . والخطب الحربية والوطنية التي خطبها زياد ابن ابيه والخطب النارية التى القاها الحجاج — نقول ان كل تلك الخطب لتعد من أنفس الآثار الأدبية التي وصلت الينا من ذلك العصر القديم (٢) .

الرسائل

كانت الرسائل السياسية في عهد الخلفاء الراشدين مقتضبة موجزة تستهدف الغرض مباشرة بحيث يندر أن يجد الباحث مكاتبة رسمية تزيد عن بضعة سطور (٣) ويذهب ابن خلكان (٤) الى ان عبد الحميد الكاتب (المتوفى ٧٥٠) كاتب مروان ابن محمد آخر خلفاء بني امية كان اول من بدأ في إطالة الرسائل واستعمال التحميدات في فصول الكتب . وهي ظواهر تنم عن مؤثرات فارسية . ولقد اصبح هذا الاسلوب المصطنع مثالاً احتذاه الكتاب على مدى الاجيال التالية . وفي العربية قول معروف هو « ان صناعة الانشاء بدأت بعبد الحميد

---

١) ابن الجوزي ، سيرة ص ١٢١ ـ ٦ .
٢) راجع ابن قتيبة ، عيون الاخبار ج ٢ ص ٢٣١ ـ ٥٢ ؛ الجاحظ ، البيان ج ١ (القاهرة ، ١٩٢٦) ص ١٧٧ وما يلي ، ج ٢ ص ٤٧ ، وما يلي ؛ العقد ج ٢ ص ١٧٢ وما يلي .
٣) راجع امثلة على ذلك في القلقشندي ج ٦ ص ٣٨٨ ـ ٩١ .
٤) ج ١ ص ٥٥٠ ؛ قابل المسعودي ج ٦ ص ٨١ .

وانتهت بابن العميد .» (١) ومن المستطاع الكشف عن الأثر الفارسي الأدبي في كثير من الحكم والامثال المعزوة الى علي والى عامله الاحنف (٢) ابن قيس (المتوفى بعد ٦٨٧) والى اكثم ابن صيفي المشهور في الجاهلية الذي كان من القابه لقب « حكيم العرب » (٣).

الشعر

ان اعظم درجات الرقي التي بلغتها الحركة الفكرية في عهد الامويين قد كانت بلا ريب في ميدان صناعة الشعر . ولم يكن عصر بزوغ الاسلام ملائماً فيما يظهر لنشاط ربة القريض فقد مرت حقبة الفتوحات والتوسع دون أن ينبغ فيها شاعر واحد في العرب وهم أمة الشعراء . ولكن ما كاد يتولى الامويون الحكم وهم من ارباب الدنيا حتى استعادت آلهة الخمر والغناء والشعر منزلتها السابقة وظهر لاول مرة الشعر الغزلي في العربية ظهوراً كاملاً . اما شعراء الجاهلية وان يكن قد جرى بعضهم على استهلال قصائدهم بابيات من النسيب فليس بينهم من اختص بشعر الغزل . ومن هذا النسيب الذي كانت تستهل به القصائد الأولى القديمة ظهر الشعر الغنائي العربي تحت تأثير المغنين الفرس محتذياً مثالهم .

اما المدرسة الشعرية في الحجاز فزعيمها عمر ابن ابي ربيعة (٤) القرشي « اوفيد العرب » (المتوفى حوالي ٧١٩) فقد كان من عائلة موسرة (٥) وساعده غناه على أن يسلك سبل اللهو مع النساء فكان يتعرض لهن لا سيا في اوقات الحج ويتغزل بهن . وكان يحب الجمال ويقصده ويتودد الى النساء الشريفات كعائشة بنت طلحة وفاطمة بنت عبد الملك والثريا بنت علي ابن عبد الله وسكينة بنت الحسين (٦) وغيرهن ويذكرهن في شعره فهو من هذه الناحية شاعر

---

١) وزير ركن الدولة البويهي .

٢) الجاحظ ، البيان ج ١ ص ٥٨ . انظر ابن قتيبة ، المعارف ص ٢١٦ ؛ الطبري ج ٢ ص ٤٣٨-٩ .

٣) ابن قتيبة ، المعارف ص ١٥٣ ؛ قابل الاغاني ج ١٥ ص ٧٣ . انظر الجاحظ ، البيان ج ٢ ص ٦٣ .

٤) انظر ديوانه ، نشر شفارتز (ليبزغ ١٩٠١ - ٩) .

٥) الاغاني ج ١ ص ٣٢ وانظر لدرس عصره وحياته كتاب عمر ابن ابي ربيعة لجبرائيل جبور في مجلدين « بيروت ، ١٩٣٥ - ٩ » .

٦) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص ٣٤٩ والاغاني ج ١ ص ٤٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤ .

الحب والجمال بل هو حامل لواء الشعر الغزلي في الأدب العربي . ولشعره الذي خلد فيه مشاعره نحو الجنس اللطيف رونق وطلاوة وموقع في القلب ومخالطة للنفس لا تجدها في شعر امرىء القيس الساذج العاطفة او اشعار العصور التالية المملة (١) .

واذا كان عمر يمثل الحب الاباحي في الشعر فمعاصره جميل ابن معمر (المتوفى ٧٠١) يمثل الحب العذري البريء . وقد كان جميل من بني عذرة وهي قبيلة نصرانية من اصل يمني سكنت بوادي الحجاز . وان اشعار جميل التي قالها في حبيبته بثينة وهي من قبيلته (٢) لتنم عن روح رقيقة لا مثيل لها في ذلك العصر . ونظراً الى ما في هذه الاشعار من رقة وسلاسة وجمال و بعد عن التكلف فانها اصبحت منذ ذلك العهد مادة للغناء وضعت لها اصوات ينشدهـا المغنون . وما يقال في جميل من هذه الناحية يصدق على مجنون ليلى (٣) فانّه من ممثلي الشعر الغنائي ايضاً . وهو اشبه بشخصية من شخصيات الأساطير قيل ان اسمه الاصلي هو قيس ابن الملوح (٤) وزعموا انه شغف حباً بصاحبته بلغ به حد الجنون وكانت فاتنته من قبيلته واسمها ليلى وكانت تبادله الحب ولـكنها أكرهت على الزواج من آخر ارضاء لأبيها . وما استطاع قيس ان يحتمل هذه الصدمة العنيفة فدفعه اليأس والقنوط الى الهيام في البراري على وجهه عاري البدن تائهاً في هضاب نجد وطنه يتغزل بمحبوبته ليلى ويتحرق شوقاً الى نظرة منها ولم يكن يعود اليه رشده الا اذا ذكر اسمها له (٥) . وقد اصبح مجنون ليلى بطل روايات كثيرة في العربية والفارسية والتركية يدور محورها على تعظيم الحب الخالد. وليس ثمت شك في ان كثيراً من القصائد المنسوبة الى جميل والمجنون ليست من نظمهما وانما هي في الاصل من الاغاني الشعبية والاناشيد القومية السائرة .

وقد ظهر ايضاً في العصر الاموي نوع من الشعر السياسي ظهرت بوادره يوم رشح معاوية ابنه يزيد لولاية العهد (٦) ، فنظم مسكين الدرامي شعراً في مدح يزيد واراد انشاده امام

---

١) انظر W. G. Palgrave, *Essays on Eastern Questions* (London,1872), P. 279.

٢) راجع ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص ٢٦٠-٦٨ ؛ الاغاني ج ٧ ص ٧٧-١١٠ .

٣) الاغاني ج ١ ص ١٦٩ وعنه اقتبس ابن خلكان ج ١ ص ١٤٨ .

٤) الكتبي ، فوات الوفيات (بولاق ، ١٢٨٣) ج ٢ ص ١٧٢ يجعل تاريخ وفاته نحو السنة ٦٩٩/٨٠ .

٥) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص ٣٥٨-٦٢ .

٦) الاغاني ج ١٨ ص ٧١-٢ ؛ قابل ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص ٣٤٧ .

الخليفة . وكذلك جرت في هذا العصر اول محاولة لجمع الشعر الجاهلي القديم وقد قام بها حماد الراوية (نحو ٧١٣ - ٧٢) (١) . وكان حماد قد ولد في الكوفة وكان ابوه من اسرى الديلم (٢) فكان في لسانه عجمة الا انه اشتهر في التاريخ العربي بذاكرة خارقة . قيل ان الوليد ابن يزيد سأله عن مقدار ما يحفظ قال كثير ولكني انشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام وتذهب الرواية الى ان الوليد امتحنه حتى ضجر ثم وكل به من استحلفه ان يصدقه عنه ويستوفي عليه فأنشده الفين وتسعمئة قصيدة للجاهليين وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمئة الف درهم (٣) . غير ان اعظم مآثر حماد هي دون شك جمعه للقصائد المذهبات المعروفة ايضاً بالمعلقات .

وكانت زعامة الشعر في الامصار ايام الامويين للفرزدق (٤) (حوالي ٦٤٠ - ٧٣٢) ولجرير (المتوفى حوالي ٧٢٩) وكان الاخطل (٥) (حوالي ٦٤٠ - حوالي ٧١٠) شاعر العاصمة وقد ولد هؤلاء الشعراء الثلاثة ونشأوا في العراق وقد عرفوا بالهجاء كما عرفوا بالمدح . وكان هذا الثالوث في الطليعة من صفوف الشعراء بحيث لم يجد نقادة العرب من بعدهم من يوازي بهم . فكان الاخطل المسيحي يناصر البيت الاموي في مناضلته الحزب الديني (٦) . وكان الفرزدق الفاسق شاعر الخليفة عبد الملك وشاعر اولاده من بعده - الوليد وسليمان (٧) ويزيد . وكان جرير وهو اعظم هجّاء عرفه ذلك العصر شاعر الحجاج (٨) . وقام هؤلاء الشعراء بما تقوم به الصحافة الحزبية اليوم وكانوا يعتمدون في معاشهم على مدائحهم لا على مطاعنهم . وتقاذف الفرزدق (٩) وجرير من الطعن والتشهير في قصائد طافحة بالكلام

---

١) الفهرست ص ٩١ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٢٩٤ .

٢) ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٦٨ .

٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢٩٢ ؛ الاغاني ج ٥ ص ١٦٤ - ٥ . انظر العقد ج ٣ ص ١٣٧ - ٨ .

٤) انظر ديوانه نشر بوشي (باريس ، ١٨٧٥) .

٥) انظر ديوانه نشر الصالحاني (بيروت ، ١٨٩١) .

٦) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص ٣٠١ - ٤ .

٧) المصدر نفسه ص ٢٩٧ - ٨ وانظر مدائح الفرزدق في الخلفاء المذكورين في ديوانه .

٨) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص ٢٨٧ وانظر امثلة من مدائح جرير في ديوانه (القاهرة ، ١٣١٣) ج ١ .

٩) انظر اخباره في الاغاني ج ٨ ص ١٨٦ - ٩٧ ، ج ١٩ ص ٢٠ - ٥٢ ؛ ابن خلكان ج ٣ ص ١٣٦ - ٤٦ ؛ Joseph Hell, *Das Leben des Farazdak* (Leipzig, 1903) .

القارص ابذي» . اما الأخطل فكان يظاهر الفرزدق على جرير في اغلب الاحيان وكان متمسكاً بدينه فيما يزعمون غير أن بعض القصص التي استشهد بها الرواة على هذا الأمر قد تفيد غير ذلك . قالوا كان له امرأة حامل وصدف ان مرّ بهما وهما في بعض الشوارع اسقف راكب حماره فقال الأخطل لامرأته الحقيه فتمسحي به فعدت فلم تلحق الا ذنب حماره فتمسحت به ورجعت فقال لها « هو وذنب حماره سواء » .(١)

التربية والتعليم

لم يكن للتربية نظام عام في ذلك العهد . وكانت بادية الشام عند الامراء الامويين بمثابة مدرسة يتخرج فيها ابناؤهم الأحداث فيأخذون العربية عن الأعراب ويتعودون على قرض الشعر . وقد ارسل معاوية ابنه يزيد في حداثته الى البادية لينشأ فيها . وكانت عامة الناس تحسب الرجل متعلماً اذا عرف لغته كتابةً وقراءة وبرع في الرماية والسباحة . فمن بلغ هذه عدّ كاملاً (٢) واشتراط البراعة في السباحة في الرجل الكامل تعكس مؤثرات الحياة الجديدة على ساحل البحر المتوسط وبالأخص المؤثرات الاغريقية . اما المثل العليا للتربية الأخلاقية كما يتبين لنا من كتب الأدب التي تعرضت لهذه الناحية فهي الشجاعة والصبر ومراعاة الجوار والمروءة والكرم وحسن الضيافة (٣) ومساعدة النساء والوفاء بالعهود . ومعظم هذه الفضائل هي الصفات نفسها التي يفاخر بها البدو ويقدرونها كثيراً .

وبعد ايام عبد الملك أصبحت وظيفة المؤدب او المعلم ، وكان في الغالب من الموالي او النصارى ، من الوظائف الهامة في البلاط . وكان عبد الملك يقول لمؤدب ولده : « علمهم العوم وخذهم بقلة النوم » (٤) ، اما عمر ابن عبد العزيز فقد كان اشد الناس على ولده في اللحن وربما أدّب عليه (٥) . وقد كتب الى مؤدب ولده يقول : « اما بعد فاني اخترتك على علم مني لتأديب ولدي فصرفتهم اليك عن غيرك من مواليّ وذوي الخاصة بي فحدثهم بالجفاء فهو

١) الاغاني ج٧ ص١٨٣.
٢) ابن سعد ج٣ قسم٢ ص٩١ ، قابل ج٥ ص٣٠٩ ؛ الاغاني ج٦ ص١٦٥ .
٣) راجع توتل في المشرق ج ٢٦ (١٩٢٨) ص٧٥٢–٩ .
٤) المبرد ص ٧٧ .
٥) ياقوت ، معجم الادباء ، نشر مرغوليوث ج ١ (ليدن ، ١٩٠٧) ص ٢٥ – ٦ .

امعن لاقدامهم واترك الصحبة فان عادتها تكسب الغفلة وقلل الضحك فان كثرته تميت القلب وليكن اول ما يعتقدون من ادبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمان . فانه بلغني من الثقات من اهل العلم ان حضور المعازف واستماع الاغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء ..... وليفتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت في قراءته فاذا فرغ تناول قوسه ونبله وخرج الى الغرض حافياً فرمى سبعة ارشاق ثم انصرف الى القائلة » (١) .

اما العامة فانهم كانوا اذا ابتغوا العلم قصدوا المساجد حيث تقام الحلقات والصفوف للدراسة التي كان محورها القرآن والحديث . واقدم المعلمين في الاسلام هم القرّاء . فمنذ سنة ١٧ /٦٣٨ انفذ الخليفة عمر ابن الخطاب نفراً من القرّاء الى انحاء العالم الاسلامي وامرهم ان يجمعوا الناس في المساجد ايام الجمع ويفقهوهم في الدين . وارسل عمر الثاني قاضياً الى مصر هو يزيد ابن ابي حبيب (المتوفى ٧٤٦) يقال انه اول من امتاز كمعلم (٢) . اما في الكوفة فنرى ان رجلاً يُدعى الضحاك ابن مزاحم (٣) (المتوفى ٧٢٣) يفتح كتّاباً للتعليم ولا يتقاضى أجرة على تعليمه (٤) ، وفي القرن الثاني للهجرة نزل بدوي البصرة وافتتح فيها مدرسة فكان يأخذ الاجور المدرسية (٥) من التلامذة الذين يدرسون عليه .

العلم

من اقوال العرب وهو حديث مرفوع : « العلم علمان علم الأديان وعلم الابدان » .

وكان علم الابدان (وهو الطب) في الجزيرة بدائياً بسيطاً للغاية .وقد اختلطت فيه العلاجات الصحيحة بالشعوذة والطلاسم التي اعتمد عليها الناس في مقاومة « اصابة العين » . وكان من الوصفات التي اشاروا بها لمعالجة بعض الادواء استعمال العسل او الالتجاء الى الحجامة او

١) ابن الجوزي ؛ سيرة ص ٢٥٧ ــ ٨ .
٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٣٤ ؛ قابل الكندي ، الولاة ص ٨٩ .
٣) ذكره الجاحظ مؤدباً لابناء عبد الملك ، البيان ج ١ ص ١٧٥ .
٤) ابن سعد ج ٦ ص ٢١٠ .
٥) ياقوت ، الادباء ج ٢ ص ٢٣٩ .

الفصد وغير ذلك مما تضمنته التقاليد المعروفـة بطب النبي التي توارثها الخلف عن السلف . ولقد ذكر النقادة ابن خلدون في مقدمته (١) الشهيرة هذا النوع من الطب في شيء من الاستخفاف وقال ان النبي انما بعث ليعلم الناس الشرائع لا علم الطب .

اما الطب العربي العلمي فمستمد من مصدرين احدهما يوناني وهو الأهم والثاني فارسي ولقد تأثر الطب الفارسي نفسه بالتقاليد الطبية الاغريقية . وكان على رأس الاطباء العرب في القرن الاسلامي الاول الحارث ابن كلدة (المتوفى حوالي ٦٣٤) وهو ثقفي من الطائف جاب البلاد وتعلم الطب في بعض نواحي فارس (٢) فـكان اول من تخرج تخرجاً علمياً من ابناء الجزيرة وسمي « طبيب العرب » (٣) ، وقد خلفه في صناعة التطبيب كما جرت العادة ابنه النضر ابن خالة (٤) الرسول .

وفي الوقت الذي فتح العرب فيه آسية الغربية كان الطب الاغريقي قد فقد حيويتـه وقوته التي كانت له من قبل ولم يبق منه الا تقاليد رثـة في ايدي شارحي الاسفار القديمة ممن يكتبون اليونانية او السريانية وسواهم من محترفي الطب . وكان اطباء البلاط الاموي من هذا النفر وقد تفرّد منهم ابن اثال النصراني طبيب معاوية (٥) ، و تياذوق طبيب الحجاج (٦) الذي يدّل اسمه على انه اغريقي . وقد تحدر الينا بعض اقوال تياذوق ولـكن لم يصل الينا شيء من الـكتب الثلاثة او الاربعة المنسوبة اليه . وقد اشتهر طبيب يهودي بصري الاصل فارسي الجنس يدعى ماسرجويه وكان يعرف السريانية فتولى في ايام مروان ابن الحكم ترجمة كناش سرياني كان قد وضعه في الأصل باللغة اليونانية قس من اهل الاسكندرية سمه أهرون (٧) فنقله من السريانية الى العربية . وهذا اول كتاب طبي علمي بلغة الأسلام .

١) ص ٤١٢ .

٢) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، نشر ملر (القاهرة ، ١٨٨٢) ج ١ ص ١٠٩ ؛ ابن العبري ص ١٥٦ .

٣) ابن العبري ص ١٥٦ ـ ٧ ؛ القفطي ، تاريخ الحكماء ص ١٦١ .

٤) ابن ابي أصيبعة ج ١ ص ١١٣ ؛ قابل النووي ، تهذيب الأسماء ص ٥٩٣ .

٥) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١١٦ .

٦) المصدر نفسه ص ١٢١ .

٧) ابن العبري ص ١٩٢ .

وقد قام نفر من الخلفاء ببعض المشاريع الصحية منها ان الوليد عزل المجذّمين عن سواهم من الناس ودبّر امر العناية بهم (١) . ولما افضت الخلافة الى عمر ابن عبد العزيز امر بنقل تدريس الطب من الاسكندرية ، حيث كانت تقاليد الطب اليوناني لا تزال زاهية ، الى انطاكية وحرّان (٢).

علم الكيمياء القديم

وكانت الكيمياء كالطب بين تلك العلوم القليلة التي أخذ بها العرب في اول عهدهم ومارسوها بحيث استطاعوا ان يتحفوا العالم بكثير من الخدمات فيها . ويزعم صاحب الفهرست (٣) ـ وهو من اوثق المصادر التي بين ايدينا واقدمها ـ ان خالد ابن يزيد (المتوفى ٧٠٤ او ٨) المسمّى حكيم آل مروان كان اول من امر في الاسلام بنقل كتب الكيمياء والطب والتنجيم الى العربية من اليونانية والقبطية . وفي عزو هذا العمل الى خالد ـ وان كان لا يوثق به (٤) ـ ما يشير الى الحقيقة الراهنة وهي ان العرب استقوا معلوماتهم العلمية من المصادر الاغريقية القديمة . وكان لهم من الاغريق انفسهم ايضاً الحافز الاول الذي دفعهم الى التفكير العلمي . وتقرن الاخبار الى اسم هذا الامير الاموي اسم جابر ابن حيّان المشهور الا ان جابراً زها في عصر متأخر عن هذا (نحو ٧٧٦) وسنتناوله عند البحث في امر العباسيين . كذلك فان الرسائل الموضوعة في علم التنجيم وعلم الكيمياء المعزوة الى جعفر الصادق (٧٠٠ ـ ٧٦٥) (٥) ـ وهو من ذرية علي وأحد أئمة الشيعة الاثني عشر ـ قد انكرها البحث العلمي الحديث (٦) . ومن المؤسف ان

١) المصدر نفسه ص ١٩٥ ؛ الطبري ج ٢ ص ١١٩٦ .
٢) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١١٦ .
٣) ص ٢٤٢ ، ٣٥٤ .
٤) Julius Ruska, *Arabische Alchemisten, I. Châlid Ibn Jazîd Ibn Mu'âwija* (Heidelberg, 1924), pp. 8 *seq.*
٥) الفهرست ص ٣١٧ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ١٨٥ ؛ حاجي خلفه ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، نشر فلوغل ج ٢ (ليبزغ ، ١٨٧٣) ص ٥٨١ ، ٦٠٤ ، ج ٣ (لندن ، ١٨٤٢) ص ٥٣ ، ١٢٨ .
٦) J. Ruska, *Arabische Alchemisten, II. Ga'far Alsâdiq, der Sechste Imam* (Heidelberg, 1924), pp. 49—59

الحركة الثقافية في العهد الاموي لم تخلّف لنا آثاراً نعتمد عليها لفهم الحياة الفكرية في ذلك العصر وقدرها حق قدرها .

فن البناء والهندسة المعمارية

واذا كان للعرب تراث في فن البناء والهندسة المعمارية فذلك لم يعرف لهم الا في اليمن ولم تبلغ بعد مساعي المنقبين والباحثين درجة كافية لاعطائنا من المعلومات ما نستطيع ان نبني عليه حكماً عادلا . ونحن نعلم ان فن البناء في جنوبي الجزيرة لم يرثه ابناء الشمال الذين كانت مساكنهم في الغالب بيوت الشعر وهيا كلهم الهواء الطلق ومدافنهم رمال البادية . اما ساكنو الواحات وهي نادرة فلم يكن لهم الا ما نعهده اليوم من مظاهر الهندسة الأولية التي تمثلها بيوت من اللبن وسطوح مصنوعة من سعف النخيل تكسوها طبقة من الطين وهي خالية من التزويق والزخرفة ولا تلائم الا مطالب الانسان البسيطة . ولم يكن مزار الحجاز القومي اي الكعبة قبل الاسلام الا بناءاً مربع الجوانب لا سقف له . والبناء الذي كان قائماً في ايام النبي كان بالاكثر صنع نجار نصراني قبطي وكانت اخشابه من بقايا سفينة بيزنطية طغت عليها الامواج فحطمتها ثم لفظت بقاياها عند جدة على ساحل الجزيرة . اما المقابر التي في مدائن صالح (الحجر قديماً) المنحوتة في الصخر والغرف البديعة المحفورة في الحجر الكثير الالوان في البتراء وابراج تدمر وقصورها وهيا كلها والكنائس الفخمة كتلك التي بناها المنذر ابن الحارث الغساني في الرصافة على قبر القديس سرجيوس الشهير فجميعها تنم عن مهارة فنية عالية الا انها مستعارة من الحضارة الهلينية في مصر وسورية وليست عربية الأصل.

والهندسة المعمارية بصفتها اقدم الفنون واثبتها على مرور الزمن كانت في شكلها الديني دائماً أهم ممثل لفن البناء . والمعبد هو اول بناء تحاول نفس المتدين ان توجد فيه مسحة من الجلال فوق ما تستدعيه الحاجات المادية في المسكن العادي . ولهذا نستطيع ان نقرر ان الفن العربي الاسلامي تجلى احسن ما يكون في العمارة الدينية . وقد أنشأ المهندسون المسلمون او الرجال الذين استخدمهم المسلمون طريقة للبناء فيها بساطة وجلال احتذوا فيها النماذج القديمة ولكنها كانت تعبر بطريقة فذة عن روح الدين الجديد . ومن هنا فانا نجد في

تطور بناء المسجد سجلاً تاريخياً لتطور الحضارة الاسلامية في حالاتها المختلفة وعلاقاتها مع مختلف الاجناس والامم . ولعله ليس هناك مثل اوضح من المسجد لتبيان التبادل الثقافي بين المسلمين وجيرانهم .

مسجد المدينة

ان مسجد النبي البسيط في المدينة هو الذي اصبح نموذجاً لمساجد القرن الاسلامي الاول وليس مسجد مكة . وقد كان عبارة عن بهو بلا سقف قامت حوله جدران من اللبن (١) ثم مد النبي سقوف البيوت المجاورة اتقاء لأشعة الشمس المحرقة فغطى بذلك البهو المكشوف. وقد كانت عمده من جذوع النخل بحيث ارتكز السقف عليها وقد جعل السقف من الجريد وغطي بالطين(٢) . وكان النبي يخطب في الجمع الى جذع في المسجد قائماً فقال له تميم الداري : الا اعمل لك منبراً (٣) كما رأيت يصنع في الشام ؟ فارسل الى اثلة بالغابة فقطعها ثم عمل منها ثلاث درجات(٤) على نحو ما عرف في كنائس النصارى في الشام . ولسنا ندري هل بنى النبي في مسجده محراباً تتعين به القبلة ام لا . وكان الناس اذا قاموا للصلاة وقفوا في صفوف موازية لجدار المسجد وقد ولوا وجوههم نحوه . وكانوا في اول الامر يتجهون في صلاتهم نحو بيت المقدس ثم صُرف النبي عنها وحوّل الاتجاه الى مكة (٥) . وكان بلال الحبشي المؤذن يعتلي سطح المسجد ويدعو المؤمنين بصوته العذب للصلاة (٦) واذن فقد كان في ذلك المسجد كل الامور الأولية تقريباً التي يقتضيها المسجد الجامع وقد ظهرت بشكل بدائي بسيط وهي بهو وسقف يقي المصلي ومنبر .

---

١) ابن هشام ص ٣٣٦ ـ ٧ .

٢) البلاذري ص ٦ ؛ البخاري ج ١ ص ١٠٦ ـ ٧ .

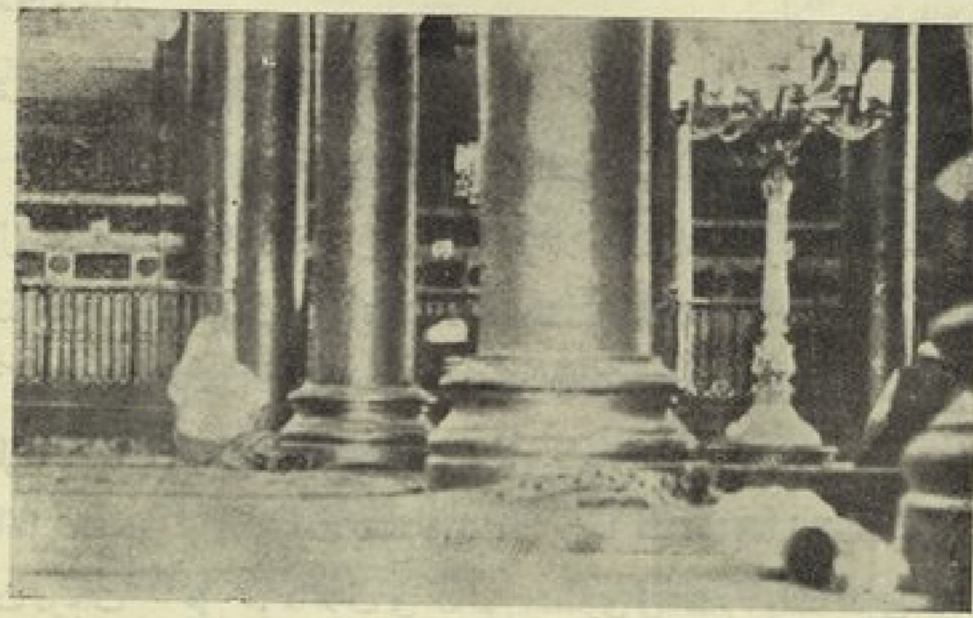
٣) اظهر العالم بكر ان المنبر كان في الأصل مقعداً عالياً او عرشاً يجلس عليه الحاكم ولم تكن له صبغة دينية انظر C. H. Becker in *Orientalische Studien. Theodor Nöldeke* ed. C. Bezold (Giessen, 1906), vol. i, pp. 331 *seq.*

٤) ابن سعد ج ١ قسم ٢ ص ٩ ، ١٠ ؛ J. wüstenfeld, *Geschichte der Stadt Medina* (Göttingen, 1860) , p. 63 ؛ قابل البخاري ج١ ص ١٠٧ .

٥) ابن سعد ج ١ قسم ٢ ص ٣ ـ ٥ .

٦) في السنة الأولى او الثانية لاقامة الرسول في المدينة أمر بالاذان كدعوة رسمية الى الصلاة بعد ان فكر في امر الناقوس المستعمل في كنائس النصارى . ابن سعد ج ١ قسم ٢ ص ٧ .

واندفع العرب بعدئذ فاتحين في انحاء آسية الغربية وافريقية الشمالية فاستولوا على عدد لا يحصى من المباني القائمة والمهدمة مما يمثل رقياً فنياً عالياً وفوق ذلك فقد مكنتهم الفتوحات



قواعد بعض الاعمدة في مسجد المدينة اليوم

من السيطرة على الخبرة والمهارة الفنية التي كان يتوارثها ابناء الامم المغلوبة منذ اقدم العصور . وما لبثت هـذه الطرق الفنية التي طبقت تبعـاً لحاجات المجتمع الاسلامي كما ظهر في مسجد المدينة ان تطورت في مختلف البلدان الاسلامية بتأثير الاوضاع المحلية ومتطلباتها فانتجت على ممر الزمن ما نسميه اليوم بالفن العربي او الشرقي او الاسلامي (١) . اما مادة البناء التي كانوا يؤثرونها سواء أكانت حجراً ام آجراً ام طيناً فقد قررها الوسط الذي وجدوا فيه . ففي سورية تأثر فن البناء الاسلامي بما سبق من الطراز السوري البيزنطي المسيحي واصوله الرومانية . وفي العراق وفارس تأثر بالطرازين النسطوري البيزنطي والساساني اللذين قاما على تقاليد موضعية سابقة . وفي مصر استفـاد من الاقباط بعض الاغراض الفنية في الزخرف وبـذلك نشأت بالتدريج عدة مدارس متميزة للفن العربى وهي ١ً المدرسة السورية المصرية وقد قامت على اركان يونانية ورومانية و بلدية ٢ً المدرسة العراقية الفارسية وقد أسست على الطراز الساساني

١) يسميه بعض المستشرقين بالفن المحمدي ويستنكر المسلمون في هذا العصر استعمال هذا النعت للمسلم لان فيه ما يوهم بانهم يعبدون محمداً كما يفهم من قولنا مسيحي لمن يعبد المسيح .

والكلداني القديم والاشوري ٣ً المدرسة الاندلسية والافريقية الشمالية التي تنم عن المؤثرات النصرانية المحلية ومؤثرات القوط الغربيين وتسمى المدرسة المغربية . ٤ً المدرسة الهندية وقد تمثل فيها أثر الطراز الهندوسي . اما في الصين فيكاد المسجد ان يحاكي تماماً طراز الهيكل البوذي .

المساجد الاولى في الامصار

وكان اول مسجد عرفته البلاد المفتوحة مسجد البصرة وقد بناه عُتبة ابن غَزوان (٦٣٧ او ٦٣٨) الذي خطط البصرة نفسها ايضاً لتكون معسكراً للجند يشتون فيه . وكان هذا المصلّى في اول عهده باحة مفتوحة يحيطها سياج من القصب . ثم شيد البناء بعدئذ من الطين واللبن بامر ابي موسى الاشعري عامل عمر على البصرة وسقف بالعشب (١) . وفي سنة ٦٣٨ او ٦٣٩ اختط القائد الفاتح سعد ابن ابي وقاص الكوفة مقراً للجيش ايضاً وابتنى المسجد في وسطها وجعل بجانب المسجد دار الامارة . وقد كان مسجد الكوفة مثل مسجد البصرة عبارة عن صحن مربع مكشوف تحيط به جدران من القصب بنيت فيما بعد من اللبن والطين (٢) . ولقد اعاد زياد عامل معاوية بناء هذا المسجد فأقام فيه اعمدة على غرار الفن الساساني ولكنه أبقى على شكله الذي لم يختلف عن شكل مسجد النبي في المدينة . ولم يبق اثر لهذا المسجد الآن كما انه لم يبق اثر لمسجد البصرة . اما مسجد علي بالكوفة الذي شيد نحو ٦٥٦ وزاره ابن جبير (٣) الرحالة الاندلسي الشهير سنة ١١٨٤ فمعلوماتنا عنه قليلة .

وكان المعسكر الثالث الذي انشأه الفاتحون هو الفسطاط (مصر القديمة) . وفيه اسس عمرو ابن العاص في سنة ٦٤٢ اول مصلّى للمسلمين في افريقية ، ولم يبق من آثاره شيء ما (٤) . اما شكل بنائه القديم فقد كان كالمساجد التي وصفنا مستطيلاً لا محراب فيه تتعين به القبلة

---

١) البلاذري ص ٣٤٦ — ٧ ، ٣٥٠ ؛ ياقوت ، البلدان ج ١ ص ٦٤٢ .
٢) الطبري ج ١ ص ٢٤٨٩ ؛ ياقوت ، البلدان ج ٤ ص ٣٢٣ — ٤ .
٣) ص ٢١١ — ٢١٢ .
٤) انظر فيما يتعلق بترميمه قديماً او اعادة بنائه مراراً متعددة في العصور الاولى ياقوت ، بلدان ج ٣ ص ٨٩٩ — ٩٠٠ .

ولا مئذنة . وقد جهز عمرو هذا المسجد فيما بعد بمنبر قدّمه اليه ملك النوبة النصراني (١) . ويلي مسجد عمرو أهمية مسجد عقبة ابن نافع في القيروان (٦٧٠ ـ ٧٥) . وكانت القيروان في اول عهدها كالفسطاط مقراً عسكرياً وقد اختط فيها عقبة المسجد ودار الحكومة وجعلهما في وسطها ونشأت دور الناس حولها (٢) . واعيد بناء المسجد مراراً بعد عقبة الى ان كان ترميمه الاخير في زمن زيادة الله الاول الاغلبي (٨١٧ ـ ٣٨) واصبح من اعظم مساجد العالم الاسلامي .

اما في المدن الآهلة الكبيرة فقد استعان المسلمون ببعض ابنيتها القديمة وجعلوها مساجد. ففي المدائن صلىّ سعد ابن ابي وقاص في ايوان كسرى (٣) ، وفي دمشق اعاد الوليد الاول (٤) بناء كاتدرائية القديس يوحنا وحولها الى مسجد . وذكر ان المسلمين اشتركوا مع النصارى في العبادة بحمص فقد قسمت الكنيسة وكانت من اعظم كنائس سورية وحول شطر منها الى مسجد جامع وظل الشطر الآخر كنيسة (٥) . وكان المحراب في الاصل مشكاة او تجويفاً في حائط المسجد للاشارة الى الاتجاه في الصلاة وهو مما اضيف الى المسجد في عهد متأخر وقد نقل في شكله عن الكنائس . وينسب بعضهم الفضل في استحداث المحراب الى الوليد وعامله عمر ابن عبد العزيز (٦) ، ولكن فريقاً آخر يرجع الفضل في ذلك الى معاوية (٧) والظاهر ان مسجد المدينة كان اول مسجد جُعل محراب فيه ثم اصبح المحراب ظاهرة عامة في كل المساجد واصبح كالمذبح المسيحي يعتبر من اقدس المواضع في بناء المعبد . ومن أجل ذلك بولغ في زخرفته وتزويقه بحيث اصبح المقياس الذي يقاس به تطور الطرازات المتنوعة

---

١) المقريزي (بولاق) ج ٢ ص ٢٤٨ .
٢) ياقوت ، بلدان ج ٤ ص ٢١٣ .
٣) الطبري ج ١ ص ٢٤٤٣ ، ٢٤٥١ .
٤) البلاذري ص ١٢٥ ؛ ياقوت ج ٢ ص ٥٩١ ؛ ابن جبير ص ٢٦٢ .
٥) الاصطخري ص ٦١ ؛ ابن حوقل ص ١١٧ ؛ المقدسي ص ١٥٦ .
٦) المقريزي ج ٢ ص ٢٤٧ ؛ المقدسي ص ٨٠ ؛ ابن بطوطة ج ١ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ؛ ابن دقاق ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، نشر فولرز (بولاق ، ١٨٩٣) ج ٤ ص ٦٢ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٩ .
٧) ابن الفقيه ص ١٠٩ .

في فن الزخرفة الاسلامية .

وهناك شيء أخذ الناس على معاوية ادخاله الى المسجد هو المقصورة (١) وهي حجرة في داخل المسجد جعلت مقاماً للخليفة . وقد تضاربت الاقوال في تعليل السبب الاول الذي بنيت المقصورة من أجله ولعل اهم سبب ان الخليفة انما قصد منها ان تكون حجاباً يحتمي وراءه لا سيما بعد ان حاول الخوارج اغتياله (٢) . والظاهر ان المقصورة كانت للخليفة بمثابة مقام يعتزل فيه او يختلي بنفسه او انها كانت مكاناً للتداول في الامور (٣) .

وكذلك فان الامويين كانوا اول من استحدث المئذنة كما كانوا اول من استحدث المحراب . وكانت سورية اول بلد قامت فيه مئذنة وقد اتخذ لها فيه شكل خاص هو شكل برج الحراسة او برج الكنيسة الذي تلاه وكان مربع الشكل (٤) ويستدل من اقدم المراجع (٥) التي ذكرت شيئاً عن مئذنة الجامع الاموي في دمشق انها كانت برجاً لكنيسة القديس يوحنا . اما في مصر فيقال ان المئذنة ادخلها عامل لمعاوية فجعل في كل ركن من اركان المسجد في الفسطاط مئذنة (٦) واحدة. ثم لما بنى زياد عامل معاوية مسجد البصرة بنى مئذنته بالحجارة (٧) اما كثرة المآذن في الشام والحجاز فمن مآثر الوليد البناء الاموي العظيم. ولقد ادخل عمر ابن عبد العزيز عامل الوليد المئذنة الى مسجد المدينة (٨) فازدادت المآذن انتشاراً بعده .

ولئن كانت المئذنة السورية المربعة المبنية بالحجر اقدم المآذن الاسلامية والمثال لغيرها

---

١) اليعقوبي ج ٢ ص ٥٧١ وينسبها بعضهم الى مروان ابن الحكم (البلاذري ص ٦) او لعثمان (المقريزي ج ٢ ص ٢٤٧) .

٢) الدينوري ص ٢٢٩ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٢٤ ــ ٦ ؛ قابل الطبري ج ١ ص ٣٤٦٥ .

٣) الاغاني ج ٧ ص ١١٦ .

٤) المقدسي ص ١٨٢ .

٥) ابن الفقيه ص ١٠٨ ؛ قابل ابن بطوطة ج ١ ص ٢٠٣ .

٦) المقريزي ج ٢ ص ٢٤٨ .

٧) البلاذري ص ٣٤٨ .

٨) Wüstenfeld, *Stadt* , p. 75. ؛ ابن بطوطة ج ١ ص ٢٧٢ .

«٦»

من المآذن لا سيما في شمالي افريقيــة واسبانية فانهــا لم تــكن في الوقت نفسه النوع الوحيــد المعروف . فلقد كانت المآذن الاسلامية تتبع طراز الابراج التقليدي في كل بلد نزله المسلمون. ففي مصر ظلت المآذن مدة طويلة من الزمن تبنى من الآجر فقط . ويظن البعض ان لمنارة الاسكندرية الشهيرة (الفاروس) أثراً فيها . وفي العراق مئذنة اسلامية ترجع الى القرن التاسع وهي في سامرا على دجلة وتمثل شكل المرتفعات الآشورية التي كانت تسمى «زكوارت» وقد كان فيها طبقات سبع تمثل الشمس والقمر والـكواكب السيارة الخمسة المعروفة يومذاك (١).

قبة الصخرة

لبيت المقدس منزلة ترجع الى ذكره في التوراة واهميته والى ما امتاز به باعتبار انه القبلة الاولى في الاسلام (٢) والموضع الذي وقف به النبي قبل معراجه الى السماء ليلة الاسراء . ومن هنا هذا الاحترام أو القدسية التي له الآن في عيون المسلمين (٣) قاطبة . ومن المحتمل ان يكون الخليفة عمر ابن الخطاب عند زيارته لهذه المدينة في سنة ٦٣٨ بنى فيها مسجداً بسيطاً جعله من الخشب والآجر على جبل الموريا حيث كان هيكل سليمان في القديم . والظاهر انه قام على اثر هيكل سليمان هيكل آخر للوثنية ثم تلته كنيسة نصرانية. ولما رأى عبد الملك عظمة قبة القيامة (٤) وروعتها خشي ان تعظم في عيون المسلمين فنصب على الصخرة القبة (٦٩١) المعروفة خطأ بمسجد عمر . وقد دعاه الى بنائها عزمه على صرف الحجاج عن مسجد مكة (٥). ومكة اذ ذاك في حوزة منافسه على الخلافة عبد الله ابن الزبير . ولهذا فالقبة قائمة الآن في بقعة تعد من اكثر بقاع الأرض قدسية يشترك في احترامها اليهود والوثنيون والنصارى والمسلمون وتعتبرها التقاليد انها الموضع الذي اراد ابراهيم ان يقدم فيه ابنه اسحاق ذبيحة لله تعالى . اما ما كتب على دائرة القبة بالخط الكوفي ومنه ما قد غيّره الخليفة المأمون (٦) في زمنه كما

١) Morris Jastrow, Jr. *The Civilization of Babylonia and Assyria* (Philadelphia, 1915) pp. 376-7

٢) ابن سعد ج ١ قسم ٢ ص ٣ ؛ انظر سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٨ .

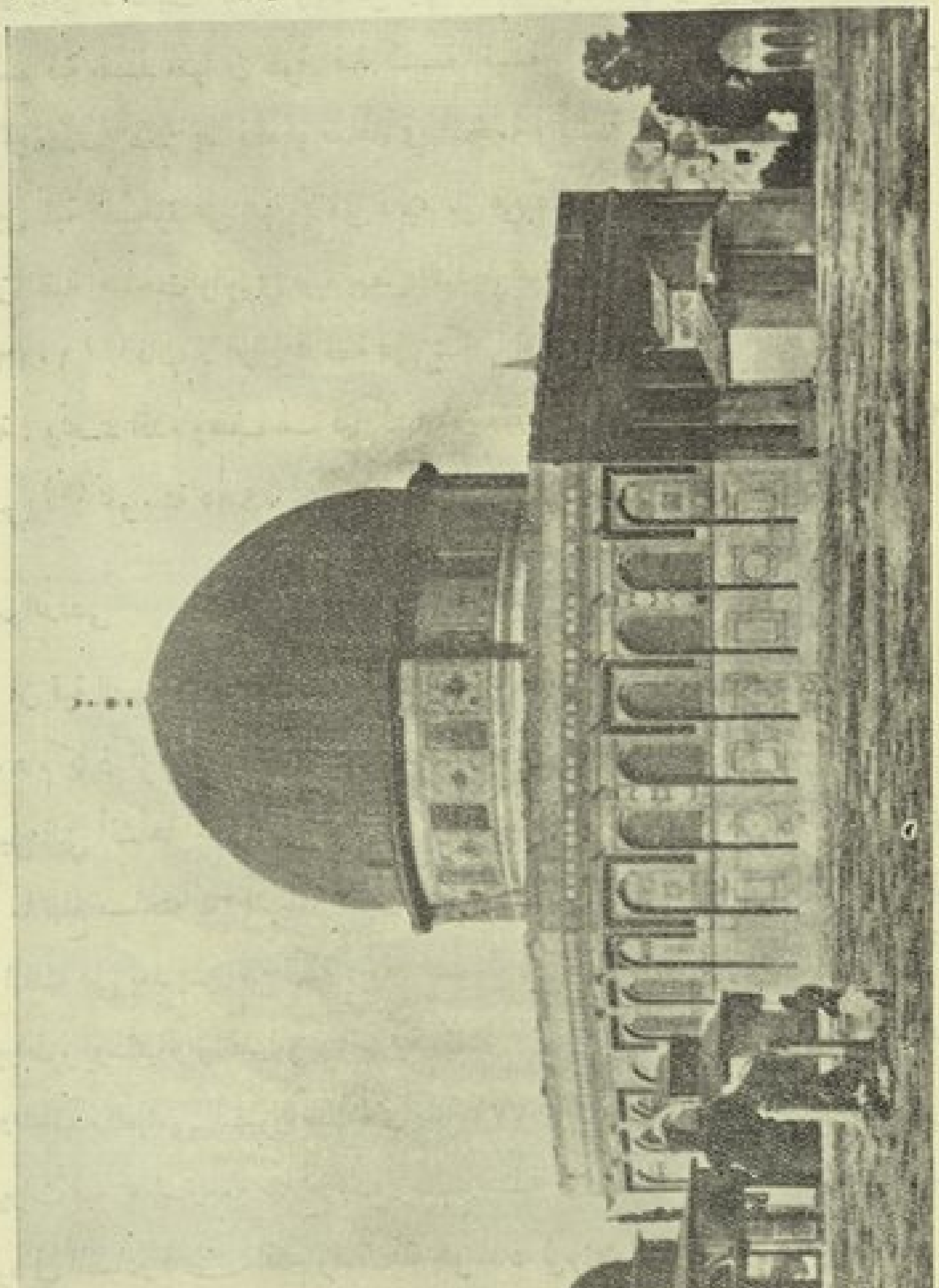
٣) بشأن ما ورد في ان الحشر يكون من بيت المقدس انظر النويري ج ١ ص ٣٣٤ وما يلي .

٤) المقدسي ص ١٥٩ .

٥) اليعقوبي ج ٢ ص ٣١١ .

٦) انظر ما ذكرناه سابقاً عن هذا الأمر في الفصل التاسع عشر .

أسلفنا فهو من اقدم الكتابات الاسلامية الموجودة (١). وقد استعمل عبد الملك في بنائها مواد اخذها من بقايا ابنية نصرانية كانت قائمة وهدمها كسرى الثاني (سنة ٦١٤) كما ان عبد الملك



بة الصخرة

١) في المتحف العربي بالقاهرة حجر من قبور مصر القديمة عليه كتابة كوفية تاريخها سنة ٣١ هـ = ٦٥١ . انظر حسن محمد الهواري ، الهلال ج ٣٨ (١٩٣٠) ص ١١٧٩ – ٩١ .

استخدم ايضاً صناعاً وطنيين لعل بعضهم كان من اصل بيزنطي . فها هنا اذن نزعة جديدة تباين الاساليب القديمة و يدخل فيها صنع الفسيفساء وسواها من انواع الزخرفة فضلاً عن صنع قبة يقصد منها ان تفوق قبة كنيسة القيامة (١) روعة وجمالاً . وكان من نتيجة ذلك أثر هندسي عظيم قلما فاقه او ضاهاه في الفخامة والاناقة بناءٌ آخر . ولا يقتصر اكرام المسلمين لقبة الصخرة على انها أثر فني قديم بل هي عندهم رمز حي للعقيدة الدينية . وبالرغم من ان القبة أصلحت واجري فيها بعض التبديل مراراً لا سيما بعد الزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ١٠١٦ (٢) فانها لا تزال محافظة على شكلها الاصلي العام وهي اقدم الآثار الاسلامية الباقية . وتجد اقدم وصف لها فيما كتبه ابن الفقيه (٣) نحو سنة ٩٠٣ وفيما كتبه بعده المقدسي (٤) نحو سنة ٩٨٥ .

المسجد الاقصى

ان قبة الصخرة هي المزار وأما الحرم فهو المسجد الاقصى . ويطلق اسم المسجد الاقصى بوجه عام كما ذكرنا قبلاً على مجموع الابنية المقدسة ومنها القبة والمدافن وتكايا الطرق الصوفية والسبل التي أنشأها الخلفاء منذ عهد عبد الملك حتى زمن السلطان سليمان القانوني العثماني وهي تملأ ما تبلغ مساحته ٣٤ فداناً . الا ان المسجد الاقصى على التخصيص هو المسجد الذي بناه عبد الملك على بعد يسير من القبة . وقد استعمل في تشييده انقاض كنيسة مريم التي كان الامبراطور يوستنيانوس قد امر ببنائها فبقيت الى ان هدمها كسرى . وقد هدم المسجد زلزال فأعاد الخليفة العباسي المنصور بناءه في سنة ٧٧١ على أثر الزلزال . واجرى الصليبيون بعض التغييرات فيه ثم استرجعه صلاح الدين منهم سنة ١١٨٧. ولا يختلف عن القبة من حيث ذكره في المصادر فان اقدم وصف له هو ما ذكره ابن الفقيه والمقدسي بعده .

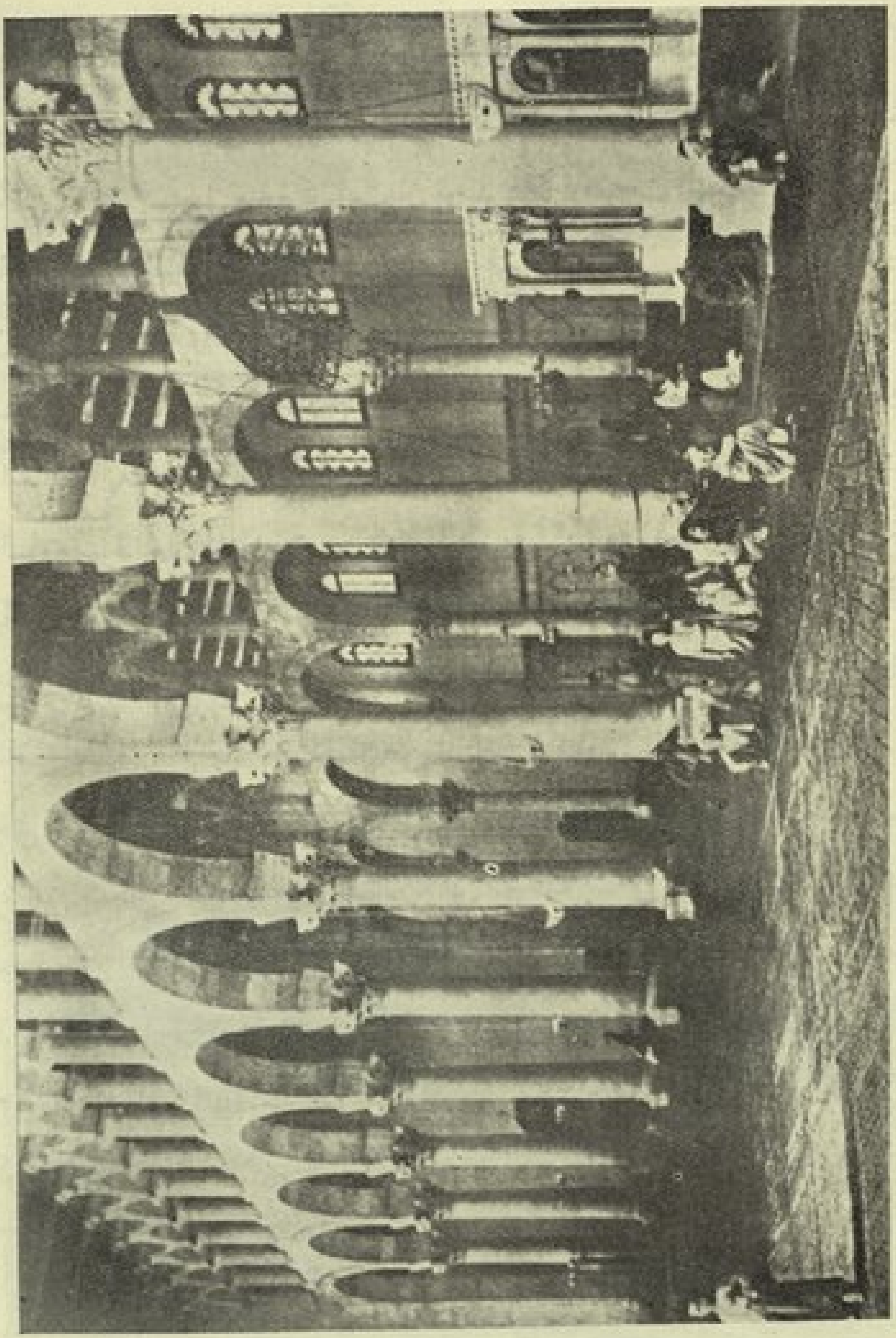
---

١) المقدسي ص١٥٩ وكانت القبة على طراز كاتدرائية بصرى . قابل M. S. Briggs, *Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine* (Oxford, 1924), p. 37 .

٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٩ .

٣) ص ١٠٠ – ١٠١ .

٤) ص ١٦٩ – ٧١ .



داخل المسجد الأموي

المسجد الاموي

في سنة ٧٠٥ أخذ الوليد ابن عبد الملك كنيسة (باسيليكا) دمشق المكرسة للقديس يوحنا وهي في الاصل هيكل لجو بتر فايتنى هناك المسجد الجامع المعروف بالجامع الاموي (١).

١) من الجوامع الكبرى في حلب وحمص وبيروت ما كان في الماضي كنيسة .

وليس في المستطاع اليوم تقرير ما بقي في جامع الوليد من بناء الكنيسة الأصلي الا ان المئذنتين الجنوبيتين هما على أصل برجي كنيسة قديمين ملحقين بالبناء الأصلي (١). اما المئذنة الشمالية التي كانت تستعمل منارة فالثابت ان الوليد بناها فأصبحت انموذجاً لسواها من المآذن في الشام وشمال افريقية واسبانية. وهي اقدم ما تبقى من المآذن الاسلامية الأصلية. واما صحون المسجد الثلاثة والقسم الاوسط الذي تقوم عليه القبة العظمى وما يغشاها من الفسيفساء فمن صنع هذا الخليفة ايضاً وقد استخدم — فيما يقال — الصناع الفرس والهنود والمهندسين الروم الذين ارسلهم اليه صاحب القسطنطينية (٢). ولقد كشف اخيراً عن اوراق بردي تفيد ان مواد البناء ومهرة العمال استقدمت من الديار المصرية (٣). وفي الجدران زخرفة فاخرة بالرخام والفسيفساء. وذكر الجغرافي المقدسي (٤) الذي زار هذا الجامع في الشطر الاخير من القرن العاشر فسيفساءه المرصع بالذهب وحجارته الكريمة وفيها صور اشجار ومدن وكتابات على غاية الحسن والدقة. ثم جاء احد الخلفاء من المتشددين فطمس معالم هذه الصور ولم يكشف عنها حتى سنة ١٩٢٨ (٥). ويظهر في الجامع اول محراب للصلاة نعرفه وتظهر فيه ايضاً القنطرة التي بشكل حذوة الفرس. اما التزاويق المعرقة بشكل اوراق الكرم فقد صارت انموذجاً للرسوم التي عرفت في جامع القيروان العظيم كما رممها الاغالبة في القرن التاسع. ومع ان هذا الجامع قد احترق سنة ١٠٦٩ وحرقه تيمورلنك سنة ١٤٠٠ ثم احترق للمرة الاخيرة سنة ١٨٩٣ فانه ظل ذا مقام عال في المخيلة الاسلامية التي اعتبرته رابع عجائب الدنيا (٦) فضلاً عن كونه رابع محارم الاسلام.

---

١) قابل ياقوت ج ٢ ص ٥٩٣.

٢) المقدسي ص ١٥٨ ؛ ابن عساكر ج ١ ص ٢٠٢ ؛ ابن جبير ص ٢٦١ ؛ وقابل الطبري ج ٢ ص ١١٩٤.

٣) H. I. Bell in *Der Islam*, vol. ii (1911), pp. 274, 374.

٤) ص ١٥٧ ؛ انظر ايضاً الاصطخري ص ٥٧ ؛ ابن رسته ص ٣٢٦.

٥) E. de Lorey and M. van Berchem, *Les mosaïques de la mosquée des Omayyades à Damas.* (Paris, 1930). K. A. C. Creswell, *Early Muslim Architecture*, pt. I (Oxford, 1932), pp. 119 — 20.

٦) ابن الفقيه ص ١٠٦ ؛ ابن عساكر ج ١ ص ١٩٨ ؛ ياقوت ج ٢ ص ٥٩١.

وفي الحقبة التي انقضت بين بناء مسجد المدينة الاول البسيط و بناء هذين الجامعين الرائعين – جامع بيت المقدس وجامع دمشق – تمّ التطور في المسجد واصبح المسجد الجامع هو الجامع الذي تفد اليه الجماعة الاسلامية . ويجب ان نلاحظ ان المسجد الجامع لم يكن موضع عبادة فحسب بل كان ايضاً نادياً عاماً وقاعة للشؤون السياسية والعلمية (١) . وقد تمت فيه كل الشروط الضرورية لما يحتاج اليه المؤمنون في اثناء العبادة بما يحويه من المآذن والمحاريب والمنابر وحياض الماء فضلاً عن خدمته السياسية اذ يشير بفخامته وروعته وزخرفته الى العالم طراً ان أتباع الدين الجديد ليسوا اقل قدراً من الذين يصلون في كاتدرائيات العالم المسيحي العظمى .

القصور : قصير عمره

واذا استثنينا المساجد وغيرها من الابنية الدينية فان الامويين لم يتركوا في فن البناء سوى آثار قليلة منها القصور التي بناها على ضفاف البادية امراء البيت المالك شأنهم في ذلك شأن امراء غسان من قبلهم. فالظاهر انه لم يسكن دمشق منهم سوى معاوية وعبد الملك. اما الخضراء (٢)

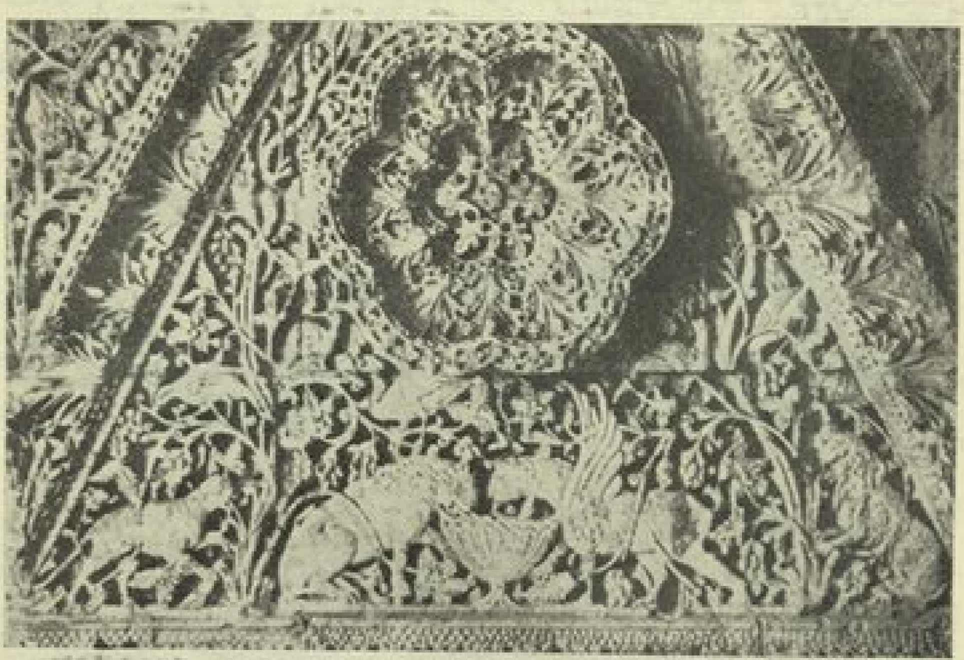


قصير عمره

١) لقد كان في السنين الأخيرة ان الثورات الرئيسية التي قام بها الوطنيون ضد السلطات الاوربية في سورية ومصر كانت تبدأ في شكل مظاهرات حماسية تقام في الجوامع بمناسبة صلاة الجمعة .

٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٢٤ .

دار الخليفة الملاصقة للجامع الكبير في عاصمتهم دمشق فلا اثر لها اليوم . كذلك تلاشت اطلال القبة الخضراء، (١) التي بناها الحجاج بواسط داراً له . الا ان تخوم بادية الشام حافلة ببقايا قصور كانت في الأصل حصوناً رومانية على الحدود فعمد اليها المهندسون الذين استخدمهم الامويون فأعادوا عمرانها او ابتنوها من جديد على الطراز البيزنطي او الفارسي . وبالقرب من عين التمر آثار قصر يعرف باسم الأخيضر وهو في الطرف الشرقي من بادية الشام . وليس محققاً هل تعود هذه الآثار (٢) الى آخر العصر الاموي ام الى اول العهد العباسي . وهناك آثار اوفر عدداً على ضفاف بادية الشام الجنوبية الغربية . فقد بنى هناك يزيد ابن عبد الملك او رمم قصراً يسمى الموقر (٣) لاتزال منه بعض بقايا الى اليوم . اما ابنه الوليد الثاني الذي كان منصرفاً الى الصيد وغيره من الملاهي فقد أقام في قصرين متجاورين



جزء من النقش الموجود على حجر واجهة المشتى

١) البلاذري ص ٢٩٠ ؛ المسعودي ، التنبيه ص ٣٦٠ ؛ اليعقوبي ص ٣٢٢ .

٢) Gertrude L. Bell, *Palace and Mosque at Ukhaidir* (Oxford, 1914) , p. 167 .

٣) ياقوت ج ٤ ص ٦٨٧ . البلقاء التي قام فيها هذا القصر عبارة عن ارض الجنوب من نواحي الاردن الشرقية وهي تشمل مؤاب القديمة .

هما قسطل (١) والازرق (٢) وكانا من حصون الرومان في شرق الاردن . والى هذا الخليفة الوليد الثاني يعزى ابتناء قصر آخر في هذه البقعة يعرف باسم المشتى وهو اول قصر في هـذه الربوع زاره الأثريون . ولم يكن بناؤه قد أكمل عند وفاة الخليفة . وقـد نقلت واجهة هذا الصرح الفخم الى متحف القيصر فردريك ببرلين (٣) . على أن اشهر هذه المباني على الاطلاق قصير عمره في الجـانب الشرقي من نهر الاردن وهو على خط مستقيم من ضفـة البحر الميت الشمالية . والراجح ان عهده يعود الى ما بين ٧١٢ و ٧١٥ . وقد بناه على الارجح الوليد الاول وكشف عنه لعـالم العلم الويز موزل (٤) سنة ١٨٩٨ . واغلب الظـن ان اسم القصر حديث لأن الآداب العربية لم تحفظ له ذكراً ومما يزيد في قيمته التصاوير الجدارية التي سنعرض لها فيما بعد .

قصرا الحير وخربة مفجر

كذلك كشف في الحقبة الأخيرة عن قصرين لهشام ابن عبد الملك الواحد ـ قصر الحير الغربي ـ على بعـد نحو اربعين كيلومتراً الى الشرق الشمالي من القريتين على الطريق بينهـا وبين تدمر وقد كشف عنه الأثري الفرنسي دانيال شلومبرجه ونقلت بعض بقاياه الى دمشق حيث نصبت في مدخل المدينة الغربي (٥) والآخر ـ ويعرف الآن بخربة مفجر ـ قرب اريحا وقد كشف عنه الأثريان هاملتون وبرامكي بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٤٨ وفيه عدا البلاط الملكي جامع وحمام وقد تميز هذا الحمام عن غيره من الحمامات المعروفة في القصور الاخرى المتخلفة عن هذا العهد باتساعه واتقانه وتمام تجهيزه ويمتاز فوق ذلك بالفسيفساء التي كشف عنها في بعض

---

١) من لفظة *Castellum* اللاتينية اي قصر . ياقوت ج ٤ س ٩٥ .

٢) الطبري ج ٢ س ١٧٤٣ .

٣) راجع R. E. Brünnow and A. v. Domaszewski. *Die Provincia Arabia*, vol ii (Strassburg, 1905), pp. 105-70 ; B. Schulz and J. Strzygowski, « *Mschatta,* » *Jahrbuch der königlichpreuszischen Kunstsammlungen*, vol. xxv (1904), pp. 205-373.

٤) *Kusejr 'Amra andere Schlösser östlich von Moab*, pt. I (Vienna, 1907). ويعتبر موزل ان بانيه هو الوليد الثاني .

٥) انظر دانيال شلومبرجه ، قصر الحير الغربي (بيروت ، ١٩٤٥) س ١٩ ـ ٣٨ .



صورة السجادة المرسومة بالفسيفساء في ارض الغرفة التي كان يرتاح فيها الخليفة عند خروجه من الحمام كما تظهر في قصر هشام ابن عبد الملك قرب أريحا (خربة مفجر اليوم)

والقطعتان المتصلتان بالسجادة هما صورة الفسيفساء في مدخل المربع من الجنوب . وكان يحيط بالغرفة دكة للجلوس منقوشة بالفسيفساء ايضاً .

غرفه فقد زينت ارض المربع في احداها بصورة سجادة على غاية ما يكون من الدقة والروعـة وفي جانب هذه الغرفة نفسهـا ديوان للجلوس بشكل نصف دائرة تقريباً رصعت مقـاعده



الفسيفساء في جانب غرفة الاستراحة الخاصة اللاصقة للحمام وهي في الاصل ملونة كشكل الفسيفساء في القصر .

وارضه بالفسيفسـاء اما الرسم الذي في الارض فهو صورة شجرة من الاترج أو البرتقال تحمل الثمر يحيط بها ثلاثة غزلان قد سطا على احدهـا أسد يفترسه . والظاهر ان فنانين من بيزنطة قـد استجلبوا لصنع هـذا الرسوم بالفسيفساء، وهي تعتبر من اجمـل ما تحدر الينا من هذا الفن ، ويذهب الاثريون الذين كشفوا عن هـذا القصر ان الزلزال الذي حدث سنة ٧٤٦ قد هدم

هذا القصر كله قبل أن يتم بناء الطابق الاعلى فيه (١) .

التصوير

ذهب معظم علماء الاسلام الى ان رسم الانسان والحيوان هو من خصائص الله وان من تعدّى على حق الله في ذلك يعدّ آثماً . وما هذه النظرية العدائية الى الفن التصويري الا نتيجة للتمسك الشديد بفكرة التوحيد التي نص عليها القرآن ولما حرمه القرآن أيضاً من الشرك وعبادة الاوثان . وجاء الحديث بتثبيت ما في القرآن في هذا الصدد فقد روي عن النبي انه قال : ان اشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون (٢) . والمصورون في المعنى الواسع يشملون النحاتين ايضاً ، لذلك لم تحو المساجد ادنى مثال للآدميين بل تكاد لا تجد رسوماً او صوراً بشرية الا على جدران القصور وفي بعض الكتب . ولقد استمد الفن الاسلامي جل المواضيع الزخرفية او كلها من مملكة النبات او من الاشكال الهندسية . ومما يظهر مبلغ النجاح الذي بلغه الفن في هذا الميدان ان لفظة « ارابسك » arabesque تطلق عليه في اكثر اللغات الاوربية . ولكن العرب انفسهم لم يكونوا قد الفوا بعد او تذوقوا روح هذا الفن في شكليه ـ النحت والتصوير ـ تدل على ذلك آثارهم في الجزيرة واوصاف معابدهم في كتب الادب. وما نسميه بالفن الاسلامي هو فن « انتخابي » (٣) في جوهره وفي مواضيعه واسلوب إخراجه فهو بالأكثر من نتاج القرائح الفنية عند ابناء الشعوب المغلوبة الا ان هذا النتاج نما تحت رعاية المسلمين وكيّف تبعاً لحاجاتهم الدينية .

واقدم الامثلة على فن الرسم في الاسلام هي تلك التصاوير الطينية التي نجدها في قصير عمره (شرق لاردن) النامة عن صناعة مصورين نصارى . فعلى جدران هذا القصر (وكان عبارة عن ملهى وحمام لبني امية) صور لست شخصيات ملكية منها صورة للخليفة نفسه

١) راجع : R. W. Hamilton, *Palestine Exploration Quarterly* (1949) , pp. 40 - 51 ; D. C. Baramki, *The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, vol. X. no.4 (London, 1942) pp. 153 - 159. *The Illustrated London News*, (July 14 , 1945) pp. 52-53

وقد اخذنا صور الفسيفساء عن المجلة الأخيرة

٢) البخاري ج ٧ ص ٦١ .

٣) اي ينتخب الموافق مما ينتجه الآخرون .

واخرى لعدوه رودريك آخر ملوك اسبانية من القوط الغربيين . وهنالك اشكال رمزية تمثل الظفر والفلسفة والتاريخ والشعر . وفي صورة لمشهد صيد نرى اسداً واثباً على حمار وحشي. ومن آثار الفن العاري صور تمثل الراقصات والموسيقيين وأهل الطرب . اما الزينة فقوامها السجف واوراق النبات متدلية من مزهريات واشجار النخيل والعنب ، وعليها عناقيد الثمر ، والفار وطيور البادية . واكثر الكتابات عربي وفيها بضعة أسماء يونانية . وليس في العالم الاسلامي صور محفوظة كهذه الصور .

الموسيقى

اختلفت ضروب الغناء عند عرب الجاهلية فمنه الحداء للابل في سيرها والهزج وقت الغارة والانشاد في الصلاة او الافراح او المآتم . ولا تزال آثار الترانيم الدينية الساذجة محفوظة في التلبية[١] من مراسيم الحج . اما طريقة انشادهم الشعر فلا يزال أثرها في تجويد القرآن . وكان للحداء مقام رفيع عند العرب فقد استعذبته نفوسهم وهم يعدونه اقدم انواع الغناء . وقد نشأ على ما جاء في اسطورة ذكرها المسعودي [٢] كما يلي : قيل سقط مضر ابن نزار ابن معد [٣] عن جمل في بعض اسفاره فانكسرت يداه فجعل يقول : « يا يداه ! يا يداه ! » وكان من احسن الناس صوتاً فاستوسقت الابل وطاب لها السير فاتخذه العرب حداء برجز الشعر وسموا هذا الشعر الرجز وهو اول بحور الشعر وابسطها .

ولا ريب في ان عرب الجنوب كانت لهم انواع خاصة من الغناء وآلات الموسيقى [٤] التي لم يصلنا عنها الا القليل . ومهما يكن من امر هذا الفن في الجنوب فانه لا يعد قسماً من تراث عرب الشمال ومن تلاهم من اهل الحضارة الاسلامية . وقد استعمل اهل الحجاز الدف قبل الاسلام وهو آلة موسيقية مربعة الشكل كما استعملوا كذلك القصبة او القصابة والزمر او

١) التلبية هي ان يقول الحاج « لبيك » في اول الدعاء ، البخاري ج ٢ ص ١٣٥ .
٢) ج ٨ ص ٩٢ .
٣) قابل « المداد » في سفر الاخبار الاول ١ : ٢٠ .
٤) المسعودي ج ٨ ص ٩٣ .

المزمار (١) . وكذلك كان المزهر (٢) معروفاً لديهم . وما كاد يبدأ عهد النبي محمد حتى كانت المؤثرات الموسيقية الأجنبية قد بدأت تظهر في بعض الأوساط العربية فقد اقتنى امراء غسان اجواقاً من القيان اليونانيات وكان اللخميون من أهل الحيرة يعرفون العود الذي استعاره منهم اهل الحجاز . وفي بعض الأخبار ان النضر ابن الحارث ابن كلدة الطبيب الشاعر هو الذي ادخل العود الى مكة من الحيرة(٣) . وكان ينظم الشعر محاولا ان يستميل نفوس القوم ويصرفهم عن الاستماع الى القرآن (٤) . وهناك اخبار اخرى تجعل ابن سريج (المتوفى حوالي ٧٢٦) اول من ادخل العود الفارسي الى الحجاز . وقد ذكروا انه رأى العود لأول مرة في ايدي الفعلة الفرس الذين أقدمهم الى الجزيرة سنة ٦٨٤ عبد الله ابن الزبير لبناء الكعبة (٥). وقد استعير الناي بعد ذلك وهو اسم فارسي لآلة صوتية تصنع من الخشب ايضاً حسبما اظهرت دراسات البحاثة فارمر (٦) . والظاهر ان اكثر من عني بالغناء في الجاهلية كانوا نساء وقد حفظ لنا صاحب الاغاني (٧) اسماء نفر منهن . ومن المراثي التي قالتها الخنساء الشاعرة المشهورة التي عاصرت النبي في رثاء اخيها صخر ما وضع دون شك ليُغنى به (٨) في المآتم ولا بدع فان اكثر شعراء الجاهلية كانوا ينشدون اشعارهم انشاداً أشبه بالغناء .

ولم تكن حملة القرآن على الشعراء (٩) باعتبار انهم شعراء بل بصفتهم ممثلي الشرك والوثنية . ولعل الرسول لم يرض كثيراً عن الموسيقى لارتباطها بالطقوس الوثنية . وفي بعض الحديث ما يفيد ان الآلة الموسيقية كمؤذن الشيطان يستفز من استطاع الى عبادته(١٠). والواقع

---

١) الاغاني ج ٢ س ١٧٥ .
٢) العقد ج ٣ س ٢٣٧ ؛ المسعودي ج ٨ س ٩٣ .
٣) المسعودي ج ٨ س ٩٣ – ٩٤ .
٤) يقال انه هو الذي أشير اليه في سورة لقمان : ٥ – ٦ .
٥) الاغاني ج ١ س ٩٨ .
٦) *Journal Royal Asiatic Society* (1923), pp. 119 *seq.* , pp. 489 *seq.* ; *A History of Arabian Music to the XIII th Century* (London , 1929), p. 7.
٧) ج ٨ س ٣ ؛ ج ١٠ س ٤٨ .
٨) الاغاني ج ١٣ س ١٤٠ .
٩) سورة الشعراء : ٢٢٤ – ٦ .
١٠) راجع النويري ج ٤ س ١٣٢ – ٥ ؛ Farmer, *Arabian Music*, pp. 24-5; A. J. Wensiack, *A Handbook of early Muhammadan Tradition* (Leyden, 1927) p. 173.

ان السواد من متشرعي الاسلام والفقهاء كانوا يعرضون عن الموسيقى حتى ذمها بعضهم في جميع الاحوال ومنهم من عدها مكروهة في الدين وان لم تكن حراماً . الا ان نظرة جمهرة الناس الى الامر يعبر عنها القول المأثور : « الخمر كالجسد والسماع كالروح والسرور ولدهما » (١).

و بعد ان زالت الروعة الاولى التي أوحاها ظهور الاسلام اتجه التطور الاجتماعي في الحجاز الى ناحية تذوق الجمال و بالاخص في عهد عثمان وهو اول خليفة اكتنز المال والتفت الى الغنى والترفه . ثم اتقن القوم فن الطباق بين الصوت والآلة الموسيقية واخذوا في ما يسميه العرب الغناء المتقن او الرقيق وهو الذي يأتي فيه الايقاع ملازماً للنغم وما عتم ان اصبح هذا النوع موطداً في الحجاز . وظهر لأول مرة طبقة من الرجال ممن احترفوا الموسيقى وكانوا يحنون ايديهم ويتقصفون تقصف النساء فعرفوا بالمخنثين . منهم طويس (اي الطاووس الصغير ٦٣٢ - ٧١٥) اول من غنى بالمدينة فعد أبا الغناء في الاسلام . ويظن ان طويساً ادخل الايقاع الى الغناء العربي وانه اول من غنى بالعربية مصحوباً بالآلة الموسيقية المعروفة بالدف (٢).

وكان جيل المغنين الاول في الاسلام نفراً من الخلعاء الاجانب على رأسهم طويس . ولطويس عدد من التلامذة اشهرهم ابن سريج (نحو ٦٣٤ - ٧٢٦) احد المغنين الاربعة العظام في الاسلام (٣) . وقد عزا الرواة اليه ادخال العود الفارسي الى الحجاز والتوقيع بالقضيب ارشاداً للضاربين على آلات الموسيقى في الحفلات الموسيقية العامة التي كان يديرها . وكان ابن سريج تركي الاب وكان مولى لسكينة بنت الحسين . وقد درس ابن سريج ايضاً على سعيد ابن مسجح (او مسجّح المتوفى حوالي ٧١٤) المكي الاسود وهو مولى ايضاً . وكان سعيد اول موسيقي ظهر في مكة ولعله اعظم من ظهر في العصر الاموي فقد قيل انه رحل الى الشام وفارس واخذ ألحان الروم والفرس فنقلها الى غناء العرب (٤) . والظاهر انه منظم

---

١) النواجي ص ١٧٨ . راجع النويري ج ٤ ص ١٣٦ وما يلي .
٢) الاغاني ج ٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ .
٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٩٨ .
٤) المصدر نفسه ج ٣ ص ٨٤ .

الموسيقى العربية في ناحيتيها النظرية والعملية في العهد الاول من تاريخ العرب . ومن الذين اخذوا عنه الغريض (١) وهو من مولدي البربر فعلمه ابن سريج (٢) ايضاً واصبح بعد معلمه الثاني من المغنين الاربعة المشهورين في الاسلام في ذلك العهد . اما المغنيان الآخران فهما ابن محرز (المتوفى حوالي ٧١٥) وهو فارسي الاصل وكان يقال له « صنّاج العرب » (٣) . ومعبد (المتوفى ٧٤٣) وكان خلاسياً من المدينة ونال حظوة في بلاط الوليد الاول ويزيد الثاني والوليد الثاني (٤) . وكان قبل انتقاله الى العاصمة يجول مغنياً في انحاء الجزيرة . وكان من القيان جميلة (المتوفاة نحو ٧٣) وهي مولاة مدنية تزعمت الفن في الجيل الاول (٥) . وكانت دارها موئلاً لأرباب الموسيقى والغناء بمكة وتتلمذ عليها كثيرون منهم . ومن ابرز الذين كانوا يحضرون حفلاتها شاعر الحب المشهور عمر ابن ابي ربيعة . ومن تلميذاتها حبابة وسلامة محظيتا يزيد الثاني . ولعل اروع حادثة ذكرها الرواة عن حياتها المترعة بالبدائع تلك الزيارة التي قامت بها الى مكة فخرج معها حذاق المغنين والمغنيات وجماعة من الشعراء والاشراف وغيرهم من الرجال والنساء المعجبين بها يشيعونها او يحجون معها وقد ركبوا على الابل في الهوادج والقباب وتباروا في اتخاذ انواع اللباس العجيب الظريف . فما ان اشرفت على مكة حتى خرج الناس رجالا ونساء ينظرون الى جمعها وحسن هيئتهم حتى قضت حجها فعادت وعاد معها جمع اكثر من جمعها فتلقاها اهل المدينة ودخلت بموكب أحسن مما خرجت به وتوافد عليها الناس مسلّمين لا يستنكف من ذلك كبير ولا صغير (٦) .

وكانت للموسيقى حفلات ومجالس زاهرة في منازل سيدات الطبقة الارستقراطية يؤمها جماهير من غواة الفن ومريديه . وكان العود الفارسي المصنوع من الخشب قد اخذ يحتل مكان العود المعروف سابقاً في الجزيرة المصنوع من الجلد . وكان من الآلات الموسيقية الوترية المستحبة

---

١) اسمه عبد الملك . والغريض لقب له .
٢) الاغاني ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠ .
٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥١ .
٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩ وما يلي .
٥) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٢٤ وما يلي .
٦) المصدر نفسه ج ٧ ص ١٣٥ .

عندهم المعزفة وهي ضرب من القانون . ومنها ايضاً القصبة والمزمار والبوق . اما الآلات التي تقوم على مبدأ النقر فهي الدف وهو مربع الشكل وكانت النساء اسبق الى الالتفات اليه واستعماله ، والطبل والصنج . واما انغام تقطيع الأصوات (النوتات) الموسيقية فقد كانوا يتناقلونها شفهياً من جيل الى جيل ولهذا ضاعت كلها . فكتاب الأغاني مثلاً طافح بالابيات التي كان المغنون يغنونها ايام الامويين الا انه لا يثبت لنا « نوتاً » واحداً نستدل منه على نغم صوت من الغناء الذي كان رائجاً . وكان عميد المغنين في العراق في ذلك العهد حنين الحيري النصراني وقد روي انه شخص الى الحجاز زائراً فاستقبلته سكينة بنت الحسين واذنت للناس اذناً عاماً فغصت بهم دارها ولم ير يوم كان اكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ . وصعدوا فوق السطح ليسمعوا صوته وازدحموا عليه فسقط الرواق على من تحته ومات حنين تحت الردم . (١) وتوفرت في مواسم الحج الفرص لمن في الحجاز من اهل الموسيقى والغناء لاظهار مواهبهم امام وفود الحجاج . ولقد كان من المألوف في بعض الاحيان ان يتوجه المغنون لملاقاة موكب الحجيج ويطربوهم اثناء السير . وفي الاغاني وصف مشهد من هذه المواكب التي شهدها موسم الحج كان بطله زعيم شعراء الحجاز في ذلك العصر عمر ابن ابي ربيعة . فقد خرج في احسن هيئة عليه حلة موشية ومعه مغنيه ابن سريج وجعل يتعرض لمن يرى من الحسان حتى أمسوا فرفع ابن سريج صوته يغني في شعر قاله عمر فسمعه الركبان وجعلوا يصيحون به : « يا صاحب الصوت اما تتقي الله قد حبست الناس عن مناسكهم » (٢).

وهكذا أصبحت مكة وبنوع أخص المدينة موئلاً للموسيقى في العصر الاموي ومربعاً لهواتها (٣). وأمّ بلاط دمشق نفر ممن تخرجوا في فنون الموسيقى في هاتين المدينتين . ولم يكن ليجدي نفعاً تشدد المتزمتين والمحافظين من العلماء الذين كانوا يكرهون السماع ويقرنون الموسيقى بالشرب والقمار ويستشهدون بالاحاديث النبوية التي تذهب الى ان هذه الملاهي هي

---

١) الاغاني ج ٢ ص ١٢٧ .
٢) الاغاني ج ١ ص ١٠٢ .
٣) العقد ج ٣ ص ٢٣٧ .

شر الوسائل التي يستدرج الشيطان بها ابناء آدم . فقد كانت مكانة الموسيقى في القلوب اعظم من ان تقاوم بشيء من هذه الذرائع لاسيما وان ارباب الموسيقى انفسهم كانوا يستندون بدورهم الى احاديث نبوية [١] تدعمهم . بل انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك فزعموا ان لشعر والموسيقى والغناء ليس من الضروري ان تحط من قدر الانسان بل ان لها قسطاً من التأثير في تهذيب النفس اذ تبعث على مكارم الاخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذبّ عن الاعراض والتجاوز عن الذنوب [٢] .

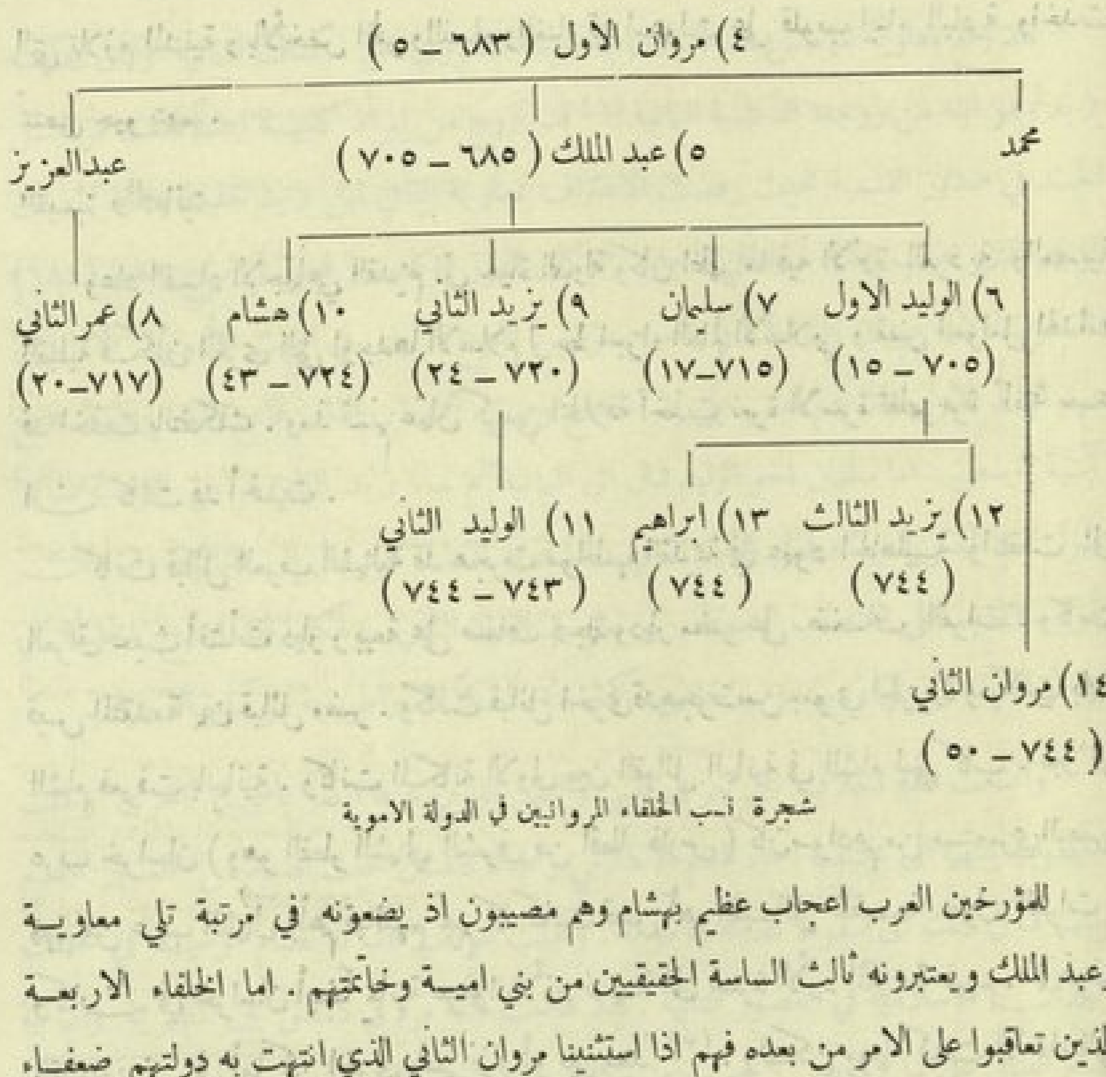
وكان يزيد ابن معاوية [٣] اول من سن الملاهي واستجلب المغنين الى الشام وكان شاعراً فجعل يقيم الحفلات الكبرى في بلاطه ومن ثم اصبح الغناء والشرب صنوين متآلفين في تاريخ الدول الاسلامية . وشمل عبد الملك برعايته ابن مسجح من مغني الحجاز . واستقدم الوليد ابنه ، وهو من دعاة الفن ، ابن سريج ومعبداً الى العاصمة واحتفى بهما . ثم اعاد يزيد الثاني الشعر والموسيقى الى سابق مركزهما بعد ان كان عمر ابن عبد العزيز الخليفة الورع المحافظ قد حال دونهما . وقد عوّل يزيد على مواهب حبابة وسلامة [٤] . واصطفى هشام حنيناً الحيري وانعم عليه . كذلك كان الوليد الثاني صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء فاستقدم المغنين من البلدان المختلفة واظهر العزف على العود واستقبل في بلاطه عدداً من ارباب الموسيقى والغناء منهم معبد المشهور [٥] . ووافقت ولايته زمن ازدهار الموسيقى في عاصمتي الحجاز فلم يجيء آخر العصر الاموي حتى كان حب الغناء قد سرى في نفوس الناس خاصتها وعامتها فاتخذ العباسيون ذلك الامر سلاحاً على الفتّ من ساعد خصومهم الامويين وقاموا ينشرون دعوتهم و يتوعدون « أعداء الله » .

---

١) الغزالي ، احياء علوم الدين (القاهرة ، ١٣٣٤) ج ٢ ص ٢٣٨ وما يلي .
٢) العقد ج ٣ ص ٢٢٥ – ٦ ؛ النواجي ص ١٧٧ – ٩ .
٣) الاغاني ج ١٦ ص ٧٠ ؛ قابل المسعودي ج ٥ ص ١٥٦ – ٧ .
٤) المسعودي ج ٥ ص ٤٤٦ وما يلي .
٥) المصدر نفسه ج ٦ ص ٤ .

الفصل الثاني والعشرون

انحطاط الدولة الاموية وسقوطها



شجرة نسب الخلفاء المروانيين في الدولة الاموية

للمؤرخين العرب اعجاب عظيم بهشام وهم مصيبون اذ يضعونه في مرتبة تلي معاوية وعبد الملك ويعتبرونه ثالث الساسة الحقيقيين من بني امية وخاتمتهم . اما الخلفاء الاربعة الذين تعاقبوا على الامر من بعده فهم اذا استثنينا مروان الثاني الذي انتهت به دولتهم ضعفاء بعضهم قاصر و بعضهم خليع . وقد كانت عادة الخلفاء حتى قبل عهد هشام الانصراف الى الصيد ومعاقرة الخمرة مؤثرين الانغماس باللهو والاستمتاع بالسماع والشعر على غيرهما من امور الجد في الحياة مغفلين الدين وشؤون الدولة . وقد تم تنظيم طبقة الخصيان التي ساعدت على

انشاء نظام الحريم . واستشرى البذخ والترف والتنعم بما أفاء الله عليهم من ثروة وإماء وعبيد وامتزجوا بهم بواسطة الزواج بحيث لم يبق من سبيل حتى للاسرة المالكة نفسها ان تفاخر بصراحة دمها العربي . وكان يزيد الثالث اول خليفة في الاسلام أمه « أم ولد »(١) أي جارية وكذلك كان الخليفتان اللذان وليا الامر بعده (٢) ولم تكن سبل اللهو والعبث التي سلكها افراد الطبقة المالكة الا دلائل الانحطاط الاخلاقي المتفشي عامة . وكانت الشرور التي تلازم المدنية وبالأخص الخمر والنساء والغناء قد استولت على قلوب ابناء البادية واخذت تمتص حيويتهم .

القيسية واليمانية

وعاد الفساد الاجتماعي القديم الى حياة الدولة وكان اظهر ما فيه الأثرة الفردية والعصبية القبلية فكأن العرى التي اوجدها الاسلام لربط اجزاء العالم الاسلامي ونقض العوامل الهدامة قد اخذت بالتفكك . ومذ تسنم عثمان كرسي الخلافة اخذت نعرة الاسرة تظهر مرة ثانية بعد ان كانت قد أخمدت .

كانت قبائل العرب الشمالية قد هجرت مواطنها القديمة في عهود الجاهلية وانتقلت الى العراق حيث أنشأت ديار ربيعة على ضفاف دجلة وديار مضر على ضفاف الفرات . وكانت قيس المتقدمة بين قبائل مضر . وكانت قبائل اخرى قدهجرت من جنوبي الجزيرة وسكنت بلاد الشام فعرفت باليمانية . وكانت المكانة الاولى بين القبائل اليمانية في الشام لبني كلب . غير أن عرب خراسان (وهو القطر الشمالي الشرقي من اقطار فارس) كان سوادهم من مستعمري البصرة فهم من عرب الشمال وأهم قبائلهم تميم كما كانت قيس أهم القبائل المقيمة حول الفرات . وكان في خراسان أيضاً يمانية عرفوا بالأزد نسبة الى اسرة الأزد المتزعمة فيهم . كما عرف القيسيون في أماكن اخرى باسم نزار أو بني معدّ (٣) . ولكن مهما كانت الاسماء التي

---

١) الطبري ج ٢ ص ١٨٧٤ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠١ ؛ ابن الاثير ج ٥ ص ٢٣٥ .

٢) اليعقوبي ج٢ ص٤٠٣ ، ٤٠٤ .

٣) راجع بشأن القبائل العربية ابن دريد ، كتاب الاشتقاق ؛ F. Wüstenfeld, *Genealogische Tabellen der arabischen Stämme* (Göttingen, 1852) ; *Register zu den genealogischen Tabellen der arabischen stämme* (Göttingen, 1853) .

عرفت بها القبائل فقد انقسمت بوجه عام الى قسمين ـ عرب الشمال وعرب الجنوب . وشعر عرب الشمال الذين ارجعوا انسابهم الى اسماعيل وتسموا بالعدنانية بطابع قبلي عريق يميزهم عن عرب الجنوب فلم يتحدوا معهم . وارجع عرب الجنوب انسابهم الى قحطان (يقطان في سفر التكوين ١٠ : ٢٥ وما يلي) . وعلى مر الزمن أصبح القيسيون نواة لحزب سياسي واليمانيون نواة لحزب آخر .

لقد رفع معاوية مؤسس الدولة الاموية عرشه السوري على اكتاف اليمانية وكان خلفه يزيد وهو ابنه من زوجته الكلبية اليمانية (١) قد تزوج من امرأة كلبية ايضاً فغلت مراجل الحسد في صدور القيسية بحيث رفضت الاعتراف بمعاوية الثاني ابن يزيد خليفة وظاهرت ابن الزبير الذي نصب نفسه خليفةفي الحجاز . ثم كان الفوز لكلب على قيس في مرج راهط (٦٨٤) فاستقرت ولاية مروان ابن الحكم واصبح مؤسس الفرع المرواني في البيت الأموي . الا انه في عهد الوليد الاول علا نجم قيس على يد الحجاج وصهره محمد ابن القاسم فاتح الهند وقتيبة فاتح آسية الوسطى . اما سليمان اخو الوليد فمال الى اليمانية ثم جاء يزيد الثاني فراعى القيسية متأثراً بميول امه المضرية ومثله فعل الوليد الثاني . اما يزيد الثالث فقد مال الى اليمانية واستعان بقوة سلاحهم على اغتصاب الصولجان من يد الوليد الثاني . وهكذا فقد اصبح الخليفة في اواخر العهد الاموي زعيم حزب خاص اكثر منه ملكاً لامبراطورية موحّدة الاجزاء .

واتسعت شقة الخلاف بين حزبي قيس واليمن اللذين عرفا ايضاً باسماء اخرى ونقلت الخصومة بينهما الى مختلف انحاء العالم الاسلامي وتم الانفصال بحيث اصبح من العسير الجمع بينهما فآل ذلك الى سقوط الدولة الاموية . وتجلت عواقب هذا الانقسام الوخيمة في مختلف البلدان الاسلامية في العصور التالية . فقد هاجت فتنة مرة في دمشق بين المضرية واليمانية فدام القتال على ما يروون (٢) نحو سنتين وكان سبب الفتنة ان رجلاً من معد مر بحائط (٣)

١) راجع عن سياسة الامويين زيدان ، التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٥٢ وما يلي .

٢) ابو الفداء ج ٢ ص ١٤ .

٣) اي بستان .

رجل يماني وفيه بطيخ فتناول واحدة منه . وكان بين المضرية واليمانية معارك في مرسية [١] باسبانية بسبب ورقة من شجرة كرم قطفها مضري من دار يمني واستمرت الحرب بضع سنين . ففي كل مكان سواء أكان في العاصمة او في الملحقات او على ضفاف نهر الاندس او شواطئ صقلية او تخوم الصحارى في افريقية اخذ هذا العداء القبلي الموروث عن الآباء وقد تحول الى خصومة بين حزبين سياسيين يظهر بأجلى بيان . ومن عواقب هذا الانشقاق الداخلي ان جيوش الاسلام عجزت عن التقدم في فتوحاتها بفرنسا . وان الخلافة الاندلسية اخذت في الانحطاط . والظاهر ان هذا النزاع استمر الى العصور الحديثة في لبنان وفلسطين اذ نعلم ان معارك نشبت بين الفريقين في مطلع القرن الثامن عشر .

مشكلة الاستخلاف

لم يستند حق التعاقب في الخلافة الى نظام معين صريح فنشأ عن هذا الأمر اختلال خطير في حياة الامة . وكان معاوية قد انتهج سياسة حكيمة حين رشح ابنه للخلافة الا ان العرف العربي القديم الذي جعل التعاقب للاكبر سناً كان يناهض ميل الخليفة الطبيعي الى جعل الخلافة لابنه يزيد . ومن بين الخلفاء الامويين الاربعة عشر لا نعرف الا اربعة ولي ابناؤهم الملك من بعدهم وهم معاوية الاول ويزيد الاول ومروان الاول وعبد الملك . ومما زاد المسألة تعقيداً ان مؤسس الفرع المرواني عين ابنه عبد الملك لولاية عهده على ان تكون الخلافة بعد عبد الملك لأخيه عبد العزيز [٢] . فما كاد عبد الملك يصل الى العرش حتى حاول القيام بما قام به ابوه فخلع اخاه عبد العزيز وعين الوليد على ان تكون الخلافة بعده لسليمان [٣] . ثم جاء دور الوليد فسعى الى اغتصاب حق اخيه وجعل ابنه عوضاً عنه فأخفق . ونستطيع ان ندرك كيف كانت جميع هذه المناوشات السياسية تفسد استقرار الحال وتقاوم استمرار الأمر للدولة الاموية .

---

١) ابن عذاري ، البيان ج٢ ص ٨٤ .
٢) اليعقوبي ج٢ ص٣٠٦ .
٣) المصدر نفسه ص٣٣٤–٥ .

اصحاب علي

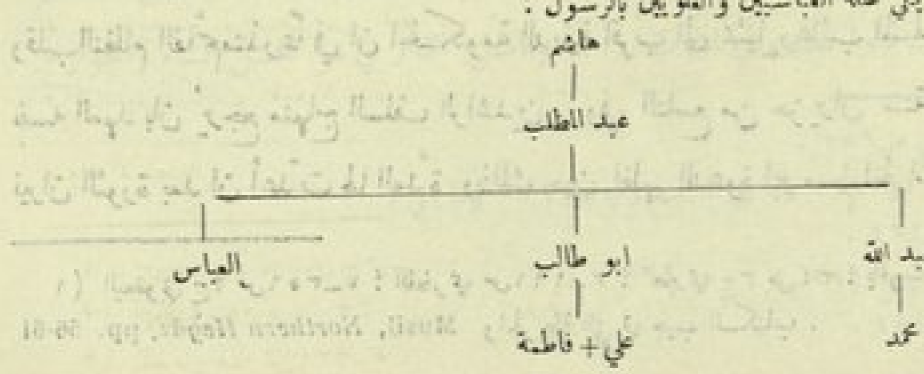
اما الشيعة الناقمون الذين لم يعترفوا قط بحكومة الامويين المغتصبين ولم يغفروا لهم ما جنوه على علي والحسين فقد ازداد نشاطهم الآن . وقد كان اخلاصهم لآل البيت وتعلقهم بهم داعياً لأن يكسبوا العطف العام ، فمال اليهم كثير من الناقمين على الوضع السياسي او الاقتصادي او الاجتماعي في حكومة الامويين . وكان سواد الأهلين في العراق يومئذ قد اصبحوا من الشيعة فأخذت المعارضة التي كان يظهرها العراقيون لبني امية بصفتهم عراقيين ولكونهم يشعرون بان العراق مسلوب الحقوق تصطبغ الآن بصبغة دينية.حتى في الاوساط السنية فان اهل التقى والورع كانوا يتهمون الخلفاء الامويين باتباع اهواء الدنيا واغفال القرآن وتقاليد الشرع و يعلنون استعدادهم لعضد المعارضة ودعمها بما لهم من نفوذ ديني .

الدعوة العباسية

وكانت هناك قوة اخرى تعمل في هدم بناء الدولة الاموية هي قوة العباسيين وهم ابناء عم النبي العباس ابن عبد المطلب ابن هاشم . فقد اخذوا يعلنون حقهم في الخلافة بشيء من العنف واستطاعوا بدهائهم ان يغزوا العلويين بالقول ان دعوتهم انما ترمي الى الدفاع عن حقوق بني هاشم المغصوبة . وكانت الشيعة ترى ان العلويين وحدهم هم عماد بني هاشم ، ولكن بني العباس كانوا يرون انهم من بني هاشم وانهم لذلك أمتّ صلة بالرسول من بني امية (١) . ولما رأى العباسيون ان الاستياء من حكم بني امية قد اخذ يزداد ويعمّ انتهزوا الفرصة فأعلنوا انهم حماة الدين القويم وتزعموا صفوف الخارجين على سلطة الامويين .

---

١) انظر فيما يلي صلة العباسيين والعلويين بالرسول :



واختاروا لحركتهم مركزاً في قرية صغيرة الى الجنوب من بحر الميت تدعى الحُمَيمة (١) كانت في الظاهر بمعزل عن مسرح السياسة ولكنها في الواقع مقام جغرافي خطير يشرف على خط القوافل وعلى مقربة من ملتقى طرق الحجيج . وهناك دبر العباسيون امورهم واعدوا العدة لدعوتهم التي لا مثيل لها في تاريخ الاسلام السياسي .

أهل خراسان

ولم تكن نقمة المسلمين غير العرب وخاصة الفرس منهم دون مبرر او سبب . فقد كانوا عللوا نفوسهم حين دخلوا في الاسلام بالتساوي مع العرب ولكنهم رأوا عوضاً عن ذلك ان مركزهم تدنى الى درجة الموالي وما يرافقها في بعض الأحيان من دفع الجزية المرسومة على غير المسلمين . وزاد في نقمتهم شعورهم بانهم ارقى واعرق ثقافة من اسيادهم العرب وهي حقيقة اعترف بها العرب انفسهم . وفي امثال هؤلاء الناقين المتذمرين الحديثي العهد بالاسلام وجدت بذور الحركة العلوية العباسية تربةً صالحة للنمو . وسرت فكرة الثورة العلوية من العراق الموالي دائماً للعلويين الى فارس وانتشرت بنوع خاص في خراسان المنطقة الشمالية الشرقية وكانت خراسان اذ ذاك اكبر مساحة مما هي الآن . وكان قد مهد الطريق في فارس لهذه الفكرة بسبب الخصومة المستمرة بين الازد ومضر . ولكن عوامل اخرى أبعد غوراً من هذه كانت تقوم بعملها فقد اخذت النزعة القومية الايرانية تقوى الآن تحت قناع الشيعة .

وآذنت ساعة انحلال الدولة الاموية حين تم الاتفاق بين الشيعة وأهل خراسان والعباسيين وصمم هؤلاء الأخيرون على استثمار هذا الاتفاق كوسيلة لتنفيذ مآربهم فاسندوا الزعامة في هذه الحركة الى ابي العباس سليل العباس عم الرسول فقاد المسلمين الناقين الى الثورة على الحكومة وقلب النظام القائم متذرعاً في ان الحكومة الدينية اقرب الى تمثيل رغائب المسلمين ، آخذاً على نفسه العهد بان يُرجع منهاج السلف الراشدين . وفي التاسع من حزيران سنة ٧٤٧ اندلعت نيران الثورة بعد ان أُعدّت لها العدّة وذلك حين اظهر الدعوة ابو مسلم الخراساني وهو مولى

١) اليعقوبي ج٢ ص٣٥٦ـ٧ ؛ الفخري ص١٩١ـ٣ ؛ الطبري ج٣ ص٣٤ ؛ ياقوت ج ٢ ص ٣٤٢ ؛ Musil, *Northern Heǵâz*, pp. 56-61 والخريطة التي في جيب الكتاب .

فارسي من أصل مجهول (١) ، ورفع رايتها السوداء والسواد في الاصل لون راية النبي فاصبح الآن شعار الدولة العباسية . وركب ابو مسلم على رأس قبيلة الازد (اليمانية) ودخل العاصمة مرو وكان السواد الاعظم من مجندي دعوته فيها من فلاحي الفرس والموالي (٢) . وعبثاً حاول نصر ابن سيار عامل الامويين على خراسان الحصول على نجدة من الخليفة مروان وقد كتب اليه خطاباً مؤثراً قال فيه :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام

فان النار بالعودين تذكى وان الحرب اولها كلام

فقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ امية ام نيام (٣)

ولكن مروان برغم ما كان يتصف به من شجاعة ومقدرة ونشاط لم تكن عند اسلافه المباشرين فانه لم ينجد نصراً لان يديه قد شغلتا بقمع الثورة التي نشبت عنده وانتشرت من فلسطين الى حمص . وكان سببها النزاع القديم بين القيسية واليمنية الذي استغله الطامحون الى الخلافة واصبح حرباً أهلية في زمن سلفيه يزيد الثالث وابراهيم . فلقد زاد يزيد الطين بلة حين اعتنق مذهب القدرية ومالأ ابراهيم حزب اليمانية . اما مروان الثاني الذي ناصرته القيسية فقد ارتكب خطأ كبيراً حين نقل البلاط وادارة الحكومة الى حرّان في العراق بحيث اخذت قلوب أهل الشام تنصرف عنه . فاذا تركنا أهل الشام الذين كانوا عصب الدولة الاموية نرى ان خوارج العراق ألدّ اعداء الحكومة في كل حين (٤) قد انقضوا عليها . ونرى الاندلس قد انقسمت بدورها الى قيسية ويمنية واصبحت ميدانا للتطاحن بين هذين الحزبين ولقد جاهد مروان ثلاث سنين وهو ابن ستين عاماً ، وكان قد لقب قبل انتقال الخلافة اليه بالحمار — قالوا لصبره في الحرب — (٥) وناضل الثائرين من اهل الشام والخوارج

١) قابل الفخري ص١٨٦ .
٢) الطبري ج٢ ص١٩٥٣ وما يلي ؛ الدينوري ص ٣٥٩ وما يلي .
٣) الفخري ص١٩٤ .
٤) الطبري ج٢ ص١٩٤٣-٩ .
٥) الفخري ص١٨٤ .

واظهر شجاعة ومقدرة عسكرية . وهو الذي عمل في تنظيم هذه الحملات العسكرية على ابدال نظام الصفوف القديم، الذي كان مقدساً لان الرسول كان يستعمله ، بنظام جديد هو نظام الكراديس وهي شراذم صغيرة اشد تراصاً واسرع انتقالا . ولكن الوقت لانقاذ الموقف قد فات . ان شمس بني امية قد آذنت بالغروب .

الضربة الاخيرة

لقد تلا سقوط مرو عاصمة خراسان سقوط الكوفة اهم مدائن العراق وكان ذلك سنة ٧٤٩ . وقد كانت الكوفة ملجأ ابي العباس فاستسلمت الى الثائرين دون كبير مقاومة . وفي ٣٠ تشرين اول من السنة نفسها اخذت البيعة العامة في مسجدها الجامع [١] لابي العباس ونودي به خليفة للمسلمين . وهكذا اعتلى العرش اول خليفة عباسي واندحر الامويون واخذ علمهم الابيض يتراجع في كل مكان امام الراية السوداء التي رفعها العباسيون وحلفاؤهم. وصمم مروان ان يصمد فوقف الوقفة الأخيرة وقفة المستميت وسار على رأس ١٢ الف [٢] رجل من حرّان والتقى في كانون الثاني ٧٥٠ على الضفة اليسرى للزاب الكبير ـ وهو فرع من دجلة ـ بقوى العدو التي كان يقودها عبد الله ابن علي عم الخليفة الجديد . ولم يكن لجيش الشام تلك الارادة والعزم اللذان يمهدان السبيل للظفر ولا الايمان الثابت فكانت الهزيمة أمراً محتوماً. و بعد اندحار الامويين في الزاب اصبحت سورية تحت رحمة العباسيين المنتصرين واخذت مدنها الهامة تفتح ابوابها الواحدة تلو الأخرى لاستقبال عبد الله وجند خراسان الا دمشق فانها أبت فحوصرت واضطرت العاصمة الفخورة ان تستسلم بعد بضعة ايام وكان ذلك في ٢٦ نيسان سنة ٧٥٠ . ومن فلسطين ارسل عبد الله سرية تتأثر الخليفة الهارب فقبض عليه خارج كنيسة في بوصير [٣] من اعمال مصر كان قد التجأ اليها وقتل في ٥ آب ٧٥٠ ولا يزال قبره هناك . وارسل رأس مروان وشارات الخلافة ، كما يذكر المسعودي [٤] ، الى

---

١) اليعقوبي ج٢ ص٤١٧ـ١٨ ؛ الطبري ج٣ ص٢٧ـ٣٣ ؛ المسعودي ج٦ ص٨٧، ٩٨ .

٢) الطبري ج٣ ص٤٧ ؛ (قابل ص٤٥) وانظر اعلاه فصل ٢٠ .

٣) هي ايضاً ابو صير ولعلها بوصير اللق في الفيوم راجع ساويرس ابن المقفع ، سير البطاركة الاسكندرانيين نشر سيبولد (همبرغ، ١٩١٢) ص١٨١ وما يلي ؛ الطبري ج ٣ ص٤٩ـ٥٠ .

٤) ج٦ ص٧٧ .

الخليفة ابي العباس .

و بدأ العباسيون ينفذون خطتهم في استئصال البيت الاموي ولم يتورع قائدهم عبد الله من اتخاذ اعنف الوسائل لابادتهم ومحوهم . وفي ٢٥ حزيران من سنة ٧٥٠ دعا ثمانين رجلاً منهم الى مأدبة اقامها في ابي فطرس (انتيباترس القديمة) على نهر العوجا بالقرب من يافا وفي اثناء المأدبة أمر ان تضرب رؤوسهم فقتلوا جميعاً . ثم امر فطرحت عليهم البسط وهم بين موتى ومحتضرين ودعا بالطعام فاكل هو وقواده وهم يسمعون أنات المحتضرين (١). ثم بث العيون والارصاد لاقتفاء اثر الباقين من بني امية المتفرقين في طول الارض وعرضها ومنهم من التجأ خوفاً الى بطن الارض (٢). اما خبر نجاة الفتى عبد الرحمان ابن معاوية ابن هشام من ايدي بني العباس ومسيره الى الاندلس حيث نجح في انشاء دولة اموية زاهرة فيها فسنعرض له في موضع آخر من هذا الكتاب . وامعن العباسيون في الانتقام من الامويين ومحو اثرهم حتى انهم نبشوا قبور الخلفاء منهم بدمشق وقنسرين وسواهم . فاخرج جثثهم عبد الله فاحرقها وامتهن حرمتها وقد اخرجت جثة سليمان من قبره في دابق واخرجت جثة هشام من مدفنه بالرصافة فوجد جسمه لا يزال صحيحاً فجلد ثمانين جلدة ثم احرق (٣) ، وذري رماده . ولم يسلم من قبورهم سوى قبر الامام الزاهد عمر ابن عبد العزيز .

و بسقوط الأمويين زال مجد الشام وانتهى عهد سلطانها . ولم يدر اهل الشام الاّ بعد فوات الاوان أن مركز العالم الاسلامي قد انتقل من الشام وسار شرقاً . وقد حاولوا مراراً استرجاع الملك الذي كان لهم فلم يفلحوا واخيراً حين ضاعت آمالهم تطلعوا الى مجيء سفياني (٤)

---

١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٥ـ٦ ؛ المسعودي ج ٦ ص ٧٦ ؛ ابن الاثير ج ٥ ص ٣٢٩ـ٣٠ ؛ المبرد ص ٧٠٧ ؛ الاغاني ج ٤ ص ١٦١ ؛ قابل المصدر نفسه ص ٩٢ـ٦ ؛ الفخري ص ٢٠٣ـ٤ ؛ *Theophanes*, p. 427 وقابل المجزرة التي حلت ببيت آخاب على يد جيهو (سفر الملوك الثاني ٩ : ١٤ـ٣٤) وقضاء محمد علي على مماليك مصر (زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٢٥ ج ٢ ص ١٦٠ ـ ٦٢).

٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٠ .

٣) المسعودي ج ٥ ص ٤٧١ ؛ قابل اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٧ـ٨ . انظر الفخري ص ٢٠٤ .

٤) الطبري ج ٣ ص ١٣٢٠ ؛ ابن مسكويه ، تجارب الامم وتعاقب الهمم ، نشر دي غويه ودي يونغ ج ٢ (ليدن ، ١٨٧١) ص ٥٢٦ ؛ ياقوت ج ٤ ص ١٠٠٠ ؛ الاغاني ج ١٦ ص ٨٨ ؛ H. Lammens, *Études sur le siècle des Omayyades* (Beirūt, 1930), pp. 391- 408.

منتظر - كمسيح منتظر - يرفع عن اكتافهم نير ظالميهم العراقيين . والى هذا اليوم نسمع ان منهم من يمني النفس بظهور منقذ عظيم من نسل معاوية (١) . ولكن سقوط بني امية قد انطوى على ما هو أهم من هذا - ان العصر العربي الخالص في تاريخ الاسلام قد انقضى وقد اخذت الحياة العربية الخالصة في الامبراطورية الاسلامية تؤذن بالانتهاء . والواقع ان الحكومة العباسية قد دعت نفسها دولة (٢) ، اي عهداً جديداً وكانت كذلك . فقد تحرر العراق من سيطرة الشام ، وبلغت الشيعة ثأرها ، وتمت للموالي حريتهم ، واصبحت الكوفة على حدود فارس العاصمة الجديدة ، واصبح حرس الخليفة الخاص من اهل خراسان ، واحتل الفرس مناصب الدولة الرفيعة ، وحلت محل الارستقراطية العربية الاصلية طبقة من الموظفين اخذت من كافة الاجناس التي دانت لسلطان الخلافة ، واخذ المسلمون العرب الأقدمون والمستجدون في الاسلام من ابناء الاعاجم يمتزجون بالزواج ويندمجون الفريق منهم بالآخر . لقد سقطت العروبة ولكن الاسلام واصل سيره وتحت لواء الاسلام العام اخذت الايرانية تسلك سبيلها الى الامام .

---

(١) راجع بندلي جوزي ، المقتطف ج ٧٨ (١٩٣١) ص ٦٧٣-٨ ؛ ج ٧٩ (١٩٣١) ص ٨١-٦ .
(٢) الطبري ج ٣ ص ٨٥ ، ١١٥ .

الفصل الثالث والعشرون

قيام الدولة العباسية

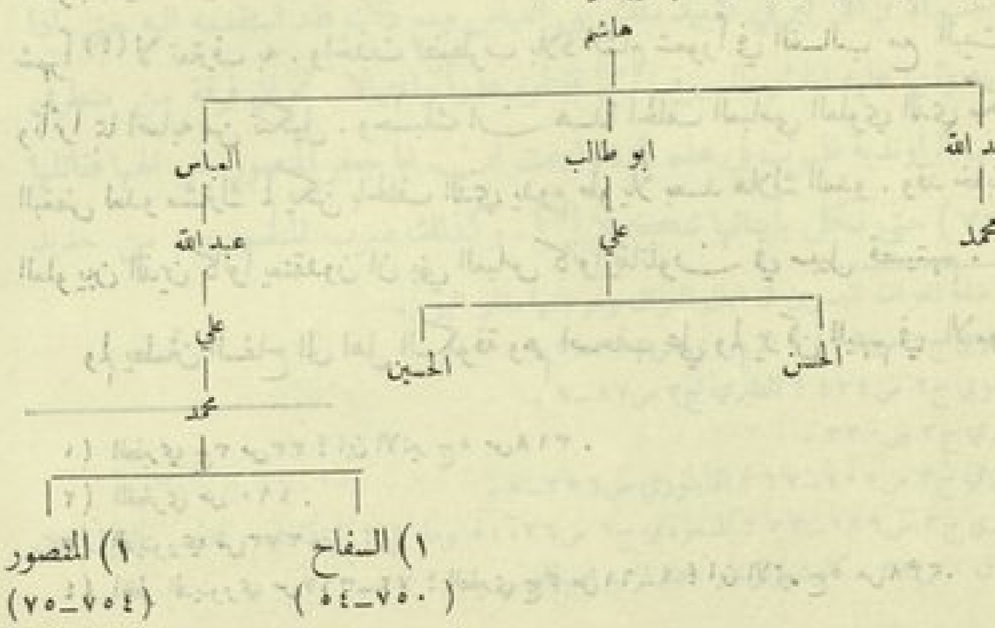
رفع الستار في المشهد الثالث من رواية الاسلام السياسية فاذا العراق هو مسرح الحوادث فيها واذا الخليفة ابو العباس (٧٥٠ ـ ٥٤) هو صاحب الدور الاول . وكان الخليفة قد قال في خطبته التي القاها يوم بايعه الناس واعلن الثورة على الامويين « انا السفاح » [١] فلصق به هذا اللقب وكأنه لوّح بذلك الى ما اعتمده هو وخلفاؤه من استعمال العنف في سبيل الأغراض السياسية. ولأول مرة في تاريخ الاسلام صار النطع يبسط الى جانب كرسي الخلافة ويتخذ منه ومن سيف الجلاد أداة لتوطيد صولة العرش . وقد وضع السفاح حجر الاساس للدولة الثالثة من دول الاسلام فكانت اشهر دولة من دول الاسلام جميعها واطولها عمراً . وتبوأ بنو العباس الحكم من سنة ٧٥٠ الى ١٢٥٨ متعاقبين على الملك مع ان بعضهم في آخر هذا العهد لم يحكم بالمعنى الصحيح .

ولقد استبشر المسلمون اول الأمر بالدولة العباسية باعتبار انها هي الدولة التي قامت تمثل فكرة الخلافة وشعائر السلطة الدينية بينما كان ملك بني امية مُلكاً دنيوياً . وفي سبيل التدليل على صبغة المنصب الدينية اخذ الخليفة العباسي يرتدي بردة النبي [٢] في الحفلات

---

١) الطبري ج٣ ص ٣٠ ؛ ابن الاثير ج٥ ص٣١٦ .

٢) شجرة نسب تظهر القرابة بين العباسيين ومحمد :



الرسمية وفي صلاة الجمعة . واخذ الخلفاء يجمعون حولهم الفقهاء ويشملونهم برعايتهم ويستشيرونهم في مصالح الامة . اما الدعوة الواسعة النطاق التي استخدمها العباسيون لتنفير الامة من عهد الحكم الاموي فقد وجهت الآن بشيء من الدهاء الى كسب ثقة الامة وتثبيت حبها لهم . وقد انتشرت بين الناس على اثر ذلك فكرة ترمي الى ان الامر يجب ان يبقى في بني العباس حتى يسلموه الى عيسى ابن مريم (١) . وعظم اعتقاد الناس في بني العباس حتى زعموا انه « متى قتل الخليفة اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر » (٢) الا ان الحقيقة التي لا شك فيها هي ان ذلك الانقلاب الديني الذي قام به العباسيون لم يكن الا ظاهرياً . ومع ان الخليفة العباسي كان يحاول ان يُظهر اكثر من سلفه الاموي تعلقه بامور الدين والعبادة فانه في الواقع لم يكن الا مثله من حيث اقباله على امور الدنيا . على ان الفرق الجوهري بين الدولتين ينحصر في ان الدولة الأموية انما كانت دولة عربية بينما كانت الدولة العباسية دولة جميع الشعوب الاسلامية ولم يكن العرب فيها سوى عنصر من العناصر الكثيرة التي احتوتها الامبراطورية .

وهناك فوارق اخرى فلأول مرة تصبح حدود الخلافة غير حدود الاسلام . فاسبانية وشمالي افريقية وعمان والسند حتى خراسان (٣) لم تبايع الخليفة الجديد تماماً . وكان اعتراف مصر بالخليفة اسمياً اكثر منه واقعياً . وظلت واسط عاصمة الامويين في العراق احد عشر شهراً (٤) لا تعترف به . واخذت تضطرب بلاد الشام شعوراً في الغالب مع البيت الاموي وتأثراً بما اصابه من تنكيل . وحسبك ان هذا الحلف العباسي العلوي الذي مكنته روح البغض لعدو مشترك لم يكن بالحلف الذي يدوم طويلاً بعد هلاك العدو . وقد خابت آمال العلويين الذين كانوا يعتقدون ان بني العباس كانوا يقاتلون في سبيل قضيتهم .

ولم يطمئن السفاح الى اهل الكوفة وهم اصحاب علي ولم يركن اليهم في الامور فانتقل

---

١) الطبري ج٣ ص٣٣ ؛ ابن الاثير ج٥ ص٣١٨ .
٢) الفخري ص ١٩٠ .
٣) الدينوري ص٣٧٣ .
٤) انظر الدينوري ص٣٦٧–٧٢ ؛ الطبري ج٣ ص٦١–٦ ؛ ابن الاثير ج٥ ص٣٣٨.

الى الانبار (١) واتخذ بها مقراً سماه الهاشمية (٢) (نسبة الى هاشم جد العباسيين) . وقد دفعه الى الاعراض عن البصرة ما دفعه عن الكوفة وما رآه من بعدها فهي جنوبية لا تصلح ان تكون مقراً مركزياً للحكم . وتوفي السفاح سنة ٧٥٤ في عاصمته الجديدة بعلة الجدري وهو في مطلع العقد الرابع (٣) .

ابو جعفر المنصور مؤسس الدولة الحقيقي

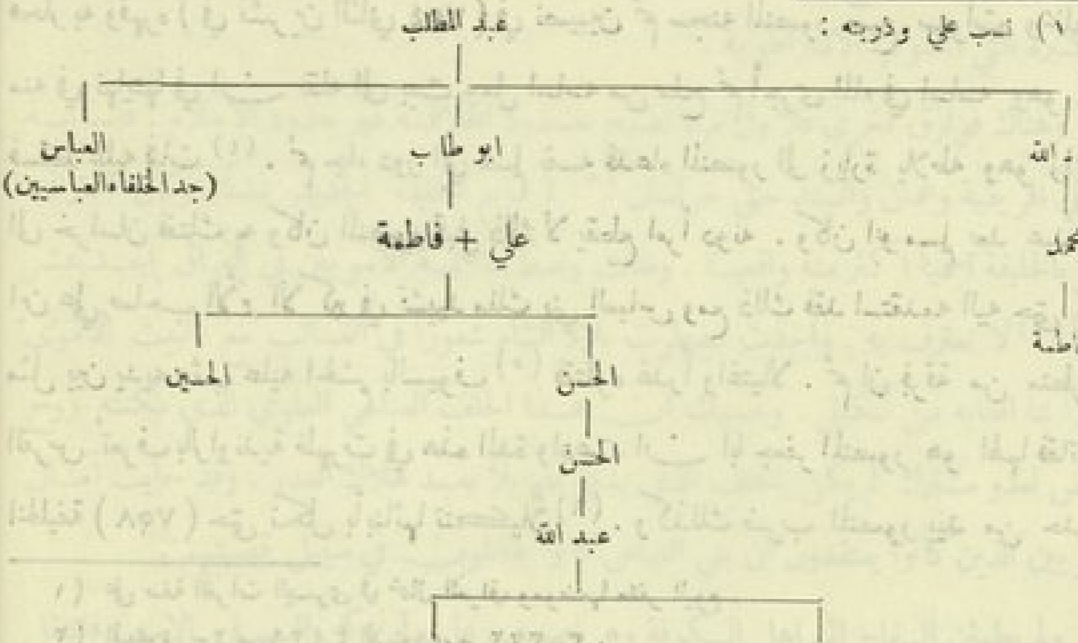
وخلف السفاح اخوه ابو جعفر (٧٥٤ ـ ٧٥) الملقب بالمنصور وهو من اعظم الساسة العباسيين وان يكن من اكثرهم سفكاً للدماء . فالمنصور لا السفاح هو الذي اسس الدولة العباسية حقاً وجميع الخلفاء الذين تبعوه وهم خمسة وثلاثون انما كانوا من ذريته . فقد خرج عليه عمه عبد الله ابن علي ونازعه الخلافة ، وكان عبد الله كما رأينا قائد الجيش في معركة الزاب وصاحب الأثر الاكبر في انتصار العباسيين ، فسلط عليه المنصور أبا مسلم الخراساني فحار به وقهره (في تشرين الثاني ٧٥٤) في نصيبين ثم سجنه المنصور سبع سنوات وتخلص منه في نهايتها في ان نقله الى بيت جعل اساسه من ملح ثم أجرى الماء في اساسه وهو فيه فسقط عليه فمات (٤) . ثم جاء دور ابي مسلم نفسه فدعاه المنصور الى زيارة بلاطه وهو راجع الى خراسان ففتك به وكان المنصور قبل ذاك لا يقطع امراً دونه . وكان ابو مسلم بعد عبد الله ابن علي صاحب الأثر الاكبر في تشييد ملك بني العباس ومع ذاك فقد استقدمه اليه حتى اذا مثل بين يديه وثب عليه الحشم بالسيوف (٥) فقتلوه غدراً واغتيالا . ثم ان فرقة من متطرفي الفرس تُعرف بالراوندية ظهرت في هذه المدة وادعت ان ابا جعفر المنصور هو الهها فقاتلها الخليفة (٧٥٨) حتى نكل بأبنائها تنكيلاً (٦) . وكذلك ضرب المنصور بيد من حديد

---

١) على ضفة الفرات اليسرى في شمال العراق وموضعها مقفر اليوم .
٢) اليعقوبي ج٢ ص٤٢٩ ؛ الدينوري ص٣٧٢ ـ ٣ .
٣) اليعقوبي ج٢ ص٤٣٤ ؛ الطبري ج٣ ص٨٧ ـ ٨ .
٤) الطبري ج٣ ص٣٣٠ .
٥) الطبري ج٣ ص١٠٥ ـ ١٧ ؛ الدينوري ص٣٧٦ ـ ٨ .
٦) الطبري ج٣ ص١٢٩ ـ ٣٣ ؛ المسعودي ج٦ ص٢٦ ـ ٥٤ وما يلي ؛ البغدادي ، مختصر الفرق بين الفرق ، ص٣٧ . كانت راوند بلدة قرب اصبهان .

على ايدي زعماء الشيعة الخارجين عليه وقتل من أئمتهم ابراهيم وأخاه محمداً الملقب بالنفس الزكيه وهما ابنا عبد الله حفيد الحسن (١) ابن علي . اما محمد فقد قتل (٦ كانون الاول ٧٦٢) في المدينة وصلب . واما ابراهيم فقد احتز رأسه (١٤ شباط ٧٦٣) قرب الكوفة الثائرة وارسل الى الخليفة (٢) . فجاهر العلويون بعداوتهم للعباسيين واعتبروهم مغتصبي الخلافة التي هي من حق الأئمة من ذرية علي وفاطمة وظلوا يثيرون الاضطراب في حياة الاسلام السياسية . وظهرت في خراسان ثورة قام بها سنباد المجوسي (٧٥٥) انتقاماً لابي مسلم . ثم ثار ايضاً استاذ سيس (٧٦٧ ـ ٨) فاخمد المنصور هاتين الثورتين (٣) واعاد الأمن الى فارس حيث اصطبغت العصبية الفارسية بالمعتقدات الزرادشتية والمزدكية وبهذا تم للعباسيين توطيد اركان الامبراطورية في اكثر البلدان الاسلامية ما عدا شمالي افريقية التي لم تشملها سلطة الخليفة العباسي الا الى حدود القيروان ، واسبانية التي كان فيها عبد الرحمان الداخل اقوى من ان يقهر . وكانت أم عبد الرحمان من البربر كما كانت أم المنصور (٤)

١) نسب علي وذريته :



٢) الطبري ج ٣ ص ٢٤٥ ـ ٦٥ ؛ المسعودي ج ٦ ص ١٨٩ ـ ٢٠٣ ؛ الدينوري ص ٣٨٠ .

٣) الطبري ج ٣ ص ١١٩ ـ ٢٠ ، ٣٥٤ ـ ٨ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٤١ ـ ٢ ؛ ابن الأثير ج٥ ص ٣٦٨ ـ ٩ .

٤) اليعقوبي ج٢ ص ٤٣٦ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ص١٩١ .

وما أن استقرت احوال البلاد الداخلية حتى عاد العباسيون الى مقارعة عدوهم الغربي الدائم ـ الروم ـ واستئناف العراك معهم عند الحدود هذا العراك الذي كان لا يزال دائراً بصورة متقطعة منذ نحو قرن . واعاد العرب بناء الثغور كملطية في ارمينية الصغرى والمصيصة في كليكية (١) وتوغلوا في بلاد العدو حتى انهم بلغوا باكو (٢) حيث توجد منابع للنفط واخذوا الضرائب من اصحابها . ثم احتلت قوات الاسلام ارض طبرستان الجبلية احتلالا موقتاً (٣) وهي في الجنوب من بحر قزوين (بحر الخزر) وكانت تقيم فيها أسرة من الأسر الهامة في عصر الدولة الساسانية البائدة متمتعة بسلطة مستقلة . وبلغت جيوش الخليفة حتى القَنْدَهار (القُنْدُهار) وهي من المواضع النائية على حدود الهند وهدمت البدّ فيها وهو تمثال بوذا (٤) . والواقع ان قواد المنصور توسعوا في غاراتهم حتى كشمير (قشمير في المصادر العربية) وهي عبارة عن وادٍ فسيح خصب في السفح الشمالي الغربي من جبال حملايا . وارسلت (٧٧٠) عمارة بحرية من البصرة الى مصب (دِلتـا) نهر الهند لقطع دابر القرصان الذين كانوا قد تجاسروا على بلوغ جدة ونهبها .

مدينة السلام

وفي سنة ٧٦٢ وضع المنصور حجر الاساس لبغداد عاصمته الجديدة . وكان قد بنى قبلها مدينة بين الكوفة والحيرة (٥) سماها الهاشمية . فأصبحت بغداد مقراً لتلك المغامرات الروائية التي خلدت ذكرها شهر زاد بطلة « الف ليلة وليلة » . اما موقع بغداد فقديم وقد قام فيه على ايام الدولة الساسانية قرية عرفت ايضاً باسم بغداد (٦) (اي عطية الله) فقال المنصور : « هذا موضع معسكر صالح ، هذه دجلة ليس بيننا و بين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في

١) اليعقوبي ، البلدان ص ٢٣٨ .
٢) المسعودي ج ٢ ص ٢٥ ؛ ياقوت ج ١ ص ٤٧٧ .
٣) اليعقوبي ج ٢ ص٤٤٦ ـ ٧ .
٤) البلاذري ص ٤٤٥ ؛ ياقوت ج ٤ ص ١٨٣ ـ ٤ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٤٩ .
٥) اليعقوبي ، البلدان ص ٢٣٧ .
٦) المصدر نفسه ص ٢٣٥ ؛ البلاذري ص ٢٩٤ .

البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وارمينية وما حول ذلك ، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك » (١) . وانفق المنصور على مدينته التي استغرق بناؤها اربع سنوات نحو اربعمئة مليون وثمانمئة وثلاثة وثمانين الف درهم (٢) . واستخدم ما يقرب من مئة الف من المهندسين والصناع واهل المعرفة بالبناء والفعلة استقدمهم من الشام والعراق وغيرهما من انحاء الامبراطورية (٣) .

وسمى المنصور مدينته مدينة السلام وهي على ضفة دجلة الغربية في الوادي نفسه الذي أنشئت فيه عواصم منيعة في ايام الدول القديمة . وجعل بناءها على شكل مستدير فسميت بالمدينة المدوّرة . وجعل للسور حائطين من اللبن بينهما خندق عميق . وابتنى حائطاً ثالثاً داخل السور علوه تسعون قدماً وهو يحيط بابنية المدينة . وجعل للمدينة اربعة ابواب متساوية البعد تؤدي الى طرق اربعة فتبدأ من مركز الدائرة وتسير الى اطراف الامبراطورية الاربعة. فباب سماه باب الكوفة وباب سماه باب البصرة وآخر سماه باب خراسان ورابع سماه باب الشام . وهكذا فقد كانت المدينة عبارة عن دوائر ذوات مركز واحد يقوم في قلبها قصر الخليفة المسمى بباب الذهب (لان بابه كان مذهّباً) او القبة الخضراء . وكان الى جانب القصر المسجد الجامع. اما تسمية القصر بالقبة الخضراء فلأن فيه قبةفوق المجلس علوها مئة وثلاثون قدماً . وروت الاخبار المتأخرة انه كان على رأس القبة الخضراء تمثال صورة فارس بيده رمح فكان السلطان اذا رأى الفارس مستقبلاً بعض الجهات وماداً الرمح نحوها علم ان العدو قادم من تلك الجهة (٤) . ولكن هذه الخرافة لم تجز على ياقوت (٥) لفساد الحجة فيها فذكر انها من المستحيل والكذب الفاحش واشار الى ان الصنم لا محالة يتوجه الى جهة ما في كل حين مما يدل على انه لا يزال عدو يخرج على المدينة في كل وقت . وقال :

---

١) الطبري ج ٣ ص ٢٧٢ .
٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج ١ (القاهرة ، ١٩٣١) ص ٦٩ ــ ٧٠ ؛ الطبري ج ٣ ص ٣٢٦ ؛ ياقوت ج ١ ص ٦٨٣ .
٣) الطبري ج ٣ ص ٢٧٦ ؛ اليعقوبي : البلدان ص ٢٣٨ ؛ الخطيب ج ١ ص ٦٦ ــ ٧ .
٤) الخطيب ج ١ ص ٧٣ .
٥) معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٣ .

« فأما الملة الاسلامية فانها تجل عن هذه الخرافات » . واكثر الحجارة التي دخلت في بناء بغداد انما نزعت من اخربة طاق كسرى في المدائن المجاورة عاصمة آل ساسان قديماً . أما اللبن فاصطنعه البناؤون . وقبل ان تدرك المنصور الوفاة ابتنى على ضفة دجلة خارج اسوار مدينته قصراً آخر سماه قصر الخلد تشبيهاً له بجنة الخلد (سورة الفرقان : ١٦ ـ ١٧) . كما انه ابتنى قصراً ثالثاً في الجانب الشرقي الى الشمال من مدينة السلام سماه الرصافة لسكنى ابنه المهدي ولي العهد .

ولما اراد المنصور بناء بغداد مدينة له ولخاصته وحرسه الخراساني أمر منجم البلاط بأخذ الطالع ففعل واخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقائها وكثرة عمارتها . ولقد تحقق ما تكهن به يومئذ منجم البلاط (١) إذ لم يمض غير بضع سنوات حتى ازدادت عمارة بغداد فاصبحت مركزاً تجارياً خطيراً في ميدان الاقتصاد وعاصمة دولة ذات مكانة سياسية عالمية . وكأن مدينة المنصور هذه اعجوبة ساحر خلقت بين ليلة وضحاها وورثت ما كان من مجد وعز للمدائن وبابل ونينوى واور وسواها من عواصم الشرق القديم . ثم شقت بغداد لنفسها طريقاً الى المجد والسيادة لم تعرفه سواها من مدن العصور الوسطى ما خلا القسطنطينية . وها هي اليوم بعد تقلبات الزمن تبعث الى الوجود عاصمة جديدة لمملكة العراق الجديدة التي كان اول ملوكها الملك العربي فيصل الاول .

وبانتقال الملك الى بغداد اتجهت الخلافة الى الشرق اكثر من قبل . فقد أنشأ فيها الخلفاء حكومة تحذو حذو الاكاسرة من آل ساسان . وبات الاسلام العربي تحت تأثير الثقافة الفارسية . ولبست الخلافة لباس الحكم المطلق على الطريقة الفارسية مبتعدة عن التقاليد العربية . وتغلبت على مر الزمان انظمة الفرس بما فيها من الألقاب ومجالس الشرب والتسري فتزوجوا من الفارسيات وارتاحوا للغناء الفارسي واقتبسوا الآراء والافكار الفارسية . وقد قيل ان المنصور اول من اخذ الناس بلبس القلانس (٢) . ومهما يكن من امر فالمؤثرات

---

١) ياقوت ج١ ص ٦٨٤ ـ ٥ ؛ الخطيب ج١ ص ٦٧ ـ ٨ .
٢) الطبري ج٣ ص ٣٧١ .

الفارسية لينت خشونة البداوة العربية ومهدت السبل لعهد جديد تميز بازدهار العمران وتقدم العلوم والابحاث . الا ان العربي احتفظ بالزعامة في امرين لا ثالث لهما — الدين واللغة — فقد ظل الاسلام دين الامة وظلت اللغة العربية لغة الدواوين الرسمية .

البرامكة

ظهرت الوزارة (١) وهي منصب فارسي الاصل لأول مرة في الحكومة الاسلامية على عهد المنصور فكان خالد ابن برمك اول من قام باعبائها . وكانت ام خالد من سبي قتيبة ابن مسلم في بلخ (٧٠٥) اما ابوه فكان برمكاً اي سادناً في معبد بوذي ببلخ (٢) . ومن شواهد الولاء المتبادل بين خالد وابي العباس السفاح ان ابا العباس دفع ابنته ريطة الى زوجة خالد كي ترضعها كما ارضعت ام سلمة زوجة ابي العباس بنتاً لخالد تدعى ام يحيى (٣) . وفي اوائل العصر العباسي تولى خالد ديوان الخراج ثم وجهه (٧٦٥) المنصور الى طبرستان فأخمد نيران ثورة (٤) هامة فيها . وأبلى وهو في شيخوخته بلاء حسناً حين فتح احد حصون الروم (٥) . وخالد وان لم يكن وزيراً (٦) بالمعنى الحقيقي فقد جمع كل خصائص الوزارة الا الاسم . ولم تكن الوزارة قد تقررت نظمها وقوانينها بعد . وكان الخليفة يستشيره في كثير من الامور الهامة ويسترشد برأيه . واصبح خالد مؤسس اسرة نبغ منها وزراء مشهورون .

وفي ٧ تشرين الاول سنة ٧٧٥ خرج المنصور حاجاً فمات في الطريق قرب مكة وله من العمر مايزيد على الستين فحفروا له مئة قبر بالقرب من مكة تضليلاً للناس ولكنه دفن سراً في غيرها كي لا يهتدي عدو الى قبره فيمتهن حرمته (٧) . وقد ذكروا عنه انه كان نحيفاً اسمر خفيف

---

١) قابل ابن خلكان ج١ ص٢٩٠ حيث تجد ان كلمة وزير قد اطلقت في الراجح على الهمداني بالمعنى نفسه الذي استعملت به في سورة طه : ٣٠ « واجعل لي وزيراً من اهلي »
٢) ابن الفقيه ص٣٢٢ — ٤ ؛ الطبري ج٢ ص١١٨١ ؛ ياقوت ج ٤ ص ٨١٨ .
٣) الطبري ج٢ ص٨٤٠ .
٤) ابن الفقيه ص٣١٤ .
٥) الطبري ج٣ ص٤٩٧ .
٦) قابل الفخري ص٢٠٦ ، ٢١١ ؛ المسعودي ، التنبيه ص٣٤٠ ؛ ابن خلكان ج١ ص٢٩٠ .
٧) ابن الاثير ج٦ ص١٣ .

العارضين (١) ذا صلابة وشدة وهو في ذاك يخالف من جاء بعده من الخلفاء . الا ان خططه السياسية بقيت طوال الأجيال اللاحقة قاعدة يحتذيها الخلفاء احتذاء الأمويين لمعاوية .

اما يحيى ابن خالد ابن برمك فلقد وكل اليه المهدي (٧٧٥ - ٨٥) خلف المنصور تربية ابنه هارون . ولما ولي هارون الرشيد الخلافة بعد خلافة اخيه الهادي (٧٨٥ - ٦) الوجيزة قلد يحيى الوزارة وكان يناديه يا أبتِ وفوّض اليه السلطة المطلقة . وقد توفي يحيى هذا سنة ٨٠٥ وكان هو وابناه جعفر والفضل هم الذين تولوا شؤون الدولة من سنة ٧٨٦ الى ٨٠٣ (٢) .

كانت قصور البرامكة في الجانب الشرقي من بغداد وعاشوا في سعة ونعمة ورخاء . وكان القصر الجعفري في وسط تلك البقعة تحيط به طائفة من المساكن الفخمة - وقد احتل المأمون ذلك القصر بعد نكبة البرامكة وجعله دار الخلافة - وقد انشئت هذه القصور على شاطىء دجلة وانشئت خلفها البساتين الرحبة وفيها كثير من الابنية الصغيرة . وقد أصاب آل برمك جاهاً عظيماً وغنىً فاحشاً بحيث نثروا من العطاء في مواليهم ومداحيهم واتباعهم ما جعل المعدم منهم غنياً . ومُدحوا بما لم يمدح به الخليفة وضربت بكرمهم الأمثال ولا تزال الى هذا اليوم لفظة « برمكي » في بعض البلدان العربية تؤدي معنى الكرم .

ومن الأعمال التي يرجع الفضل فيها الى البرامكة احتفار عدد من الاقنية للماء (انهار) وبناء الجوامع والدور العامة . ويقال ان الفضل هو اول من ادخل استعمال المصابيح في الجوامع في شهر رمضان . وقد حاز جعفر شهرة واسعة لقوة بيانه وادبه وحسن كلامه وخطه . واليه بالاكثر يرجع السبب في ان مؤرخي العرب يعتبرون البرامكة ممهدي السبيل لطبقة اهل القلم بل ان جعفر فوق هذا كان امام الازياء العصرية . فلقد استحدث لطول عنقه نوعاً من الاطواق العالية - سميت الجربانات (٣) - لم يسبقه اليه احد. على ان جعفر كان كثير الدالّة على الرشيد بحيث كان ابوه يحيى ينهاه عن منادمته ويأمره بترك الأنس به حتى أعيت حيلته فيه (٤) .

---

١) الطبري ج٣ ص٣٩١ ؛ ابن الاثير ج٦ ص١٤ ؛ المسعودي، التنبيه ص٣٤١ .
٢) اليعقوبي ج٢ ص٥٢٠ .
٣) الجاحظ، البيان ج٣ ص٢٠١ .
٤) الطبري ج٣ ص٦٧٤ - ٦ .

ثم تغير قلب الرشيد على البرامكة واستنكر استبداد تلك الاسرة الشيعية الفارسية في شؤون الدولة وتطلع فاذا هم يشركونه في سلطانه بحيث اخذ يشعر انه لم يعد له معهم تصرف في امور ملكه . فغضب عليهم وقتل جعفر وهو في سن السابعة والثلاثين وذلك سنة ٨٠٣ وامر بجثته ففصلت وعلقت على ثلاثة جذوع رأسه في جذع على رأس الجسر وجسده على جذع بالجزيرة وسائره في جذع على آخر الجسر الثاني مما يلي باب بغداد (١) . وكان السبب في هلاك جعفر عند اكثر المؤرخين ان الرشيد رضي ان يكتب لجعفر على العباسة اخته ليحل له النظر اليها ومجالستها وتقدم اليه الا يمسها فلما حج هارون علم ان العباسة قد حملت من جعفر وولدت غلاماً وجهت به مع حواضن الى مكة (٢) . ومهما يكن من سبب فقد قبض الرشيد على يحيى وهو شيخ هرم وألقاه في السجن ومعه الفضل ابنه وابناه الآخران . ولقد مات يحيى والفضل في الحبس وحجزت اموال البرامكة وقدرها ثلاثون مليوناً وستمئة وسبعون الف دينار نقداً الى سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم (٣) . ونكب البيت الذي [illegible]سه خالد البرمكي وجعله غرة في جبين الدهر فلم تقم له قائمة من بعد .

---

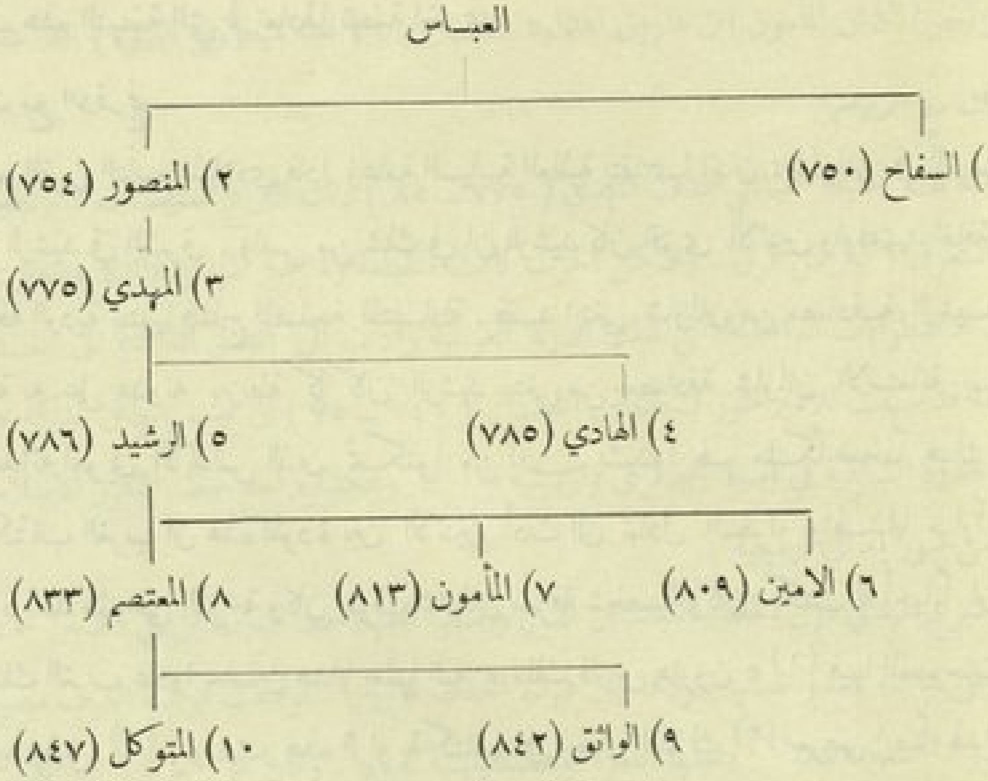
١) العقد ج٣ ص٢٨ ؛ الطبري ج٣ ص٦٨٠ .

٢) الطبري ج٣ ص٦٧٦ـ٧ ؛ المسعودي ج٦ ص٣٨٧ـ٩٤ ؛ الفخري ص٢٨٨ . قابل ابن خلدون ج٣ ص٢٢٣ـ٤ ، كتاب العيون ج٣ ص٣٠٦ـ٨ .

٣ العقد ج٣ ص٢٨ .

الفصل الرابع والعشرون

العباسيون في عصرهم الذهبي



بلغت الدولة العباسية كغيرها من دول الاسلام قمة الازدهار السياسي والفكري في العهد الاول من عهودها . فقد أدركت خلافة بغداد التي أسسها السفاح والمنصور أوج عزها بوجه عام في الحقبة التي بدأت بولاية الخليفة الثالث المهدي وانتهت في زمن الخليفة التاسع الواثق ، وبوجه أخص أيام هارون الرشيد وابنه المأمون اللذين ألقيا على ذلك العصر هـالة مشرقة من النور بحيث اصبح يعتبر أزهى عصور التاريخ الاسلامي على الاطلاق . وللثعالبي (١) (المتوفى

١) لطائف المعارف، نشر دي يونغ (ليدن ، ١٨٦٧) ص ٧١ .

١٠٣٨) كلمة في بني العباس لم تكن بعيدة عن الصواب قال فيها : ان لبني العباس فاتحة وواسطة وخاتمة فالفاتحة المنصور والواسطة المأمون والخاتمة المعتضد (٨٩٢ ـ ٩٠٢) . وبعد الواثق اخذ الانحطاط يتسرب الى جسم الدولة حتى اذا اتى دور الخليفة السابع والثلاثين ـ المستعصم ـ لاقت الدولة اجلها المحتوم على ايدي المغول سنة ١٢٥٨ . اما ذروة النفوذ والسلطان والعمران التي بلغها بنو العباس فتتجلى لنا باستطلاع علاقاتهم بالدول الاخرى ، وباستعراض حياة البلاط والاوساط الارستقراطية في عاصمتهم بغداد ، وبمراجعة النهضة الفكرية في عصر المأمون ـ هذه النهضة التي لم تعادلها نهضة اخرى .

العلاقات مع الافرنج

طلع القرن التاسع الميلادي فاذا زعامة السياسة العالمية يتقاسمها اثنان : شارلمان في الغرب وهارون الرشيد في الشرق . وليس من شك في ان الرشيد كان اقوى الاثنين وارفعهما ثقافة. اما العلاقة الودية بينهما فنتاج المصلحة المتبادلة . فقد ابتغى شارلمان من مصادقة الرشيد الاستعانة به على عدوته بيزنطة كما كان الرشيد يبتغي من مصادقة شارلمان الاستعانة به على اعدائه امويي الاندلس الذين تمكنوا من أن يشيدوا لهم ملكاً ضخماً هناك . وروى كتّاب الغرب ان هذه المودّة بين الاثنين أدت الى تبادل السفراء والهدايا مراراً . وقد اورد احد مؤرخي الفرنجة وكان يعرف شارلمان معرفة شخصية وكان يكتب له أحياناً ان رسل ملك الغرب عادوا حاملين هدايا بعثها اليه « ملك فارس هارون » [١] فيها المنسوجات والافاويه وفيل [٢] . ومصدر هذه الرواية كتاب في اخبار الملوك [٣] يعرض ايضاً لهدايا اخرى من بغداد بينها ساعة دقيقة الصنعة . اما خبر الارغن ذي الانابيب الذي يروى ان هارون ارسله الى شارلمان فهو غير صحيح بل هو ملفق ككثير من الاخبار الطريفة التي ليس لها أصل ثابت . والظاهر ان هذا الارغن ترجع قصته الى خطأ وقع في نقل كلمة اخرى اوردتها المصادر للساعة المذكورة ومعناها أداة لمقياس الوقت بواسطة الماء . كذلك قل في حكاية اهداء

١) جعله ملكاً لفارس كما يلاحظ .

٢) Eginhard, *Vie de Charlemagne*, ed. and tr. L. Halphen (Paris, 1923) p. 47.

٣) *Annales royales*, « Annales regni Francorum » , ed. G. H. Pertzii and F. Kurze in *Scriptores rerum Germanicarum*, vol. 43 (Hanover, 1895) , pp. 114 , 123-4.

مفاتيح قبر المسيح الى شارلمان فانها مما نفاه البحث العلمي (١) .

والغريب من أمر هذه الهدايا والسفارات المتبادلة بين الملكين (بين سنة ٧٩٧ و ٨٠٦ فيما روي) انه لم يرد لها ذكر في المراجع العربية . فهناك اشارات مثلاً الى مراسلات ومجاملات ديبلوماسية اما هذه التي نحن بصددها فلم ترد في مؤلفات العرب . ولقد اورد العقد (٢) كلاماً عن عدة مراسلات بين خلفاء بني امية وأباطرة بيزنطة وذكر وفداً من لدن « ملك الهند » جاء يحمل الهدايا الفاخرة الى الرشيد ووصف الاستقبال الفخم الذي لقيه ذلك الوفد . وفي مصدر آخر (٣) ان المأمون ابن هارون اهداه « ملك الروم » (لعله ميخائيل الثاني) تحفاً سنية.

العلاقات مع الروم

استأنف الخليفة العباسي الثالث المهدي (٧٧٥ ـ ٨٥) ذلك النزاع العنيف مع البيزنطيين الذي استغرق اكثر من قرن . ولكن الحرب كانت متقطعة ولم يجن المهدي فائدة كبرى. وكانت الاضطرابات الداخلية التي شلت الدولة العربية وأدت الى انتقال العاصمة الى بغداد السحيقة قد سهلت للامبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١ ـ ٧٥) ان يوسع نطاق ملكه على طول الحدود الشرقية في آسية الصغرى وارمينية (٤) . وهكذا تراجع خط الثغور الاسلامية الممتد من سورية الى ارمينية .

وشرع المهدي اول الخلفاء العباسيين الذين واصلوا الجهاد ضد البيزنطيين في تدبير حملة موفقة على عاصمة العدو نفسها يقودها ولي عهده الحدث هارون . فوصلت قوات العرب مضيق البوسفور (٥) سنة ٨٧٢ (٦) ولعلهم بلغوا القسطنطينية نفسها . وكان على العرش البيزنطي اذ

---

١) قابل Louis Bréhier in *Chambre de Commerce de Marseille. Congrès français de Syrie. Séances et travaux*. fasc. 2 (1919), pp. 15-39.

٢) ج١ ص ١٩٧ـ٨ .

٣) الكتبي ، فوات الوفيات ج١ ص٣٠٧ .

٤) A. A. Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, tr. S. Ragozin, vol. I (Madison, 1928). . 291 ; Charles Diehl, *History of the Byzantine Empire*, tr.G. B. Ives (Princeton, 1925), p. 55.

٥) لقد ذكر ثيوفانس الذي كتب تاريخه سنة ٨١٣ ان هارون زحف حتى كرسوبولس وهي سوتاري الحالية . Theophanes, p. 456 .

٦) يضع كتاب العيون ج٣ ص٢٧٨ تاريخ الحملة سنة ١٦٣ هـ (٧٨٠) واليعقوبي ج٢ ص٤٧٨ ، ٤٨٦ سنة ١٦٤ والطبري ج٣ ص٥٠٣ـ٤ سنة ١٦٥ .

ذاك الملكة إيرين وصية على ابنها الصغير قسطنطين السادس فاضطرت ان تعقد صلحاً مذلا لها مع العرب وُضع عليها فيه ان تدفع لهم جزية كبيرة قدرها سبعون الفاً الى تسعين الفاً من الدنانير تؤديها قسطين في نيسان وحزيران من كل سنة (١). وكان ان ابلى هارون في الجهاد بهذه الحملة وتميز بحيث منحه ابوه لقب « الرشيد » وأوصى له بولاية العهد بعد أخيه الاكبر موسى الهادي . وكانت هذه آخر مرة بلغت فيها جيوش العرب الى جدران العاصمة الفخورة . فالحملات التي وجهها العرب الى القسطنطينية خمس : ثلاث منها قام بها معاوية (٣٤ / ٦٦٥ و ٤٨ / ٦٦٨ و ٥٤ / ٦٧٤) والرابعة سليمان (٢) (٩٨ / ٧١٦) . بيد ان القسطنطينية لم يحاصرها المسلمون في كل هذه الحملات الا مرتين : الاولى في اثناء الحملة التي قادها يزيد (٤٨ / ٦٦٨) والثانية بقيادة مسلمة (٩٨ / ٧١٦) . اما التقليد التركي فيجعل الحصارات سبعة او تسعة وينسب الى هارون حصارين . وفي « الف ليلة وليلة » وسواها من قصص الفروسية تصبح الحملات الاسلامية الموجهة على القسطنطينية مبعثاً لكثير من المواضيع الرائعة الجذابة التي حيك معظمها في عهد الحروب الصليبية .

اما إيرين (٧٩٧ ـ ٨٠٢) التي اغتصبت عرش الروم وكانت «اول امرأة مطلقة السلطان في تاريخ بيزنطة »(٣) فقد خلفها نقفور الاول(٤) (٨٠٢ـ١١) . ورفض هذا شروط الصلح التي قبلتها الامبراطورة قبلاً و بعث الى الخليفة هارون الرشيد بكتاب مُهين طلب فيه ان يُعيد اليه الجزية التي كانت قد دفعت له فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم من هارون امير المؤمنين الى نقفور كلب الروم

---

١) الطبري ج٣ ص٥٠٤ .

٢) انظر الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب .

٣) Vasiliev, vol. i, p. 287 .

٤) نقفورس في المصادر اليونانية وكان عربي الاصل لعله من سلالة جبلة الغساني : الطبري ج٣ ص٦٩٥؛ Michel le Syrien, *Chronicle*, ed. J. B. Chabot, vol. iii (Paris, 1905) p. 15 خلفها نقفور فهي آخر الاسرة الايصورية او السورية (٧١٧ـ٨٠٢) التي اسسها ليو الثالث (٧١٧ـ٤١) الامبراطور الذي تزعم هو وخلفاؤه الحملة على الصور والايقونات متأثرين في ذلك بالروح الاسلامية . وقد ب ثيوفانس ليو هذا بصاحب العقلية الاسلامية . Theophanes, p. 405

قد قرأت كتابك يابن الكافرة والجواب ما تراه دون ان تسمعه والسلام » (١).

وللحال بثّ الرشيد الجيوش والسرايا بارض الروم ودبّر سلسلة حملات على البيزنطيين وهو مقيم في مقرّه بالرقة عند الفرات على خط الدفاع عن الحدود الشامية . وانزل الرشيد بآسية الصغرى الخراب والتدمير وانتهى الامر الى ان استولى على هرقلة والطوانة سنة ٨٠٦ فاضطر الامبراطور الى ان يدفع جزية عن نفسه وعن افراد اسرته (٢) فوق الجزية العامة . ويجوز القول انه في هذه الفترة بل في هذه الحادثة التاريخية نفسها بلغت السلطة العباسية أعلى قمتها .

ولم تتقدم جيوش الخلافة الى ما وراء جبل طورس تقدماً يذكر بعد سنة ٨٠٦ الا في عهد المعتصم سنة ٨٣٨ . ولئن كان المعتصم قد تجهز بما لم يتجهز به قبله خليفة قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الادم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط (٣) فاوغل في بلاد الروم حتى احتلّ عمورّية وهي مسقط رأس مؤسس الدولة البيزنطية القائمة يومئذ (٤) فان حملته عموماً لم تكن موفقة . فقد كانت القوات العربية مصممة على الزحف على القسطنطينية لكنها تراجعت عندما توامت اليها انباء الاضطرابات الداخلية في الجيش . اما امبراطور الروم ثيوفيلوس (٨٢٩ ـ ٤٢) فقد دفعه الخوف على عاصمته من السقوط الى ان يستنجد صاحب البندقية وملك الافرنج كما انه استجار ببلاط الامويين بالاندلس . وكان ثيوفيلوس قد هددته قبلاً جيوش المأمون ابن الرشيد حين شخص هذا الى بلاد الروم غازياً فعاجلته المنية (٨٣٣) بالقرب من طرسوس . ولم يقم العرب بعد زمن المعتصم بهجوم ذي بال على الروم . فالذين قاموا بغارات من خلفاء المعتصم انما ارادوا الغنائم لا الفتح . ولم يقع بين الجانبين وقائع دموية كبرى كما ان العرب لم ينفذوا الى قلب البلاد . غير ان القرن التاسع شهد حركات عدائية متواصلة كانت تجري على تخوم الروم الشرقية كل سنة تقريباً . وقد اورد

١) الطبري ج٣ ص٦٩٦ .

٢) الطبري ج٣ ص٦٩٦ ، ٧٠٩ـ١٠ ، اليعقوبي ج ٢ ص ٥١٩، ٥٢٣ ؛ الدينوري ص٣٨٦ ـ ٧ ؛ المسعودي ج٢ ص٣٣٧ـ٥٢ .

٣) الطبري ج٣ ص ١٢٣٦ .

Michel le Syrien, vol. iii, p. 72

احد جغرافيي العرب [١] ان الغزوات كانت ثلاثاً كل سنة : فغزوة شتوية في آخر شباط الى ايام تمضي من آذار وغزوة ربيعية تستغرق ثلاثين يوماً من عاشر ايار الى عاشر حزيران ثم الصائفة وتبدأ لعشر تخلو من تموز وتدوم ستين يوماً. وقد ساعدت هذه الغزوات على حفظ النشاط الحربي كما انها جرّت مغانم حسنة . الا ان النزعة العربية الاصلية كادت تضمحل كما كاد يضمحل الدافع الديني الذي تميز في زمن الفتوحات الأولى . وأخذ أثر العلل الداخلية في جسم الدولة يظهر في علاقاتها الخارجية . ولم يستأنف حمل السلاح ومقارعة بيزنطة سوى الدولة الحمدانية في حلب وهي من الدويلات التي استقلت عن الخلافة العباسية حوالي منتصف القرن العاشر وسنعرض لها في غير هذا الموضع .

بغداد في مجدها

يتفق التاريخ والاساطير في ان ابهى عصور بغداد كان في اثناء خلافة هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) . ومع انه لم يكن قد مضى على تأسيس مدينة السلام نصف قرن تراها كأنما قامت من العدم فاحتلت المقام الاول في الثروة واصبحت منافسة بيزنطة الوحيدة . ولم يكن مجدها الا متناسباً مع درجة تقدم الامبراطورية التي كانت هي عاصمتها . حتى قيل انه « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة امرها وكثرة علمائها واعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم اقطارها وسعة اطرارها وكثرة دورها ومنازعها ودروبها وشعوبها ومحالّها واسواقها وسككها وازقتها ومساجدها وحماماتها وطرزها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وافيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها » [٢] وكان البلاط الملكي بما فيه من دور للحريم وللخصيان ولأهل الخاصة يبلغ ثلث المدينة المدوّرة . وأهم ما فيه المجلس المفروش بالطنافس والمجهز بالسجف والطرّاحات مما لم يكن في الشرق ابدع منه . اما زبيدة زوج الخليفة وابنة عمه فكانت فيما يروى تشارك الخليفة المجد والعظمة اللذين تذكرهما لها الأجيال اللاحقة . فلم تكن تقتني من آنية المائدة غير المصنوع من الذهب والفضة المرصع

---

١) قدامة ، كتاب الخراج ، نشر دي غويه (ليدن، ١٨٨٩) ص٢٥٩ .
٢) الخطيب ج١ ص١١٩ .

بالجوهر . وكانت زبيدة تضع الطراز للازياء بين النساء المترفات وهي اول من اتخذ الخفاف المرصعة بالجوهر (١) وشمع العنبر حتى تشبهت نساء الطبقة الراقية بها . وقد قيل انها انفقت مرة في طريقها الى الحج ثلاثة ملايين دينار منها نفقة اسالة الماء مسير عشرة اميال الى الحرم بمكة (٢).

وكان لزبيدة مزاحمة هي عُليّة بنت المهدي اخت هارون لأبيه . وكانت عليّة من اجمل نساء دهرها لولا عيب كان في جبينها فاتخذت العصائب المطرزة بالجوهر لتستر بها جبينها فاحدثت بتلك العصائب زيّاً جديداً اخذته النساء عنها (٣) .

وقد كان يبدو استفحال البذخ في البلاط بنوع خاص في الاحتفالات الرسمية كتنصيب الخليفة والاعراس الملكية ومواكب الحج والاحتفاء بسفراء الدول الاجنبية . وقد انفق عند زواج المأمون ببوران (٤) سنة ٨٢٥ وهي بنت وزيره الحسن ابن سهل من الاموال والارزاق ما لا تزال آثاره حية في الآداب العربية الى يومنا هذا وهي تدل على مبلغ الترف او البذخ الذي بلغه ذلك العصر . قيل انه في اثناء العرس وقف العريسان على حصير ذهبي مرصع بالدر والياقوت فنثرت على بوران الف درة من صينية ذهب واوقدت شموع العنبر وزن كل واحدة مئتا رطل فانقلبت الظلمة ضياء . وانتهى امر ذلك العرس العظيم بان نثر المأمون على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع واسماء جوار وغير ذلك. فكانت البندقة اذا وقعت في يد رجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة ويمضي فيستلم ما فيها سواء أكان ضيعة او ملكاً آخر او فرساً او جارية او مملوكاً (٥) . واستقبل الخليفة المقتدر سنة ٩١٧ في بلاطه رسل الامبراطور الشاب قسطنطين السابع استقبالا رائعاً والظاهر ان القصد من هذه الزيارة انما كان تبادل الأسرى (٦) وافتدائهم . ولقد مشى في موكب الخليفة يومئذ مئة

---

١) المسعودي ج٨ ص٢٩٨ـ٩ .
٢) ابن خلكان ج١ ص٣٣٧ .
٣) الاغاني ج٩ ص٨٣ .
٤) كانت في سن العاشرة يوم خطبها المأمون ؛ ابن خلكان ج١ ص١٦٦ .
٥) الطبري ج٣ ص١٠٨١ـ٤ ؛ المسعودي ج ٧ ص ٦٥ ـ ٦ ؛ ابن الأثير ج ٦ ص ٢٧٩ ؛ الثعالبي ، لطائف ص ٧٣ـ٤ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ص ١٤٤ـ٥ .
٦) المسعودي ، التنبيه ص ١٩٣ .

وستون الف فارس وراجل وسبعة آلاف خادم منهم البيض والسود وسبعمئة حاجب . ثم اخرج رسل الامبراطور الى دار الخلافة ومشى حولهم مئة سبع من السباع : خمسون يمنة وخمسون يسرة كل سبع منها في يد سبّاع وفي رؤوسها واعناقها السلاسل والحديد . وكان عدد ما علق في قصور امير المؤمنين من الستور ثمانية وثلاثون الف ستر منها اثنا عشر الفاً وخمسمئة من ستور الديباج المذهبة . اما البسط فاثنان وعشرون الف قطعة . فدهش الرسل بما رأوا ونظروا الى دار الحاجب ثم الى دار الوزير فحسبوها مجلس الخليفة لما تداخلهم من الهيبة والروعة حتى قيل لهم ان هذه دار الوزير وتلك دار الحاجب . ولكن كانت دهشتهم الكبرى عند دخولهم دار الشجرة وفيها شجرة من الفضة والذهب وزنها خمسمئة الف درهم لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة تتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر فتصفر الطيور وتهدر . ثم أخرجوا الى بستان فيه نخل طول كل نخلة خمسة اذرع قد لبّس جميعها ساجاً منقوشاً وهي حاملة غرائب البسر (١) .

وفي عهد الرشيد وهو خير من يمثل ابهة الملك في الاسلام وفي عهد الخلفاء الذين ولوا بعده مباشرة كان البلاط موئل الشعراء والنبهاء وارباب الموسيقى والغناء وسواهم من السّمار والندماء واصحاب اللهو ومربي الكلاب والديكة وغيرهم حتى اصبح القصر مركزاً لمختلف الثقافات وضروب اللهو . وكان في مقدمة المطربين والمغنين ابراهيم الموصلي وسياط وابن جامع. ولقد وصف ابو نواس وهو نديم الأمين ورفيق لهوه حياة البلاط في هذا العصر الزاهي باعذب الشعر . ويعج كتاب الاغاني بالقصص التي تمثل هذه الحياة الاجتماعية الى حد كبير . قيل ان الخليفة الامين (٨٠٩ ـ ١٣) غناه عمه ابراهيم ابن المهدي ـ وهو من اشهر المغنين ـ صوتاً في شعر لأبي نواس فأمر له بثلاثمئة الف دينار . فقال ابراهيم : يا امير المؤمنين قد اجزتني الى هذه الغاية بعشرين الف الف دينار . فقال الأمين: «هل هي الا خراج بعض الكور ؟ » (٢) . وكان الأمين منغمساً في اللهو فلم يجد له ابن الاثير (٣) في سيرته ما يستحسن ذكره من حلم

١) الخطيب ج١ ص١٠٠ـ١٠٥ ؛ ابو الفداء ج٢ ص٧٣ ؛ ياقوت ج٢ ص٥٢٠ـ٢١ .
٢) الاغاني ج٩ ص٧١ .
٣) ج٦ ص٢٠٧ .

او معدلة او تجربة ولكنه ذكر انه كانت له عدة حراقات خاصة في دجلة على خلقه الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس فأنفق في عمل واحدة منها ثلاثة ملايين درهماً (١) . ونرى في كتاب « الاغاني » (٢) مشهداً للأمين في ليلة من ليالي الطرب والغناء دام حتى الصباح قال راويه وهو احد المغنين ؟ « مرت بي ليلة ما مر بي قط مثلها جاءني رسول محمد الامين وهو خليفة فاخذني وركض بي اليه ركضاً فحين وافيت أتي بابراهيم ابن المهدي على مثل حالي فنزلنا فاذا هو في صحن لم ار مثله قد ملىء شمعاً من شمع محمد الامين الكبار واذا به واقف ثم دخل في الكرّج والدار مملوءة بالوصائف يغنين على الطبول والسرنابات ومحمد في وسطهن يرتكض في الكرج فجاءنا رسوله فقال قوما في هذا الباب مما يلي الصحن فارفعا اصواتكما مع السرنابي اين بلغ واياكما ان اسمع في اصواتكما تقصيراً عنه قال فاصغينا فاذا الجواري والمخنثون يزمرون ويضربون :

هذي دنانير تنساني واذكرها   وكيف تنسى محباً ليس ينساها

فما زلنا نشق حلوقنا مع السرنابي ونتبعه حذراً من ان نخرج عن طبقته او نقتصر عنه الى الغداة ومحمد يجول في الكرج ما يسأمه يدنو اليناء مرة في جولاته ويتباعد مرة ويحول الجواري بيننا وبينه حتى اصبحنا » . وذكر المسعودي (٣) أن ابراهيم ابن المهدي استزار أخاه الرشيد فلما وضعت البوارد على المائدة رأى الرشيد السمك فاستصغر القطع فقال ابراهيم : « هذه ألسنة السمك » واردف الخادم قائلاً : « يا امير المؤمنين فيها اكثر من مئة وخمسين لساناً » . فاستحلفه الرشيد عن مبلغ ثمن السمك فاخبره انه قام ذاك باكثر من الف درهم . واننا اذا جردنا صورة حياة البلاط ببغداد عما ألبستها اياه القرائح الشرقية من الاطناب والمبالغة لرأينا فيها بالرغم من ذلك التجريد ما يملأ النفس دهشة وعجباً .

لاحظنا فيما مر ثروة الخلفاء وبذخهم وقد كان افراد البيت الملكي وغيرهم من البطانة

---

١) المصدر نفسه ص٢٠٦ ؛ الطبري ج٣ س ٩٥١ـ٣ .
٢) ج١٦ ص١٣٨ـ٩ .
٣) ج٦ ص٣٤٩ـ٥٠ .

والحاشية والوزراء وكبار رجالات الدولة يقلدون الخليفة في العطايا والبذل وسعة العيش. وكانت الرواتب او الاعطيات من بيت مال الامة تعطى لبني هاشم اقرباء الخليفة حتى اقطعت في ايام المعتصم (٨٣٣ - ٤٢)(١) و بلغت غلة الخيزران ام الرشيد مئة وستين مليون درهم (٢). ويحكى ان رجلاً يدعى محمد ابن سليمان مات فقبض الرشيد امواله في البصرة فكان مبلغها نيفاً وخمسين مليون درهم نقداً مع دخل يومي من املاكه يبلغ مئة الف درهم. ولم يكن مستوى المعيشة الذي عرفناه للبرامكه بأقل من مستوى الخليفة وأهل الدولة. اما حقيقة حياة الفرد من العامة في بغداد وما كان يشعر به فليس هناك عنها ما يذكر في المصادر الا ما نراه في الاشعار الزهدية التي ابقاها لنا ابو العتاهية.

ولما خمدت في سنة ٨٠٩ نار الحرب الأهلية التي اضرمت بين المأمون واخيه الاكبر الامين (الذي كان الرشيد قد استخلفه) و بينه و بين عمه ابراهيم ابن المهدي الذي ادعى العرش ودخل المأمون العاصمة ظافراً كان قسم كبير من المدينة قد دمر ولم يبق بعد ذلك للمدينة المدوّرة من ذكر. وقد اتخذ الخليفة المأمون مقره في القصر الجعفري الذي كان جعفر البرمكي قد شيده لنفسه مسكناً في الجانب الشرقي من بغداد. ولكن بغداد لم تلبث ان استعادت سابق عزها ومكانتها في ميدان التجارة والفكر. فلم يكن من السهل القضاء على تلك المدينة التي توارثت عظمة العواصم الكبرى في وادي الفرات ودجلة من عهد اور الى عهود بابل والمدائن وكان لها في موقعها الممتاز ما جعلها مركزاً تجارياً لجميع انحاء العالم المعروف آنذاك. فامتد رصيفها المحاذي للشاطىء اميالاً حتى كنت ترى في مينائها الواسع مئات السفن من تجارية وحربية ومراكب اللهو ومنها السفن الصينية والاطواف وهي قرب من جلد تنفخ بالهواء ويشد بعضها الى بعض وتنحدر من الموصل وهي لا تختلف كثيراً عما نشاهده اليوم في ذلك النهر من اطواف. اما البضائع التي كانت تصل الى اسواق المدينة فقد احتوت الخزف والحرير والمسك وهي من حاصلات الصين والطيوب والمعادن والاصباغ من

---

١) قابل الثعالبي ، لطائف ص١٦ .
٢) المسعودي ج٦ ص ٢٨٩ .

الهند وارخبيل ملقا . اما الياقوت واللازورد والمنسوجات والارقاء فمن اراضي الترك في اواسط آسية ، والعسل والشمع والفرو والعبيد البيض فمن اسوج ونروج وروسية ، والعاج والتبر والعبيد السود فمن شرق افريقية . وقد أفرد لبضائع الصين سوق خاص بها وكذلك ارسلت الامصار جواصل مناطقها بحراً وبراً في القوافل . فالارز والحنطة والكتان من مصر ، والزجاج والادوات المعدنية والفواكه من الشام ، والقماش الحريري المقصب واللؤلؤ والاسلحة من جزيرة العرب ، والحرائر والعطور والبقل من فارس (١) . وقد تم الاتصال بين جانبي بغداد الشرقي والغربي بواسطة ثلاثة جسور قائمة على قوارب او عوامات تدعمها وهي لا تختلف من هذه الناحية عن جسري بغداد اليوم . وقد افرد الخطيب (٢) باباً من تاريخه لذكر اقنية (انهار) بغداد الجارية التي كانت بين الدور والمساكن وباباً آخر لجسورها . وقد قام التجار العرب بتصدير المنسوجات والجواهر والمرايا المعدنية والخرز الزجاجي والطيوب وغير ذلك فأرسلوها الى بغداد ومنها الى انحاء الشرق الاقصى واوربا وافريقية . وتشهد النقود المسكوكة التي وجدت طائفة كبيرة منها في روسيا وفنلندا (٣) واسوج والمانيا باتساع التجارة التي تعاطاها المسلمون في مشارق الارض ومغاربها سواء أفي هذه الحقبة ام في الحقبة المتأخرة من تاريخهم . وليست حكايات السندباد البحري التي هي من اجمل قصص الف ليلة وليلة عند أهل البحث الا اخباراً ـ لها اساس واقعي ـ لرحلات حقيقية قام بها أهل التجارة من المسلمين .

وامتازت طبقة التجار بمقام له شأن في بغداد . فكان لكل تجارة اسواق (٤) معلومة وحوانيت متلاصقة كما هي الحال اليوم . وكانت الحياة في هذه الاسواق على وتيرة واحدة الا اذا اعترض ذلك ممر موكب من مواكب الاعراس او حفلات الختان . وفي عصر المأمون اخذت ترتقي طبقات اهل الحرف من أطباء ومحامين ومعلمين وكتاب وأمثال هؤلاء وكان المأمون يرعاها فصار لها مكانة مرموقة . ثم ظهرت في الزمن الذي وضع فيه ابن النديم كتابه

١) راجع بعض الابواب في كتاب : Le Strange, *Eastern Caliphate.*
٢) ج١ ص١١١ـ١٧ .
٣) في متحف هلسنكي كثير من هذه المسكوكات .
٤) اليعقوبي ، بلدان ص٢٤٦ .

المعروف بالفهرست [١] (٩٨٨) مؤلفات كثيرة تطرق مواضيع غريبة كالاستهواء (المغناطيسي) والشعوذة وبلع السيوف والزجاج [٢]. ولقد ابقى لنا ابن خلكان لحسن الحظ صورة مصغرة يظهر فيها نوع الحياة التي كان يحياها واحد من علماء ذلك الزمن في يومه العادي ونرى في تلك الصورة حنين ابن اسحاق يتنعم بما تنعم به اهل العلم اذ ذاك من ثروة تدرها عليه تآليفه وعلمه. قال : « ان حنيناً المذكور كان في كل يوم عند نزوله من الركوب يدخل الحمام فيصب عليه الماء ويخرج فيلتف في قطيفة ويشرب قدح شراب ويأكل كعكة ويتكىء حتى ينشف عرقه وربما نام ثم يقوم ويتبخر ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مسمن قد طبخ ... ورغيف وزنه مئتا درهم فيحسو من المرقة ويأكل الفروج والخبز وينام فاذا انتبه شرب اربعة ارطال شراباً عتيقاً فاذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والسفرجل . » [٣]

اليقظة الفكرية

ليس من شك في ان انتصارات الجيوش الاسلامية ايام المهدي والرشيد على البيزنطيين اعدائهم المعهودين كانت سبباً في تألق نجم هذا العصر كما ان حياة الترف والبذخ التي اتصف بها قد رفعت شأنه في التاريخ والقصص . على ان سبب عظمته الحقيقية راجع الى اليقظة الفكرية التي لم يعهد لها مثيل في تاريخ الاسلام والتي تعتبر من النهضات الهامة في تاريخ التقدم الفكري في كل العالم . الا ان هذه اليقظة كانت الى حد بعيد وليدة المؤثرات الأجنبية سواء أكانت هندية فارسية او سريانية او هلينية . وهي يقظة تميزت فيها حركة النقل من الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية الى العربية . ويجدر بنا هنا ان نشير الى ان العربي المسلم لم يكن له في الأصل ذلك التراث العظيم من العلم والفلسفة والأدب على انه قد حمل معه من الصحراء رغبة ملحة في الاطلاع على ما هو جديد وقابلية شديدة لتلقي العلم واستعداد طبيعي لاستغلال امكانياته بحيث استطاع كما تقدم معنا ان يقتبس من الثقافات

١) عبارة عن كتاب جامع لأسماء المؤلفات العربية المعروفة في زمنه .
٢) ص ٣١٢ .
٣) ابن خلكان ج١ ص٢٩٨ .

القديمة ويصبح الوريث الفكري للامم التي غلبها او احتك بها . وكما جاء الشام فتبنى فيها المدنية الآرامية التي كانت قد تأثرت بمدنية الاغريق كذلك نراه في العراق يتبنى المدنية نفسها وقد طبعت بطابع الفرس . ولم يمض اكثر من ثلاثة ارباع القرن الاول لتأسيس بغداد حتى تم للعالم العربي ان يقف على أهم كتب ارسطو الفلسفية وعلى نخبة من كتب الشروح لأهل الفلسفة الافلاطونية الجديدة وعلى جملة من كتب جالينوس الطبية وطائفة من الكتب العلمية الفارسية والهندية (١) . وفي بضع سنوات تسنى لطلاب البحث من العرب ان يهضموا ما انفق اليونان القرون في انشائه . ولا يفوتنا ان نشير الى ان الاسلام اضاع بذلك جانباً مهماً من صفاته الأصلية التي حملها معه من البادية مطبوعة بطابع العصبية القومية ولكنه حل مكانة رفيعة في الوحدة الثقافية التي كانت في العصور الوسطى تربط جنوبي اوربا بالشرق الأدنى . ولنذكر ان هذه الثقافة كانت قد استمدت أصولها من مصر وبابل وفينيقيا واليهودية واتجهت في مجرى واحد نحو اليونان ثم عادت الى الشرق بثوب هليني . وسنرى فيما بعد كيف عاد هذا المجرى الى اوربا عن طريق العرب في اسبانية وفي صقلية فكان مبعثاً للنهضة الاوربية المشهورة.

الهند

وكانت الهند مصدراً استقى منه العرب في اول هذا العهد اسس الحكمة والأدب والرياضيات . فحوالي سنة ١٥٤ / ٧٧١ قدم رحالة هندي الى بغداد ومعه رسالة في الفلك تدعى سدذانتا (في العربية السندهند) وتمت ترجمتها بامر المنصور على يد محمد ابن ابراهيم الفزاري (المتوفى بين ٧٩٦ و ٨٠٦) . وما لبث هذا ان اصبح اول فلكي في الاسلام (٢) . اما عناية العرب بالنجوم فترجع الى عهود البادية ، غير ان الإهتمام العلمي بالنجوم لم يظهر قبل هذا الزمن . ولقد كان من بعض مراسيم الاسلام نفسها باعث آخر على التوسع في دراسة الفلك

---

١) قد اخذ الشرق العربي الحديث منذ اواخر القرن التاسع عشر يجتاز مرحلة شبيهة بهذه المرحلة في عهد العباسيين من حيث الترجمة والنقل عن المصادر الأجنبية الا ان المؤلفات التي نقلت الى العربية كانت في الاكثر انكليزية او افرنسية .

٢) صاعد ابن احمد (القاضي الاندلسي) طبقات الامم ، نشر شيخو (بيروت ، ١٩١٢) ص٤٩–٥٠ ؛ ياقوت ، معجم الأدباء ج٦ ص٢٦٨ ؛ المسعودي ج٨ ص٢٩٠–٩١ .

كوسيلة لتعيين جهـة القبلة . ثم جاء الخوارزمي (المتوفى ٨٥٠) العالم الشهير فوضـع قوائمه الفلـكية المعروفة بالزيج استناداً على مصنّف الفزاري فجمع غاية ما بلغته اصول الفلك عند أهل الهند والاغريق وزاد عليها اموراً جديدة . ومن جمـلة الترجمات الفلـكية الاخرى التي تمت في هذا العصر تلك التي نقلها من الفارسية الى العربية الفضل ابن نوبخت [١] الفارسي (المتوفى نحو ٨١٥) امين خزانة الحـكمة لهارون الرشيد [٢] .

والى الرحالة الهنـدي المذكور آنفاً يعود الفضل في اتحـاف العالم الاسلامي [٣] برسالة في الرياضيات تطرقت بواسطتها الارقام الى اوربا ـ تلك الارقام التي يسميها الاوربيون «عربية» ويسميها العرب « هندية » . وفي اواخر القرن التـاسع اتحف الهنود علم الرياضيات العربي بخدمة أخرى هي نظام الـكسور العشرية .

فارس

لم يكن للفرس خلا الفنون والآداب شيء يذكر مما يستفيد منه العرب . فهم قد امتازوا بالميـل الى تذوق الجمال وكادت انـ تكون هذه الناحية مفقودة في ثقافة العرب الساميين فاقتبسوها من الفرس وفوق ذلك فقد كان للفرس اثر من الناحية الأدبية لا من نواحي العلم والفلسفة . وان اقدم الـكتب العربيـة التي اتصلت بنا هو كتاب كليلة ودمنة (المنقول عن البهلوية ـ الفارسية الوسطى) وقد نقل الى البهلوية من اللغة السنسكريتية . وكان اصل هذا الـكتاب قد جيء به من الهند الى فارس وجيء معه ايضاً بلعبة الشطرنج وكان ذلك في عهد الملك انو شروان (٥٣١ ـ ٧٨) . وللنص العربي قيمة كبرى قائمة على كون الأصل الفارسي مفقوداً وكذلك قل في الأصل السنسكريتي وان تكن مادة الكتاب موجودة في شكل مطوّل في كتاب « البانشاتانترا » . ومن هنا فقد اصبح النص العربي اساساً لجميع الترجمات المتعارفـة اليوم وهي نحو اربعين وتشمل لغات اوربا واللغة العبرانية والتركية والحبشية ولغة ماقا حتى اللغة

---

١) تعني كلمة «نوبخت» بالفارسية الحظ الحسن ، وقد امتاز كثيرون من افراد هذه العائلة في علم النجوم ، الطبري ج٣ ص ٣١٨،٣١٧ (حيث ورد الاسم نيبخت) ، ١٣٦٤ .

٢) الفهرست ص٢٧٤ .

٣) انظر ما سيرد عن هذا في الفصل الاربعين من هذا الـكتاب تحت باب الفلك والرياضيات .

الايسلندية . اما ناقل « كليلة ودمنة » الى العربية فابن المقفع (١) . وقد وضع كتاب « كليلة ودمنة » في الأصل لتثقيف الأمراء وتلقينهم علم الأدب على ألسنة الحيوان . اما ابن المقفع فكان من اتباع زرادشت ثم اعتنق الاسلام وقد اتهم بالزندقة وسيق الى النار فلاقى حتفه حرقاً حوالي سنة ٧٥٧ .

وتعتبر ترجمة ابن المقفع هذه قطعة فنية من الانشاء او أثراً من النثر الفني . وقد اكتسب النثر العربي منذ العصر العباسي مسحة الأسلوب الفارسي بما فيه من الاسراف في التأنق والمجاز والبديع اللفظي . وكان الأسلوب العربي القديم يمتاز بالرشاقة والايجاز ولكنه لم يطل عليه العهد حتى اخذت هذه المميزات تزول ويحل محلها الصفات المألوفة في الأسلوب الفارسي من تزويق وصقل وترصيع وقد حفلت كتب الأدب العربي « كالأغاني » و « العقد » و « سراج الملوك للطرطوشي » (٢) بالاشارات الى مصادر قديمة هندية وايرانية.وهي اشارات تتوارد خاصة عند العرض لمواضيع تدور على الحكمة وآداب اللياقة واصول المعاملات السياسية وفن كتابة التاريخ . ولكتابة التاريخ عند العرب اصول سنرى فيما بعد كيف شيدت على اسس الطريقة الفارسية .

ولما اصيب الخليفة المنصور سنة ٧٦٥ بعلّة في معدته استعصت على اطبائه فانه استدعى طبيباً نسطورياً من جنديسابور (٣) اسمه جورجيس ابن بختيشوع (٤) (المتوفى حوالي ٧٧١) وكان هذا عميد الأطباء في بيمارستان جنديسابور التي اسسها سنة ٥٥٥ انوشروان الكبير فاشتهرت بعلوم الطب والفلسفة . وقد اقتفى علماؤها سنن اليونان فيما درّسوه الا ان الآرامية

---

١) من طبعات كليلة ودمنة طبعة دى ساسي (باريس، ١٨١٦) وطبعة بولاق، ١٢٤٩ وطبعة خليل اليازجي الثانية (بيروت، ١٨٨٨) وطبعة لويس شيخو (بيروت، ١٩٠٥) وراجع عن ابن المقفع الفهرست ص١١٨ وابن خلكان ج١ ص ٢٦٦ـ٩ .

٢) نشر في القاهرة ١٢٨٩ و ١٣٠٦ الخ .

٣) جنديشابور الفارسية وقد اسس المدينة شابور الاول الساساني واليه نسبت ومعنى اسمها فيما يظن «معسكر شابور» وتقوم في موضعها اليوم قرية شاه آباد في خوزستان في الجنوب الغربي من ايران .

٤) قابل الفهرست ص٢٩٦ ؛ ابن العبري ص٢١٣ـ ١٥ ، اما « بخت » التي يجعلها ابن ابي اصيبعة (ج١ ص١٢٥) مشتقة من السريانية بمعنى « خادم » فهي في الحقيقة «بخت» البهلوية ومعناها « خلص » وبهذا يصبح معنى اسم العائلة « خلص يسوع » .

كانت لغة التدريس . وقد حظي جورجيس هذا عند الخليفة فاصبح طبيبه الخاص وظل محافظاً على نصرانيته . وقد ذكروا أن امير المؤمنين قال له يوماً : « ياحكيم اتق الله وأسلم وانا اضمن لك الجنة » . فاجابه جورجيس : « قد رضيت حيث آبائي في الجنة او في النار» (١) .

وعاشت عائلة ابن بختيشوع في بغداد في فضل وجاه وعرف منها في مدى قرنين ونصف ستة او سبعة اجيال من الاطباء تمتعوا رغم تقلبات الدهر عليهم بما يكاد ان يكون احتكاراً متصلاً لشؤون الطبابة في دار الخلافة . وقد جرت العادة في ذلك الزمن ان تكون المهن العلمية امراً منحصراً في أسر خاصة كما كانت الصياغة وسواها من الصناعات والحرف . فينشأ الابن وقد لقن اسرار المهنة عن والده فيحتفظ بها ليسلمها بدوره الى ولده . وهكذا فقد كان ابن جورجيس المعروف باسم بختيشوع (المتوفى ٨٠١) رئيس الأطباء في بيمارستان بغداد في عهد الرشيد واصبح ابنه المعروف بجبريل ابن بختيشوع بعده طبيب الخليفة الخاص في سنة ٨٠٥ . وجبريل هذا هو الذي شفى احدى حظايا الرشيد من فالج عصبي اصاب يدها . قالوا امسك ثوبها كانه يريد ان يكشف عن جسمها فاسترسلت اعضاء الجارية من شدة الحياء وبسطت يدها ترده فبرئت (٢) .

الثقافة الهلينية

لا شبهة في انه لما فتح العرب الهلال الخصيب كان أثمن ما وجدوه فيه التراث الاغريقي الفكري فكان من نتيجة ذلك ان اصبحت الثقافة الهلينية اشد العوامل الأجنبية تأثيراً في الحياة العربية. فالرهاء (إدسّا) وهي اهم مقر للسريان النصارى ، وحرّان مدينة السريان الوثنيين الذين اصبحوا في القرن التاسع وما بعده يسمون انفسهم بالصابئة او الصابئين ، وانطاكية احدى مستعمرات اليونان القدماء الكبيرة ، والاسكندرية ملتقى الفلسفة الغربية والشرقية ، وما لا يحصى من أديرة في سورية وما بين النهرين حيث كانت تقوم الدراسات العلمية والفلسفية علاوة على الدراسات الكنسية المذهبية ـ كل هذه كانت منائر تشع منها انوار

---

١) ابن العبري ص٢١٥ وقد نقله عنه ابن ابي اصيبعة ج١ ص١٢٥ .

٢) ابن العبري ٦ ص٢٢ـ٧ ؛ القفطي ص١٣٤ـ٥ .

الثقافة الهلينية . وقد كان من ثمار الغارات المتوالية على بلاد الروم وخاصة في ايام هارون الرشيد ان غنم الغزاة طائفة من المخطوطات اليونانية كان معظمها في عمورية وانقرة (١) . ويعزى الى المأمون انه اوفد الرسل الى الامبراطور ليو الارمني في طلب الكتب اليونانية وذكروا ان المنصور قبله بعث الى ملك الروم في طلب كتب العلم فكان من جملة ما بعث اليه كتاب اقليدس (٢) . ولكن العرب لم يعرفوا اليونانية فاعتمدوا في اول امرهم على ترجمات أخرجها لهم اليهود والوثنيون والنصارى ، وخاصة النساطرة من النصارى . وكانت طريقة هؤلاء الأخيرين وهم سريان ان ينقلوا الكتاب اليوناني الى لغتهم السريانية ثم يترجموه بعدئذ من السريانية الى العربية. وهكذا اصبحوا اعظم حلقة للاتصال بين الثقافة الهلينية و بين الاسلام. ومن هنا كان السريان اقدم شعب شرقي مونّ العالم قاطبة بالثقافة الاغريقية . فالثقافة الهلينية لم تصل الى العقل العربي الا عن طريق اللغة السريانية .

وقد بلغ التأثير اليوناني أوجه في عهد المأمون . و بسبب ما كان لهذا الخليفة من نزعة عقلية ومن ميل الى مذهب المعتزلة القائلين بوجوب التوفيق بين النصوص الدينية و بين احكام العقل اندفع نحو فلسفة الاغريق يبحث عما يبرر موقفه أو يؤيد آراءه . وعلى حد تعبير ابن النديم (٣) ان ارسطو ظهر للمأمون في حلم فأكد له انه ليس ثمة فرق بين العقل والشرع . وحدا بالمأمون اهتمامه في الأمر ان انشأ بيت الحكمة في بغداد سنة ٨٣٠ وهو عبارة عن خزانة كتب ودار علم ودار ترجمة فكان هذا المعهد من وجوه كثيرة اعظم المعاهد الثقافية التي نشأت بعد المتحف الاسكندري الذي أسس في القرن الثالث قبل الميلاد (٤) . وليس ينكر ان نفراً من النصارى واليهود وممن أسلم كانوا قد قاموا قبلاً بترجمة بعض الكتب على عهدتهم الخاصة ولكن الترجمة ايام المأمون والخلفاء الذين تبعوه مباشرة قد تركزت في هذه الدار الجديدة (بيت

---

١) اليعقوبي ج٢ ص٨٦ ؛ وكانت تلفظ انقرة في العربية بكسر القاف .

٢) ابن خلدون، المقدمة ص٤٠١ .

٣) الفهرست ص٢٤٣ .

٤) انظر بحثاً في الحياة العلمية في عصر المأمون لأحمد فريد رفاعي ، عصر المأمون (القاهرة ، ١٩٢٧) ص٣٧٥-٩٨ .

الحكمة) وقد استمرت حركة الترجمة في العهد العباسي الى اواسط القرن التاسع للميلاد .وكان المترجمون اذا اصطدموا بعبارة غامضة ترجموها ترجمة حرفية (كلمة كلمة) اما ما لا مقابل له في العربية فكانوا يعربونه اي يدخلونه الى العربية بلفظه الأعجمي مع بعض التعديل [١] .

بيد ان الادب اليوناني لم يعن به أحد من المترجمين الذين نقلوا هذه العلوم الى العربية . ومن هنا لم تنشأ صلة ارتباط بين العقلية العربية والدراما اليونانية او الشعر والتاريخ فبقيت السيادة في هذه الميادين للمؤثرات الفارسية . وقد نقل ثاوفيل ابن توما الرهاوي الماروني (المتوفى ٧٨٥) [٢] وهو منجم المهدي بعض الالياذة لهوميروس الى العربية فلم تحدث الترجمة العربية أدنى أثر في حياة العرب الفكرية ولم تعمّر طويلا.اما الفتح الفكري الذي تم لليونانية فقد بدأت طلائعه في الطب الذي وضع اصوله جالينوس (المتوفى نحو ٢٠٠م) وبولس الاجانيطي (زها نحو ٦٥٠) [٣] ، وفي علوم الرياضيات وما شاكلها التي حمل لواءهـا اقليدس (زها نحو ٣٠٠ ق.م) وبطليموس (زها في الشطر الاول من القرن الثاني للميلاد) ، وفي الفلسفة التي وضعها افلاطون وارسطو ثم توسع فيها رجال الفلسفة الافلاطونية الجديدة .

المترجمون

ومن اوائل المترجمين عن اليونانية ابو يحيى ابن البطريق (المتوفى بين ٧٩٦ و ٨٠٦) . وقد قيل انه ترجم للمنصور أهم تآليف جالينوس وابقراط (زها نحو ٤٣٦ ق.م) وانـه نقل ايضاً كتاب « الاربعة » لبطليموس [٤] . واذا صحت رواية المسعودي [٥] فان ترجمـة كتاب اقليدس وكتاب المجسطي (بفتح الميم او كسرها) [٦] وهو اعظم تآليف بطليموس

١) مثلا الكلمات التالية : ارثماطيق ، جومطرية ، جغرافيـة ، موسيقي ، فلسفة ، اسطرلاب ، اثير ، إكسير ، إبريز ، مغناطيس ، أرغن . انظر ابو عبدالله الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، نشر ج. فان فلوتن (ليدن ، ١٨٩٥) الفهرس . وانظر فهرست ابن النـديم ورسائل اخوان الصفا نشر خيرالدين الزركلي (القاهرة ، ١٩٢٨) في مواضع متعددة .

٢) ابن العبري ص٤١ ، ٢٢٠ .

٣) المصدر نفسه ص١٧٦ .

٤) الفهرست ص٢٧٣ .

٥) ج٨ ص٢٩١ .

٦) من اصل يوناني ــ مجستي ــ اي الاعظم .

في الفلك [١] قد تمت في هذا الزمن ولكن الظاهر ان هذه الترجمات الأولى لم تكن مضبوطة فاحتيج الى تنقيحها واعادة نقلها في عهد الرشيد والمأمون . ويذكر بين النقلة الاولين يوحنا (يحيى) ابن ماسويه [٢] (المتوفى ٨٥٧) . وهو سرياني نصراني كان قد درس على جبرئيل ابن بختيشوع ثم اصبح معلماً لحنين ابن اسحاق . وقلده الرشيد أمر الكتب القديمة مما وجد بانقرة وعمورية [٣] واكثرها في الطب وجعله اميناً على الترجمة فخدم الرشيد وخلفاءه ايضاً . ويحكى أن أحد الندماء عبث بابن ماسويه بحضرة المتوكل فقال له ابن ماسويه : « لو ان مافيك من الجهل عقل ثم قسم على مئة خنفساء لكانت كل واحدة منهن اعقل من ارسطاليس » [٤] .

حنين ابن اسحاق

اما شيخ المترجمين فهو حنين ابن اسحاق (٨٠٩ ـ ٧٣) اوحد عصره في علم الطب ومن اكابر اهل الفضل وقد كان عباديا ـ نسبة الى العباد وهم قوم من نساطرة العرب اقاموا بظاهر الحيرة ـ احب العلم في صباه فدخل بغداد وحضر مجلس يوحنا ابن ماسويه وخدمه صيدلياً . وغضب عليه ابن ماسويه يوماً فقال له : «ما لأهل الحيرة والطب عليك ببيع الفلوس في الطريق» [٥] . فخرج حنين باكياً وعزم على احكام اللغة اليونانية . ثم ارسله بنو موسى ابن شاكر وهم اخوة ثلاثة تناهوا في طلب العلوم القديمة و بذلوا فيها الرغائب الى الاقطار الناطقة باليونانية لاخراج المخطوطات . ودخل بعد ذلك في خدمة جبرئيل ابن بختيشوع طبيب المأمون . وما زال يتقدم حتى امر المأمون باحضاره اليه وسلمه امر بيت الحكمة وامره ـ وكان لايزال حديث السن ـ بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العربية واصلاح ما ينقله غيره . وقد الحق به بعدئذ في هذا العمل العظيم ابنه اسحاق [٦] وابن اخته حبيش

---

١) اليعقوبي ج١ ص١٥٠ـ٥١ .

٢) يسميه الكتاب اللاتين موسى الاكبر تمييزاً له عن موسى الاصغر (اى ماسويه ماردين) الطبيب اليعقوبي الذى زها في زمن الفاطميين وخدم الخليفة الحاكم في القاهرة وتوفي سنة ١٠١٥ .

٣) ابن العبري ص٢٢٧ ؛ ابن ابي اصيبعة ج١ ص١٧٥ وما يلي ؛ القفطي ص٣٨٠ .

٤) الفهرست ص٢٩٥ .

٥) ابن العبري ص٢٥٠ ، ابن ابي أصيبعة ج١ ص١٨٥ .

٦) ابن خلكان ج١ ص١١٦ .

ابن الحسن (١) وكان قد درّ بهما على ذلك . غير ان بعض الكتب التي تنسب اليه وهي عديدة كانت نتاج جهود هذين الاثنين وسواهما من اقرانه كعيسى ابن يحيى (٢) وموسى ابن خالد (٣) . وفي كثير من الاحوال كان حنين على ما يبدو ينقل الكتاب اليوناني الى السريانية ثم يخطو زملاؤه الخطوة الثانية فينقلونه من السريانية الى العربية (٤) مثال ذلك ان حنيناً الأب نقل شرح ارسطو (هرمنوتكا) من اليونانية الى السريانية ثم اخرج الابن النص العربي من النص السرياني .وكان فصيحاً بالعربية يزيد على ابيه في ذلك (٥). واصبح فيا بعد اعظم نقلة كتب ارسطو . ومن الترجمات التي تعزى الى حنين ترجمة كتب لجالينوس وابقراط وديسقوريدس (زها حوالي ٥٠)فضلاً عن كتاب السياسة لافلاطون (٦) والمقولات والطبيعيات والخلقيات لارسطو (٧) . وتعد اهم أعماله ترجمته لجميع مؤلفات جالينوس (٨) الى اللغة السريانية فالعربية . ولقد فقدت الأصول اليونانية لسبعة من كتب جالينوس في علم التشريح الا انها لحسن الحظ محفوظة في اللغة العربية (٩) . اما ترجمة العهد القديم العربية التي اعتمد فيها حنين الترجمة اليونانية السبعينية (١٠) فقد فقدت .

ويشهد لحنين بطول الباع في الترجمة ما روي من ان بني شاكر كانوا يدفعون لحنين ابن اسحاق ومن معه من النقلة نحو خمسمئة دينار في الشهر . وحكي ايضاً ان المأمون كان يعطيه من

---

١) الملقب بالاعسم لأن ساعده كانت يابسة . ابن ابي اصيبعة ج ١ ص١٨٧ ، ٢٠٣ ؛ الفهرست ص٢٩٧ ؛ ابن العبري ص٢٥٢ .

٢) الفهرست ص ٢٩٧ .

٣) الذي نقل ايضاً من الفارسية الى العربية . الفهرست ص٢٤٤ .

٤) الفهرست ص ٢٤٩ .

٥) المصدر نفسه ص ٢٩٨ وقد جاراه في ذلك القفطي ص ٨٠ .

٦) الفهرست ص ٢٤٦ .

٧) المصدر نفسه ص ٢٤٨ ؛ القفطي ص ٣٨ ـ ٤٢ .

٨) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١٨٨ ـ ٩ ؛ القفطي ص ٩٤ ـ ٥ .

٩) وهناك مخطوطة اخرى لكتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس وفيها عشرة من كتب جالينوس الستة عشر الرسمية يرجع عهدها الى ٥٧٢ هـ . وهي موجودة في مكتبة جامعة برنستون .

١٠) القفطي ص ٩٩ .

الذهب زنة ما ينقله من الكتب. [١] على انه لم يبلغ قمة المجد في الترجمة فحسب بل في الطب ايضاً وذلك حين اتصل خبره بالمتوكل (٨٤٧ ـ ٦١) فجعله طبيباً خاصاً له. وقد حبس المتوكل حنيناً في بعض القلاع سنة كاملة لانه امتنع عن وصف دواء للخليفة يقتل به عدواً. وكان المتوكل قد رغّبه في ذلك وامر ان يخلع عليه. ثم احضره واعاد عليه القول واحضر سيفاً ونطعاً فقال حنين: « قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية ». قال الخليفة: « فاني اقتلك ». قال: « لم احسن الا الشيء النافع ولم اتعلم غيره ». فتبسم المتوكل وقال له: « طب نفساً فانا اردنا امتحانك ». ثم سأله: ما الذي منعك مع الذي رأيته من صدق الأمر منا ؟ فأجابه حنين: « شيئان هما الدين والصناعة. اما الدين فانه يأمرنا باصطناع الجميل مع اعدائنا فكيف ظنك بالأصدقاء، واما الصناعة فانها موضوعة لنفع ابناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطباء عهد مؤكد بايمان مغلظة ان لا يعطوا دواء قتالا لأحد.» [٢]

وقد اتفق ابن العبري والقفطي على ان حنيناً كان « ينبوعاً للعلم ومعدناً للفضائل » وقال فيه ليكليرك [٣] : كان اعظم شخصيات القرن التاسع . . . . وكانت له عقلية من افضل العقليات وخلق من احسن الأخلاق التي نعرفها في التاريخ.

ثابت ابن قرة

وكما كان حنين رئيس النقلة النساطرة هكذا كان ثابت ابن قرة (حوالي ٨٣٦ ـ ٩٠١) رئيس جماعة اخرى من صابئة حران [٤] الوثنيين. وكان هؤلاء الصابئة من عبدة النجوم ومن هنا كان لهم رغبة من عهد بعيد في العلوم الرياضية والفلكية. وكانت مدينتهم حران في عهد المتوكل مقر مدرسة الفلسفة والطب التي كانت قبلاً في الاسكندرية وانتقلت الى انطاكية. في هذا الوسط نفسه نشأ ثابت ابن قرة وتلاميذه وترعرعوا. والى هؤلاء جميعاً ينسب الفضل في نقل القسم الأكبر من كتب اليونان في الرياضيات والفلك ومنها مؤلفات ارخميدس (المتوفى

١) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١٨٧ .
٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٧ ـ ٨٨ ؛ ابن العبري ص ٢٥١ ـ ٢ .
٣) L. Leclerc, *Histoire de la médecine arabe* (Paris, 1876) , vol. i, p. 139.
٤) نشر كتابه الذخيرة في علم الطب ج . صبحي (القاهرة ، ١٩٢٨) .

٢١٢ ق . م) وابلونيوس (المولود حوالي ٢٦٢ ق . م) (١) كما انهم قاموا باصلاح ترجمات سابقة ايضاً ، فان ترجمة اقليدس مثلاً التي كان حنين قد قام بها قبلاً نقحت على يد ثابت (٢). ولقد وجد ثابت من الخليفة المعتضد (٨٩٢ ـ ٩٠٢) رعاية والتفاتاً فكان يجلسه بين يديه ويؤاكله (٣) . ولقد تولى اعمال ثابت الجليلة من بعده ابنه سنان (المتوفى ٩٤٣) وحفيداه ثابت (المتوفى ٩٧٣)(٤) وابراهيم (المتوفى ٩٤٦) (٥) وابن حفيده المعروف بابي الفرج (٦). وتميزوا جميعاً بالتقدم في الترجمة والعلم . واعظم من نشأ بعد ثابت من الصابئة انما هو البتاني (المتوفى ٩٢٩) ابو عبد الله محمد ابن جابر ابن سنان ويدل اسمه هذا على انه اسلم. الا ان صيت البتاني يرتكز على ما ابتدعه في علم الفلك اذ لم يكن من اهل الترجمة .

وكان بين أوائل المترجمين لعلوم الرياضيات والفلك في مدرسة حران الحجاج ابن يوسف ابن مطر (وقد زها بين ٧٨٦ و ٨٣٣) واليه تنسب الترجمة الأولى لأصول الهندسة لاقليدس واحدى الترجمات الأول لكتاب المجسطي لبطليموس . اما الكتاب الأول ـ اصول الهندسة ـ فالظاهر انه نقله مرتين ، مرة للرشيد وأخرى للمأمون (٧) وذلك قبل ترجمة حنين . واستخرج الحجاج النص العربي لكتاب المجسطي الشهير في علم الفلك سنة ٨٢٩ ـ ٣٠ معتمداً على ترجمة سريانية . وكانت اول محاولة لتفسير هذا الكتاب واخراجه الى العربية في زمن يحيى ابن خالد ابن برمك (٨) وزير الرشيد ولكنها لم تكن مرضية . وكانت هناك ترجمة اخرى متأخرة للكتاب نفسه اخرجها ابو الوفاء محمد البوزجاني الحاسب (٩) (٩٤٠ ـ ٩٧ او ٩٨) احد اعلام المسلمين في الفلك والرياضيات . وهناك عدا هذه ترجمة لقسطا ابن لوقا (المتوفى حوالي

---

١) الفهرست ص ٢٦٧ .
٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٧٧ ، ٢٩٨ .
٣) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢١٦ .
٤) المصدر نفسه ص ٢٢٤ ـ ٦ .
٥) المصدر نفسه ص ٢٢٦ ؛ القفطي ص ٥٧ ـ ٩ ؛ الفهرست ص ٢٧٢ .
٦) القفطي ص ٤٢٨ .
٧) الفهرست ص ٢٦٥ .
٨) الفهرست ص ٢٦٧ ـ ٨ .
٩) كان مولده في بوزجان من اعمال قوهستان .

٩٢٣) وهو نصراني من بعلبك له فضل عظيم في ترجمة كتب الرياضيات والفلك واليه ينسب صاحب الفهرست (١) وضع اربعة وثلاثين كتاباً .

وقد شهد القسم الاخير من القرن العاشر ظهور جماعة من المترجمين اليعاقبة او المونوفيزيين منهم يحيى ابن عدي المولود في تكريت سنة ٨٩٣ والمتوفى في بغداد سنة ٩٧٤ وابو علي عيسى ابن زرعة (٢) (المتوفى ١٠٠٨) وقد ولد في بغداد . ولقد انتهت الى يحيى المذكور رياسة جماعته الدينية ويروى انه قال يوماً لصاحب الفهرست (٣) انه يكتب في اليوم والليلة مئة ورقة . ولقد انصرف ارباب القلم اليعاقبة الى تنقيح الترجمات الموجودة من كتب ارسطو كما اهتموا باخراجها من جديد .

ولم يكد ينصرم عصر الترجمة حتى كانت مؤلفات ارسطو الموجودة (وكثير منها مزيف لم يصدر عنه) قد اصبحت في متناول القارىء العربي . ولقد ذكر ابن ابي اصيبعة (٤) وجاراه القفطي (٥) أسماء ما لا يقل عن مئة كتاب منسوب الى « فيلسوف الاغريق » . كل ذلك واوربا في ظلام دامس تكاد لاتعي شيئاً من العلم او الفكر اليوناني . وحسبك ان العصر الذي أطلع الرشيد والمأمون فيه الشرق على خبايا الفلسفة اليونانية والفارسية هو العصر نفسه الذي كان فيه امثالهما في الغرب كشارلمان ونبلاؤه يحاولون ان يتعلموا كيف يكتبون اسماءهم . ولم تلبث مؤلفات ارسطو في علم البيان والمنطق وعلم الشعر وكتاب الايساغوجي لبرفيروس ان احتلت مكانها الى جانب الصرف والنحو في اللغة العربية فاصبحت ولا تزال من اسس العلوم الانسانية في الاسلام . واعتنق المسلمون يومئذ عقيدة المدرسة الافلاطونية الجديدة القائلة بان تعاليم ارسطو وافلاطون هي واحدة في الاساس . واكثر ما تتجلى الافلاطونية الجديدة بنوع خاص في تعاليم الصوفية . وقد تطرقت عقائد افلاطون وارسطو الى الآداب

---

١) ص ٢٩٥ . قابل القفطي ص ٢٦٢ــ٣ .
٢) الفهرست ص ٢٦٤ ؛ ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٣٥ــ٦ ؛ القفطي ص ٢٤٥ــ٦ .
٣) ص ٢٦٤ .
٤) ج ١ ص ٥٧ وما يلي .
٥) ص ٣٤ وما يلي .

اللاتينية عن طريق ابن سينا وابن رشد وكان لها اثر عظيم في الحياة الفكرية في العصور الوسطى كما سنرى .

وقد تبع عصر النقل والترجمة المزدهر في ظل الخلفاء العباسيين الاول عصر آخر هو عصر ابتكار وانشاء سنعرض له في فصل آخر . ولم يأت القرن العاشر حتى تطورت اللغة العربية - تلك اللغة التي استعملها العرب في الجاهلية أداة للشعر وعرفها محمد لغة للوحي والدين - فاصبحت لغة حية قوية دقيقة البناء سهلة المنال تطاوع ارادة الكتاب للتعبير عن الفكر العلمي والآراء الفلسفية العليا وفي الوقت نفسه صارت لغة السياسة والتخاطب الادبي في اقطار مترامية الأطراف تمتد من اواسط آسية الى شمالي افريقية فالأندلس . ومنذ ذلك الحين اخذت الشعوب التي تسكن العراق وسورية وفلسطين ومصر وتونس والجزائر ومراكش تعبر عن اسمى ما يدور في خلدها من فكر وآراء بهذه اللغة نفسها - لغة العرب .

الفصل الخامس والعشرون

دولة العباسيين

الخليفة العباسي

كان الخليفة رأس الدولة وهو يعتبر مبدئياً مصدر السلطة كلها . وكان ينيب عنه وزيراً يفوض اليه السلطة المدنية ، وقاضياً يكل اليه اعباء الأمور الشرعية ، واميراً يستعمله على الجيش والمهام الحربية . غير ان الخليفه نفسه كان دائماً محور السلطة والمرجع الأخير لكل شؤون الدولة . وعلى هـذا النظام الملكي المقتبس عن ملوك فارس الأول جرى خلفاء بغـداد . وقد استفاد بنو العباس في مطلع عهدهم من انقلاب الأمة على بني امية ونقمتها عليهم واعتبارهـا اياهم مارقين فوطدوا عرشهم على اساس الدين وجعلوا للامامة اهمية كبرى . وكانوا يلجأون الى تمكينها والرفع من شأنها كلما قل شأنهم السياسي وفترت طاعة الناس لهم . فمن عهد الخليفة الثامن المعتصم بالله (٨٣٣ ـ ٤٢) الى آخر ايام الدولة نرى الخلفاء يتحذون لأنفسهم ألقاباً فخريـة مركبة من اسم الخليفة كالمنصور والمهدي والهادي واسم الله حتى اذا جاء دور انحطاطهم اخـذ الناس يغدقون عليهم الألقاب الدينية كخليفة الله وظل الله على الأرض وغير ذلك من النعوت. وكان المتوكل (٨٤٧ ـ ٦١) فيما يبدو اول من انتحل شيئاً من هذه الألقاب (١) . وظلت مألوفة الى آخر ايام العثمانيين . اما نظام الاستخلاف المبهم الذي وضع في عهد الأمويين فقد روعي في دور العباسيين فنجمت عنه العواقب الوخيمة نفسها . فقد كان الخليفة يعين لولاية العهد من ابنائه او أهل قرابته من هو احبهم اليه او من يعتقد فيه الكفاءة لها . وعملاً بهذا النظام أوصى السفاح بالامر من بعده لأخيه المنصور . واستخلف المنصور بعده ابنه المهدي (٢) . و بعد المهدي

---

١) المسعودي ج ٧ ص ٢٧٨ .

٢) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٣٧ وما يلي ، ٤٧٢ وما يلي ؛ الفخري ص ٢٣٦ .

قام بكره الهادي ثم اخو الهادي هارون الرشيد (١) فاوصى الرشيد بالخلافة للأمين على ان تكون من بعـده لأخيه المأمون . وكان المأمون اكثر كفاءة من اخيه . ثم ان الرشيد قسم الدولة بين ابنيـه فجعل المأمون على خراسان وعاصمتها مرو (٢) وظل باقي الامبراطوريـة بيد الأمين فنشب نزاع شديد بين الاثنين انتهى باغتيال الأمين (ايلول ٨١٣) واغتصاب المأمون للعرش . ومرت سنوات اربع لبس المأمون بعدها اللباس الأخضر وهو شعار الشيعة بدلا من اللباس الأسود شعار العباسيين وأقام علي الرضا ولياً لعهده فانتقض عليـه أهل بغداد وبايعوا (في تموز ٨١٧) عمه ابراهيم المهدي فلم تتسن للمأمون العودة الى عاصمة الدولة حتى سنة ٨١٩ اي بعد مضي ست سنوات على موت اخيه الأمين . واختار المأمون قبيل وفاته أخاه المعتصم لولاية العهد غير ملتفت الى ابنـه العباس فكادت الفتنة ان تظهر رأسها في صفوف الجيش الذي كان يعطف على الابن . وبعد المعتصم تولى ابنه الواثق (المتوفى ٨٤٧) وبه انتهى دور العز والقوة . وقد طالت مدة الخلفاء الاربعة والعشرين الأول نحو قرنين ونصف (٧٥٠-٩٩٠) فلم يكن منهم الا ستة فقط خلفهم ابناؤهم في الحكم .

وكان من موظفي الدولة شخص يتصل بالخلافة يسمى الحاجب وعمله ان يقدم سفراء الدول والعظماء الى حضرة امير المؤمنين فكان لذلك ذا نفوذ عظيم . وهناك الجلاد وكان من ذوي الشخصيات البارزة في بلاط بغداد . ولاول مرة في تاريخ العرب صرنا نرى الحجرات المقببة تحت الارض تُفرز لتعذيب المغضوب عليهم . اما منجم البلاط فكان عمله كعمل الجلاد من الامور التي اقتبسها الخلفـاء عن الفرس ولم يكن لعرش بني العباس غنى عنه .

الوزير

ويتلو الخليفة في المقام الوزير . والوزارة في الأصل منصب فارسي (٣) . وكان الوزير

---

١) الفخري ص ٢٦١ - ٢ ؛ الطبري ج ٣ ص ٥٢٣ .

٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠٠ وما يلي ؛ الطبري ج ٣ ص ٦١١ وما يلي ؛ الفخري ص ٢٩٢ ؛ المسعودي ، التنبيه ص ٣٠٥ : ٣ . انظر رفاعي ص ١٣٠ وما يلي .

٣) قابل ابن العباس ، آثار الأول في ترتيب الدول (القاهرة ، ١٢٩٥) ص ٦٢ .

ساعد الخليفة الايمن وكثيراً ما كان يقوم مقامه . فكلما انهمك الخليفة في الملاهي وانصرف الى الملاذ مع النساء في القصر ارتفعت مكانة الوزير وازدادت قوته . وفي وثيقة الاعتماد التي كتبت حينما استوزر الخليفة الناصر (١١٨٠ - ١٢٢٥) وزيره محمد ابن برز القمي ما يشعر بمبدأ الحق الالهي - وقد جاء فيها : « باسم الله الرحمن الرحيم محمد ابن برز القمي نائبنا في البلاد والعباد فمن أطاعه فقد اطاعنا ومن اطاعنا فقد اطاع الله ومن اطاع الله ادخله الجنة ومن عصاه فقد عصانا ومن عصانا فقد عصى الله ومن عصى الله ادخله النار (١) » .

وكان للوزير من السلطة ما عرفناه في البرامكة فهو يعيّن او يعزل العمال والقضاة (بعد مراجعة الخليفة اسمياً) بل يعين احياناً من يلي الوزارة بعده عملاً بنظام الوراثة الذي اشرنا اليه من قبل . وجرت العادة ان يعهد الى الوزير بمصادرة املاك من يغضب عليه الخليفة من العمال . وكذلك كان يفعل العمال في الأمصار فيصادرون املاك صغار الموظفين وسواهم بل كذلك كان الخليفة يفعل بالوزير حين يغضب عليه ويصرفه (٢) . ولم يقف قصاص المغضوب عليهم من الوزراء عند مصادرة املاكهم بل كانوا في الغالب عرضة للقتل . وأنشىء اخيراً ديوان خاص للمصادرات (٣) وكان يعتبر كسائر الدوائر القانونية في الدولة . وكان الوزير ايام الخليفة المعتضد يتقاضى راتباً شهرياً قدره الف دينار . والوزارة في رأي الماوردي (٤) وغيره من المتشرعين النظريين على ضربين - وزارة تفويض ووزارة تنفيذ . فاما وزارة التفويض فهي ان يفوّض الخليفة تدبير كل الأمور الى وزيره ما عدا تعيين ولي العهد . اما وزارة التنفيذ فحكمها ان يكون الوزير مقصوراً على رأي الخليفة يؤدي ما امر وينفذ ما ذكر . وبعد ولاية المقتدر (٩٠٨ - ٣٢) الغيت الوزارة وقام على أثرها منصب امير الامراء ولم يلبث ان تسلم بنو بويه زمام هذا المنصب .

---

١) الفخري ص ٢٠٥ .
٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٩ - ٢٠ .
٣) قابل هلال الصابىء ، تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، نشر اميدروز (بيروت ، ١٩٠٤) ص ٣٠٦ .
٤) ص ٣٣ - ٤٧ .

ديوان الخراج

كان الوزير (وهو في الواقع بمنزلة الصدر الاعظم) يرأس المجلس الأعلى ـ واعضاء هذا المجلس هم رؤساء دوائر الحكومة . وكان يطلق احيانا على رؤساء الدوائر لقب وزير الا ان مراتبهم كانت دون مرتبة الوزير الاول . وقد ازدادت في عهد العباسيين انظمة الحكومة تعقيداً مع ان إدارات الدولة تنظمت نوعاً ما لا سيما تلك التي لها علاقة بالخراج والقضاء . ولما كانت امور المال اهم مهام الحكومة فقد ظل ديوان الخراج كما كان ايام الامويين ذا شأن خطير وبقي لرئيسه ـ صاحب الخراج ـ مقام رفيع .

ومن مصادر دخل الدولة الزكاة وهي الضريبة الشرعية الوحيدة المطلوبة من المسلم وتجب على الزرع والمواشي والذهب والفضة وعروض التجارة وغيرها من الأموال التي تتكاثر اما بحكم الطبيعة او بالاستثمار . وكان المسلمون كما اسلفنا لا يؤدون جزية فكان ولاة الصدقات يهتمون بتحصيل ما يجب من حاصلات الأراضي والمواشي وما شابه . اما الاموال الشخصية كالذهب والفضة فأربابها احق باخراج زكاتها يبذلونها طوعاً . وكان ما يجمع من المؤمنين يوزع من بيت المال على الفقراء والايتام والمساكين وفي الرقاب والغارمين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم. وللدخل مصادر أخرى هي الضرائب الموضوعة على العدو ومال الهدنة والجزية التي يؤديها غير المسلمين والخراج [1] (ضريبة الاراضي) وما يؤخذ من اعشار على متاجر غير المسلمين الواردة الى بلاد الاسلام . وكان الخراج اكبر موارد الدولة واهم ما يجبى من غير المؤمنين. وكانت جميع انواع هذا الدخل تدعى يومئذ بالفيء (قابل سورة الحشر: ٧) فمن ريع الفيء كانت تدفع ارزاق الجيش وتبنى المساجد وترمم وتعبد الطرق والسكك وتنشأ الجسور ومنه ينفق على مصالح الجماعة الاسلامية (٢) .

وتفيد الأنباء المتضاربة المتحدرة الينا عن دخل الدولة العباسية ان القرن الأول من هذا

---

١) كانت وجوه الاختلاف قد تقررت في هذا العصر بين الجزية والخراج . أنظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٢٢٨ـ٢٢٩ . اما في العصور المتأخرة فقد اصبحت الجزية مقابلة للبدل العسكري الذي كان يفرضه العثمانيون على رعاياهم غير المسلمين لاعفائهم من الجندية .

٢) الماوردي ص ٣٦٦ وما يلي .

العهد انما كان قرن ثروة سهّل للخلفاء سبيل البذخ او الترف الذي وصفنا بعضه سابقاً . على انه اخذ في القرون التالية بالتدني المتواصل . وامامنا ثلاثة تقارير اقدمها وارد في مقدمة ابن خلدون ويعرض لمقادير الدخل في ولاية المأمون وثانيها لابن قدامة ذكر فيها مقادير الدخل بعد عهد المأمون بقليل ولعلها في عهد المعتصم وثالثها في كتاب ابن خرداذبه حيث يذكر واردات الدولة في الشطر الأول من القرن الثالث الهجري . ويستفاد من قول ابن خلدون (١) انه قد كانت غلات السواد (العراق الأسفل اي بابل القديمة) النقدية غير الأموال الأخرى المدفوعة عيناً مما يحمل الى بيت المال ببغداد ايام المأمون ٢٧ مليوناً وثمانمئة الف درهم . ومن خراسان ٢٨ مليون درهم . ومن مصر ٢٣ مليوناً واربعون الف درهم. ومن سورية وفلسطين (٢) ١٤ مليوناً وسبعمئة واربعة وعشرون الف درهم . ومجموع ما يحمل من امصار الدولة ٣٣١ مليوناً وتسعمئة وتسعة وعشرون الفاً وثمانية دراهم عدا الحاصلات المدفوعة عيناً . اما قدامة (٣) فأرقامه تدل على ان غلات السواد نقداً وعيناً بلغت ١٣٠ مليوناً ومئتي الف درهم (٤) . ومن خراسان بلغت ٢٧ مليون درهم . ومن مصر وتدخل في ذلك الاسكندرية ٣٧ مليوناً وخمسمئة الف. ومن سورية وفلسطين وتدخل في ذلك حمص بلغت ١٥ مليوناً وثمانمئة وستين الفاً . ومن جميع انحاء الدولة ٣٨٨ مليوناً ومئتين وواحداً وتسعين الفاً وثلاثمئة وخمسين درهماً. واذا جمعنا ارقام ابن خرداذبه (٥) نجد ان غلات السواد النقدية والمدفوعة عيناً انما بلغت ٧٨ مليوناً وثلاثمئة وتسعة عشر الفاً وثلاثمئة واربعين درهماً (٦) . وغلات خراسان وتوابعها ٤٤ مليوناً وثمانمئة وستة واربعين الف درهم . وسورية وفلسطين (٧) ٢٩ مليوناً وثمانمئة

---

١) المقدمة ص ١٥٠ — ٥١ . قابل Huart, *Histoire des Arabes*, vol. i, p. 376 ; Alfred von Kremer, *Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen*, vol. i (Vienna, 1875) pp . 356 *seq* ومن الواضح ان لائحة ابن خلدون كاللائحتين الأخريين ليست جلية ولا مضبوطة .

٢) قنسرين ودمشق والاردن وفلسطين وقد ورد ان الضرائب المتوفاة منها بلغت ١٢٢٧٠٠٠ دينار .

٣) الخراج ص ٢٣٧ — ٥٢ .

٤) اما المدفوع نقداً فقط فقد بلغ ٨٠٩٥٨٠٠ درهم ؛ قدامة ص ٢٤٩ ، ٢٣٩ . والواقع ان بعض ارقامه تختلف عن البعض الآخر كذلك ان مجموع لوائحه لا يتفق مع مفرداتها .

٥) في مواضع مختلفة في الكتاب .

٦) النقد وحده بلغ ٨٤٥٦٨٤٠ درهماً ، ابن خرداذبه ص ٥ وما يلي .

٧) قنسرين وسواها من الثغور وحمص ودمشق والأردن وفلسطين.

وخمسين الفاً وثلاثمئة واربعين درهما[١] . ولسنا نعلم مقادير النفقات لان المعلومات التي نجدها في المظان المختلفة لا تكفل الوصول الى نتيجة حاسمة . ولكن هناك مصدراً يعلمنا بان جميع ما خلفه المنصور كان ستمئة مليون درهم واربعة عشر مليون دينار [٢] . وكان في بيت المال حين مات هارون الرشيد تسعمئة مليون ونيف [٣] . وما خلفه المكتفي (٩٠٨) من الجواهر والاواني والرياش بلغت قيمته مئة مليون دينار [٤] .

دواوين اخرى

وكان في الدولة العباسية غير ديوان الخراج دواوين اخرى كديوان الزمام الذي احدثه المهدي وديوان التوقيع الذي كانت تصدر عنه الرسائل الرسمية والارادات والبراآت السلطانية وديوان النظر في المظالم وادارة الشرطة وادارة البريد .

اما ديوان النظر في المظالم فعبارة عن محكمة تمييز يراد بها اصلاح القضاء واقرار العدل في دوائر الادارة والسياسة . وكان اول نشوء ديوان المظالم قد جرى في عهد الأمويين. ويقول الماوردي [٥] ان عبد الملك اول من افرد للظلامات يوماً يتصفح فيه قضايا المتظلمين . وقد تبعه في ذلك عمر ابن عبد العزيز [٦] حتى اذا كان عهد العباسيين كان المهدي اول من جرى على هذه السنة وتبعه هارون الرشيد والمأمون وخلفاؤهما . فندبوا انفسهم للنظر في المظالم ومراعاة السنن العادلة . وآخر من جلس لها المهتدي (٨٦٩ ـ ٧٠) وقد اتصلت هذه العادة باوربا فعمل بها روجار الثاني (١١٣٠ ـ ٥٤) في صقلية [٧] .

وكان على ديوان الشرطة موظف كبير يدعى صاحب الشرطة من واجباته تدبير الحرس

---

١) زيدان ، التمدن ج٢ ص٦١ ، وقابل Huart, vol. i, p. 376 .

٢) المسعودي ج ٦ ص ٢٣٣ .

٣) الطبري ج ٣ ص ٧٦٤ .

٤) الثعالبي ، لطائف ص ٧٢ .

٥) ص ١٣١ . قابل ابن الأثير ج ١ ص ٤٦ .

٦) الماوردي ص ١٣١ ؛ قابل اليعقوبي ج ٢ ص ٣٦٧ . راجع البيهقي ، المحاسن والمساوىء نشر شفالي (غيسن ، ١٩٠٢) ص ٥٢٥ وما يلي .

٧) M. Amari, *Storia dei Musulmani di Sicilia*, ed. Nallino, vol. iii (Catania, 1937-39) , p. 452 ; von Kremer, *Culturgeschichte*, vol. i, p. 420 .

الملكي وقد اسندت اليه في الأزمنة المتأخرة رئاسة الوزارة ايضاً . ولكل مدينة كبرى شرطتها الخاصة القائمة بافراد لهم رتب عسكرية يتقاضون رواتب عالية . اما المحتسب فهو رئيس الشرطة المدنية وله الاشراف على احوال الأسواق والحالة الأخلاقية العامة ومراقبة موازين التجارة وأكيالها وتحصيل الديون لأصحابها وتوطيد الاخلاق العالية ومنع المنكرات كبيع الخمور وتعاطي الربا والقمار . وقد اورد الماوردي (١) للمحتسب وظائف اخرى منها المحافظة على الآداب العامة فيما يتعلق بالعلاقات بين الجنسين وان يؤدب من الرجال من يخضب شيبه اكتساباً لمودة النساء .

ومن المظاهر البارزة في الحكومة العباسية ديوان البريد (٢) ويسمى القائم عليه صاحب البريد . وقد مر معنا ان معاوية مؤسس الدولة الاموية هو اول من اهتم بمصلحة البريد . ثم قام عبدالملك فعممها في انحاء الامبراطورية وجاء بعده الوليدفاستعان بالبريد فيمشاريعه البنائية. ويعزو المؤرخون الى الرشيد أمر تنظيم مصلحة البريد على أسس جديدة بمساعدة مستشاره يحيى البرمكي . ومع ان الغرض الاساسي من ادارة البريد كانت لخدمة مقاصد الدولة فانها في الوقت نفسه كانت تتعهد الى درجة محدودة نقل المراسلات الخصوصية (٣) . فقد كان هناك مركز للبريد في عاصمة كل قطر . وكانت عاصمة الدولة مرتبطة بطرق رئيسية بالمراكز الهامة في البلدان الاسلامية (٤) . وكانت تسير على هذه الطرق دواب البريد (البغال والخيل في فارس والجمال في سورية وجزيرة العرب (٥)) في اشواط متباينة منتظمة . وقد استخدم البريد لحمل عمال الامصار الى مقر وظائفهم ولنقل الجند وامتعتهم (٦) . اما عامة الناس فلم يسمح لهم باستعمال البريد للنقل والسفر الا اذا دفعوا اجراً باهظاً .

---

١) ص ٤١٧ ــ ١٨ ، ٤٣١ .

٢) لفظة بريد العربيه سامية لا علاقة لها بلفظة ڤريدس « veredus » اللاتينية؛ قابل « بردن » الفارسية اي حصان سريع الجري و « برذون » العربية . قابل سفر استير ٨ : ١٠ ؛ الاصفهاني ، تاريخ ص ٣٩.

٣) المسعودي ج ٦ ص ٩٣ .

٤) ابن خرداذبه ــ في مواضع متفرقة .

٥) قابل ابن الأثير ج ٦ ص ٤٩ .

٦) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣٧٣ ــ ٤ .

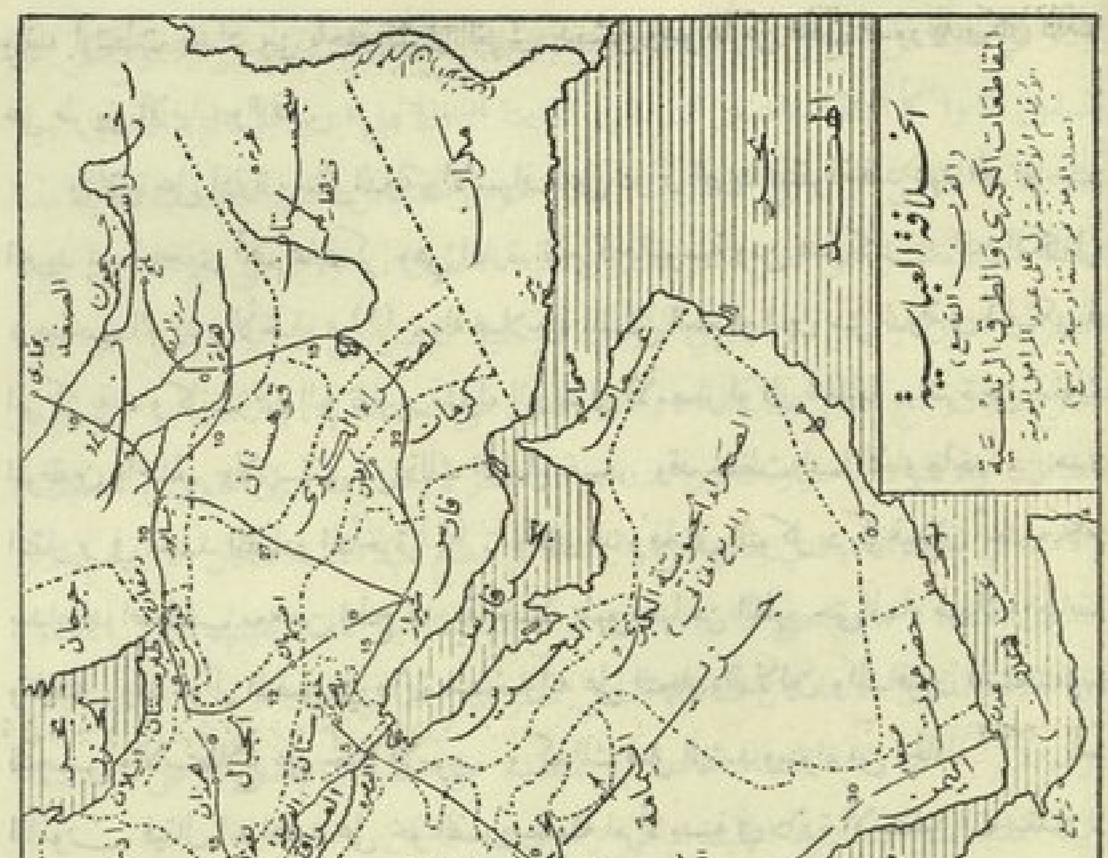
ولقد اقتنت الحكومة الحمام الزاجل فاستعانت به لنقل الأنباء واول ما ذكر من هذا القبيل عنها انها نقلت خبر القبض على بابك الخرّمي (١) الى المعتصم سنة ٨٣٧ (٢) .

وكان في مركز البريد ببغداد لوائح تدل على الخطوط التي تخترق انحاء الامبراطورية وتظهر محطاتها وابعادها . وقد استعان المأمون بهذه اللوائح كما استعان بها التجار والحجاج . وعلى هذه اللوائح وضعت اسس كتب تقويم البلدان (الجغرافيا) فيما بعد . فقد اتخذ علماء الجغرافيا الأولون هذه اللوائح مصادر لوضع كتبهم . ومن اوائل جغرافيي العرب ابن خرداذبه (المتوفى نحو ٩١٢) وقد استقى المعلومات لكتابه « مسالك الممالك » من وثائق الدولة التي ما لبثت ان اصبحت مرجعاً للطوبوغرافيا التاريخية . وكان هذا الجغرافي قد خدم الخليفة المعتمد صاحباً للبريد في الجبال (مادي القديمة) . وهذا النظام نظام الطرق الذي يربط عاصمة الدولة بسائر الأمصار انما ورثه العرب عن الدولة الفارسية البائدة . واهم سككه سكة خراسان التي امتدت من بغداد الى الشمال الشرقي مارة بهمذان والري ونيسابور وطوس ومرو وبخارى وسمرقند فربطت بغداد بالمدن الواقعة على الحدود عند سيحون وتخوم الصين . ومن المدن الخطيرة الواقعة على هذه السكة تفرعت الطرق الثانوية شمالا وجنوباً . ولا تزال الى اليوم خطوط البريد في ايران التي تلتقي في طهران هي الخطوط السابقة نفسها . وهناك سكة اخرى اتجهت من بغداد مسايرة دجلة قاطعة واسط والبصرة حتى الأهواز في خوزستان ومنها الى شيراز في فارس وقد تفرع منها طرق الى الشرق والغرب ربطت ما عليها من المدن بمراكز اخرى للحضارة ووصلتها بسكة خراسان. وقد سلك الحجيج هذه الطرق من بغداد الى مكة مارين بالكوفة والبصرة ومنها اخذوا الطريق الفرعي غرباً المتجه الى الحجاز . ونشأ على طريق الحجاج فنادق وخانات ، وحفر كثير من الآبار وانشىء مثل هذه الخانات على سكة خراسان منذ عهد عمر الثاني (٣) . وكان هناك ايضاً سكة ثالثة ربطت بغداد بالموصل وآمد (ديار بكر) والعواصم .

١) الخرمية طائفة منسوبة الى بقعة في فارس وقد ظهرت هذه الطائفة بعد مقتل ابي مسلم الخراساني فتنازع اتباعها في امامته ومنهم من رأى انه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملأ الارض عدلا . المسعودي ج ٦ ص ١٨٦ ؛ البغدادي ، مختصر الفرق ص ١٦٢ وما يلي ؛ الفهرست ص ٣٤٢ .

٢) المسعودي ج ٧ ص ١٢٦ – ٧ .

٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٤٤ ؛ النووي ، تهذيب ص ٤٦٨ .


خريطة الدولة العباسية
(القرن التاسع)
المقاطعات الكبرى والطرق الرئيسية
بلاد الروم
بلاد النوبة
الحبشة
اليمن
الواحات
الجبال
كرمان
فارس
مكران
النيل الأزرق
النيل الأبيض

ولقد ارتبطت بغداد من ناحية الشمال الغربي بدمشق وسواها من المدن السورية وكان ذلك عن طريق الانبار والرقة .

وعلاوة على ادارة رسائل الدولة والاشراف على دوائر البريد المتفرقة فقد عهد الى صاحب البريد بمهمة اخرى أهم مما ذكر وهي ادارة نظام للجاسوسية ومن هنا كان لقبه الكامل « صاحب البريد والأخبار » (١) . وله صلاحية المفتش العام او امين سر الدولة في الحكومة المركزية . وكانت ترد اليه تقارير مدراء البريد في الأمصار او الى الخليفة مباشرة عن سلوك الموظفين واعمالهم ولا يستثنى من ذلك العامل نفسه . وقد حفظت لنا الايام واحداً من هذه التقارير في احد المصادر المتأخرة (٢) . وكان قد رُفع الى المتوكل ذكر فيه ان أحد حكام بغداد قد اصطحب معه من الحج جارية حسناء يلهو معها من الظهر حتى المساء مهملاً واجبات وظيفته . وقد عوّل المنصور في دائرة استخباراته على التجار والدلالين والمسافرين فاستخدمهم للتجسس والاستطلاع على خفايا الامور . وكذلك فعل الرشيد وسواه من الخلفاء (٣) . اما المأمون فيقال انه اعتمد على نحو الف وسبعمئة امرأة مسنة في دائرة الاستخبارات ببغداد . وقد بثت الارصاد والعيون زمن بني العباس في سائر الاقطار لا سيما بلاد الروم من الرجال والنساء وقد تنكروا في زي التجار او المسافرين او الاطباء .

ولاية القضاء

يعتبر القضاء في الاسلام امراً دينياً وقد كان يفوضه العباسيون او وزراؤهم الى احد الفقهاء فيعرف بالقاضي فاذا تسلم القضاء ببغداد سمي قاضي القضاة . واول من لقب بقاضي القضاة ابو يوسف الشهير (المتوفى حوالى ٨٠٨) وقد تولى القضاء في بغداد لثلاثة من الخلفاء : المهدي وابنيه الهادي والرشيد (٤) . اما شروط القضاء في الشرع فان يكون المتولي له ذكراً بالغاً عاقلاً لما يتعلق بالعقل من الفطنة والذكاء توصلا لايضاح ما اشكل ، حراً لان نقص العبد عن ولاية نفسه يمنع من انعقاد ولايته ، مسلماً لكون الاسلام شرطاً في جواز الشهادة ،

١) قدامة ص ١٨٤ . ٢) الاتليدي ، إعلام الناس (القاهرة ، ١٢٩٧) ص ١٦١ .
٣) قابل الاغاني ج ١٥ ص ٣٦ ؛ مسكويه ، نشر دي غويه ودي يونغ ص ٢٣٤ ، ٤٦٦ ، ٤٩٨ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥٦٧ . ٤) ابن خلكان ج ٣ ص ٣٣٤ .

عادلا اي عفيفاً عن المحارم سليما في سمعه و بصره عالماً بالاحكام الشرعية (١) . ولكن غير المسلمين كانوا كما اسلفنا خاضعين لشرائعهم الخاصة النافذة على ايدي رؤسائهم الدينيين . ولا تخلو ولاية القاضي في رأي الماوردي (٢) من عموم وخصوص . فان كانت ولايته عامة مطلقة فنظره مشتمل على فصل المنازعات ، واستيفاء الحقوق ، والولاية على من كان ممنوع التصرف بجنون او صغر ، والنظر في الأوقاف ، وتنفيذ الوصايا على شروط الموصّي فيما اباحه الشرع ، وتزويج الأيامى بالاكفاء ، واقامة الحدود على مستحقيها ، والكف عن التعدي في الطرقات والأفنية ، واختيار النائبين عنه في الأمصار ، والتسوية بين القوي والضعيف ، والامامة في الجمع والأعياد في بعض الأحوال . اما في مطلع عهد القضاء فكان العمال هم الذين ينتدبون القضاة لأعمالهم حتى اذا جاء القرن الرابع للهجرة رأينا القضاة يعينهم قاضي القضاة . وفي خلافة المأمون بلغ ما كان يتقاضاه القاضي بمصر فيما يزعم مؤرخ متأخر (٣) اربعة آلاف درهم شهرياً . اما ولاية القضاء الخاصة فهي منعقدة على خصوصها ومقصورة على ما تتضمنه وثيقة التقليد سواء أصدرها الخليفة ام الوزير ام العامل (٤) .

النظام الحربي

لم يكن للخلافة العربية جند نظامي بالمعنى المعروف اي جيش مكمل العدة والعدد مدرّب على القوانين والتمارين العسكرية المنظمة (٥) . ولم يكن سوى حرس الخليفة يصح تسميتهم بالجند النظامي . وكانوا نواة التف حولها عصائب لها زعماؤها وشراذم من المأجورين والمغامرين وجماعات من الجنود المحشودين لهم وحدات قائمة على اساس القبائل او اقطاعات . اما الجند فهم الذين يتعاطون الجندية حرفة دائمة وقد عرفوا بالمرتزقة لأن ارزاقهم على الدولة . وسواهم المتطوّعة (٦) ولهم رواتب يأخذونها مدة الخدمة العسكرية فقط وكانوا يدخلون السلك

---

١) الماوردي ص ١٠٧ ـ ١١ .
٢) ص ١١٧ ـ ٢٥ .
٣) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠٠ .
٤) راجع Richard Gottheil in *Revue des études ethnographiques* (1908), pp. 385-93
٥) راجع النويري ج ٦ ص ١٥١ وما يلي .
٦) او المطوعة . الطبري ج ٣ ص ١٠٠٨ وما يلي ؛ ابن خلدون ج ٣ ص ٢٦٠ .

العسكري اختياراً وأكثرهم من البدو او الفلاحين او عوام الناس في المدن . وكان حرس الخليفة يتناولون رواتب اعلى من سواهم ويجهزون بافضل الأسلحة والألبسة . وكان راتب الجندي من المشاة في عهد الخليفة العباسي الأول نحو تسعمئة وستين درهماً في السنة (١) علاوة عن الطعام والمخصصات . وللفارس ضعفا ذلك . وفي زمن المأمون عندما عظم شأن الدولة بلغ جيش العراق ١٢٥ الفاً فلم يزد راتب الفرد من المشاة على ٢٤٠ درهماً في السنة (٢) وكان راتب الفارس ضعفي ذلك . واذا ذكرنا ان المنصور انما اعطى لرئيس البنائين ممن احضرهم لبناء بغداد مقدار درهم كل يوم ودفع للعامل نحو ثلث درهم (٣) تبين لنا ارتفاع الاجور التي تقاضاها الجنود بالنسبة الى سواهم من اهل المهن .

وكان الجند النظامي في عهد الخلفاء العباسيين الاول يتألف من المشاة الحربية (٤) وسلاحهم الرمح والسيف والترس ومن الرامية ومن الفرسان الذين كانوا يلبسون الخوذ والدروع ويحملون الحراب وفؤوس القتال. وكان من عادة العرب ان يحملوا سيوفهم على الاكتاف (٥) فأبطلها المتوكل واوصى بشد السيوف الى الزنانير حول الاوساط على الطريقة الفارسية . وألحق بكل فصيلة من الرماة جماعة من النفاطين لهم ثياب لا تخترقها النار يأتون العدو ويرشقونه بالمواد الملتهبة (٦) . وكان يرافق الجيش المهندسون القائمون على آلات الحصار ومنها العرّادات والدبابات والاكباش . وكان من هؤلاء المهندسين ابن صابر المنجنيقي الذي عرف في ولاية الناصر (١١٨٠ ـ ١٢٢٥) وخلف لنا كتاباً لم يكمله عالج فيه فن الحرب بكل تفاصيله (٧) . وكانت المستشفيات السيارة ومحامل الجرحى النقالة على ظهور

---

١) الطبري ج ٣ ص ٤١ ، وعنه نقل ابن الأثير ج ٥ ص ٣٢٢ .

٢) اضطر المأمون في اثناء نزاعه مع اخيه ان يعيد الرواتب الى مستوى ٩٦٠ درهماً وهذا ما فعله اخوه ايضاً . الطبري ج ٣ ص ٨٣٠ ، ٨٦٧ .

٣) الخطيب ج ١ ص ٧٠ ؛ الطبري ج ٣ ص ٣٢٦ .

٤) ذكرهم الطبري ج ٣ ص ٩٩٨ وما يلي ؛ ابن خلدون ج ٣ ص ٢٣٨ ، ٢٤٥ .

٥) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٧٥ .

٦) الاغاني ج ١٧ ص ٤٥ ؛ ابن خلدون ج ٣ ص ٢٦٠ .

٧) ابن خلكان ج ٣ ص ٣٩٧ .

الجمال تصحب الجيش الى الميدان . وقد عزي هذا التنظيم الطبي العسكري الى هارون الرشيد كما عزي اليه كثير من وجوه تسخير العلم لمقاصد الحرب .

وفي العهد العباسي الذي قام على سيوف الفرس لا العرب أضاع العنصر العربي سيطرته العسكرية والسياسية . ففي اوله استولت الخراسانية وهم حرس الخليفة على زمام الجيش . اما العرب من الجند فكانوا فرقتين : المضرية وهم عرب الشمال واليمانية وهم عرب الجنوب . وكان المستجدون في الاسلام يلتحقون باحدى قبائل العرب موالي لها وبهذا اصبحوا جزءاً من نظام القبيلة الحربي . ثم جاء المعتصم بالترك فانشأ بهم قسماً جديداً من الجيش وكان هؤلاء من عبيده او غلمانه وقد اتى بهم في الاصل من فرغانة وسواها من انحاء آسية الوسطى (١) . ولم يطل الأمر بهذا الحرس التركي حتى اصبح مبعثاً للاضطراب والفزع في العاصمة فاضطر الخليفة الى ابتناء مدينة جديدة هي سامرا سنة ٨٣٦ ونقل اليها دوائر الحكومة . و بعد موت المنتصر اشتد ساعد هؤلاء الترك واخذوا يلعبون دوراً كدور الحرس البريطوري في رومة او كما فعل بعدهم الانكشارية في العهد العثماني فاستقلوا بالنفوذ في تدبير امور الدولة .

وكانت وحدات الجيش في عهد المأمون والمستعين وسواهما مثلها عند الرومان والبيزنطيين فعلى كل عشرة عريف وعلى الخمسين خليفة وعلى المئة قائد (٢) . وكان الفياق يؤلف من عشرة آلاف جندي في عشر كتائب وعليه أمير . والجماعة مئة رجل فاذا اجتمعت بضع جماعات معاً سميت كردوساً . ونستطيع ان نرى فيما كتبه فون كريمر (٣) عن الجيش العربي صورة واقعية لوحدات الجيش وهي تتحرك في زحفها على العدو .

وكانت الخلافة العباسية طوال القرن الاول من عهدها تعتمد على جيش قوي في سبيل المحافظة على كيانها وهي لم تستعن به في قمع ثورات الشام وفارس واواسط آسية فحسب بل جردت منه حملات لغزو البيزنطيين . وفي رأي بعض الباحثين (٤) من علماء هذا العصر : « ان هناك امرين مكنا العرب من بعث الرعب في نفوس اعدائهم هما كثرة عددهم وسرعة

---

١) المسعودي ج ٧ ص ١١٨ .

٢) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٩٩ ؛ قابل المسعودي ج ٦ ص ٤٥٢ ؛ الطبري ج ٣ ص ١٧٩٩ .

٣) *Culturgeschichte*, vol. i, pp. 227-9 = S. Khuda Bukhsh, *The Orient under the Caliphs* (Calcutta, 1920), pp. 333-5 .

٤) Oman, *Art of War*, 2 nd. ed. vol. i, p. 200 .

انتقالهم العجيبة » . وفي رسالة في الاساليب الحربيـة منسوبة الى الامبراطور ليو السادس الحكيم [١] (٨٨٦ ـ ٩١٢) : « ان العرب امهر الشعوب الاجنبية وابرعها على الاطلاق في العمليات الحربية » . وهناك وصف للاثر الذي احدثه العرب في نفوس اعدائهم البيزنطيين في كتاب للامبراطور قسطنطين برفرغنتس [٢] يقول فيه : « انهم اقوياء ورجال حرب فاذا اتفق لالف منهم فقط ان احتلوا معسكراً فليس هناك من قوة تستطيع ان تزيحهم عنها . وهم لا يركبون الخيل بل الجمال » . ويتبين لنا من هذه المصادر البيزنطية وسواها ككتاب الامبراطور نقفورس فوكاس (٩٦٣ ـ ٩) [٣] في الخطط الحربية ان المقاتلين العرب كانوا يكرهون الطقس البارد او الماطر وانهم كانوا اذا انكسر خط هجومهم اختل جيشهم وعجزوا عن تنظيمه وان المشاة من جندهم كانوا بالاكثر عبارة عن شراذم من الغزاة لا اهمية لها من الوجهة الحربية . ومع ذلك فواضح ان البيزنطيين كانوا يخشون بأس هؤلاء العرب الذين سموهم كفاراً و برابرة ويعتبرونهم اشد اعدائهم . الا انه في خلال القرن العاشر اخذ خطر العرب يتضاءل واخذت قوتهم تضعف بحيث انتقلت المبادهة في آخر القرن المذكور من يد العرب الى اعدائهم واخذ البيزنطيون يقومون بالغارات و يتهددون دمشق و بغداد.

وقد بدأ انحطاط الجيش العباسي في زمن المتوكل الذي ادخل الوحدات الاجنبية تقضي بها على ما يشد اواصر الجيش ويقوي معنوياته وروح الوحدة فيه . ثم قام المقتدر (٩٠٨ ـ ٣٢) فرسم خطة توزيع الامصار بين العمال والقواد على ان يدفعوا ارزاق الجيش من موارد الخزينة المحلية وليس من خزينة الدولة الفارغة . وفي العهد البويهي صارت الارض تعطى ارزاقاً للجنود بدل المال النقدي . فكان ذلك تمهيداً للنظام الاقطاعي العسكري الذي ازدادت وطأته في غضون حكم السلاجقة حين سرت عادة اقطاع العمال والقواد مدناً ومناطق يتفردون في حكمها مستقلين وليس عليهم للسلطان السلجوقي الا تأدية اتاوة سنوية . اما في زمن

---

١) « Tactica », Constitutio xviii, § 123, in Migne, *Patrologia Graeca*, vol. cvii.

٢) انظر (Constantine Prophyrogenitus) « De Administrando ,imperio», caput xv, in Migne, *Patrologia Graeca* vol. cxiii .

٣) (Nicephorus Phocas).

الحرب فكان عليهم ان يحاربوا تحت لوائه ولكنهم يتحملون مسؤولية تعبئة عساكرهم الخاصة بهم والقيام بأودها .

العامل

ان ما اخذه الامويون عن البيزنطيين من تقسيم الدولة الى امصار على كل منها عامل او امير لم يتغير في عهد العباسيين . غير ان لائحة الامصار العباسية كانت تتبدل من حين الى آخر . فلم تكن التقسيمات السياسية الادارية تطابق دائماً الحدود الجغرافية في كتب الاصطخري وابن حوقل وابن الفقيه وسواهم . واليك اسماء الامصار الرئيسية ايام خلفاء بغداد الأول : (١) افريقية وهي ما كان غربي صحراء ليبية مع صقلية . (٢) مصر . (٣) سورية وفلسطين وكانتا احياناً مفصولتين . (٤) الحجاز واليمامة (اواسط الجزيرة العربية) . (٥) اليمن او الجزيرة الجنوبية [١] . (٦) البحرين وعمان وعاصمتها البصرة في العراق . (٧) السواد او العراق (القسم الاسفل مما بين النهرين) واهم مدنه بعد بغداد الكوفة وواسط . (٨) الجزيرة او شبه الجزيرة وهي اشور القديمة وعاصمتها الموصل . (٩) آذربيجان واهم مدنها اردبيل وتبريز ومراغة . (١٠) الجبال وهي مادي القديمة وقد عرفت بعدئذ بالعراق العجمي [٢] واهم مدنها همذان (اكباتانا القديمة) والري واصبهان (او اصفهان) . (١١) خوزستان واهم مدنها الأهواز وتستر[٣] . (١٢) فارس وعاصمتها شيراز. (١٣) كرمان وعاصمتها كُرمان. (١٤) مكران وكانت تشمل بلوخستان الحاضرة وامتدت الى المرتفعات المشرفة على وادي نهر الهند . (١٥) سجستان او سيستان وعاصمتها زرنج . (١٦ ــ ٢٠) قوهستان وطبرستان وجرجان وارمينية. (٢١) خراسان وفيها البلاد التي يتكون منها اليوم القسم الشمالي الغربي من افغانستان واهم مدنها نيسابور ومرو وهراة وبلخ . (٢٢) خوارزم وعاصمتها الاولى كاث . (٢٣) الصغد بين جيحون وسيحون وقصبتاها بخارى وسمرقند

١) هذه الامصار الخمسة سميت باقاليم المغرب تمييزاً لها عن اقاليم المشرق وهي الامصار الباقية .
٢) تمييزاً عن العراق العربي اي اسفل ما بين النهرين .
٣) يسميها الفرس شستر او ششتر .

(٢٤ الخ .) فرغانة الشاش (تاشكند اليوم) وانحاء تركية اخرى (١) . ويلاحظ ان ولايات الدولة العثمانية في آسية الغربية تطابق جغرافياً تقسيمات الامصار العربية القديمة .

وبالرغم من جهود اولياء الامر في العاصمة لربط اجزاء الدولة فقد آل اتساع حجم الامبراطورية الاسلامية وصعوبة الانتقال بين انحائها القصية الى لامركزية واسعة جعلت بعض المقاطعات امارات وراثية يستقل الامير بأمورها الداخلية مع انه نظرياً كان امر تعيين الامير او عزله منوطاً بالوزير الاول فهو الذي يقترح على الخليفة تعيينه او عزله وكان اذا ذهب الوزير من الحكم ذهب معه الامير . وكانت امارة الامصار فيما يقول الماوردي (٢) كالوزارة على نوعين امارة عامة واخرى خاصة . فأما العامة فتشمل تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي والنظر في الاحكام وتقليد القضاة والحكام وجباية الخراج وحفظ الامن في البلاد وحماية الدين ومراعاته من تغيير وتبديل وتعهد اعمال الشرطة والامامة في الجمع والجماعات . واما الخاصة فمحدودة السلطة وليس للامير فيها التعرض للاحكام ولا لجباية الخراج والصدقات . ولكن هذه التنظيمات لم تكن سوى تنظيمات نظرية فقد كانت سلطة العامل تزداد بالنسبة لمقدرته الشخصية وبالنسبة لضعف الخليفة او بعد المنطقة عن عاصمة الدولة . ثم ان ايراد الحكومة المحلية كان ينفق على تدبير شؤون تلك المقاطعة فاذا قلت النفقات عن الدخل وجه الامير الرصيد الى بيت المال في بغداد . بقي تنفيذ العدل وقد كان منوطاً بقاضي المقاطعة يساعده في ذلك مندوبون ينتدبهم للقضاء في الجهات التابعة لنفوذه .

---

١) قابل لائحة الامصار هذه بلائحة Le Strange, *Eastern Caliphate*, pp. 1-9 وزيدان، التمدن ج ٢ ص ٣٧ — ٤٤ ؛ von Kremer, *Culturgeschichte*, vol. ,i p. 181 .

٢) ص ٤٧ — ٥٤ .

الفصل السادس والعشرون

الحياة الاجتماعية في العصر العباسي

ان النظام القبلي البدائي الذي كان اساس المجتمع العربي القديم قد اندثر في زمن الخلافة العباسية حين قامت على اكتاف الاعاجم. ولم يكن امراء هذه الدولة يقيمون كبير وزن للدم العربي حتى في انتقاء زوجاتهم وامهات اولادهم. ومن هنا لم يكن فيهم من ابناء الحرائر الا السفاح والمهدي والأمين (١). ويمتاز هذا الاخير بان اباه وامه كليهما من اسرة النبي (٢). اما الخلفاء الامويون فلم يعرف فيهم خليفة من ام غير عربية قبل يزيد الثالث - الخليفة الثاني عشر - الا ان ام يزيد هذا كانت من ذرية يزدجرد آخر ملوك فارس اسرها قتيبة في الصغد ثم أهداها الحجاج الى الوليد. ولم يكن العباسيون كذلك فالمنصور ابن أمة من البربر والمأمون ابن أمة فارسية ومثله الواثق والمهتدي. وكانت ام المنتصر يونانية حبشية وام المستعين صقلية. اما المكتفي والمقتدر فأماهما أمتان تركيتان وام المستضيء ارمنية (٣). وكانت الخيزران نفسها ام الرشيد أمة أجنبية وهي اول امرأة اضطلعت بسلطة واسعة في شؤون الدولة العباسية (٤).

ولقد اعان على امتزاج العرب بالشعوب المغلوبة تعدد الزوجات والتسرّي وتجارة الرقيق فأضاع العنصر العربي مكانته العالية وحل محله عنصر جديد من ابناء الاعاجم وانصاف العرب (الهجناء) وابناء الاماء المعتقات. وما لبثت الارستقراطية العربية ان انطوى امرها وظهرت طبقة

---

١) الثعالبي، لطائف ص ٧٥.
٢) الطبري ج ٣ ص ٩٣٧.
٣) انظر الثعالبي ص ٧٥ - ٧؛ المسعودي في مواضع مختلفة.
٤) اما الدور الذي يظن انها لعبته في مقتل ابنها الخليفة الهادي واستخلاف ابنها الآخر الرشيد الذي كانت تحبه فقد وردت إشارات اليه في الطبري ج ٣ ص ٥٦٩ ومايلي، وقد نقل عنه ابن الأثير ج ٦ ص ٦٧ وما يلي. كذلك قابل المسعودي ج ٦ ص ٢٨٢ - ٣.

من الموظفين من مختلف الجنسيات كانت اكثريتها اولا من الفرس ثم اصبحت بعدئذ من الترك وقد اعرب احد شعراء العرب عن شعور قومه واستنكارهم لهذه الحالة حين قال :

ان اولاد السراري   كثروا يا رب فينا
رب ادخلني بلاداً   لا ارى فيها هجينا (١)

وقد صرف مؤرخو العرب جل اهتمامهم الى شؤون البلاط وحوادث السياسة والحروب فلم يتركوا لنا صورة واضحة عن احوال العامة الاجتماعية والاقتصادية في تلك الحقب . غير اننا نستطيع مما نعثر عليه هنا وهنالك في كتبهم وآدابهم وما نشاهده اليوم في حياتهم العادية في الشرق العربي المحافظ على القديم ان نرسم الخطوط الرئيسية لتلك الصورة .

الحياة البيتية

تمتعت المرأة في العصر العباسي الاول بحظ من الحرية يعادل حظ المرأة الاموية ولكن ما كاد يبسط البويهيون نفوذهم في اواخر القرن العاشر حتى حُدّت حريتها وعزلت عن الرجال واحكم عليها الحجاب (٢) ولم تكن حرية المرأة ونفوذها وظهورها في اوائل هذا العصر مقصورة على نساء الطبقة العالية كالخيزران زوجة المهدي (ام الرشيد) وعلية بنته وزبيدة زوجة الرشيد (ام الامين) وبوران زوجة المأمون بل تعدتها الى نساء العامة فكان هناك فتيات عربيات يخرجن الى الحرب ويقدن الجيوش وينظمن ويناظرن الرجال في اسواق الادب ولطالما ازدهرت المجالس بمواهبهن الأدبية والموسيقية . فهكذا كانت عبيدة الطنبورية التي ذاع صيتها في الامة على عهد المعتصم لما اتصفت به من الجمال وحسن الصوت والمقدرة على العزف (٣) .

وفي حقبة الانحطاط السياسي التي تميزت بازدياد التسرّي وسقوط مستوى الآداب الجنسية وكثرة الانغماس في الملذات والتهتك تدنت منزلة المرأة الى الدركات التي تصفها « الف ليلة وليلة » حيث جعلت المرأة مثال المكر والدسائس ومستودع الفساد والافكار السافلة . وفي

١) المبرد ص ٣٠٢ .
٢) انظر زيدان ، التمدن ج ٥ ص ٦٤ .
٣) الاغاني ج ١٩ ص ١٣٤ — ٧ .

رسالة تعزية ارسلها ابو بكر الخوارزمي (المتوفى نحو ٩٩٣ او ١٠٠٢) وهو اقدم من خلّف لنا رسائل ادبية من هذا النوع يقول ابو بكر الى صديقه معزياً اياه على فقد ابنته : « ولولا ما ذكرت من سترها ووقفت عليه من غرائب امرها لكنت الى التهنئة اقرب من التعزية فان ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكرمات ونحن في زمن اذا قدم احدنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة واذا زف كريمته الى القبر فقد بلغ امنيته من الصهر (١) » .

ويعتبر الزواج واجباً في الاسلام واهماله يوجب اللوم العنيف وما الاولاد ولا سيما البنون الا نعمة من نعم الله . اما الزوجة فواجبها الاول خدمة رجلها والعناية بالصغار وتدبير شؤون المنزل وما بقي لديها من الفراغ فللغزل والحياكة. وكانت كسوة الرأس للنساء قبعة ـ استحدثتها عليّة ـ مقببة في اسفلها دائرة يمكن ترصيعها بالجواهر . وكان من ادوات الزينة النسائية الخلخال والاساور .

اما لباس الرجل فلم يتغير كثيراً منذ تلك الايام . فقد كان اللباس العادي للرأس قلنسوة استحدثها المنصور (٢) سوداء عالية مصنوعة من اللبد او الصوف . ولباس الجسم سروال (٣) وقميص وقفطان (٤) ورداء خارجي هو العباءة او الجبة (٥) . اما الفقهاء فعملاً بترتيب ابي يوسف قاضي الرشيد الممتاز كانوا يلبسون العمامة على الرأس ويتخذون الطيلسان (٦) رداءً لهم ،

ويستدل مما كان يجري على ألسنة الشعراء في هذا العصر من العبارات الغرامية ان مقاييس الجمال النسائي القديمة لم يطرأ عليها عظيم تغيير . وقد افرد النويري جانباً كبيراً من

---

١) رسائل (القسطنطينية ، ١٢٩٧) ص ٢٠ .
٢) ان الطربوش الاحمر المعروف اليوم في بعض البلدان الاسلامية لباس حديث .
٣) الكلمة فارسية . الجاحظ ، البيان ج ٣ ص ٩ ؛ R. P. A. Dozy, *Dictionnaire detaillé des noms des vêtements* (Amsterdam, 1845), pp. 203-4.
٤) Dozy, pp. 162-3.
٥) تطرقت هذه اللفظة العربية للاسبانية حيث يوجد لها ذكر في قاموس يرجع عهده الى القرن العاشر ومنها سارت الى بقية اللغات الرومنسية ومن هذه الى الانكليزية وغيرها من اللغات الجرمانية والسلافونية . اما في الانكليزية فقد تركت أثراً في كلمة « gibbet » بمعنى عود المشنقة .
٦) الكلمة فارسية . انظر ابن خلكان ج ٣ ص ٣٣٤ ؛ الاغاني ج ٥ ص ١٠٩ ، ج ٦ ص ٦٩ ؛ ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٤ .

احد مجلداته (١) للاقوال المألوفة في جمال اعضاء المرأة . فأحسن القدود ما كان كالخيزران ، وأجمل الوجوه ما كان كالبدر استدارة ، واجود الشعر ما حاكى الليـل سواداً ، واحب ألوان الخدود البياض مع الحمرة ، ويزداد الخد جمالا اذا توسطه خال « كنقطة عنبر في صحن مرمر » ، وقد احبوا في المقلتين الكحل الطبيعي دون التكحل ، وشبهوا العيون الكبيرة بعيون المهى ، وقالوا في الجفن المتكسر « ناعساً سقيما » ، ووصفوا المبسم بالاقحوان ، وجعلوا الاسنان فيـه كعقد اللؤلؤ أو كالبرد ، والنهدين كرمانتين ، والخصر كقضيب ، والردف ككثيب ، واستحسنوا الاصابع مستدقة الاطراف مصبوغة بالحناء .

واهم الأثاث ديوان للجلوس يمتـد حول جدران الغرفـة من جهات ثلاث . وكانت المقاعد التي على شكل الكراسي قد اتخذت في الدولة السابقة . ولـكنّ الوسائد المفروشة على طراريح يتربع الجالس عليها ظلت رائجة . وكان الطعام يقدم في اطباق نحاس واسعة مدوّرة على موائد واطئة امام الدواوين او على الارض مقابل الوسائد . وكانت الاطباق في منـازل الاغنياء مصنوعة من الفضة . والموائد من الخشب المرصع بالابنوس واللؤلؤ وانواع الصدف على طراز المصنوع في دمشق اليوم . ان هذا الشعب الذي كان سابقاً يأكل العقارب والخنافس ويفاخر بأكل العلهز (٢) والذي حسب ابناؤه الارز لأول وهلة سما (٣) والمرقق من الخبز رقاعاً للـكتابة (٤) قد تهيأت له اسباب الحضارة وهذّب ذوقه فصار يستطيب لذائذ المدنية ويأكل من طعام الفرس السكباج وهو مرق يعمل من اللحم والخل والفالوذج وهو حلواء . وصار يأكل الدجاج بعد ان يعلف الجوز المقشر واللوز ويسقى الحليب . وكانت المنازل في الصيف تبرّد بالثلج (٥) . وكانت تدار المرطبات وقوامها الماء يذاب فيـه السكر ويعطّر

١) نهاية الأرب ج ٢ ص ١٨ وما يلي . وللتمثيل على غنى العربية بالالفاظ التي تصف النساء راجع ابن قيم الجوزية ، اخبار النساء (القاهرة ، ١٣١٩) ص ١١٩ وما يلي .

٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ١٧٠ .

٣) ابن الفقيه ص ١٨٧ ــ ٨ .

٤) ابن خلدون ، المقدمة ص ١٤٤ ؛ انظر ج ١ من هذا الكتاب ص ٢١١ .

٥) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١٣٩ ــ ٤٠ وفي ص ٨٢ ــ ٣ اقتباس من مصدر اقدم بذكر وصفـة لتجميد الماء حتى في حزيران او تموز .

بماء البنفسج والموز والزهور او بعصير التوت . اما القهوة فلم ينتشر استعمالها حتى القرن السادس عشر (١) . ولم يعرف التبغ قبل اكتشاف العالم الجديد . ونجد في احد مصنفات القرن العاشر (٢) وصفاً للظريف وآدابه في ذلك العصر . فالظريف من كان يتحلى بالأدب الجم والمروءة والكياسة ، تاركا الممازحة راغباً في صحبة الاخوان من اهل الصلاح والايمان ، يكره الكذب ويفضل الصدق وينفذ المواعيد ويكتم السر ويرتدي اللباس المستحسن عند سروات الناس غير القذر الرث . وفى الطعام يستعمل تصغير اللقم ، ولا يكثر من الضحك والكلام عند حضور المائدة ، ولا يعجل في مضغ الطعام ولا يلطع اصابعه ، ويتجنب الثوم والبصل ، ولا يستعمل مسواك الاسنان في الخلاء والحمام ومحفل الناس وقارعة الطريق .

وتعاطى الناس المسكرات سراً وعلناً . ويظهر من قصص الدعابة والمجون في « الاغاني » و « الف ليلة وليلة » وغيرهما من الكتب والاشعار (الخمريات) التي نظمها الشاعر الخليع ابو نواس (المتوفى حوالي ٨١٠) وابن المعتز (المتوفى ٩٠٨) الذي ولي الخلافة يوماً واحداً وسواهما من الشعراء ان تحريم الخمر الذي شدّد عليه الاسلام لم يلاقِ من النجاح اكثر مما لاقاه قانون تحريم المسكرات في الولايات المتحدة في القرن العشرين . حتى الخلفاء والوزراء والامراء والقضاة فانه قد كان منهم من شرب الخمر ولم يعبأ كثيراً باوامر الدين (٣) . وتوافر الطلب على العلماء والشعراء والمغنين وأرباب الموسيقى فاتخذهم الامراء والاعيان ندماء لهم . وكانت المنادمة في الأصل عادة فارسية (٤) فاصبحت في زمن العباسيين الأول مهنة قائمة بذاتها وصار لها ارباب محترفون على عهد الرشيد . ولقد عاقر الخمرة غير الرشيد خلفاء آخرون منهم الهادي والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . اما المنصور والمهتدي فقد منعا

---

١) ادخلت القهوة الى جنوبي الجزيرة في القرن الرابع عشر وزرعت في انحاء مكة في القرن التالي وعرفت في اول القرن السادس عشر لاول مرة عند جماعة من متصوفي اليمن كانوا يشربونها في الجامع الازهر متوسلين بها على مجاهداتهم الليلية التي تتطلب السهر ، انظر ج ١ ص ٢٢ .

٢) الوشاء ، كتاب الموشى ، نشر برنآو (ليدن ، ١٨٨٦) ص ١ ، ١٢ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ - ١٣١ ، ١٤٢ .

٣) انظر النويري ، نهاية ج ٤ ص ٩٢ وما يلي .

٤) الجاحظ ، التاج ص ٢٣ ، ٧٢ ؛ النواجي ، حلبة ، ص ٢٦ .

شربها . وحاول النواجي (١) حصر اسماء كل الخلفاء والوزراء والكتاب الذين احتسوها فلم يجد الى ذلك سبيلاً لكثرتهم . وكانت احب الخمر عندهم تلك التي تستخرج من التمر . وقد دافع ابن خلدون عن الرشيد والمأمون وزعم ان شرابهما انما كان النبيذ ـ نبيذ التمر ـ ولم يكن محظوراً عندهم . وهو شراب يستخرج بعد ان ينقع التمر في الماء ويترك فيه الى ان يختمر قليلاً . وكان حلالا شربه ـ بعد شروط خاصة ـ عند اصحاب المذهب الحنفي . او كما يقول ابن خلدون : « وانما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب اهل العراق وفتاويهم فيها معروفة » (٢) .

وكانت تعقد لمعاقرة الخمرة والغناء حلقات أنس تسمّى مجالس الشراب (٣) فكان صاحب البيت وضيوفه يعطّرون لحاهم بالمسك او ماء الورد ويرتدون ثياب المنادمة بينما تتضوع في ارجاء الغرفة رائحة العنبر او الند المشتعل . واكثر القيان اللواتى يحضرن مثل هذه المجالس كنّ من بنات الغواية كما تشهد بذلك القصص الكثيرة (٤) حتى قيل انه لم يبتل فتيان ذلك العصر ببلية اعظم منهن (٥) . وهناك وصف لبيت من بيوت اللهو في الكوفة ايام المنصور تغني فيه سلامة الزرقا، يكاد ينطبق تماماً على بعض بيوت اللهو اليوم (٦) . اما عامة الشعب فكان من يرغب في الخمرة منهم يطلبها في الاديرة وفي الحانات التي تولّى امرها يهود وكانت تجارة الخمر محصورة بهم و بالنصارى .

الحمامات

جاء في حديث نبوي مشهور يتناقله الناس الى هذا اليوم قوله « النظافة من الايمان »

---

١) ص ٩٩ .

٢) المقدمة ص ١٦ . « الخمر » هي اللفظة التي يطلقها القرآن (المائدة : ٩٢ ـ ٣) على الشراب المحرم . ومما يعقد هذه المسألة ويفسح للمفسرين مجال التأويل اولا ان النبي لم يعرف في زمانه خمر العنب في المدينة فقد كان اهلها يستحضرون خمرهم من التمر ، وثانياً ان هذه الأشربة لم يكن يتم اختمارها الا بعد مرور زمن معين وكان لتحضيرها طرق معلومة . راجع العقد ج ٣ ص ٤٠٥ ـ ١٤ .

٣) النواجي ص ٣٨ .

٤) الاغاني ج ١١ ص ٩٨ ـ ٩ ، ج ١٨ ص ١٨٢ ـ ٩ .

٥) الوشاء ص ٩٢ وما يلي .

٦) الاغاني ج ١٣ ص ١٢٨ وما يلي . قابل النويري ج ٥ ص ٧٢ ومايلي .

ولسنا ندري اليوم أكان هناك حمامات في الجزيرة قبل عهد النبي ام لا ، ولكنه يروى ان النبي لم يكن يسمح لأحد بدخول الحمام الا للنظافة وعلى شرط ان يكون متزراً . اما في العصر الذي نحن بصدده فقد كانت الحمامات وافرة العدد يرتادها الناس كثيراً لا للوضوء والطهارة فحسب بل للهو والترف ايضاً . وكان للنساء الحق بدخولها واستعمالها في ايام معينة . وقد احصيت الحمامات في ايام المقتدر (٩٠٨ - ٣٢) فيما يقول الخطيب البغدادي [١] فكانت سبعة وعشرين الفاً . وكانت في زمن آخر ستين الفاً [٢] . وهذان الرقمان كسواهما من الارقام التي نجدها في المصادر العربية مبالغ فيها . فاليعقوبي [٣] يجعل عدد حمامات بغداد بعد تأسيس المدينة بزمن يسير عشرة آلاف . اما الرحالة المغربي ابن بطوطة [٤] الذي زار بغداد سنة ١٣٢٧ م . فانه رأى في الجانب الغربي منها ثلاث عشرة محلة كل محلة فيها حمامان او ثلاثة من ابدع الحمامات مجهزة بالماء الحار والبارد .

وكانت الحمامات يومئذ مثلها اليوم تحتوي على مخادع كثيرة مفروشة بالفسيفساء وقد طلي نصف حائطها مما يلي الارض بالقار وطلي النصف الآخر الأعلى بالجص الابيض الناصع وهي مبنية حول ردهة واسعة عليها قبة فيها نوافذ زجاجية صغيرة مستديرة للنور . وفي كل مخدع حوض من الرخام فيه انبوبان للماء الحار والبارد . اما الغرف الخارجية فكانت للاتكاء والاستراحة وتناول المشروبات والاطعمة الخفيفة .

اللهو

كانت الالعاب الرياضية في ادوار التاريخ كالفنون الجميلة أثراً من ثمار المدنية الهندية الاوربية اكثر مما هي من المدنية السامية اذ تقتضي ممارستها والتمرن عليها شيئاً من اتعاب الجسد لمجرد الاتعاب والرياضة وهو جهد جسماني يرى ابن الصحراء انه في غنى عنه بالنسبة لميله الفطري الى العمل الذي ينتج منه نفع ونظراً لحرارة المناخ الذي يعيش فيه .

---

١) ج ١ ص ١١٨ - ١٩ .
٢) المصدر نفسه ص ١١٧ .
٣) البلدان ص ٢٥٠ ؛ قابل ص ٢٥٤ .
٤) ج ٢ ص ١٠٥ - ٧ .

الا ان بعض الالعاب المنزلية شاعت في عهود الخلافة وقد اشرنا آنفاً الى ذلك النادي في مكة ايام الامويين حيث توفرت السبل للعب الشطرنج [١] والنرد . وقيل ان الرشيد اول خليفة عباسي لعب الشطرنج [٢] ودعا الى لعبه ـ واليه نسبت مبتدعات أخرى ايضاً ـ وقد اصبحت هذه اللعبة ملهى الارستقراطية فاخذت تعتاض بها عن النرد . ويحكى ان الخليفة هذا ارسل رقعة شطرنج فيما ارسله من هدايا الى شرلمان كما ان شيخ الجبل اهدى الى القديس لويس في اثناء الحروب الصليبية رقعة أخرى . غير ان النرد وهو كالشطرنج من اصل هندي ظل مألوفاً هو وغيره من الالعاب المنزلية [٣] .

وكان من الالعاب التي مارسها الناس خارج المنازل الرماية والجوكان [٤] والصولجان ولعب السيف والترس والجريد وسباق الخيل وفوق هذه كلها الصيد . وقد ذكر الجاحظ [٥] من مزايا الندماء الرمي في الأغراض وطلب الصيد واللعب بالكرة واللعب بالشطرنج وهي صفات [٦] يساوي فيها الملك ندماؤه و بطانته . وكان من الخلفاء المغرمين بلعب الكرة المعتصم وقد جعل يوماً الافشين قائده التركي في جهة وأقام هو في جهة فاستعفى الافشين قائلاً : « لا أرى ان اكون على امير المؤمنين في جدّ ولا هزل » [٧] . وهناك اشارات الى لعبة الطبطاب [٨] وهي خشبة عريضة يلعب بها وليس غريباً ان تكون هذه لعبة التنس [٩] في شكلها البدائي . وقد اورد المسعودي [١٠] وصف يوم أجرى فيه

---

١) الشطرنج لفظة مأخوذة من السنكريتية وهي لعبة من اصل هندي . راجع المسعودي ج ١ ص ١٥٩ ـ ٦١ .
٢) المسعودي ج ٨ ص ٢٩٦ .
٣) المصدر نفسه ص ١٥٧ ـ ٨ .
٤) لفظة فارسية معناها عصا معقوفة .
٥) التاج ص ٧٢ .
٦) اما الصفات الاخرى فراجع بشأنها النواجي ص ٢٥ وما يلي .
٧) ابن العباس ، آثار الأول ص ١٣٠ .
٨) المسعودي ج ٨ ص ٢٩٦ وقابل آثار الأول ص ١٢٩ .
٩) ان لفظة « تنس » (tennis) التي يظن انها مشتقة من فعل *tenez* الافرنسي هي في الراجح من « تنيس » الاسم العربي لمدينة مصرية في الدلتا اشتهرت في العصور الوسطى بمنسوجات كتانية وربما كانت منها تصنع طابات التنس .
١٠) ج ٦ ص ٣٤٨ ـ ٩ .

الرشيد الخيل بالرقة وجلس في صدر الميدان حيث توافت اليه الخيل فاذا في اوائلها سوابق من خيله فسر بذلك سروراً عظيما . وفي « العقد » (١) اشعار تصف حلبات الخيل واجتماع الناس للرهان في ايها يسبق .

وفي الدولة العباسية كما في سابقاتها كان الصيد احب ضروب اللهو عند الخلفاء والامراء . فقد كان الأمين عظيم الولع بصيد السباع (٢) وكان له أخ شغف بصيد الخنازير (٣) فوقع مرة عن دابته ومات. اما ابو مسلم الخراساني والمعتصم فقد كان اعظم شغفهما بصيد الفهود . وقد عنيت الكتب العربية القديمة بمواضيع الصيد ونصب الشراك وترويض البزاة وأظهرت اهمية هذه الملاهي عند العرب .

وقد دخلت تربية البزاة والبواشق الى الجزيرة من فارس كما تشعر الالفاظ المستعملة لها وشاعت في اواخر هذه الخلافة (٤) وفي عصر الحروب الصليبية (٥) . ولا يزال الصيد بواسطة الباز والباشق معروفاً في فارس والعراق ومنطقة دير الزور وجبال العلويين بسورية وعند بدو سورية والعراق وتتبع فيه الاصول نفسها المذكورة في « الف ليلة وليلة » . وكان يستعان بهذه الطيور على صيد الغزلان والارانب والحجل والاوز البري والبط والقطا كما كان يستعان معها ايضاً بكلاب الصيد لا سيما في قنص الغزلان وغيرها من الحيوانات البرية التي كانوا يصطادون . وكان اول ما يقوم به الصياد المسلم عند التقاطه طريدته هو ذبحها والا فقد حرم عليه اكلها (٦) . وفي بعض الاحيان كانت فرق الصيادين تطوق البقعة التي تلجأ اليها الطريدة ثم تأخذ في تضييق الحلقة حتى تتمكن من حصر الحيوان وصيده . وقد استخدم

---

١) ج ١ ص ٦٣ ـ ٥ .

٢) المسعودي ج ٦ ص ٤٣٢ ـ ٣ .

٣) الاغاني ج ٩ ص ٩٧ .

٤) يذكر الفهرست ص ٣١٥ وابن خلكان ج ٢ ص ١٧٢ ، ج ٣ ص ٢٠٩ عدداً من الكتب العربية في موضوع الصيد وتربية البزاة .

٥) من الابحاث العربية القديمة في هذا الموضوع كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ نشر حتي (برنستون ، ١٩٣٠) . انظر ص ١٩١ ـ ٢٢٦ منه .

٦) سورة البقرة : ١٦٨ ؛ المائدة : ٤ ؛ النحل ؛ ١١٦ .

المعتصم طريقة الحلقة لحصر الصيد فبنى في ارض دجيل حائطاً على شكل نعل فرس طوله فراسخ كثيرة وطرفاه على النهر فكان رجاله يطردون الصيد حتى يحصر بين الحائط والنهر ثم يصطادونه (١) كذلك استخدم الطريقة نفسها للصيد المستعصم و بعده السلاجقة (٢) . وجاء الخلفاء المتأخرون ومنهم المستنجد (١١٦٠ ـ ٧٠) فنظموا رحلات خاصة مع اصحابهم للصيد . وقد ربّى بعض الخلفاء والحكام الحيوانات البرية كالأسود والنمرة اثباتاً لهيبتهم في صدور الرعية وترويعاً للزائرين (٣) . ومنهم من اعتنى بتربية الكلاب والقردة . وكان لوزير المقتدر ابن يقيم في القاهرة حيث كان يتقلد منصباً سامياً وكان له ولع خاص بجمع الحيوانات السامة كالافاعي والحيات والعقارب وغيرها وافرد لها قاعة لطيفة قرب داره واستخدم لها من يعتني بها (٤) .

الارقاء

كان الخليفة على رأس الطبقات الاجتماعية العالية تليه اسرته ثم كبار الموظفين ثم اهل البيت الهاشمي ثم اتباع هؤلاء جميعاً . وكان بين اهل الطبقة الاخيرة هذه جند الدولة والحرس والاصدقاء المقربون والندماء والموالي والخدم .

وكان اكثر الخدم من الارقاء من شعوب غير مسلمة انتزعوا قسراً من بلادهم او اسروا في الحرب او اشتروا بالمال . وكان منهم ارقاء زنج وآخرون ترك وآخرون بيض . وكان أكثر الارقاء البيض من اليونان (الروم) او السلاف او الارمن او البربر . و بعض الارقاء خصيان وكانوا يستخدمونهم في دور الحريم والبعض الآخر غلمان يمكن ان يكونوا خصياناً وكانوا مميزين ينالون من عطف اسيادهم والتفاتهم ما لا يناله غيرهم وقد ألبسوا الحلل الجميلة الجذابة وتزينوا وتعطروا كالنساء . وانا نجد في بعض الكتب ان الغلمان عرفوا في زمن الرشيد وانه كان في بلاطه عدد منهم (٥) ولكن الراجح ان الامين كان

١) الفخري ص ٧٣ـ٤ .
٢) آثار الأول ص١٣٥ .
٣) الفخري ص ٣٠ ؛ العقد ج ١ ص ١٩٨ .
٤) الكتبي ج ١ ص ١٣٤ـ٥ .
٥) الطبري ج ٣ ص ٦٦٩ وعنه أخذ ابن الأثير ج ٦ ص١٢٠ .

اول من سعى في طلبهم وغالى بهم وصيرهم لخلوته (١) اقتداء بالفرس . وقد ذكر عن قاض في زمن المأمون كان عنده نحو اربعمئة غلام كلهم مرد حسان الوجوه (٢) . ولم يستنكف بعض الشعراء مثل ابي نواس من ذكر الغلمان المرد في اشعارهم والتغزل بهم والاشادة بهذا الميل المنحرف في نفوسهم .

وكانت الجواري من الرقيق يتخذن مغنيات وراقصات وسراري وكان لبعضهن نفوذ عظيم على اسيادهن الخلفاء فقد ذكر عن الرشيد انه اشترى جاريته ذات الخال بسبعين الف درهم ثم هاجته الغيرة ذات يوم فوهبها لوصيفه حَمَوَيه . الا انه اشتاقها بعدئذ فاخرجت اليه وحلف الا تسأله في يومه ذلك حاجة الا قضاها لها فسألته أن يولّي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل (٣) . وكان الرشيد قد شغف بجارية اخرى اسمها دنانير كانت مولاة ليحيى ابن خالد البرمكي فاخذ يتردد اليها ويقيم عندها ويبرها فعلمت بالأمر زوجته زبيدة فشكته الى أهله وعمومته فعاتبوه فلم يرتدع فاشاروا عليها ان لاتلح في امرها وحاولت فصله عنها فاهدته عشر جوار منهن مارية ام المعتصم ومراجل ام المأمون وفاردة ام صالح (٤) . اما قصة تودّد التي روت « الف ليلة وليلة » (الليالي ٤٣٧ - ٦٢) ان الرشيد اشتراها بمئة الف دينار بعد ان فازت في امتحان صعب وضعه لها العلماء في الطب والفقه والفلك والفلسفة والموسيقى والرياضيات فضلاً عن المعاني والبيان والنحو والشعر والتاريخ والقرآن فهي على ما فيها من غرابة تدنيها من الاساطير لتدل على ما بلغه بعض الجواري من العلم والثقافة . ويروى عن الأمين أنه اخذ الجواري المعدودات الحسان الوجوه فقص شعورهن والبسهن ثياب الغلمان وعمّمهن فسمين الغلاميات وسلك الناس من الخاصة والعامة ذلك السبيل فاتخذوا الجواري المطمومات (٥) . وقد روى شاهد عيان انه دخل على المأمون في أحد الشعانين

١) الطبري ج ٣ ص ٩٥٠ - ٥١ وعنه أخذ ابن الأثير ج ٦ ص ٢٠٥ .
٢) المسعودي ج ٧ ص ٤٧ .
٣) الاغاني ج ١٥ ص ٧٩ - ٨٠ ونقل عنه النويري ج ٥ ص ٨٨ - ٩ .
٤) الاغاني ج ١٦ ص ١٣٧ .
٥) المسعودي ج ٨ ص ٢٩٩ .

فرأى بين يديه عشرين وصيفة قد تزينّ وتزينن بالديباج وعلقن في اعناقهن صلبان الذهب وفي ايديهن اغصان الزيتون فلم يزل يشرب والوصائف ترقص بين يديه حتى سكر فامر ان ينثر على الجواري ثلاثة آلاف دينار (١) .

ويدلنا على كثرة الرقيق في البلاد ما نجده في المصادر من وفرتهم في دار الخلافة . فقد كان في دار المقتدر (٩٠٨ ـ ٣٢) على ما روي احد عشر الف خادم خصي من اليونان والسودان (٢) . وقيل ان المتوكل كان له اربعة آلاف سرية (٣) . وأهدى اليه احد قواده مرة مئتي وصيفة ووصيف (٤) . وجرت بين العمال والقواد عادة اهداء الخليفة والوزير هدايا تتضمن بعض الفتيات (٥) والا حسب الخليفة تخلفهم عن ذلك علامة العصيان . وينسب الى المأمون انه كان يرسل بعض وصفائه الموثوق بهم هدايا الى عماله ليكونوا عيوناً عليهم وجواسيس له يوافونه بأخبارهم ويدسون لهم السم اذا لزم الأمر (٦) .

الحياة الاقتصادية : التجارة

كانت عامة الناس مؤلفة من طبقتين ـ طبقة عليا تتصل بالارستقراطية وفيها الادباء والعلماء واهل الفن والتجار والصناع واهل الحرف ، وطبقة سفلى قوامها جمهرة الامة وهم الفلاحون ورعاة المواشي وسكان الارياف من أهل البلاد الأصليين الذين كانوا بمرتبة أهل الذمة . ولما كنا سنلم في الفصل التالي بطبقة المفكرين بشيء من التفصيل فانا سنكتفي هنا بالقول ان مستوى الثقافة العام في عصر العباسيين لم يكن منحطاً .

وقد قضى اتساع نطاق الامبراطورية وارتفاع مستوى الحضارة فيها أن تنشأ تجارة عالمية ذات شأن . وكانت هذه في اول امرها بيد النصارى واليهود (٧) والزرادشتيين

---

١) الاغاني ج ١٩ ص ١٣٨—٣٩ .
٢) الفخري ص ٣٥٢ .
٣) المسعودي ج ٧ ص ٢٧٦ .
٤) المصدر نفسه ج ٧ ص ٢٨١ .
٥) ابن الأثير ج ٧ ص ٢١١—١٢ ؛ الطبري ج ٣ ص ٦٢٧ ؛ ونقل عنه ابن الأثير ج ٦ ص ٨٦ .
٦) العقد ج ١ ص ١٩٦ .
٧) راجع ابن خرداذبه ص ١٥٣—٤ .

ثم نشط المسلمون والعرب واخذوا يحلون محلهم في تسلّم زمامها ولم ينظروا الى التجارة بشيء من الاحتقار كما نظروا الى الزراعة . ومن هنا اخذت مرافىء بغداد والبصرة وسيراف (١) والقاهرة والاسكندرية تتقدم وتصبح مراكز هامة للتجارة البرية والبحرية .

وقد نفذ تجار المسلمين شرقاً حتى الصين التي تذهب الأخبار انهم بلغوها من البصرة منذ ايام المنصور (٢) الخليفة العباسي الثاني . واقدم مصدر عربي يبحث في موضوع المواصلات البحرية العربية والفارسية مع الهند والصين هو بيان اسفار سليمان التاجر ونفر آخر من التجار المسلمين في القرن الثالث للهجرة (٣) . وكان اساس تجارتهم الحرير وهو اقدم تحفة حبتها الصين الى العالم الغربي . وقد سلكت هذه التجارة طريقاً يدعى « طريق الحرير العظيم » (٤) مارة بسمرقند وتركستان الصينية التي قلّ من طرقها حتى اليوم من المسافرين والسياح . وكانت البضائع تنقل مع قوافل متعددة بالتناوب فتسير كل قافلة شوطاً معلوماً ثم تسلم البضائع لقافلة اخرى وقلما كانت قافلة تقطع المسافة كلها . اما العلاقات الدبلوماسية فكانت قد انشئت قبل زمن هؤلاء التجار العرب . وفي الاساطير ان النبي ارسل سعداً ابن ابي وقاص فاتح فارس سفيراً الى الصين ولا يزال لقبر سعد حرمة ومقام في بلدة كانتون والواقع ان كثيراً من النقوش الظاهرة على الانصبة الصينية الاسلامية ملفقة مزورة وقد وضعت بعامل الغيرة الدينية (٥) . غير انه لم يأت منتصف القرن الثامن حتى تم تبادل بضع سفارات بين الخلفاء والصين ولسنا نعلم الطريق الذي سلكته هذه السفارات في سفرها وهل كان براً ام بحراً . وفي المدونات الصينية الراجعة الى ذلك العصر نرى ان امير المؤمنين كان يدعى « هنمي موموني » وان ابا العباس الخليفة العباسي الاول كان يدعى « ابو لوبا » . واسم هارون الرشيد « الون » . وفي

---

١) بلدة في فارس على خليج العجم . وكان أهل سيراف وعمان فيما يقول المسعودي (ج ١ ص ٢٨١ـ٢) من اشهر بحاري العصر العباسي الأول .

٢) قابل Marshall Broomhall, *Islam in China* (London, 1910), pp. 5-36

٣) سلسلة التواريخ ، نشر لانغل (باريس ، ١٨١١).

٤) Thomas F.Carter, *The Invention of Printing in China and its Spread Westward* (New York, 1925), pp. 85 *seq.*

٥) انظر Paul Pelliot in *Journal asiatique* (1913), vol. ii, pp. 177-91.

زمن هؤلاء الخلفاء نزل عدد من المسلمين بلاد الصين فكان الصينيون يسمونهم « تاشي »(١) ثم اطلقوا عليهم بعدئـذ اسم هوي هوي (محمّديون) (٢) . واول اشارة في مصدر اوربي الى وجود العرب في بلاد الصين ترجع الى ماركو پولو من ابناء القرن الثالث عشر . وكان التجار ايضاً هم الذين حملوا الاسلام الى الجزر الهندية الـتي انشأت سنة ١٩٤٩ دولة جديـدة باسم ولايات اندنيسيا المتحدة . و بلغت تجارة الاسلام غرباً مراكش واسبانية . ولقد فكر الرشيد في حفر قناة السويس(٣) قبل ده لسبس (De Lesseps) بنحو الف سنة. ولكن تجارة العرب في البحر المتوسط لم تنشط كثيراً وكذلك قل في تجارتهم في البحر الاسود مع انه كان هنـاك شيء من النشاط في التجارة البرية في انحاء الفولكا الشمالية . غـير ان سفنهم كانت تمخر في بحر قزوين لقربه من المراكز الفارسية الهامة والمدن العامرة كسمرقند وبخارى وما وراءهما من ارض آهلة بالسكان . وكان التجار المسلمون يحملون الى تلك البلاد المختلفة التمور والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والادوات الفولاذية والاواني الزجاجية ثم يعودون ببضائع مختلفة منها التوابل والكافور والحرير من أقاصي آسية والعاج والابنوس والرقيق الاسود من افريقية.

ويمكن للمرء أن يدرك شيئاً عن الثروة التي حازها امراء المال في ذلك العصر والسعة التي كانوا فيها من قصة ابن الجصّاص الجوهري ببغداد فقد ظل غنياً موسراً بالرغم من ان المقتدر صادر منـه ستة عشر مليون دينار وكان اول من عرف من هذه الأسرة التي نبغ فيهـا بعده كبار تجار الجواهر (٤) . وكان لبعض تجـار البصرة الذين كانت مراكبهم تنقل البضائع الى شاسع الاصقاع دخل ينيف على مليون درهم . وقد عرف في البصرة و بغداد مثر بلغ من غناه انه كان يخرج في الصدقة كل يوم مئة دينار فاستوزره المعتصم وكان

---

١) من تاجك البهلوية (تازي اليوم) ومعناها عربي والظاهر ان هذه اللفظة تحريف طائي او طي — القبيلة العربية المعروفة .

٢) راجع Isaac Mason in *Journal of the North-China Branch of the Royal Asiatic Society*, vol. lx (1929), pp. 42-78.

٣) المسعودي ج ٤ ص ٩٨—٩ .

٤) الكتبي ج ١ ص ١٧٧ .

جاهلاً (١) . وكان ما ينفقه التاجر العادي في سيراف على بيته فوق مئة الف درهم وربما انفق بعضهم اكثر من ثلاثين الف دينار . وقد بلغت ثروة الواحد من الكثيرين من تجار البحر نحو اربعة ملايين دينار (٢) . والف تجار سيراف البحر « حتى ربما غاب احدهم عامة عمره في البحر » . وبلغ الاصطخري (٣) ان احدهم لم يخرج من السفينة نحواً من اربعين سنة .

الصناعة:

ولم يكن ليبلغ هذا النشاط التجاري مداه لولا ان وراءه صناعة وطنية عامة وزراعة واسعة فقد ازدهرت الصناعة اليدوية في كثير من انحاء الامبراطورية وتركزت في آسية الغربية على حياكة السجاد والنسيج الموشى للتعليق على الجدران والحرير والقطن والمنسوجات الصوفية والديباج والأطلس واغطية الوسائد وغيرها من ادوات الفرش والأثاث واواني المطبخ . وقد كانت انوال فارس والعراق الكثيرة تنتج افخر انواع السجاجيد والمنسوجات وكان لأم المستعين سجادة حيكت لها خصيصاً بلغت اكلافها مئة وثلاثين مليون درهم عليها صور لكثير من انواع الطيور مصنوعة من الذهب وعيونها من الياقوت وسواه من الاحجار الكريمة (٤) .وكان في بغداد حي يدعى بالعتابي نسبة الى امير اموي نزله مرة فاصبح النسيج المصنوع في ذلك الحي يعرف منذ القرن الثاني عشر بالعتابي (٥) ثم اخذ عرب الاندلس في تقليد حياكته واصبح مشهوراً بلفظه المحرف tabi في فرنسا وايطاليا وسواها من اقطار اوربا وقد اتصلت الكلمة باللغة الانكليزية التي تطلق فيها لفظة tabby على الهرر المخططة . وانتجت الكوفة المناديل الحريرية وشبه الحريرية التي تلبس على الرأس وتعرف اليوم بالكوفية . واشتهرت مدينة توّج وفسا من اعمال فارس بمعامل كثيرة

١) الفخري ص ٣٢١-٢ .
٢) الاصطخري ص ١٢٧ ، ١٣٩ ؛ ابن حوقل ص ١٩٨ ؛ المقدسي ص٤٢٦ .
٣) ص ١٣٨ .
٤) الابشيهي ج ١ ص ١٤٤ .
٥) ذكره المقدسي ص ٣٢٣ ؛ ابن حوقل ص ٢٦١ ؛ ياقوت ، بلدان ج ١ ص٨٢٢ حيث صحف الاسم.

ممتازة لصنع البسط وثياب الوشي والديباج والطراز وهو لباس الشرف الذي كان يصنع اولا لملبوس الملوك والامراء [١] وكان يطرز عليه اسم الملك او الامير الذي صنع له . وكان في تستر والسوس بخوزستان [٢] (سوز يانا القديمة) عدد من المعامل اشتهرت بزركشة الدمقس [٣] الموشى بالذهب والستائر المصنوعة من الخز . اما منسوجاتهم المصنوعة من وبر الابل والمرعزاء والعباءات المصنوعة من الحرير المغزول فقد كانت كلها واسعة الانتشار. وكانت شيراز تصدر العباءات الصوفية المخططة والاقمشة الناعمة والديباج المقصب . وكانت السيدات الاوربيات في العصور الوسطى يبتعن من مخازن التجار في اوربا الحرير الفارسي المعروف بالتافته وقد اشتهرت خراسان وارمينية باغطية الفرش والستائر واغطية المقاعد والمساند . واختصت بخارى بسجادها الفاخر . ويستطيع الباحث ان يقف على نشوء الصناعة والتجارة فيما وراء النهر من لائحة الصادرات التي اوردها المقدسي [٤] لكل مدينة بمفردها ومنها الصابون والبسط وقناديل النحاس والآنية المصفحة وعباءات اللباد والفرو والعنبر والعسل والبواشق والمقصات والابر والسكاكين والسيوف والقسي واللحوم والارقاء من الصقالبة والترك . اما الموائد والمقاعد والقناديل والشامعد والمزهريات والفخار وادوات المطبخ فكانت تصنع في سورية ومصر ايضاً . وكان النسيج المصري المعروف بالدمياطي (نسبة الى دمياط) والدبيقي (نسبة الى دبيق) والتنيسي (نسبة الى تنيس)[٥] قد اشتهر في العالم وقلده الفرس. وقد كانت بعض الصناعات الفنية القديمة المألوفة في عصور الفراعنة لا تزال معروفة بشكل اخف في الصناعات القبطية .

وقد اختصت بلاد الشام بصنع الزجاج في صيدا وصور وسواهما من المدن التي حافظت على هذه الصناعة منذ عهد الفينيقيين الذين كانوا بعد المصريين اقدم من مارسها . وقد ضرب

---

١) الاصطخري ص ١٥٣ . قابل المقدسي ص٤٤٢–٣ .
٢) المقدسي ٤٠٢ ، ٤٠٧–٩ .
٣) تحريف دمشق التي كان هذا النسيج في الأصل يصنع فيها .
٤) ص٣٢٣–٦ .
٥) ياقوت ج ٢ ص ٦٠٣ ، ٥٤٨ ، ج ١ ص ٨٨٢ ؛ المقدسي ص ٢٠١ ، ٤٣٣ ، ٤٤٣ ؛ وانظر آخر الفصل الرابع والاربعين في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

المثل بالزجاج السوري لرقته وصفائه (١) . وكان الزجاج المخطط منه والمطلي بالميناء مثالا اتخذه الاوربيون اثر الحروب الصليبية لصنع الزجاج الملون الذي استعملوه لتزيين كاتدرائياتهم. وكثر الطلب في العصر العباسي على الآنية الزجاجية والمزهريات المعدنية من مصنوعات الشام واصبحت تعتبر من لوازم المنزل ومن متممات الرفاهية . وكانت منائر الزجاج تعلق في المساجد والقصور وعليها كتابات بالميناء من مختلف الالوان وكانت دمشق مركز صناعة واسعة للفسيفساء والقاشاني (٢) وهو اسم يطلق على نوع من القرميد المصقول المسدّس الشكل وقد رسمت عليه احياناً صور زهور مألوفة (مصطلح عليها) ويستعمل لتزويق الابنية والجدران من الداخل والخارج . وكان ابرز ألوانه الازرق النيلي والازرق الفيروزي والاخضر ثم الاحمر والاصفر احياناً وكان هذا الفن معروفاً في الزمن القديم عند العيلاميين والاشوريين وظل مألوفاً في دمشق حتى اواخر القرن الثامن عشر .

ومما يجدر الالتفات اليه هنا صناعة ورق الكتابة التي دخلت البلدان الاسلامية في اواسط القرن الثامن من الصين عن طريق سمرقند (٣) التي فتحها المسلمون سنة ٧٠٤ وقد كان ورق سمرقند يعدّ منقطع النظير (٤) . وما كاد ينتهي القرن الثامن حتى ظهر في بغداد اول معمل للورق وتبعته معامل اخرى . اما في مصر فقد ظهر اول معمل في حدود سنة ٩٠٠ ، وفي مراكش حوالي ١١٠٠ ، وفي اسبانية حوالي ١١٥٠ . وقد ظهرت انواع مختلفة للورق فيها الابيض والملون . ويقال ان المعتصم الذي ينسب اليه الفضل في انشاء معامل للصابون والزجاج في بغداد وسامرا وسواهما قد نشط صناعة الورق ايضاً . وان اقدم ما تحدر الينا من المخطوطات العربية المكتوبة على الورق مخطوطة « غريب الحديث » لابي عبيد القاسم

---

١) الثعالبي ، لطائف ص ٩٥ .

٢) اسم مشتق من كاشان (وفي العربية قاشان : ياقوت ، بلدان ج ٤ ص ١٥) وهي بلدة في العراق العجمي (مادي) وقد ذكرها ابن بطوطة ج ١ ص ٤١٥ ، ج ٢ ص ٤٦، ١٣٠، ٢٢٥، ٢٩٧، ج ٣ ص ٧٩ .

٣) راجع Friedrich Hirth, *Chinesische Studien* (Munich and Leipzig, 1890), vol. i, pp. 259-71. وانظر الفصل الثامن والعشرين من هذا الكتاب باب « الورق » وقد طبع الورق النقدي (واصله صيني) سنة ١٢٩٤ بالصينية والعربية في تبريز وهي من المراكز الاولى في العالم الاسلامي التي وجد فيها أثر للطبع بواسطة الخشب المنقوش .

٤) الثعالبي ص ١٢٦ ؛ المقدسي ص ٣٢٦ .

ابن سلام (المتوفى ٨٣٧) وقد كتبت في ذي القعدة سنة ٢٥٢ ﻫ (١٣ تشرين الثاني ـ ١٢ كانون الاول ٨٦٦ م) وهي محفوظـة في مكتبة جامعة ليدن (١) . وهناك نسخة أخرى للكتاب نفسه مؤرخة في صنعاء سنة ٣١١ (٩٢٣ ـ ٤) ومحفوظة في مكتبة الازهر بالقاهرة . وهناك مخطوطة في المتحف البريطاني لبحث لاهوتي تأليف ابي قرة (٢) تاريخها ربيع الاول ٢٦٤ ﻫ (١١ تشرين الثاني ـ ١٠ كانون الاول ٨٧٧ م) وهي اقدم مخطوطة محفوظة لمؤلف نصراني . وسنرى فيما بعد كيف دخلت صناعة الورق اخيراً الى اوربا المسيحية عن طريق الاندلس وايطاليـا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وفي اوربا حيث تم اختراع الطباعة بالحروف المتحركة (١٤٥٠ـ ٥٥) تمكن الاثنان (الورق والطباعة) من نشر العلوم والمعارف التي تتمتع بها اوربا واميركا اليوم .

وكان لصياغـة الجواهر دورها ايضاً فقد كان اللؤلؤ واليـاقوت الازرق والاحمر والزمرد والماس من الجواهر التي يرغب فيها الملوك وذووهم . اما طبقات الشعب الدنيا فكانت تعتاض عن هذه الجواهر الثمينة بالفيروز والجزع . واهم الجواهر في تاريخ العرب حجر من الياقوت الاحمر كبير الحجم كان قد تنقل بين عدد من ملوك الاكاسرة ثم وقع الى الرشيد فاشتراه بار بعين الف دينار (٣) ونقش عليه اسمه ، قالوا : كان « يضيء بالليل كضياء المصباح اذا وضع في بيت لا مصباح فيه أشرق » . ولقد مر معنا ان اخت الرشيد رصعت غطاء رأسها بالجواهر كما اتخذت امرأته الجواهر لتجميل احذيتها . وقد روي ان يحيى ابن خالد البرمكي ساوم بعض تجار بغداد على سفط من الجوهر وعرض عليه سبعة ملايين درهم فأبى ان يبيعه (٤) . ويحكى ان المكتفي خلّف من الجوهر والطيب ما يقـدر ثمنه بعشرين مليون دينار (٥) . وقد جرى في وليمة ملـكية فخمة اقامها المتوكل وتعد هي وعرس المأمون

(١) William Wright, *The Palaeographical Society*, *Oriental Series* (London, 1875-83), pl. vi.

(٢) Theodorus abu Kurra, *Die Cultu Imaginum*, ed. and tr. I. Arendzen (Bonn, 1897).

(٣) المسعودي ج ٧ ص ٣٧٦ . قابل الفخري ص ٢٥٢ـ٣ ؛ الطبري ج ٣ ص ٦٠٢ .

(٤) الطبري ج ٣ ص ٧٠٣ .

(٥) الثعالبي ص ٧٢ .

حادثتين فريدتين لا ثالثة لهما في الاسلام (١) ان استعملت موائد وصواني من الذهب مرصعة بالجواهر . حتى ان ابن خلدون الذي زعم ان العباسيين لم ينغمسوا في ضروب البذخ والترف لم يُنكر ما ظهر في زواج المأمون او عُرض او نثر من الذهب والجوهر (٢) . ويزعم المسعودي (٣) ان المعتز (٨٦٦ – ٩) الخليفة العباسي الثالث عشر كان اول من احدث الركوب بحلية الذهب على سرج مذهب . اما جميع من سلف من خلفاء بني امية وبني العباس فانما ركبوا بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروج . ومن اواخر الخلفاء الذين كانت لهم خزائن ملأى بالجواهر النفيسة المقتدر (٩٠٨ – ٣٢) وهو الذي حجز املاك ابن الجصاص مؤسس اغنى مخزن للجواهر في بغداد (٤) واشترى ياقوتة هارون الرشيد الحمراء الشهيرة والدرة اليتيمة التي كان وزنها ثلاثة مثاقيل وغير ذلك من الجواهر النفيسة ففرق ذلك كله واتلفه في أيسر مدة (٥) .

وكان الذي ساعد على ترويج هذه الصناعة غنى الدولة بالمعادن واهمها الذهب والفضة من خراسان وكذلك الرخام والزئبق (٦) ، ثم الياقوت واللازورد وحجر البازهر من وراء النهر (٧) ، والرصاص والفضة من كرمان (٨) ، واللؤلؤ من البحرين (٩) ، والفيروز من نيسابور التي بلغ التزام معادنها في اواخر القرن العاشر ٧٥٨٧٢٠ درهماً (١٠) ، والعقيق الاحمر من صنعاء (١١) ، والحديد من لبنان (١٢) . ومن الموارد المعدنية الاخرى كان الصلصال والرخام من تبريز ،

---

١) الثعالبي ص ٧٢ – ٣ .
٢) المقدمة ص ١٥ ، ١٤٤ – ٤٥ .
٣) ج ٧ ص ٤٠١ – ٢ وقد نقل عنه ابن خلدون ، المقدمة ص ١٥ .
٤) انظر ص ٤٢٢ من هذا الكتاب .
٥) الفخري ص ٣٥٣ وقد ذكر الدرة اليتيمة ابن حوقل ص ٣٨ . قابل المقدسي ص ١٠١ .
٦) المقدسي ص ٣٢٦ .
٧) المصدر نفسه ص ٣٠٣ .
٨) ابن الفقيه ص ٢٠٦ .
٩) المقدسي ص ١٠١ .
١٠) المصدر نفسه ص ٣٤١ — الحاشية .
١١) المصدر نفسه ص ١٠١ .
١٢) المصدر نفسه ص ١٨٤ .

والصلصال والأثمد (معدن الكحل) من اصبهان (١) ، والقير والنفط من بلاد الكرج، والزئبق والزفت والقطران من فرغانة (٢)، والرخام والكبريت من سورية وفلسطين (٣)، وحجر الفتيلة من وراء النهر (٤) .

الزراعة

لقد نشطت الزراعة في العهد العباسي الاول واخذت تزدهر ازدهاراً فائقاً لان بغداد وهي العاصمة كانت في بقعة خصبة من السواد ، ولان العباسيين انفسهم ادركوا ان الزراعة تدر على الدولة اهم موارد الدخل ، ولان حراثة الارض واستثمارها واستغلالها ظل معظمها بايدي اهل البلاد الاصليين الذين اخذت احوالهم تتحسن نوعاً ما في هذا العهد الجديد . فعاد العمران الى المزارع المهجورة والقرى الخربة في كثير من انحاء الدولة واخذت تنتعش هذه المزارع تدريجياً . وقد وجهت الحكومة المركزية اهتماماً خاصاً الى القسم الاسفل من وادي دجلة والفرات . ويعتبر هذا الوادي بعد وادي النيل اخصب بقعة في البلاد الاسلامية بحيث عدته التقاليد موضع جنة عدن . وشقت للماء اقنية من الفرات بعضها قديم مهجور وبعضها محدث بحيث صارت الارض سواداً مشتبكا غير متميز (٥) . وعرفت اول قناة كبرى بقناة عيسى او نهر عيسى لان عيسى وهو من اقرباء المنصور اعاد شقها وكانت تربط الفرات عند الانبار في الشمال الغربي بدجلة عند بغداد وكان من فروعها الرئيسية نهر الصّراة . وكانت القناة الثانية الكبرى نهر صرصر الذي ينتهي الى دجلة فوق المدائن . والثالثة نهر الملك وكان يصب في دجلة تحت المدائن (٦) . ثم كان هناك الى الجنوب من هاتين القناتين نهر كوثى ونهر الصّراة

---

١) الاصطخري ص ٢٠٣ ؛ الثعالبي ، لطائف ص ١١٠ .

٢) ابن حوقل ص ٣٦٢ .

٣) المقدسي ص ١٨٤ .

٤) المصدر نفسه ص ٣٠٣ .

٥) الاصطخري ص ٨٥ ؛ ابن حوقل ص ١٦٦ .

٦) انظر بشأن هذه الاقنية الاصطخري ص ٨٤ — ٥ ؛ ابن حوقل ص ١٦٥ — ٦ ؛ المقدسي ص ١٢٤ ؛ الخطيب ، تاريخ ج ١ ص ٩١ ، ١١١ ومايلي . وراجع ايضاً Guy Le Strange, " Description of Mesopotamia and Baghdad , Written about the year 900 A. D. by Ibn - Serapion ,, [Suhrâb], *Journal Royal Asiatic Society* (1895), pp. 255-315 .

الكبرى (١) . وتفرع منها اقنية صغرى للري . ونهر دجيل الذي كان يصل قديماً دجلة بالفرات ثم امتلأ بالرواسب من الطمي في القرن العاشر ، واطلق الاسم على قناة جديدة تبدأ من دجلة تحت القادسية ثم تعود فتصب فيه في الجنوب بعد ان يتفرع منها عدد من الفروع (٢) . ومن الاقنية الثنوية نهر الصلة الذي احتفره المهدي بواسط (٣) . اما ما يذكره مؤرخو العرب عن حفر الخلفاء للانهار او فتحهم لها فلا يعتد به كثيراً لان اغلب هذه الانهار التي ذكروها كانت اقنية يرجع عهدها الى زمن البابليين القدماء فعطلت واعاد الخلفاء شقها . وقد اقتصر الامر في العراق كما في مصر على حفظ الاقنية المائية القديمة وصيانتها . ولما عهدت الحكومة العثمانية الى السير وليم ولكوكس قبيل الحرب العالمية الاولى درس احوال الري في العراق اوصى في تقريره بلزوم تنظيف مجاري المياه القديمة ولم يوص بشق مجار جديدة (٤) . ويجدر بنا ان نلاحظ هنا ان سطح الارض في السواد قد تغير كثيراً منذ ايام العباسيين كما ان دجلة والفرات قد تحول مجراهما في عصور التاريخ المعروف .

واهم اغلال العراق الشعير والحنطة والارز والتمر والسمسم والقطن والقنب . واخصب بقاعه ارض السقي في السهل الجنوبي وتعرف بالسواد حيث كانت تنتج مقادير وافرة من الاثمار والبقول مما ينمو في المناطق الحارة والباردة . اما الجوز والبرتقال والباذنجان وقصب السكر والترمس وانواع الزهور والرياحين كالورد والبنفسج وغيرهما فقد كانت تنمو بكثرة في تلك المزارع .

وقد نافست خراسان العراق ومصر في ميدان الانتاج الزراعي كما يتضح من مراجعة لوائح دخل الدولة التي أشرنا اليها قبلاً (٥) فقد تبين منها ان هذا القطر كان في مقدمة الاقطار بضخامة خراجه . وكان من الناحية السياسية يشمل احياناً مقاطعتي ما وراء النهر وسجستان العامرتين بالسكان فكان غنياً بالرجال ايضاً . ومن هنا فليس غريباً ان

١) ياقوت ج ٣ ص ٣٧٧ — ٨ .
٢) الاصطخري ص ٧٧ — ٨ ؛ ياقوت ج ٢ ص ٥٥٥ .
٣) البلاذري ص ٢٩١ ؛ قدامة ص ٢٤١ .
٤) William Willcocks, *Irrigation of Mesopotamia* (London, 1917), pp. xvii *seq.*, 11 *seq.*
٥) ص ٣٩٧ — ٩٨ من هذا الكتاب .

نسمع ان احدهم وصف خراسان في حضرة المأمون فقال : « هي المملكة باسرها » (١) .

وكانت كورة بخارى في رأي جغرافيي العرب جنة حقيقية لاسيما في ايام آل سامان اي بعد سنة ٩٠٠ (٢) . فهنا بين سمرقند وبخارى يقع وادي الصغد المعدود بين جنات الارض الاربع ، والثلاث الأخرى هي شعب بوّان في فارس وبساتين الابلّة الممتدة من البصرة الى الجنوب الشرقي (٣) وغوطة دمشق (٤) . فقد كان ينمو في جنائن هذه الكورة شتى انواع الاشجار المثمرة والبقول والازهار كالتمر والتفاح والبرقوق (٥) (المشمش) والدرّاق والخوخ والليمون والبرتقال والتين والعنب والزيتون واللوز والرمان والباذنجان والفجل والبطيخ والقثاء والورد والريحان . وكان البطيخ يحمل الى المأمون والى الواثق في قوالب الرصاص المعباة ثلجاً وتباع البطيخة الواحدة في بغداد بسبعمئة درهم (٦) . والواقع ان اكثر الاشجار المثمرة والبقول التي تنبت اليوم في غربي آسية كانت معروفة في ذلك العهد باستثناء المانغو والبطاطا والبندورة (الطماطم) وبعض النباتات الأخرى التي تماثلها مما دخل اليها في العصور الأخيرة من العالم الجديد او من المستعمرات الاوربية النائية . اما شجرة البرتقال فهي من صنف الأترج والليمون الحامض وقد كان موطنها الاصلي في شمال الهند ومنه اتصلت في العصر الذي نعالجه بغربي آسية وبما يجاورها من بلدان البحر المتوسط ثم دخلت اوربا عن طريق أسبانية (٧) . وفي هذا العصر ظهرت مزارع قصب السكر ومعامل تصفيته في الساحل الشامي على غرار المعروف منها في فارس والأهواز (٨) . ومن بلاد الشام اخذ

---

١) اليعقوبي ج ٢ ص ٥٥٥ .
٢) الاصطخري ص ٣٠٥ وما يلي . وعنه نقل ابن حوقل ص ٣٥٥ وما يلي .
٣) الاصطخري ص ٨١ ومثله في ابن حوقل ص ١٦٠ ؛ المقدسي ص١١٧ — ١٨ .
٤) ياقوت ج ١ ص ٧٥١ ، ج ٣ ص ٣٩٤ . قابل ج ١ ص ٩٧ .
٥) أصل هذه الشجرة من الصين وقد استعيرت لفظة البرقوق من اللاتينية *Praecoquus* عن طريق اليونانية ثم نقلت من العربية الى الاسبانية فقيل *Albaricoque* ومنها دخلت الى الانكليزية *Apricot* .
٦) الثعالبي ص ١٢٩ .
٧) لقد استعار العرب لفظتي نارنج وليمون من الفارسية ثم نقلتا الى اسبانية ومنها اتصلتا باللغات الاوربية الأخرى فقيل في الانكليزية *Orange* و *Lemon* .
٨) الثعالبي لطائف ص ١٠٧ .

الصليبيون قصب السكر ثم ادخلوه هو والسكر الى اوربا . وهكذا وجدت هذه السلعة الحلوة طريقها الى الغرب (وهي بنغالية الأصل في الارجح) وقد اصبحت منذ ذلك العهد عنصراً لايستغنى عنه في طعام الانسان المتمدن .

ولم تقف زراعة الحدائق عند حدّ الفاكهة والبقول بل تعدتها الى الزهور فكان لتنميتها شأن لا في الحدائق المتصلة بالبيوت فحسب حيث كانت تروى من ماء الفوّارات الرشاشة ولكن في الجنائن الكبرى ايضاً حيث كانت تزرع على نطاق واسع لتباع في الاسواق وتستغل. وكانت صناعة استخراج الروائح العطرية من الورد والزنبق وزهر البرتقال والبنفسج وامثالها على غاية الاتقان في دمشق وشيراز وجور وسواها من المدن . واشتهرت مقاطعة جور (فيروز آباد) في فارس بعطرها المستخرج من وردها الأحمر (١) . وكان يصدّر ماء الورد من جور شرقاً حتى الصين وغرباً حتى بلاد المغرب (٢) . وكان يحمل مع خراج فارس الى خلفاء بغداد كل عام من ماء الورد الجوري ثلاثون الف قارورة (٣) . وقد كانت سابور وواديها ينتجان من زيوت الطيب عشرة انواع مشهورة تستحضر من زهر البنفسج والزنبق والنرجس والسوسن والمرسين والنارنج والمارده والنخيل والليمون والبرتقال (٤) . ولم تكن شهرة طيب ما تعادل شهرة طيب البنفسج في العالم الاسلامي وقد حدثوا عن النبي انه قال : « فضل دهن البنفسج على سائر الادهان كفضلي على سائر الخلق » (٥) .

اما الزهور فأحبها عند العرب الورد . وفي رأي الجارية المثقفة تودد ـ وهو رأي يعبر عن وجهة نظر الناس من القرن العاشر حتى القرن الثاني عشر ـ ان الورد والبنفسج افضل الرياحين ، وان الرمان والأترج افضل الفاكهة ، والهندباء افضل البقول (٦) . ولقد روي عن النبي حديث يعبر عن حب القوم للورد واستحسانهم له قال : « الورد الابيض خلق من

---

١) ان الورد الاحمر في سورية لا يزال يسمى بالورد الجوري الى اليوم .
٢) ابن حوقل ص ٢١٣ ؛ الاصطخري ص ١٥٢ — ٣ .
٣) الثعالبي ص ١٠٩ — ١٠ .
٤) المقدسي ص ٤٤٣ .
٥) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٤٢ .
٦) الف ليلة وليلة رقم ٤٥٣ . قابل رقم ٨٦٤ و ٨٦٥ .

عرقي ليلة المعراج وخلق الورد الاحمر من عرق جبريل وخلق الورد الاخضر من عرق البراق (١) » . وكان الخليفة المتوكل قد حمى الورد ومنعه من الناس وقال لا يصلح للعامة فكان لا يرى الا في مجلسه وكان يقول : « انا ملك السلاطين والورد ملك الرياحين وكل منا اولى بصاحبه (٢) » .

الا انه كان للورد والبنفسج مزاحم هو الآس (الريحان) وفي الحديث : « أهبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء ، بالآسة وهي سيدة ريحان الدنيا وبالسنبلة وهي سيدة طعام الدنيا وبالعجوة وهي سيدة ثمار الدنيا (٣) » . وكان من الزهور المستحبة الاخرى النرجس والمنثور والياسمين والاقحوان والزعفران .

ومما يدل على التفات الناس الى شأن الزراعة ان الفهرست (٤) يذكر عدة كتب في النبات منها ما ترجم عن اليونانية وبضعة كتب في العطر (٥) . ومن الأولى كتاب ابن الوحشية « الفلاحة النبطية » وهو ملفق .

أهل الذمة : النصارى

ان طبقة الفلاحين التي شملت سواد الشعب في الامبراطورية وكانت اهم مصدر لدخل الدولة انما تشكلت من سكان البلاد الأصليين الذين أصبحوا بحكم الفتح يعتبرون من أهل الذمة . وكان العربي بطبيعته يأنف من تعاطي الزراعة . اما أهل الذمة – وهم في الأصل اهل الكتاب من نصارى ويهود وصابئة – فقد اتسع نطاقهم بحيث شمل كما رأينا اتباع زرادشت وماني وصابئة حران وغيرهم وعومل جميع هؤلاء معاملة أهل الكتاب الذين كان لهم من المسلمين عهد فيه كثير من التساهل والعطف . فاقام الذميون في مزارعهم ومنازلهم الريفية وتمسكوا بتقاليدهم الثقافية وحافظوا على لغاتهم الأصلية فكانت لهم الآرامية

١) السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٣٦ .

٢) النواجي ص ٢٣٥ ؛ السيوطي ج ٢ ص ٢٣٦ .

٣) السيوطي ج ٢ ص ٢٤٥ وراجع Edward W. Lane, *The Thousand and One Nights*, vol. i (London, 1839) pp. 219 *seq.* (in n. 22 to ch. iii).

٤) ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٣٥٢ .

٥) الفهرست ص ٣١٧ .

والسريانية لغة في سورية والعراق والايرانية في فارس والقبطية في مصر . وانتقل الكثيرون ممن اسلموا منهم الى المدن .

حتى في المدن ايضاً فان النصارى واليهود كثيراً ما تقلدوا مناصب هامة في دوائر المال والكتابة والمهن الحرة حسدهم عليها بعض المسلمين من العامة بحيث ظهرت نتائج ذلك التنافس في استنان شرائع جديدة لايقاف اهل الذمّة عند حدودهم . غير ان اكثر هذا التشريع الجديد ظل حبراً على ورق ولم ينفذ دائماً . وقد رأينا ان اول خليفة امر اليهود والنصارى بمخالفة المسلمين في لباسهم وعزل الموظفين منهم من مناصب الدولة هو عمر ابن عبد العزيز وقد نسب الأمر خطأً الى عمر ابن الخطاب. وكان الرشيد بين الخلفاء العباسيين اول من اعاد هذه الاحكام الصارمة على الذميين فقد امر سنة ٨٠٧ بهدم الكنائس في الثغور وما بُني منها في الامصار بعد الفتح الاسلامي ثم اوصى بأخذ اهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم (١) . وقد بلغت القيود التي وضعت على اهل الذمة اشدها في زمن المتوكل الذي امر النصارى واليهود سنة ٨٥٠ و ٨٥٤ بجعل صور شياطين من خشب على ابواب دورهم ، و بتسوية قبورهم مع الارض ، وان تكون ارديتهم الخارجية من اللون الاصفر، وان يجعلوا خرقتين مختلفتي الصبغ على الثوب تلقاء الصدر ومن وراء الظهر ، و بتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر . ولم يرخص لهم الا بركوب البغال والحمير واتخاذ السروج من الخشب و بتصيير كرتين على مؤخر السروج (٢) . وكان من جرّاء هذا اللباس الذي امر الذمي باتخاذه ان اطلق عليه لقب « الارقط » (٣) . وهناك حيف آخر وقع على الذميين وهو المرسوم الذي سنّه متشرعو الاسلام في هذه الحقبة في ان شهادة النصراني او اليهودي لا تقوم على المسلم وذلك لان اليهود والنصارى حرّفوا ما بايديهم من كتاب الله . وكان آخر خليفة لجأ الى العنف والشدة في معاملة الذميين هو الحاكم بامره

---

١) الطبري ج ٣ ص ٧١٢ — ١٣ ؛ ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ .
٢) الطبري ج ٣ ص ١٣٨٩ — ٩٣ ، ١٤:١٩ .
٣) قابل الجاحظ ، البيان ج ١ ص ٧٩ .
٤) البقرة : ٧٠ ، المائدة : ١٦ — ١٨ .

الفاطمي (٩٩٦ - ١٠٢١) .

ولكن النصارى برغم هذه القيود تمتعوا في ظل الخلافة بقسط وافر من الحرية ونالوا كثيراً من التساهل والعطف كما تشهد بذلك عدة حوادث . فقد جرت مناقشات دينية في بلاط العباسيين كتلك التي جرت في بلاط معاوية وعبد الملك وقد القى تيموثاوس بطريرك النساطرة في سنة ٧٨١ دفاعاً عن النصرانية امام المهدي لايزال محفوظاً نصه الى اليوم (١) . كذلك تحدرت الينا رسالة للكندي (٢) تصرح انها بيان لمناقشة جرت سنة ٨١٩ في حضرة المأمون في المقابلة بين محاسن الاسلام والنصرانية . اما الابحاث الدينية التي وضعها علي الطبري (المتوفى ٨٥٤ - ٥) وسماها « كتاب الدين والدولة » (٣) فهي دفاع شبه رسمي عن الدين الاسلامي وايضاح لحقائقه ألف تحت رعاية المتوكل و بمساعدته وهذا المصنف معتدل بعيد عن التعصب والحمية الدينية تكثر فيه الاشارات الى الكتاب المقدس والراجح ان المؤلف اعتمد فيه على نص التوراة السرياني او على ترجمة عربية قديمة . ففي الوقت الذي انشأ فيه ابن النديم كتاب الفهرست (٩٨٨) كان للعهدين القديم والجديد من الكتاب المقدس ترجمات عربية معروفة (٤) . وهناك أخبار تذكر ان رجلاً يدعى احمدابن عبد الله ابن سلام كان قد ترجم التوراة الى العربية منذ ولاية هارون الرشيد (٥) . ولدينا ما يثبت ايضاً ان اقساماً من التوراة كانت قد نقلت الى العربية في القسم الأخير من القرن السابع ولعلها ترجمت من السريانية او من الترجمة السبعينية اليونانية . ولقد أرّخ الطبري (٦) من حوادث سنة ٦١ هجرية ان عبد الله ابن عمرو ابن العاص كان قد قرأ سفر دانيال . على ان اول ترجمة هامة للعهد القديم الى العربية كانت تلك التي قام بها سعيد الفيومي المصري

---

١) A. Mingana in *Bulletin of the John Rylands Library*, vol. 12 (Manchester , 1928), pp. 137-298.

٢) رسالة عبد المسيح ابن اسحاق الكندي (لندن ، ١٨٧٠) والطبعة الثانية (لندن ، ١٨٨٥) .

٣) نشره ا. منجانا (القاهرة ، ١٩٢٣) وترجمه الى الانكليزية *The Book of Religion and Empire* (Manchester, 1922).

٤) الفهرست ص ٢٣ .

٥) المصدر نفسه ص ٢٢ ولعلها كانت ترجمة جزئية .

٦) ج ٢ ص ٣٩٩ .

(٨٩٢ ـ ٩٤٢) وهي المعوّل عليها عند المتكلمين بالعربية من اليهود الى اليوم . ولقد أثرت هذه الترجمات في العلماء المسلمين بان شحذت قرائحهم ودفعت بهم الى مناقشة النصارى حتى ان الجاحظ (المتوفى ٨٦٩) انبرى لدحض آراء علماء الدين المسيحي . ثم اننا نعرف وزراء نصارى قاموا في الشطر الثاني من القرن التاسع منهم عبدون ابن صاعد الذي يحكى انه دخل على قاضي بغداد فقام له ورحب به فانكر الشهود ذلك (١) . وكان للمتقي (٩٤٠ـ٤٤) وزير نصراني (٢) كما كان لاحد بني بويه وزير آخر (٣) . اما المعتضد (٨٩٢ ـ ٩٠٢) فقد جعل على المكتب الحربي لجيش المسلمين رئيساً نصرانياً (٤) . وقد نال امثال هؤلاء النصارى من اصحاب المناصب العالية ما ناله زملاؤهم المسلمون من الاكرام والتبجيل ونستطيع ان نتبين ذلك حين نقرأ عن بعض من امتنع عن تقبيل ايديهم من المسلمين . وكانت اكثرية اطباء الخلفاء انفسهم من ابناء الكنيسة النسطورية . وقد نشر اخيراً براءة منحها المكتفي (٥) سنة ١١٣٨ لحماية النساطرة وهي توضح مدى العلاقات الودية بين رجال الاسلام الرسميين و بين رجال النصرانية .

النساطرة

وقد كان رعايا الخلفاء العباسيين من النصارى ينتمون بالاكثر الى كنيستين سريانيتين هما الكنيسة اليعقوبية والكنيسة النسطورية وكانت الاكثرية بين النصارى في العراق من النساطرة فنال بطريركهم المعروف بالجاثليق (٦) حق السكنى ببغداد وجعلها مقراً لكرسيه وهو امتياز سعى اليعاقبة ان ينالوه فلم يفلحوا . وقد نشأ حول مقر الجاثليق ببغداد المدعو بدير الروم (٧) حي للنصارى عرف بدار الروم . وكان للجاثليق سلطة روحية على سبع ابرشيات

---

١) ياقوت ، ادباء ج ٢ ص ٢٥٩ .
٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة (القاهرة ، ١٩٠٤) ج ٢ ص ١٤٩ .
٣) هو نصر ابن هارون . انظر مسكويه ، تجارب الأمم ، نشر مرغوليوث ج ٢ (القاهرة واكسفورد ، ١٩١٥) ص ٤٠٨ ، ٤١٢ .
٤) الصابيء ، وزراء ص ٩٥ .
٥) A. Mingana in *Bulletin John Rylands Library*, vol. 10 (1926), pp. 127-33.
٦) بكسر الثاء أو فتحها وهو تعريب « Catholicos » .
٧) ياقوت ، بلدان ج ٢ ص ٦٦٢ .

او مطرانيات منها ابرشية البصرة وابرشية الموصل وابرشية نصيبين وفي كل منها مطران واسقفان اوثلاثة. وكان المرشح المنتخب لمنصب الجثلقة يتسلم من الخليفة براءة تسند اليه الزعامة الرسمية على نصارى الامبراطورية الاسلامية كلها . واستطاع الجاثليق في سنة ٩١٢ — ١٣ ان يحمل الخليفة على منع بطريرك اليعاقبة من نقل كرسيه في انطاكية الى بغداد (١) . وكان اهم ما اتهم به اليعاقبة انهم كانوا يمالئون البيزنطيين . غير انه كان لليعاقبة دير ببغداد (٢) وابرشية في تكريت غير بعيدة عن العاصمة . وقد اورد ياقوت (٣) اسماء نحو ستة اديرة من اديرتهم كانت في الجانب الشرقي من بغداد غير الاديرة التي قامت في الجانب الغربي .

وكان اقباط مصر كما ذكرنا قبلاً قد اعتنقوا عقائد اليعاقبة وكذلك كنيسة النوبة فانها كانت يعقوبية واعترفت برئاسة بطريرك الاسكندرية . وقد انتشرت النصرانية بين معاشر البربر على الساحل الضيق المحاذي للبحر في افريقيا الشمالية المتاخمة لمصر ولكن سواد الشعب في داخلية هذه البلدان الافريقية ظلوا يمارسون عقائد او مذاهب خاصة تختلف باختلاف قبائلهم .

ومن اعجب الظواهر في حياة النصرانية في ظل الخلفاء انه كان لها من القوة والنشاط ما دفع بها الى التوسع فافتتحت لها مراكز تبشيرية في الهند والصين . وقد انبأنا ابن النديم (٤) عن اجتماعه براهب في دار الروم (٥) ببغداد كان قد انفذه الجاثليق مبشراً الى الصين . وان العمود الحجري المشهور في « سيان فو » بالصين الذي نصب سنة ٧٨١ تذكاراً لجهود سبعة وستين مبشراً نسطورياً (٦) وانضمام الكنيسة الهندية واتباع القديس توما في مالابار بالقرب من مدراس الى بطريركية بغداد لدليل على حيوية الكنيسة السريانية الشرقية واندفاعها

---

١) لقد ذكر السمعاني امر البطاركة المونوفيزيين اليعاقبة لهذا العصر — Assemani, *Bibliotheca Orientalis*, vol. ii (Rome, 1721).

٢) ياقوت ج ٢ ص ٦٦٢ .

٣) مادة « دير » .

٤) ص ٣٤٩ .

٥) لقد أخطأ فلوغل محرر الفهرست في شرحه ان « دار الروم » هنا هي مدينة القسطنطينية .

٦) راجع P. Y. Saeki, *The Nestorian Documents and Relics in China* (Tokyo, 1937), pp. 10 seq.

وغيرتها الدينية للتبشير بينما كانت تعيش في كنف المسلمين . ثم ان حروف الكتابة المتداولة اليوم عند المغول والمانشو قد تحدرت في الاصل عن اشكال كتابية مشتقة من الالفباء السريانية التي حملها الى تلك الاصقاع مبشرون من رهبان النساطرة .

اليهود

ولقد لقي اليهود من محاسنة المسلمين فوق ما لقيه النصارى برغم ما في بعض الآيات القرآنية (١) من تنديد بهم . والسبب انهم كانوا قليلي العدد فلم يخش اذاهم . وقد وجد المقدسي (٢) سنة ٩٨٥ ان اكثر الصيارفة وارباب البنوك في سورية يهود واكثر الكتبة والاطباء نصارى وترى في عهد عدد من الخلفاء واخصهم المعتضد (٨٩٢ ـ ٩٠٢) انه كان لليهود في الدولة مراكز هامة . وكان لهم في بغداد مستعمرة (٣) كبيرة ظلت مزدهرة حتى سقوط المدينة . وقد زار هذه المستعمرة بنيامين التطيلي (٤) حول سنة ١١٦٩ فوجد فيها عشر مدارس للحاخامين وثلاثة وعشرين (٥) كنيساً منها واحد رئيسي مزدان بالرخام المخطط ومجمل بالذهب والفضة . وافاض بنيامين في وصف الحفاوة التي لاقاها رئيس اليهود البابليين من المسلمين بصفته سليل بيت داود النبي ورئيس الملة الاسرائيلية (ريش جالوثا في الأرامية اي امير السبي (٦)) او بصفته في الواقع زعيم جميع اليهود الذين يدينون بالطاعة للخلافة في بغداد . فقد كان لرئيس الحاخامين هذا من السلطة التشريعية على ابناء طائفته مثل ما كان للجاثليق على جميع النصارى . وقد روي انه كانت له ثروة ومكانة واملاك طائلة فيها الحدائق والبيوت والمزارع الخصبة . وكان اذا خرج الى المثول في حضرة الخليفة ارتدى الملابس الحريرية المطرزة وعمامة بيضاء موشاة فيها الجواهر واحاط به رهط الفرسان وجرى امامه ساع

---

١) البقرة : ٧٠ — ٧٣ ؛ المائدة : ١٦ ، ٦٦ — ٩ .

٢) ص ١٨٣ .

٣) ياقوت ج ٤ ص ١٠٤٥ .

٤) *The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela*, tr and ed. A.Asher, vol.i (London and Berlin, 1840), pp. 100-105.

٥) جعل غيره من الرحالين عدد الكنائس ثلاثاً فقط وهو اقرب الى التصديق .

٦) لا يستبعد ان بعض يهود بغداد هم ذرية بني اسرائيل الذين سباهم نبوخذ نصر سنة ٥٩٧ وسنة ٥٨٦ ق. م.

يصيح باعلى صوته « افسحوا دربا لسيدنا ابن داود » .

الصابئة

كان المنديون (١) وهم الصابئون (٢) الحقيقيون الذين عرفهم كتاب العربية طائفة يهودية ـ نصرانية عُرف ابناؤها في العالم اليوم خطأ بنصارى القديس يوحنا لانهم كانوا يدعون انفسهم « نصوري أدِيحيا » اي المراقبون او الممارسون . وقد مارس المنديون سنة المعمودية بعد الولادة وقبل الزواج وفي احوال كثيرة أخرى واقاموا في سهول بابل السفلى . ويرجع أصل طائفتهم الى القرن الاول الميلادي . وكانت فلسطين فيما يظن موطنهم الأصلي وموطن غيرهم من ابناء الطوائف المعمدانية الأخرى . اما اللغة المندية فهي لهجة آرامية يشابه خطها كثيراً الخط النبطي والخط التدمري . وقد ورد ذكر الصابئين ثلاثاً في القرآن وقد اعتبروا كأهل الذمة واعطاهم المسلمون أمان أهل الكتاب . وذكر الفهرست (٣) ان منهم فرقة المغتسلة وهم يسكنون منخفضات العراق الجنوبي . ولا يزال من هذه الطائفة جماعة تقدر بنحو خمسة آلاف تسكن الاغوار بجوار البصرة وقد دفعهم الى الاقامة قرب الانهار ما في ديانتهم من فريضة الاغتسال او التغطيس في الماء الجاري وهي ابرز ميزة في طقوسهم الدينية . ومن الصابئة في بغداد اليوم فريق يعملون بصياغة الفضة وصناعة الميناء عليها ويعرفون بأهل العمارة .

وهناك صابئة في حرّان (٤) يختلفون عن الصابئين البابليين وليسوا من الصابئة حقاً . وقد أخطأ مؤرخو العرب حين خلطوا بين الفريقين فصابئة حرّان في الواقع وثنيون يقولون بالثنوية الالهية وقد اتخذوا الصابئة لهم اسماً بعد مجيء الاسلام ليضمنوا لانفسهم الأمان الذي منحه الاسلام لأهل الكتاب ومن جاراهم . ثم لصق بهم هذا الاسم فظل ابناؤهم مقيمين بجوار العاصمة الى اواسط القرن الثالث عشر حين غشي المغول البلاد وهدموا آخر

---

١) مشتقة من « يدع » الارامية اي « عرف » وقد كانت هذه الطائفة تقول بالمعرفة (غنوستية) .
٢) صابئون او صابئة مفردها صابىء من المندية (أرامية) أي مغتسل .
٣) ص ٣٤٠ ؛ المسعودي ج ٢ ص ١١٢ .
٤) المسعودي ج ٤ ص ٦١ — ٧١ يفرد لهم جانباً من بحثه .

هيكل لهم . وليس من شك في ان مؤهلاتهم العقلية وخدمات بعض نوابغهم العلمية هي التي أهابت بالمسلمين الى منحهم الحماية التي لأهل الكتاب (١) . وقد سبقت الاشارة الى ثابت ابن قرة وغيره من علماء الفلك الحرانيين . اما سنان ابن ثابت فقد حمله الخليفة القاهر على الاسلام (٢) . ومن اللامعين بين الصابئة البتاني الفلكي وابن وحشية المنسوب اليه كتاب الفلاحة النبطية . ولعل جابراً ابن حيان الكيماوي الشهير كان منهم ايضاً . الا ان الثلاثة الاخرين قد أسلموا (٣) .

المجوس وسواهم من الثنوية

لايمكن ان يكون النبي محمد قد اعتبر اتباع زرادشت (المجوس) الذين ورد ذكرهم مرة واحدة في القرآن (٤) في عداد اهل الكتاب غير ان التقليد والشرع جعلاهم فئة من أهل الذمة وحسبوا كأنهم من الصابئين . فقد قضت السياسة العملية والمصلحة ان يوسع نطاق الذمة فيشمل كل أهل ايران . وهكذا فقد ظلت الديانة الزرادشتية (وكانت دين الدولة) وهيا كلها بعد الفتح الاسلامي منتشرة لا في الامصار الايرانية فحسب بل في العراق والهند وبعض المناطق التي الى الشرق من فارس (٥) . ولا يزال فريق منهم اليوم في بلاد الهند كان آباؤهم قد نزحوا اليها من بلاد فارس في اوائل القرن الثامن . ولقد نبغ بين اتباع زرادشت اعلام اعتنقوا الاسلام اقدمهم ابن المقفع .

اما المانيون فقد التبس امرهم على المسلمين اول الامر فحسبوهم تارة نصارى وأخرى زرادشتية ثم جعلوهم بعدئذ كأهل الذمة . ويظهر ان تعاليم ماني الفارسي (المتوفى ٢٧٦ م) راقت لبعض المسلمين وكادت تفتنهم بحيث ان المهدي والهادي اصدرا اوامر صارمة تضييقاً

---

١) الفهرست ص ٢٧٢ .

٢) الفهرست ص ٣٠٢ وقد اقتبس عنه ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٢٠ـ ٢١ .

٣) تجد ايضاحات وافية عن الصابئة في كتاب D. Chwolsohn *Die Ssabier und der Ssabismus*, 2 vols. (St. Petersburg, 1856).

٤) سورة الحج : ١٧ .

٥) المسعودي ج ٤ ص ٨٦ .

على هذه النزعة في النفوس . ويقال ان مروان آخر خلفاء بني امية اتهم بالمانوية (١) وكان له مؤدب قتل فيما بعد لزندقته (٢) . وفي سنة ٧٨٠ صلب المهدي في حلب جماعة من الذين اسرّوا المانوية . وفي السنتين الأخيرتين من عهده جدّ في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق وجرّد فيهم السيف (٣) . وقد نسج الهادي من بعده على المنوال نفسه (٤) ، فاشتدت نقمته على الزنادقة . ثم جاء الرشيد فولّى امرهم موظفاً خاصاً قلّده حق قتل القائلين بالثنوية (٥) . ولكن كثيرين من اتباع ماني ومن اصحاب المزدكية (٦) الاشتراكية نجوا بعد ذلك الاضطهاد . ومع ان القرآن لايرحم المشركين وعبدة الاصنام (٧) فان المسلمين عملياً قد تغاضوا عن امثال هؤلاء من الجوالي الصغيرة في شمالي افريقية واواسط آسية لقلة عددهم كما أنه استحال عليهم أن يستأصلوا الوثنية من الهند .

انتشار الاسلام

ان الفتوحات التي وقع اكثرها في دور الخلفاء الراشدين تمت في الواقع كما اشرنا بفضل السلاح العربي والقوميين العرب ونجم عنها احتلال فارس والهلال الخصيب وافريقية الشمالية الشرقية . ثم اتى القرن الاول من حكم العباسيين فدخلت الفتوحات في مرحلة جديدة هي مرحلة انتصار الاسلام كدين . ففي خلال هذا العصر الجديد اعتنق السواد الاعظم من سكان الامبراطورية الاسلام ديناً . وليس ينكر ان كثيرين اعتنقوا الاسلام منذ ايام الفتوح الاولى

---

١) الفهرست ص ٣٣٧ـ٨ .

٢) اطلق قدماء كتاب العرب لفظة زنديق (وهي مشتقة من زنديك البهلوية) على كل مسلم اظهر عقائد الفرس لا سيما المانوية . وصارت لفظة زنديق فيما بعد تدل على من اتصف بالحرية الفكرية قابل E. G. Browne, *A Literary History of Persia* vol. i (New York, 1902), pp. 159-60. وانظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ١١٤ هامش رقم ٢ .

٣) الطبري ج ٣ ص ٤٩٩ ، ٥١٩ـ٢٠ ، ٥٨٨ .

٤) المصدر نفسه ص ٥٤٨ـ٥١ .

٥) من اقدم المصادر عن المانوية وافضلها : الفهرست ص ٣٢٧ وما يلي ؛ الشهرستاني ص١٨٨ وما يلي؛ اليعقوبي ج ١ ص ١٨٠ـ٨٢ وراجع بحثاً حديثاً فيهم اورده وليمز جاكسون A. V. Williams Jackson, *Researches in Manichaeism* (New York, 1932).

٦) انظر الطبري ج١ص٨٨٥ـ٦، ٨٩٧؛ الشهرستاني ص ١٩٢ وما يلي ؛ Browne, vol. i, pp. 166-72

٧) النساء : ١١٦ـ٢٠ ، الانبياء : ٩٨ـ١٠٠ ؛ التحريم ٩ .

ولكن هناك بلاداً كسورية مثلاً ظلت محافظة على مظهرها النصراني طوال العصر الاموي . اما في هذا العصر الجديد فقد اخذ التحول يظهر بشكل واضح . وقد آلت النظم الصارمة التي سنها الرشيد والمتوكل بحق الذميين الى ازدياد عدد الداخلين في الاسلام . وكان هناك حالات خاصة أكره فيها بعض الافراد او الجماعات على الاسلام . من ذلك ان خمسة آلاف نصراني من بني تنوخ رآهم المهدي بجوار حلب فأمرهم ان يسلموا فامتثلوا (١) . الا ان الدخول في الاسلام وان لم يكن هناك محيص عنه آخر الامر كان بوجه عام عملاً تدريجياً سلمياً . فقد قضت المصلحة الفردية به ومن ورائها حب التخلص من تأدية الجزية وما فيها من اذلال والتهرب من الاذى والرغبة في المناصب والوصول الى النفوذ السياسي والتمتع بقسط اوفر من الحرية والامان .

و بقيت فارس بوجه عام خارج حظيرة الدين الاسلامي الى ما بعد فتحها بنحو ثلاثة قرون . ولا يزال فيها الى اليوم من اتباع زرادشت نحو ٩٠٠٠ نفس . اما الجزيرة في شمالي العراق فقد قال ابن الفقيه (٢) عن سكانها في القرن العاشر للميلاد انهم « مسلمون في اخلاق النصارى » . ولا يزال في لبنان الى اليوم اكثرية نصرانية . اما مصر وهي البلاد التي اعتنقت النصرانية بصورة سطحية في القرن الرابع للميلاد فقد حدث تحولها الى الاسلام على ايسر الطرق . والاقباط فيها اليوم أقليّة ضئيلة . وكانت مملكة النوبة التي تنصرت في اواسط القرن السادس لاتزال على دين النصرانية في القرن الثاني عشر (٣) بل حتى اواخر القرن الرابع عشر (٤) . اما اسلام البربر واهالي افريقية الشمالية حيث ازدهرت قبلاً كنيسة مسيحية ذكرنا من انجبتهم من أحبار فقد شرع به دون كبير نجاح على يد عقبة وذلك بعد ان أسس القيروان واتخذها مركزاً للعمليات الحربية ومقراً للنفوذ الاسلامي . ولكن الاسلام

---

١) ابن العبري ، Ibn - al - 'Ibri, *Chronicon Syriacum*, ed and tr. P. J. Bruns and G. G. Kirsch (Leipzig, 1789), vol. ii (text) p. 133 = vol. i, pp. 134-5.

٢) البلدان ص ٣١٥ .

٣) الادريسي ، صفة المغرب نشر وترجمة دوزي ودي غويه (ليدن ١٨٦٤–٦٦) ص ٢٧ من النص العربي .

٤) ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٩٦ .

لاقى نجاحاً اوفر بين معاشر البربر في القرن التالي وذلك حين اخذت جموعهم تنخرط في سلك الجيش الاسلامي وتعتنق الاسلام طمعاً بالغنائم التي يجرها الفتح . وكان البربر نواة الجيش الاسلامي الذي أتم فتح افريقية الغربية واخضع اسبانية . غير أنه حتى في هذه الحالة كان لايزال في بلادهم بعد ثلاثة قرون من الفتح العربي اربعون اسقفية (١) من أصل خمسمئة كانت فيها . ولم يتم للاسلام الفوز الأخير حتى القرن الثاني عشر للميلاد . ومن بعض قبائل الجزائر من لم تسلم حتى اوائل القرن السادس عشر . وكان اسلامها على يد جماعات من مسلمي الاندلس الذين أجلوا عن منازلهم في أسبانية بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ .

انتصار العربية

وكانت المرحلة الثالثة من مراحل الفتح مرحلة اللغة وفيها انتصرت اللغة العربية على لغات الشعوب المغلوبة . وكانت هذه المرحلة آخر المراحل وابطأها وقد ابدت فيها الشعوب المغلوبة اعظم الدفاع واشدّ المقاومة . وتبيّن فيها كما هو المعتاد في غيرها ان الشعوب تؤثر التخلي عن كيانها السياسي بل عن ديانتها القومية اذا اقتضى الأمر قبل ان تتخلى عن لغتها . ولم يتحقق الفوز الأخير للغة العربية حتى اواخر العصر العباسي . وقد أصبحت اللغة العربية في فارس لوقت ما بعد الفتوحات الحربية لغة العلم والطبقة الراقية من المجتمع ولكنها لم تتوصل قطّ الى القضاء على اللغة الايرانية . اما العراق وسورية فقد كان التحوّل فيهما من لغة سامية هي الارامية الى لغة سامية أخرى هي العربية أمراً أسهل . غيران البقاع التي لم تكن مطروقة في هذين القطرين كجبال لبنان الشرقية والغربية لم تتخلّ عن لغتها بسهولة بل كافحت كثيراً في سبيل الاحتفاظ بها الى عصور متأخرة . وفي الواقع ان اللغة السريانية لاتزال محكيّة الى يومنا هذا في ثلاث من قرى جبل القلمون في سورية هي معلولا وجب عادين وبخعة . ولم تتلاشَ الارامية الا بعد ان تركت آثاراً بينة في اللغة العربية المحكيّة يُمكن تلمسها في مفرداتها وتركيبها النحوي والصرفي (٢) .

(١ De Mas Latrie, *Relations et commerce de l' Afrique septentrionale* (Paris, 1886), pp. 27-8; Arnold, *Preaching*, pp. 126 *seq.*

٢) حتي ، اللغات السامية (بيروت ، ١٩٢٢) ص ٣٠-٤٦ .

ويجب ان نذكر هنا انه قد تسنى للغة العربية ان تنتصر كلغة علم قبل انتصارها كلغة تخاطب . وقد لاحظنا في الفصل السابق كيف تسرّبت اليها من بيزنطة وفارس والهند مجاري الفكر وخلاصة الثقافات المختلفة المعروفة فاتصلت ببغداد والبصرة والكوفة في القرن التاسع بشكل لم يسبق له مثيل الاّ في حضارة الاسكندرية في العصور الاولى . وهكذا اصبحت اللغة العربية التي لم تستخدم من قبل للاغراض العلمية اداةً للتعبير عن مظاهر الحضارة الاسلامية وسنسوق الآن البحث في تلك الحركة الثقافية الواسعة .

الفصل السابع والعشرون

التقدم العلمي والأدبي

لقد عقب عصر الترجمة (حوالي ٧٥٠ ـ ٨٥٠) الذي تحدثنا عنه في فصل سابق عصر انتاج وابتكار اثبت العرب فيه انهم لم يكتفوا باقتباس تراث فارس القديم وتراث اليونان المدرسي وهضمه بل حولوا التراثين لحاجاتهم الخاصة وطرق تفكيرهم واضافوا اليهما ما استطاعوا ان يستنبطوه . وقد ظهرت مآثرهم في الطب والفلسفة ولكنها تجلت بنوع خاص في الكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافية . بل قد تفردوا عرباً ومسلمين بمذاهب في البحث والابتكار في ميادين الشريعة وعلوم الدين وفقه اللغة وعلومها . اما الترجمات التي قاموا بها فقد طبعتها العقلية العربية بطابعها الخاص في الاجيال اللاحقة ثم اتصلت مع ما اتصل باوربا من مبتكراتهم الخاصة سالكة طريق سورية واسبانية وصقلية ، وما لبثت ان وضعت اساس حركة العلم والمعرفة التي سيطرت على اوربا في العصور الوسطى . وان حركة النقل في تاريخ الثقافة لا تقل اهمية وخطراً عن حركة الابتكار نفسها فلو ان ابحاث ارسطو وجالينوس وبطليموس فقدت لكان العالم في افتقاره اليها بالوضع نفسه كما لو كانت غير موجودة أصلاً .

الطب

ويتعذر في كثير من الأحيان تعيين الحد الفاصل بين الترجمة والوضع ، فقد كان كثير من المترجمين واضعين في الوقت نفسه . وهذا يصدق على يوحنا ابن ماسويه (٧٧٧ ـ ٨٥٧) وحنين ابن اسحاق (٨٠٩ ـ ٧٣) . وكان الاول طبيباً نصرانياً درس على جبريل ابن بختيشوع ويذكر عنه انه لما عجز عن الحصول على جثث بشرية للتشريح لما في ذلك من مغايرة لروح الاسلام عمد الى القردة فشرحها وكان ملك النوبة قد أهدى المعتصم واحداً في

سنة ٨٣٦ (١). ولم يكن تقدم علم التشريح ممكناً في مثل تلك الاوضاع الا في بعض الفروع كدراسة العين. وقد كان انتشار امراض العين في العراق وسواه من الاقطار الاسلامية الحارة داعياً ان تركز جهود أهل الطبابة في هذه الناحية. ولنا في رسالة لابن ماسويه (٢) في معالجة امراض العين اقدم أثر عولج فيه هذا الموضوع بشكل منتظم. وقد نشر اخيراً مع ترجمة انكليزية كتاب عنوانه « العشر مقالات في العين » (٣) ينسب الى تلميذ ابن ماسويه – حنين ابن اسحاق – ويعد اقدم كتاب مدرسي بين ايدينا لامراض العين.

وقد ظهر اهتمام العرب بعلم الشفاء من الحديث النبوي الذي اشرنا اليه قبلاً – العلم علمان علم الأديان وعلم الابدان. وقد كان الطبيب في ذلك العهد يجمع الى علمه بالطب معرفة بما وراء الطبيعة (علم الالهيات) والفلسفة والحكمة ومن هنا كان يطلق على من يحوز هذه العلوم لقب الحكيم. وكانت مهنة الطب رابحة، يدلنا على ذلك ان جبريل ابن بختيشوع (المتوفى نحو ٨٣٠) الذي كان طبيب البلاط عند الرشيد والمأمون والبرامكة كانت املاكه ثمانية وثمانين مليوناً وثمانمئة الف درهم (٤). وكان يتقاضى بصفته طبيباً خاصاً للرشيد مرتباً قدره مئة الف درهم وذلك لفصده مرتين في السنة وكان يأخذ مثل ذلك المبلغ لاعطائه المسهّل مرتين ايضاً في السنة. وقد انجبت أسرة بختيشوع هذه عدداً من الاطباء اللامعين في ستة او سبعة أجيال متعاقبة كان آخرهم من اطباء الشطر الثاني من القرن الحادي عشر.

وقد خطا العرب في هذا العصر خطوات واسعة في استعمال العقاقير للتداوي فهم اول من أنشأ حوانيت خاصة لبيع الأدوية واقدم من اسس مدرسة للصيدلة بل أول من وضع الأقراباذين (كتب الادوية). فقد ألفوا كثيراً من الرسائل في الصيدلة كان من اوائلها ما وضعه جابر ابن حيّان ابو الكيمياء الشهير الذي نبغ حوالي ٧٧٦. وكان يفرض على الصيادلة منذ

---

١) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١٧٨.

٢) واسمها « دغل العين » منها مخطوطة في مكتبة تيمور باشا — دار الكتب في القاهرة — وأخرى في لننغراد.

٣) نشره وترجمه ماكس مايرهوف Max Meyerhof (القاهرة، ١٩٢٨).

٤) القفطي ص ١٤٣.

زمن المأمون والمعتصم ان يجتازوا امتحاناً خاصاً (١) وفرض على الاطباء مثل ذلك . ورفع الى المقتدر سنة ٩٣١ أن رجلا من العامة جاء يتداوى لحقه ضرر من سوء المعالجة فأمر سنان ابن ثابت ابن قرة بامتحان الاطباء واجازة من ينجح منهم وان يطرد من الصناعة من اتضح قلة علمه في الامور الطبية . فتقدم الى الامتحان عدد كبير أجيز منهم اكثر من ثمانمئة وستين رجلاً ببغداد وتخلصت العاصمة من الدجالين (٢) . وأوعز عليّ ابن عيسى وزير المقتدر الى سنان بأن ينفذ جماعة من الاطباء يطوفون البلاد ومعهم خزانة للادوية والاشربة ويعالجون من يرونهم من المرضى وان ينفذ آخرين لزيارة المرضى في السجون (٣) . وتُظهر لنا هذه المعلومات اهتمام اولياء الامر بالصحة العامة وهو امر لم يكن معروفاً في سائر العالم آنذاك . ولقد نال سنان ما ناله من شهرة بفضل الجهود التي بذلها لرفع المستوى العلمي لمهنة الطب و بفضل حسن ادارته للبيمارستان الكبير في بغداد . وكان هذا البيمارستان اول مستشفى في الاسلام وقد انشأه هارون الرشيد في مطلع القرن التاسع على الطراز الفارسي كما يتضح من اسمه (٤) . ولم يطل الامر كثيراً حتى ظهر في العالم الاسلامي مستشفيات اخرى بلغ عددها اربعة وثلاثين . وكان اول مستشفى فى القاهرة ذاك الذي امر بانشائه احمد ابن طولون نحو سنة ٨٧٢ وظلت هذه المؤسسة حتى القرن الخامس عشر . اما المستوصفات النقالة فقد ظهرت اولا في القرن الحادي عشر . وكان في هذه المستشفيات الاسلامية اجنحة خاصة للنساء ولكل مستشفى صيدلية ملحقة به وكان في بعض هذه المستشفيات مكتبات طبية ودروس في الطب.

علي الطبري

وظهر الاطباء المؤلفون بعد عصر الترجمة وكان اجدرهم بالذكر جماعة من اصل فارسي يتكلمون العربية هم علي الطبري والرازي وعلي ابن العباس المجوسي وابن سينا ولاثنين من هؤلاء ـ الرازي وابن سينا ـ صورتان تزينان القاعة الكبرى في مدرسة الطب بجامعة باريس.

---

١) القفطي ص ١٨٨ — ٩ .

٢) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٢٢ ؛ القفطي ص ١٩١ .

٣) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٢١ ؛ القفطي ص ١٩٣ — ٤ .

٤) بيمارستان وهي مركبة من كلمتين فارسيتين « بيمار » ومعناها مريض و « ستان » ومعناها موضع .

وكان علي ابن سهل ربّان الطبري الذي لمع في منتصف القرن التاسع نصراني الاصل من طبارستان كما حكى عن نفسه في كتابه ـ كتاب الدين ـ وكما يستدل من اسم ابيه [١]. وقد اسلم في زمن المتوكل فاصبح طبيب الخليفة. وفي عهده وضع سنة ٨٥٠ كتابه ـ فردوس الحكمة ـ وهو من اقدم الكتب العربية في الطب. وفي هذا الكتاب ابواب تلم الى حد ما بالفلسفة والفلك وهو موضوع على اسس المصادر اليونانية والهندية. وكان من الذين خلفوا علياً في الطب الفيلسوف الحكيم الرازي.

الرازي

هو ابو بكر محمد ابن زكرياء الرازي (٨٦٥ ـ ٩٢٥) نسبة الى الري مسقط رأسه وهي بلدة لا تبعد كثيراً عن طهران عاصمة ايران الحديثة. ولعله كان اعظم اطباء الاسلام واكثرهم ابتكاراً وانتاجاً[٢]. ولما استشير في امر الموضع الذي يجب انه يبنى فيه البيمارستان ببغداد[٣] هذا المستشفى الذي اصبح هو رئيس الاطباء، فيه أمر فيما يقال ان يعلق في كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم ثم اعتبر الناحية التي لم يتغير اللحم فيها بسرعة فاشار بان يبنى في تلك الناحية [٤]. واليه ينسب اختراع الفتيلة في الجراحة. وقد احصى له ابن النديم[٥] مئةوثلاثة عشر كتاباًوثماني وعشرين رسالةمنها اثنا عشر مؤلفاً في الكيمياء.ومن اهم ما وضعه في الكيمياء «كتاب الأسرار» الذي تقلّب على ايدي المحررين ثم نقله بعد ذلك الى اللاتينية جرارد الكرموني [٦] (المتوفى ١١٨٧) فأصبح مصدراً رئيسياً للكيمياء الى ان خلفته تآليف

١) كتاب الدين ص ١٢٤ — ٥ وانظر ايضاً الفهرست ص ٢٩٦ ؛ قابل ابن خلكان ج ٢ ص ٥٠٣. أما «ربان» اسم ابيه — وهو اللفظ الذي حمل بعضهم على الظن أنه يهودي الأصل — فكلمة سريانية معناها سيدنا كما شرحها علي نفسه في تصديره لكتابه «فردوس الحكمة في الطب» نشر محمد صديق (برلين، ١٩٢٨).

٢) Edward G. Browne, *Arabian Medicine* (Cambridge, 1921), p. 44.

٣) ظنه الكتاب المتأخرون «البيمارستان العضدي» نسبة الى عضد الدولة البويهي وذلك خطأ لان عضد الدولة ابتنى بيمارستانه بعد هذا الزمن ولكن في الموضع نفسه.

٤) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٣٠٩—١٠.

٥) الفهرست ص ٢٩٩ — ٣٠٢.

٦) Gerard of Cremona

جابر ابن حيان في القرن الرابع عشر . وقد اشار اليه روجر باكن تحت عنوان *De spiritibus et corporibus* . ولما كان الرازي مقيماً في فارس وضع سفراً جليلاً في عشرة اجزاء أهداه الى المنصور ابن اسحاق الساماني امير سجستان وسماه «الكتاب المنصوري». وقد نقل هذا الكتاب الى اللاتينية وعرف بـ « *Liber Almansoris* » ونشر لاول مرة في ميلان ما بين ١٤٨٠ و١٤٨٩ . وقد نقلت منه فصول حديثاً الى الافرنسية والالمانية. اما رسائل الرازي فأشهرها « الجدري والحصبة » . وهي اول ما كتب في هذا الباب وتعد مفخرة من مفاخر التآليف الطبية عند العرب . وفيها نرى اول بيان سريري للجدري (١) . وقد نقلت هذه الرسالة اولا الى اللاتينية وذلك في مدينة البندقية ثم نقلت بعد ذلك الى عدة لغات حديثة فاكسبت الرازي شهرة في انه من اقدر المفكرين المبتكرين ومن اعلام الاطباء السريريين ليس في الاسلام فحسب بل في سائر انحاء العالم في العصور الوسطى . على ان اهم مؤلفاته على الاطلاق هو كتابه «الحاوي» الذي نقله الى اللاتينية فرج ابن سالم الاسرائيلي سنة ١٢٧٩ برعاية كارل آنجو الاول ملك صقلية. وقد طبعت الترجمة مراراً بين سنتي ١٤٨٦ و١٥٤٢ تحت اسم *Continens* وكانت الطبعة الخامسة سنة ١٥٤٢ قد صدرت في البندقية . والكتاب كما يدل اسمه موسوعة في علوم الطب حوت خلاصة معارف العرب المستقاة من المصادر اليونانية والفارسية والهندية وفيها ايضاً بعض مآثر العرب انفسهم . و بعد ان ترجمت تآليف الرازي الطبية وطبعت ـ وكانت الطباعة لا تزال في اول عهدها ـ اخذت تعم في الغرب وظل لها تأثير كبير على الغرب اللاتيني مدى اجيال طويلة .

اما علي ابن العباس (المتوفى ٩٩٤) فقد كان في الاصل زرادشتياً كما يدل لقبه «المجوسي» وقد امتاز بتأليفه « الكتاب الملكي » الذي وضعه لعضد الدولة فنّا خسرو البويهي الذي دام حكمه من ٩٤٩ ـ ٨٣ (٢) . وقد سمي هذا الكتاب ايضاً « كامل الصناعة الطبية » وقيل فيه

---

١) نشرها كرنيليوس فانديك (لندن ، ١٨٦٦ ، وبيروت ، ١٨٧٢).

٢) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٣٦ — ٤٧ ؛ القفطي ص ٢٣٢ .

« كتاب جليل » وكنّاش نبيل اشتمل على علم الطب وعمله (١) . وهو اوجز من « الحاوي » وقد عمت دراسته الى ان حل محله كتاب « القانون » لابن سينا . وافضل اقسام الكتاب الملكي تلك التي تبحث بعلم الاغذية الصحية وعلم العقاقير الطبية . ومن الامور المبتكرة فيه اشارته الى وجود الحركة الدموية الشعرية و برهانه على ان الطفل في الولادة لا يخرج من تلقاء نفسه بل بفضل تقلصات عضلية في الرحم .

ابن سينا

وكان اسم ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) ألمع اسم بعد الرازي في تاريخ الطب العربي وقد لقب ابن سينا لشهرته بالشيخ الرئيس (٢) . ولقد كان الرازي يتفوق على ابن سينا في الطب ولكن ابن سينا تفوق عليه في الفلسفة وفي الواقع لقد تجلت بل تجسدت في ابن سينا الطبيب والفيلسوف والفقيه والشاعر خلاصة علم العرب .

هو ابو علي الحسين ابن عبد الله وكان ابوه عبد الله هذا اسماعيلياً اما المترجم فقد ولد بالقرب من بخارى فقضى حياته في القسم الشرقي من العالم الاسلامي ثم مات ودفن في همذان حيث لا يزال قبره الى الآن . وقد حظي في حداثته ان طبّب نوحاً ابن منصور سلطان بخارى الساماني الذي ملك من سنة ٩٧٦ ـ ٩٧ فشفاه فمنحه السلطان الحق باستعمال مكتبته السلطانية العظيمة . وكان ابن سينا ممتازاً بمواهب باهرة اعانته على تفهم العلوم وحفظها فاستوعب اهم محتويات تلك المكتبة الملكية . ولم يكد يبلغ الحادية والعشرين من عمره حتى آنس من نفسه استعداداً للشروع في التأليف . فاخذ على عاتقه امر تنظيم المعارف الرائجة في عصره وضبطها . وقد ذكر القفطي (٣) بعض مؤلفات ابن سينا فاذا بينها واحد وعشرون كتاباً واربع وعشرون رسالة ولكن هناك مؤلفات اخرى توصل العدد الى تسعة وتسعين وهي تدور على

---

١) القفطي ص ٢٣٢ وفي فهرست المخطوطات العربية في جامعة برنستون ذيل رقم ١ ذكر لنسخة يرجع تاريخها الى سنة ٥٨٦/١١٩٠ .

٢) ايضاً « المعلم الثاني » أي يأتي بعد ارسطو — المعلم الاول .

٣) ص ٤١٨ ، قابل ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٨ — ٢٠ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٢٧٣ — ٤ ؛ Carl Brockelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur*, vol. i (Weimar, 1898), pp. 453-8 .

الفلسفة والطب والهندسة والفلك والالهيات وفقه اللغة والفنون . اما اشهر منظوماته فقصيدة طويلة في النفس وهبوطها الى الجسد مطلعها :

هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تحجب وتمنع

ولا يزال كثير من الطلاب في الشرق العربي يستظهرونها الى اليوم . واشهر كتبه العلمية اثنان « كتاب الشفاء » وهو موسوعة فلسفية مبنية على تقاليد ارسطو كما تراها الافلاطونية الجديدة وعلى علم الالهيات الاسلامي . و « القانون في الطب » وهو آخر كتاب دونت فيه خلاصة الفكر الطبي شاملاً آثار الاغريق والعرب . وقد نشر النص العربي لكتاب «القانون» في رومة سنة ١٥٩٣ فهو من اقدم الكتب العربية المطبوعة [١] . وكان جرارد الكرموني قد نقل القانون الى اللاتينية في القرن الثاني عشر بما فيه من المعلومات الشاملة والترتيب المنظم والاسلوب الفلسفي وسرعان ما اعتلى مرتبة عالية في آداب ذلك العصر الطبية واحتل المكانة التي كانت تحتلها قبله كتب جالينوس والرازي والمجوسي واصبح الكتاب المدرسي لتعليم الطب في دور العلم الاوربية . وقد ظهر في اثناء الثلاثين سنة الاخيرة من القرن الخامس عشر في خمس عشرة طبعة لاتينية وواحدة عبرانية. وقد نقل بعضه في السنين الاخيرة الى اللغة الانكليزية [٢] . ومن فضائله انه يميز بين التهاب المنصف الصدري (او الحيزوم) و بين ذات الجنب وينص على ان السحاف ينتقل بالعدوى وان عدوى الامراض تسري بواسطة الماء والتراب . وفيه تشخيص علمي لداء الانكليوستوما وهو يرد سبب هذا الداء الى وجود دودة في الامعاء . اما القسم الذي قصر على علم العقاقير والادوية فقد ادرج فيه المؤلف ابحاثاً في نحو سبعمئة وستين دواء . فلا عجب ان يبلغ الكتاب تلك المنزلة التي بلغها ويصبح المرشد لطلاب العلوم الطبية شرقاً وغرباً حتى القرن السابع عشر . ولا يزال الى اليوم يستعان به احياناً في الشرق الاسلامي . ويزعم الدكتور أزلر [٣] ان كتاب « القانون » ظل

---

١) وقد صدرت اول طبعة لكتاب الشفاء ذيلا لكتاب « القانون » .

٢) O. Cameron Gruner, *A Treatise on the Canon of Medicine of Avicenna* (London, 1930).

٣) William Osler, *The Evolution of Modern Medicine* (New Haven, 1922), p. 98.

الحجة والمرجع في الطب مدة أطول من اي مدة بلغها كتاب طبي آخر .

ومن رجال الطبقة الثانية في الطب علي ابن عيسى أشهر كحالي العرب . وهو نصراني ولد في بغداد في النصف الاول من القرن الحادي عشر بعد مضي قرن ونصف على زمن عيسى ابن علي (١) طبيب البلاط عند المعتمد . وكثيراً ما يخلط الكتاب بين الاثنين . اما كتبه العربية الاثنان والثلاثون في علم الرمد فأقدمها وافضلها كتاب « تذكرة الكحالين » (٢) الذي لا يزال محفوظاً في شكله الكامل الاصلي . ولم يسبقه في هذا الموضوع الا رسالة ابن ماسويه ورسالة حنين ابن اسحاق . وقد وصفت « التذكرة » مئة وثلاثين مرضاً من امراض العين . وقد نقلت الى العبرانية مرة والى اللاتينية مرتين ولا تزال مستعملة في الشرق .

ومن اطباء هذه الطبقة ايضاً ابن جزلة (المتوفى ١١٠٠) وهو نصراني الاصل (٣) صنف موجزاً طبياً عنوانه « تقويم الابدان في تدبير الانسان » نسج فيه على منوال « تقويم الصحة » الذي كان قد صنفه طبيب نصراني آخر هو ابن بطلان (٤) المتوفى في انطاكية سنة ١٠٦٣ . وقصد بالتقويم ترتيب الامراض على غرار ترتيب النجوم في التقاويم الفلكية . وقد نقل كتاب ابن جزلة هذا الى اللاتينية في ستراسبورغ سنة ١٥٣٢ .

وآخر من نذكره من الاطباء في هذه الطبقة يعقوب ابن اخي حزام وكان بيطاراً عند المعتضد (٨٩٢ — ٩٠٢) وقد وضع رسالة في تربية الخيل اسمها « الفروسية وشياة الخيل » . وهي اول مصنف عربي في هذا الباب وفيها بعض اوليات فن البيطرة ولا تزال منها نسخة محفوظة في المتحف البريطاني (٥) .

---

١) الفهرست ص ٢٩٧ ؛ ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٠٣ .

٢) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٤٧ وقد ترجمه — ولكن من غير العربية — كاري وود Carey A. Wood, *The Tadhkirat of Ali Ibn Isa* (Chicago, 1936).

٣) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٥٥ ؛ القفطي ص ٣٦٠ ؛ ابن خلكان ج ٣ ص ٢٥٥ .

٤) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٤١ وما يلي ؛ القفطي ص ٢٩٤ وما يلي ؛ كتاب الاعتبار لاسامة ابن منقذ ، نشر حتي (برنستون ، ١٩٣٠) ص ١٨٣ — ٥ .

٥) الفهرست ص ٣١٥ يذكر واحداً باسم « ابن اخي حزام » ولعله ابن ليعقوب هذا .

الفلسفة

الفلسفة عند العرب هي معرفة الاسباب الحقيقية للاشياء بمقدار ما يمكن الوصول اليه عن طريق العقل . وليست فلسفتهم في الجوهر الا فلسفة يونانية متأثرة بنظريات الشعوب التي غلبوها وببعض المؤثرات الشرقية. وقد وضعت بشكل يوافق العقلية الاسلامية واتخذت اللغة العربية اداة للتعبير عنها . وقد حسب العرب ان مؤلفات ارسطو دونت جميع التراث الاغريقي الفلسفي كما دونت مؤلفات جالينوس تراثهم الطبي . واعتبر العرب المسلمون ان كل ما يملكه الغرب من تراث انحصر في الفلسفة الاغريقية والطب الأغريقي واعتقدوا في الوقت نفسه ان القرآن وعلم الالهيات الاسلامي يمثلان خلاصة الشرع والاختبار الديني . ومن هنا كان الميدان الذي ظهرت مآثرهم وابتكاراتهم فيه ناحية متوسطة بين الفلسفة وعلوم الدين وبين الفلسفة والطب. وعلى مر الزمن اخذ مؤلفو العرب يطلقون لفظة «فلاسفة» او « حكماء » على أرباب الفلسفة فيهم الذين لم تتقيد آراؤهم بقيود الدين وقصروا لفظة « متكلمين » او « أهل الكلام » على اولئك الذين اخضعوا طرقهم التفكيرية لنظم الدين المنزل . ويقابل أهل الكلام في الاسلام الكتاب المدرسيين في اوربا المسيحية وقد أبرزوا نظرياتهم بموجب علم الكلام فسموا بهذا الاسم . وما لبث « الكلام » ان أصبح يؤدي معنى علم الالهيات واصبحت لفظة « المتكلم » تعني العالم بالالهيات . فالغزالي بالمعنى الحقيقي « متكلم » وسنعرض له فيما بعد . اما اقطاب الفلسفة العربية الأول فهم الكندي والفارابي وابن سينا .

الكندي

ولد ابو يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندي في الكوفة في منتصف القرن التاسع وزها ببغداد . وقد أكسبه نسبه العربي الصريح لقب « فيلسوف العرب » . والواقع انه اول عربي وآخر عربي يمثل الفلسفة الارسطوطالية في الخلافة الاسلامية في الشرق . وقد استقى آراءه من شتى المصادر ثم سعى مثل أصحاب الفلسفة الافلاطونية الجديدة ال مزج آراء افلاطون وارسطو متخذاً الرياضيات التي خلفتها مدرسة فيثاغورس المتأخرة اساس العلم على

الاطـلاق. على ان الكندي لم يكن فيلسوفاً فحسب بل كان الى ذلك عالماً بالتنجيم والكيمياء والبصريات واصول الموسيقى. وقد نسب اليه ما لا يقل عن مئتين وخمسة وستين كتاباً اكثرها مفقود مـع الاسف . ومن كتبه التي كانت منتشرة في الشرق والغرب مصنف فريد في علم البصريات مطبقـاً على الآراء الهندسية والفسيولوجيـة بناه على مؤلف اقليدس في البصريات المحفوظ في رواية ثيون « Theon ». وظلت لهذا الكتاب مكانته الى ان حل محله كتاب اوسع منه مادة لابن الهيثم . وقد تأثر روجر باكن بترجمة لاتينيـة لكتاب الكندي عنوانهـا «*De aspectibus*» . وللكندي ثلاث رسائل او اربع في الموسيقى من الناحية النظرية وهي اقدم المحفوظ من الآثار العربية المتأثرة بما كتبه اليونان في ذلك الموضوع . وقد ذكر في احدى هذه الرسائل الايقاع كعنصر من عناصر الموسيقى العربية . واذاً فالغناء الموزون عرفه المسلمون قبل ان عرفته اوربا النصرانية [١] بقرون . ولكن اكثر المحفوظ من مصنفات الكندي هو في ترجمات لاتينية كترجمات جرارد الكرموني لا في اصله العربي .

الفارابي

ان عملية التوفيق بين الفلسفة الاغريقية والاسلام التي بدأها الكندي العربي قد تابعها الفارابي التركي واكملها في الشرق ابن سينا الفارسي .

ولد محمد ابن محمد ابن طرخان ابو نصر الفارابي [٢] في ما وراء النهر فدرس على طبيب نصراني وعلى احد النقلة النصارى ببغداد . ثم نزل حلب والتحق ببلاط سيف الدولة الحمداني حيث عرف بالتصوف . وتوفي اخـيراً بدمشق سنة ٩٥٠ عن عمر يناهز الثمانين . اما فلسفتـه كما يظهر من رسائله المختلفة في افلاطون وارسطو فمزيج من الافلاطونية والارسطوطالية والصوفية وقد اكسبته لقباً يحسد عليه وهو « المعلم الثاني » اي ثاني ارسطو. وفيما عدا الشروح التي وضعها الفارابي على كتب ارسطو وسواه من فلاسفة الاغريق فانه قد الف جملة من

---

١) انظر آخر الفصل الواحد والاربعين من هذا الكتاب .

٢) نسبة الى فاراب في تركستان . ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٣٤ ؛ القفطي ص ٢٧٧ .

الكتب في علم النفس والسياسة وما وراء الطبيعة اشهرها « رسالة فصوص الحكم » (١) و « رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة » (٢) . وقد اظهر في هذه الرسالة الاخيرة وفي رسالة اخرى عنوانها « السياسة المدنية » رأيه في كيف تكون المدينة الفاضلة مستوحياً الفكرة من جمهورية افلاطون وسياسيات ارسطو ، فصور لنا هذه المدينة الفاضلة قائمة على نظام الطبقات يعاون بعضها بعضاً كما يتعاون اعضاء الجسم الحي . فالملك الذي يقابل مركزه القلب في الجسم يخدمه موظفون وهؤلاء يخدمهم آخرون ادنى منهم . وان الغرض الذي يجمع الطبقات معاً في المدينة المثالية التي يرتأيها هو سعادة الرعية . والملك فيها يتصف بالكمال في اخلاقه وقواه العقلية .

وللفارابي كتب اخرى تدل على انه كان طبيباً ورياضياً من درجة متوسطة وعالماً بالتنجيم وموسيقياً ممتازاً . وفي الواقع انه يعد اعظم علماء الموسيقى العربية النظريين . فقد بحث في الموسيقى في كتابين من كتبه التي لخص فيها العلوم وزاد على ذلك في انه خصص لها ثلاثة كتب كبرى اهمها « كتاب الموسيقى الكبير » (٣) . وقد ذكر عنه انه حضر مرة مجلس سيف الدولة فأخرج عيداناً لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم ضرب بها لحناً آخر فبكى كل منهم ثم غير ترتيبها وضرب ضرباً ثالثاً فنام كل منهم حتى البواب (٤) . ولا يزال أصحاب الطريقة المولوية ينشدون بعض الالحان القديمة المنسوبة اليه .

وقد جاء بعد الفارابي ابن سينا المتوفى (١٠٣٧) ـ وقد مر ذكره ـ فاتحف العربية بأهم المصنفات في الموسيقى النظرية . وهو مدين للفارابي في آرائه الفلسفية . ويذهب ابن

---

١) نشرها ديتريتشي Friedrich Dieterici, *Die Philosophie der Araber im IX. und X. Jahrhundert n. Chr.*, vol. xiv (Leyden, 1890), pp. 66-83.

٢) نشرت في القاهرة سنة ١٣٢٣ ونشرها ايضاً ديتريتشي : *Die Philosophie* vol. xvi (Leyden, 1895).

٣) اصدر شذرات منه لاند : Land, *Actes du sixième congrès international des orientalistes*, pt. 2, Sec. I (Leyden, 1885) pp. 100-168 وفي مكتبة برنستون مخطوطة عنوانها « كتاب المدخل الى صناعة الموسيقى » نسخت سنة ٨٦٦ / ١٤٦١ وهي على ما يظهر للفارابي . انظر فهرست المخطوطات في برنستون رقم ١٩٨٤ .

٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٠١ .

خلكان (١) الى ان « الفارابي اكبر فلاسفة المسلمين ولم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه والرئيس ابو علي ابن سيناء بكتبه تخرج وبكلامه انتفع في تصانيفه » . ولكن الى ابن سينا يرجع الفضل في اطلاع الطبقة المثقفة من العالم الاسلامي على مجموع الحكمة اليونانية التي نظمها بمهارته الخاصة . وبواسطته تسنى للنظام الفلسفي اليوناني لا سيما نظام فيلو « Philo » سبيل الاندماج في الاسلام .

اخوان الصفاء

حوالى منتصف القرن الرابع للهجرة (نحو ٩٧٠ م) ظهرت في البصرة مدرسة فكرية جديرة بالاهتمام قامت على اساس اختيار شيء من الفلسفة الرائجة آنذاك مع الميل الى النظريات الفيثاغورية وعرف اصحابها باخوان الصفاء . وان هذا الاسم مستعار في الراجح من قصة الحمامة المطوقة في كتاب « كليلة ودمنة » التي ذكر فيها على لسان الحيوان ان اخوان الصفاء (٢) اذا تم تواصلهم واستمتع بعضهم ببعض استطاعوا النجاة من الصياد (٣) .

واما الاخوان — وقد كان لهم فرع في بغداد — فلم تقم دعوتهم على الفلسفة فحسب بل تعدتها الى ميدان الدين والسياسة وقد ظهر فيهم ميول شيعية متطرفة — اسماعيلية في الارجح — معادية للنظام السياسي القائم وقد جعلوا غايتهم هدم هذا النظام وذلك بزعزعة الاسس التي تقوم عليها المعتقدات الفكرية والدينية الشائعة آنذاك . ومن هنا كان هذا التستر والخفية التي احاطت بالاعمال التي قاموا بها وبقضية الانضمام الى العضوية في مؤسستهم . وقد تحدر الينا مجموعة من رسائلهم (٤) وقد رتبت بشكل موسوعة فيها اسماء بعض من ساهموا في انشائها

---

١) ج ٢ س ٤٩٩ .

٢) يتضح من هذا ان معنى الصفاء هو الاخلاص في المودة . ومنها الصفي هو الحبيب . وعلى هذا فان المستشرقين الذين ترجموا الكلمة بما يفيد الطهارة والنقاوة — « purity » في الانكليزية وما يرادفها في اللغات الأخرى — لم يصيبوا تماماً .

٣) I. Goldziher in *Der Islam*, vol. i (1910), pp. 22-6.

٤) لقد نشر رسائل اخوان الصفا وترجم قسماً كبيراً منها ديترتسي في : *Die Philosophie*, 16 vols. (Leipzig and Leyden, 1858-1895). وكان من الطبعات الشرقية الأخيرة طبعة خير الدين الزركلي — ٤ اجزاء (القاهرة ، ١٩٢٨) .

ولكنها اسماء غامضة لقوم غير معروفين منهم ابو سليمان محمد ابن مشير البستي المقدسي وابو الحسن علي ابن هارون الزنجاني وزيد ابن رفاعة والعوفي . وعدد الرسائل اثنتان وخمسون تعالج ابحاثاً في الرياضيات والفلك والجغرافية والموسيقى وعلم الاخلاق والفلسفة وقد تضمنت خلاصة ما ينتظر من الرجل المثقف ان يقف عليه من معارف ذلك العصر . وكلها توطىء للاخيرة التي تعتبر خلاصة العلوم . اما اسلوب هذه الرسائل فانه يظهر ان اللغة العربية في ذلك العصر قد بلغت من الكفاءة والغنى ما جعلها اداةً مطواعة صالحة للتعبير عن الفكر العلمي في جميع مناحيه . وقد تأثر الغزالي (١) بما كتبه اخوان الصفا وكذلك ايضاً راشد الدين سنان ابن سليمان زعيم الحشاشين بسورية . وذكر ان المعري لما نزل بغداد اخذ يحضر حلقات الاخوان ايام الجمع (٢) . وكان ابو حيان التوحيدي (المتوفى ١٠٢٣) (٣) المعتزلي تلميذاً لهم ان لم يكن عضواً عاملاً في جميتهم ـ ويعده البعض هو والراوندي (المتوفى ٩١٥) والمعري (المتوفى ١٠٥٧) الثالوث الاكبر للزندقة في الاسلام (٤) .

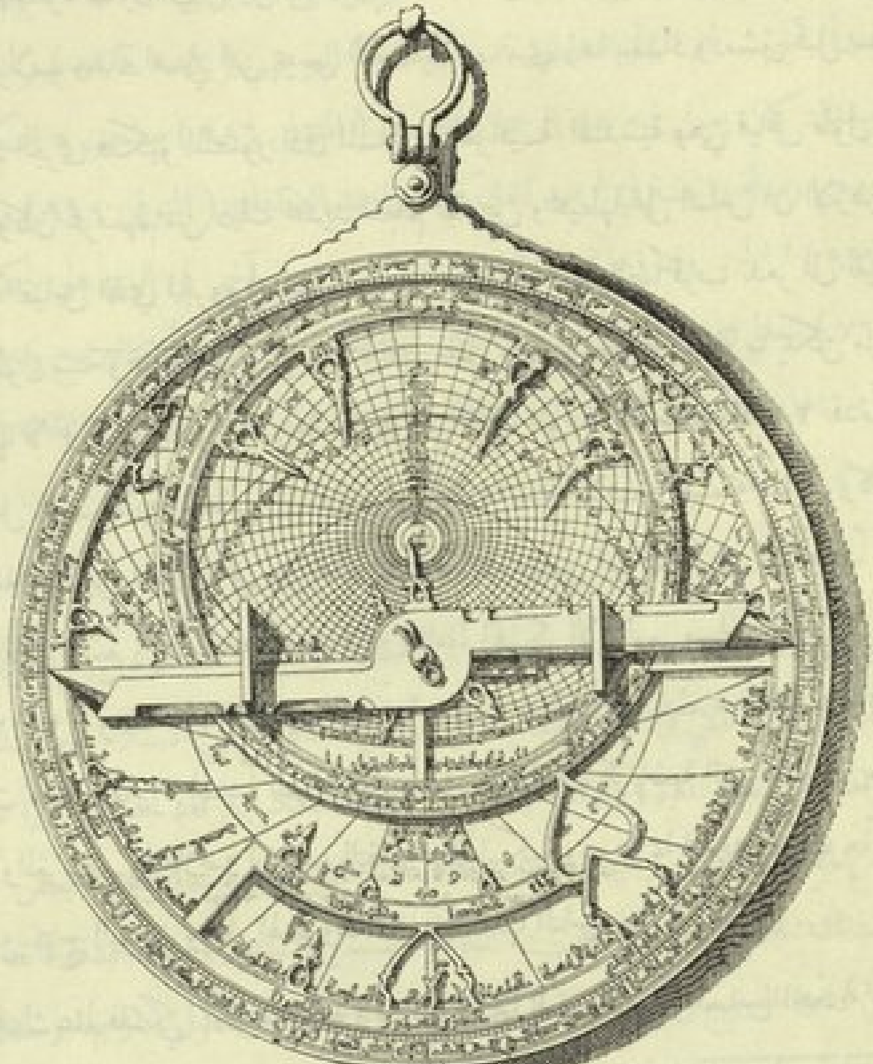
الفلك والرياضيات

بدأت دراسة الفلك العلمية في الاسلام كما تقدم تحت تأثير كتاب هندي « السد ذانتا » (واسمه السند هند في العربية) جيء به بغداد (٧٧١) فترجمه محمد ابن ابراهيم الفزاري واتخذه العلماء بعد ذلك مثالاً يحتذونه. اما التقاويم البهلوية (زيك) التي وضعت في الحقبة الساسانية فقد عربت الآن واضيفت الى العلوم الرياضية وعرف التقويم في العربية بالزيج . وقد كان التأثير اليوناني في علم الرياضيات متأخراً لكنه كان اهم من أي تأثير آخر . فكتاب المجسطي لبطليموس الذي نقل في اول عهد الترجمة ـ ظهر بعدئذ بترجمتين اكثر اتقاناً ودقة أتم الواحدة منهما الحجاج ابن مطر سنة ٢١٢ / ٨٢٧ ـ ٨ والاخرى حنين ابن اسحاق ونقحها بعده ثابت ابن قرة (المتوفى ٩٠١) . وفي مطلع القرن التاسع تمت اول الارصاد المنظمة وقد

---

١) قابل احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٥٤ ، ٢٦٢ بالرسائل ج ١ ص ١٨٠ .
٢) راجع ديوانه سقط الزند ، نشر شاكر شقير (بيروت ، ١٨٨٤) ص ١١٢ ، ١٠٤ .
٣) قابل ابن خلكان ج ٢ ص ٤٧٠ ؛ ياقوت ، الادباء ج ٥ ص ٣٨١ .
٤) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى (القاهرة ، ١٩٠٦) ج ٤ ص ٣ .

استخدمت لها ادوات على جانب من الدقة مصنوعة في جند يسابور (فارس الجنوبية الغربية).
وقد أضاف المأمون الى بيت الحكمة في بغداد بالقرب من باب الشماسية مرصداً فلكياً وعهد بادارته الى سند ابن علي (وهو اسرائيلي اعتنق الاسلام) ويحيى ابن ابي منصور (المتوفى ٨٣٠ او ٨٣١) (١) . ولم يكتف فلكيو الخليفة فيه بالقيام بارصاد منسقة لحركات



وجه الاسطرلاب

الاجرام السماوية فقط بل اخذوا يحققون بدقة فائقة ما جاء في المجسطي كانحراف دائرة البروج ومواقيت اعتدال الليل والنهار وطول السنة الشمسية الخ (٢) . ثم بنى المأمون مرصداً

١) الفهرست ص ٢٧٥ .
٢) C. A. Nallino, art. « Astronomy », *Encyclopaedia of Islam.* وقابـل صاعـد ، طبقات ص ٥٠ ــ ٥١ .

آخر في جبل قاسيون بدمشق (١) . وقد جهزت المراصد في تلك الايام بادوات مختلفة منها مقياس الارتفاع والاسطرلاب والمزولة (ساعة شمسية) وعدد من الكرات . وكان ابراهيم الفزاري (المتوفى حوالي ٧٧٧) اول مسلم صنع اسطرلاباً (٢) . وليس من شك في انه صنعه على غرار اسطرلاب يوناني بدليل استعماله لفظة أسْطُرلاب اسماً له. ومن اقدم الرسائل العربية في الاسطرلاب رسالة لعلي ابن عيسى الاسطرلابي الذي زها ببغداد ودمشق قبل سنة ٨٣٠ .

واقد اجرى فلكيو المنصور ادق المسائل الجغرافية الهندسية وهي قياس طول الدرجة الارضية وكان غرضهم من ذلك تحديد حجم الارض ومحيطها على اساس ان الارض مدورة. وقد ادى القياس الذي اجروه في سهل سنجار شمالي الفرات وايضاً قرب تدمر الى نتيجة جعلت درجة الطول ستة وخمسين ميلاً عربياً وثلثي الميل وهي نتيجة على غاية ما يمكن من الدقة بحيث انها لا تزيد عن طول الدرجة الحقيقي في ذلك الموضع الا بنحو ٢٨٧٧ قدماً (٣) . وهذا يجعل محيط الارض عشرين الف ميل وقطرها ستة آلاف وخمسمئة ميل . وكان من جملة العلماء الذين اشتركوا في حل هذه المسألة ابناء موسى ابن شاكر وربما ايضاً الخوارزمي المشهور الذي وضع زيجاً نقحه بعد قرنين العالم الفلكي الاندلسي مسلمة المجريطي (المتوفى حوالي ١٠٠٧) ونقله الى اللاتينية في سنة ١١٢٦ ادلارد أف باث « Adelard of Bath ». واصبحت هذه التقاويم اساساً لسواها مما ورد في التصانيف الرياضية التي صدرت بعد ذلك في المشرق والمغرب . والخلاصة ان هذه التقاويم الفلكية وغيرها مما انتجه العرب حلّت محل ما سبقها من نتاج اليونان واهل الهند وشاعت فأخذ بها الناس حتى في الصين .

وهناك عالم فلكي آخر من البارزين في هذا العصر هو ابو العباس احمد (٤) الفرغاني وأصله من فرغانة من بلاد ما وراء النهر . وقد امره المتوكل سنة ٨٦١ بعمل مقياس للنيل عند

---

١) ابن العبري ص ٢٣٧ .

٢) الفهرست ص ٢٧٣ .

٣) نللينو ، علم الفلك (القاهرة ، ١٩١١) ص ٢٨١ وما يلي . ولعل كلمة فلك العربية مستعارة من البابلية ص ١٠٥–٦ .

٤) محمد في الفهرست ص ٢٧٩ وكذلك نقلها عنه القفطي ص ٢٨٦ .

الفسطاط (١) بمصر . ومن أهم كتبه « المدخل الى علم هيئة الافلاك » (٢) وقد نقله الى اللاتينية سنة ١١٣٥ يوحنا الاشبلي وجرارد الكرموني وقد نقل ايضاً الى العبرية . اما النص العربي فقد وصل الينا بعناوين مختلفة (٣) .

وعلاوة على المرصد المأموني فقد أنشأ ابناء موسى ابن شاكر (٨٥٠ ـ ٧٠) في منزلهم ببغداد مرصداً آخر . ثم انشأ السلطان شرف الدولة البويهي (٩٨٢ ـ ٨٩) مرصداً ثالثاً في قصره ببغداد كان يعمل فيه عبد الرحمان الصوفي (المتوفى ٩٨٦) صاحب « الكواكب الثابتة » ، وهي رسالة رائعة في الرصد الفلكي ، واحمد الصاغاني (المتوفى ٩٩٠) وابو الوفاء (المتوفى ٩٩٧) (٤) . وقد زها في بلاط سلطان بويهي آخر في الري هو ركن الدولة (٩٣٢ ـ ٧٦) العالم ابو جعفر الخازن الخراساني (٥) فحقق انحراف دائرة البروج وحلّ مسألة عويصة عرض لها ارخميدس تؤدي الى معادلة مكعّبة . ولمع سواه من علماء الفلك في شيراز ونيسابور وسمرقند .

البتاني

وظهر بين ٨٧٧ و ٩١٨ ابو عبد الله محمد ابن جابر البتّاني (٦) واصله من صابئة حرّان وهو بلا جدال اعظم فلكي في قومه وعصره بل هو من اعظم فلكيي الاسلام . ولقد اجرى ارصاده ودراساته في هذه المدة في الرقة . وكان من العلماء المبتكرين فقد اصلح كثيراً مما خلّفه بطليموس من الآثار العلمية وضبط حساب الافلاك التي يدور فيها القمر وبعض النجوم السيارة . كذلك اثبت البتاني امكان كسوف الشمس المستدير وضبط بدقة فائقة مقدار الانحراف في دائرة البروج وطول السنة في الاقاليم الحارة وطول الفصول الاربعة ومعدل دائرة

---

١) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٠٧ .
٢) القفطي ص ٧٨ ؛ ابن العبري ص ٢٣٦ .
٣) انظر فهرست مخطوطات برنستون رقم ٩٦٧ .
٤) الفهرست ص ٢٨٣ ؛ ابن الأثير ج ٩ ص ٩٧ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٥٠٨ـ٩ .
٥) القفطي ص ٣٩٦ ؛ الفهرست ص ٢٦٦ ، ٢٨٢ .
٦) الفهرست ص ٢٧٩ .

الفلك الذي تجري فيه الشمس مع ايضاح حقيقته (١) .

البيروني

نشأ ابو الريحان محمد ابن احمد البيروني (٢) (٩٧٣ - ١٠٤٨) في غزنة بشمالي افغانستان وهو يعدّ اعظم بحاثة وعالم في الاسلام في العلوم الطبيعية والرياضية واكثر علماء الاسلام تعمقاً وابتكاراً في هذه الميادين . وقد وضع هذا العالم الفارسي الاصل وهو في غزنة كتاباً شاملاً في علم الفلك عنوانه « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » وقدمه الى ولي نعمته السلطان مسعود ابن محمود سنة ١٠٣٠ . والف في السنة نفسها رسالة على طريقة السؤال والجواب في الهندسة والحساب والفلك والتنجيم ،موضوعها « التفهيم لاوائل صناعة التنجيم » . اما اول كتاب وضعه فهو « الآثار الباقية عن القرون الخالية » (٣) وعالج فيه بالاكثر تقاويم السنين عند الشعوب القديمة وتواريخهم . وقد تصدى البيروني في مؤلفاته هذه للنظرية القائلة بان الارض تدور حول محورها وبحثها بفهم وادراك - وكانت هذه القضية مدار جدال عنيف يومئذ - وضبط ابعاد خطوط الطول والعرض . ثم انه ارتحل الى الهند (٤) وسافر فيها وكان من أهل الشيعة ومن الذين يميلون الى اللاأدرية ففتنته فلسفة الهنود . ومن مآثره العلمية تعليل الينابيع الطبيعية بموجب موازنة ناموس السوائل . ومنها ايضاً شرح القول بان وادي نهر الاندس (مهران) انما كان في العصور الغابرة حوض بحر قديم ملأته الرواسب . ومنها وصف بعض المخلوقات العجيبة و بينها ما نسميه اليوم بتوأمي سيام (٥)

عمر الخيام

وكان من سلاطين السلاجقة السلطان جلال الدين ملكشاه الذي شمل الدراسات

---

١) وقد نشر نللينو كتابه « الزيج الصابىء » (رومة ، ١٨٩٩) .

٢) ابن ابي اصيبعة ج ٢ س ٢٠ - ٢١ ؛ ابن العبري س ٣٢٤ - ٥ . وهو منسوب الى بيرون بكسر الباء وهي ضاحية من ضواحي خوارزم ومعناها بالفارسية « خارج » . الا ان امضاءه وجد في صفحة العنوان من مخطوطة اخرجتها مجلة *Islamic Culture*, vol vi (1932) مقابل س ٥٣٤ مكتوباً بفتح الباء .

٣) نشرها ا. ساخو (ليبزغ ، ١٨٧٨) وترجمها ايضاً (London, 1879) .

٤) انظر كتابه تحقيق ما للهند نشر ساخو (لندن ، ١٨٨٧) .

٥) واذا استثنينا المصادر الصينية فان اول اشارة الى الشاي قد وردت في كتاب له لم ينشر بعد . كرنكو في مجلة المجمع ج ١٣ (١٩٣٥) س ٣٨٨ .

الفلكية برعايته واسس سنة ٤٦٧ (١٠٧٤ ـ ٥) مرصداً في الري او في نيسابور حيث أدخل على تقويم السنة الفارسية اصلاح هام مبني على قياس دقيق للسنة في الاقاليم الحارة . وقد استقدم عمر الخيام الشهير (١) الى هذا المرصد الجديد وانتدبه لاصلاح التقويم الفارسي . وقد ولد عمر في نيسابور بين سنة ١٠٣٨ و١٠٤٨ وفيها مات ١١٢٣ـ٤ . وهو معروف لدى العالم انه شاعر فارسي (٢) من احرار الفكر . وقلّ من يعرف عنه انه كان الى ذلك عالماً من الطبقة الاولى في الرياضيات والفلك . وقد أدت ابحاثه وابحاث زملائه الى انشاء التقويم السنوي المعروف بالتاريخ الجلالي نسبةً الى السلطان جلال الدين المذكور . وهذا التقويم اكثر ضبطاً ودقة من التقويم الغريغوري الذي يؤدي الى خطأ مقداره يوم في كل ٣٣٣٠ سنة بينما الخطأ الذي ينجم عن تقويم الخيّام هو نحو يوم في كل ٥٠٠٠ سنة .

وشرع هولاكو (١٢٥٩) بعد مرور حول على تخريبه بغداد في بناء مرصد مراغة العظيم بجوار بحيرة ارمية فتولى الرصد فيه نصير الدين الطوسي (٣) (المتوفى ١٢٧٤) وهو آخر من قام في العصر العباسي من الفلاسفة الفلكيين . وكانت الآلات المستخدمة في هذا المرصد موضوع الاعجاب وهي تشمل كرة ذات حلقات متقاطعة تسمى الآلة ذات الحلق وربعاً حائطياً لقياس الارتفاع ودائرة بروج لقياس الانقلاب الصيفي والشتوي. وقد تسنى لنصير الدين الطوسي في هذا المرصد انجاز تقاويم فلكية جديدة تعرف بالزيج الايلخاني تنويهاً باسم هولاكو الايلخان الاول . وقد عمت هذه التقاويم وانتشرت في انحاء آسية حتى الصين . ولا تزال أسس هذا المرصد الذي لم يطل عمره كثيراً باقية حتى اليوم . وقد كان يقوم الى جانبه دار كتب انشأها هولاكو ايضاً قيل احتوت ٤٠٠٠٠٠ مجلد (؟) كانت جيوش المغول قد نهبت معظمها من سورية والعراق وفارس .

---

١) اسمه العربي الكامل هو ابو الفتح عمر ابن ابراهيم الخيامي . انظر سيرته في القفطي ص ٢٤٣ـ٤ ؛ القزويني ، آثار ص ٣١٨ .

٢) نقلت رباعياته اولا الى الانكليزية بقلم فتزجرالد (FitzGerald (London , 1859 ثم صدرت بعد ذلك ترجمات في الافرنسية والالمانية والايطالية والدنمركية والعربية.

٣) ابن العبري ص ٥٠٠ ؛ رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ، نشر كاترمير وترجمه ج١ (باريس، ١٨٣٦) ص ٣٢٤ وما يلي .

التنجيم

اما التنجيم وهو علم مساعد للفلك فابرز رجاله ابو معشر (المتوفى ٨٨٦) البلخي مولداً والبغدادي اقامة (١) . وقد اعتبرته المراجع النصرانية في العصور الوسطى حجة في هذا الباب وانزله المصورون في صورهم كقديس او نبي . وقد نقل يوحنا الاشبيلي وادلارد اف باث في القرن الثاني عشر اربعة من كتبه الى اللاتينية . وفيما عدا اعتقاده الغريب بتأثير النجوم في قضايا الولادة والموت وحوادث الحياة للانسان فانه قد اتحف العالم الاسلامي والاوربي بحقيقة علمية تتعلق بنظم المد والجزر فقد عللها ببحثه على اساس علاقتها بطلوع القمر وغيابه .

وقد نقلت على مر الايام طائفة من كتب الفلك الاسلامية الى اللاتينية لا سيما في اسبانية وكان لها اثر فعال في ترقية هذا العلم في اوربا النصرانية .

الارقام الهندية

يعزى الى العالم الهندي نفسه الذي امّ بلاط المنصور ومعه كتاب « السند هند » الفلكي امر ادخال مبادىء الحساب الهندي والارقام الهندية (المعروفة في الغرب بالارقام العربية) ومعها الصفر (٢) . واذاً فقد دخلت الارقام الى العالم الاسلامي عن طريق ترجمة الكتب الهندية التي قام بها الفزاري . ثم ظهرت تقاويم الخوارزمي وحبش الحاسب (المتوفى بين ٨٦٧ و٨٧٤) فذاعت الارقام بواسطتها في أرجاء العالم العربي. ولكن الرياضيين والفلكيين العرب لم يتبنوا هذا الاختراع الهندي البديع الا بشيء من التردد فلم تعم حتى القرن الحادي عشر ومن هنا نجد مثلاً ان ابا بكر محمد الكرجي (المتوفى بين ١٠١٩ و١٠٢٩) يعبر عن الاعداد في كتابه «الكافي في الحساب» بالالفاظ لا الارقام. وقد انتهج غيره الطريقة السامية

١) الفهرست ٢٧٧ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ١٩٨–٩٩ .

٢) G. Coedès, *Bulletin School of Oriental Studies*, vol. vi, (1931) pp. 323 - 8 يذكر كودي ان الارقام الهندية ومعها الصفر ظهرت في اوائل القرن السابع للميلاد في الهند الصينية وذلك قبل ظهورها في الهند نفسها بزمن طويل . ومن المعلوم ان لفظة « Zero » التي تطرقت الى الانكليزية بواسطة الايطالية ولفظة « Cipher » التي ظهرت في الانكليزية قبل ظهور لفظة « Zero » بمئتي عام هما تحريف لفظة « صفر » العربية وهذه ترجمة كلمة سنسكريتية معناها « فارغ » . وتبعاً لمصدر سرياني ذكره نو F. Nau in *Journal asiatique*, ser. 10, vol. xvi (1910). pp. 225 *seq.* فان الارقام كانت معروفة عند احد السريان المقيمين في دير بقنسرين سنة ٦٦٢ م .

والاغريقية القديمة فاستعمل حروف الالفباء عوض الارقام ـ حساب الجمّل . اما احمد النسوي (١) (المتوفى حوالي ١٠٤٠) الذي شرح في كتابه « المقنع في الحساب الهندي » قسمة الكسور واستخراج الجذور المربعة والمكعبة على طريقة تقرب من الطريقة الحديثة فقد عوّل على الارقام الهندية شأن الخوارزمي الذي سبقه .

الخوارزمي

كان محمد ابن موسى الخوارزمي (٢) (٧٨٠ الى نحو ٨٥٠) هذا أبرز شخصية في تاريخ الرياضيات القديم عند العرب واحد كبار المفكرين المسلمين وقد أثر في الفكر الرياضي تأثيراً لم يكن لسواه في العصور الوسطى . فهو علاوة على زيجه الذي يعد اقدم ما جمع من تقاويم الفلك فانه قد وضع اقدم كتاب في الحساب (ولا يعرف اليوم الا في نسخة مترجمة) واقدم كتاب في الجبر هو « حساب الجبر والمقابلة » أورد فيه ما يزيد عن ثمانمئة من الامثلة وهو اعظم كتبه ولكن الاصل العربي مفقود . وقد نقله الى اللاتينية جرارد الكرموني في القرن الثاني عشر فاعتمدته جامعات اوربا حتى القرن السادس عشر ككتاب مدرسي رئيسي للرياضيات وبواسطته تطرقت الى اوربا مبادىء علم الجبر ومعها لفظة « الجبر » نفسها . والى مصنفات الخوارزمي ايضاً يرجع الفضل في نقل الارقام الهندية ـ العربية الى الغرب حيث سميت باسمه اول الامر algorisms . وكان من متأخري الرياضيين المتأثرين بالخوارزمي عمر الخيام وليوناردو فيبوناتسي « Leonardo Fibonacci » من اهل بيزا (المتوفى بعد ١٢٤٠) وماستر جاكوب « Master Jacob » من اهل فلورنسة الذي الف في الحساب والجبر كتاباً تاريخه سنة ١٣٠٧ يجمع كأحد كتب ليوناردو ستة انواع من المعادلات الرباعية التي كان الخوارزمي قد اوردها في كتابه . على ان كتاب الجبر (٣) الذي الفه عمر الخيام يفوق كتاب الخوارزمي ويحتوي على حلول هندسية وجبرية لمعادلات الدرجة الثانية مع تنسيق بديع

١) نسبة الى نسا في خراسان .

٢) ان خوارزم التي ولد فيها هي خيوا الحديثة وهي بلاد على جيحون (آموداريا اليوم) الأسفل . ويدعوه الطبري بالمجوسي .

٣) نقله الى الانكليزية داود قصير . Daoud S. Kasir, *The Algebra of Omar Khayyam* (New York, 1932) .

للمعادلات .

الكيمياء

وتتلو مآثر العرب العلمية في الطب والفلك والرياضيات مآثرهم في الكيمياء . ففي دراسة الكيمياء وسواها من العلوم الطبيعية ادخل العرب فكرة التجربة العملية وهي خطوة الى الامام اذا قورنت بنظريات الاغريق الغامضة . الا انهم برغم مقدرتهم على ملاحظة المظاهر العلمية واجتهادهم في جمع الحقائق كان ينقصهم ترسم النظريات او الآراء واستخراج النتائج العلمية الحقيقية ووضع نظام مفصل لها . وهذه كانت اضعف النقاط في طرق تفكيرهم

وكان ابا الكيمياء [١] العربية جابر ابن حيان [٢] الذي زها في الكوفة حوالي سنة ٧٧٦ وان اسمه بعد الرازي لاعظم الاسماء في كيمياء العصور الوسطى. وقد جاء في الاساطير العربية ان الامير الاموي خالد ابن يزيد ابن معاوية (المتوفى ٧٠٤) وجعفر الصادق الامام السادس المدني (المتوفى ٧٦٥) هما معلماه . وقد شغل جابر بمثل ما شغل به زملاؤه السالفون من مصريين واغارقة حين حسبوا ان المعادن السفلى كالتنك والحديد والنحاس يمكن قلبها ذهباً بواسطة مادة عجيبة وقد جعل الكشف عن هذه المادة أمنيته الكبرى و بذل نشاطه في سبيل ذلك.وله الفضل في انه اول الكيماويين الذين أدركوا اهمية الاختبار العملي واكدوا عليه وقد خطا خطوات واسعة في سبيل ترقية الكيمياء النظرية والعملية . ويروى انه بعد مضي قرنين على وفاته عثر في الكوفة حين كانوا يرممون بعض شوارعها على مختبره الكيماوي فاذا فيه هاون وقطعة كبيرة من الذهب . ويعزو اليه التقليد الاوربي الكشف عن عدة مركبات لم تذكرها المصنفات الاثنان والعشرون التي تحمل اسمه [٣] . وقد نشر من هذه المصنفات خمسة منها « كتاب الرحمة » و « كتاب التجميع » و كتاب« الزئبق الشرقي » .ومن الجلي ان

---

١) هذه اللفظة العربية ترجع باصلها الى الاغريقية ومنها الى لفظة مصرية قديمة معناها « أسود » ؛

٢) قيل انه كان صابئياً واعتنق الاسلام – على مذهب الشيعة . ويرجع البعض نسبه الى قبيلة الأزد وهي مشهورة في قبائل عرب الجنوب . الفهرست ص ٣٥٤–٥ ؛ القفطي ص ١٦٠–٦١ .

٣) حاجي خلفه يشير في غير موضع من كتابه الى سبعة وعشرين مؤلفاً لجابر . انظر ايضاً بول كراوس، جابر ابن حيان ج ١ (القاهرة ، ١٩٤٣) ص ٣–١٧٠ .

جانباً عظيماً من الكتب المثبة المنسوبة اليه في العربية واللاتينية ملفق او غير ثابت . ومهما يكن من امر فان هذه المصنفات نفسها اصبحت بعد القرن الرابع عشر اشدّ كتب الكيمياء اثراً في اوربا وآسية . ومن المآثر الثابتة له ابحاثه في التكليس وارجاع المعدن الى اصله بالاكسجين وقد حسّن اساليب التبخر والتصعيد والصهر والتبلور . اما زعمه في انه عرف طريقة تحضير الحامض الكبريتي العكر وحامض النيتريك العكر ثم مزجهما فيما يقول مع الملح ليستخرج الماء الذي يذوب فيه الذهب كما تذوب فيه الفضة ايضاً فليس ما يؤيده . وعلى العموم فانه عدّل نظرية ارسطو في عناصر المعدن على اساس لم تطرأ عليه تغييرات كثيرة حتى اوائل عصر الكيمياء الحديثة في القرن الثامن عشر .

اما المتأخرون من علماء الكيمياء المسلمين فقد كانوا يجلون قدر ابن حيان ويعدونه قطبهم . ولم يستطع عظماؤهم كالطغرائي (١) الشاعر السياسي الفارسي (المتوفى نحو ١١٢١) المشهور بقصيدته لاميّة العجم وابي القاسم العراقي الذي زها في الشطر الثاني من القرن الثالث عشر (٢) ان يزيدوا او يحدثوا شيئاً من التحسين في طريقته الا قليلاً . وقد واصل هؤلاء الكيماويون الجهود سعياً للكشف عن امرين : الكبريت الاحمر (حجر الفلاسفة) واكسير (٣) الحياة . والواقع انه بعد ايام العباسيين لم يحدث تقدم يذكر في اي فرع من فروع العلم المجرد او العلم الطبيعي . واذا اراد المسلمون اليوم ان يعتمدوا على كتبهم العربية الخاصة فانهم يجدون فيها اقل مما وجده اسلافهم في كتب القرن الحادي عشر . ففي الطب والفلسفة والرياضيات والنبات وسواها من الانظمة الفكرية بلغ التقدم العلمي درجة من الرقي ثم توقف. ولقد تعلق العرب الى عهد قريب بتقديس الماضي وتبجيل تقاليده الدينية والعلمية بحيث قيدت القرائح وغلت ايدي العلماء على انهم قد اخذوا الآن بتحطيم القيود والتخلص من ربقتها . ويجب ان نذكر هنا ان للفكر الاسلامي في العصور الوسطى الفضل الذي لم يسبق اليه في

١) لفظة « طغرائي » معناها كاتم سر الدولة القائم على الرسائل ، اي من يكتب « الطغرى » وهي الطرة التي تكتب في اعلى البسملة وفيها اسم الملك الذي يصدر الكتاب عنه ونعوته . ابن خلكان ج١ص٢٨٤ومابلي.

٢) انظر حاجي خلفه ج ٣ ص ٢١٨ ، ج ٥ ص ٤٧ ، ج ٦ ص ٣٠٤ .وله رسالة اسمها « العلم المكتسب في زراعة الذهب » نشرها وترجمها الى الانكليزية هولميارد (باريس ، ١٩٢٣) .

٣) لفظة مشتقة من الاغريقية .

تاريخ الفكر البشري من حيث نجاحه في التوفيق بين عقيدة التوحيد وهي اعظم مآثر الشعوب السامية القديمة وبين الفلسفة اليونانية وهي اعظم مآثر الشعوب الهندية الاوربية القديمة . و بهذا مهد الاسلام لاوربا المسيحية السبيل الى الاتجاه الحديث .

واذا التفتنا الى ميدان التاريخ الطبيعي رأينا ان أقل نجاح أحرزه العرب كان في علم الحيوان بينما استطاع مسلمو الاندلس ان يسدوا خدمات ظاهرة في علم النبات كما سنرى . ولم يكن كتّاب العرب الذين ألفوا عن مملكة الحيوان الا جماعة من الأدباء الذين اقتصرت تآليفهم على ذكر الاسماء والاوصاف التي أطلقها العرب على الحيوانات المختلفة مقرونة بمنتخبات من اقوال الشعراء . ولا نستثني سوى دراسة الخيل فقد بلغت من الرقي ما يكاد يجعلها علماً مستقلاً . وقد وضعت في الخيل بضع رسائل تصف انواعها واعضاءها والوانها وتبين خصالها المحمودة والمذمومة (١) .

الجاحظ

ومن اقدم من صنّف في علم الحيوان والانثرو بولوجيا ابو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ (المتوفى ٨٦٨ ـ ٩) وقد عاش ولمع في البصرة وصنف « كتاب الحيوان » . والكتاب أقرب الى العرض القصصي والكلامي منه الى البحث البيولوجي . وفيه اقتباسات عن ارسطو و بعض مبادىء نظريات النشوء الحديثة والتكييف وسيكولوجيا الحيوان . وقد عرف الجاحظ طريقة تحضير الأمونيا من سقط الحيوان كالكرش وغيره بواسطة التقطير الناشف . وكان له اثر كبير على علماء الحيوان بعده كالقزويني (٢) (المتوفى ١٢٨٣) الذي اختص بوصف الكائنات ، والدميري (٣) العالم المصري المعروف (المتوفى ١٤٠٥) فقد بحث كلاهما في علم الحيوان كفرع من فقه اللغة والادب . اما الدميري فهو اعظم علماء العرب في علم الحيوان

---

١) راجع الاصمعي ، كتاب الخيل ، نشر اوغست هافنر (فينا ، ١٨٩٥) ؛ ابن دريد في كتاب وليم ريت = William Wright, *Opuscula Arabica* (Leyden , 1859) ؛ الكلبي ، نسب الخيل في الجاهلية والاسلام؛ والاعرابي ، اسماء خيل العرب وفرسانها ـ كلاهما نشر ليفي ديلافيدا(ليدن،١٩٢٨).

٢) اهم كتبه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، نشر وستنفلد (غوتنغن ، ١٨٤٩) .

٣) له « حياة الحيوان » وقد طبع في القاهرة مراراً وترجم بعضه الى الانكليزية جياكر = A. S. G. Jayakar (London, 1906 , 1908) .

ولكن للجاحظ اثراً اعظم كأديب وعالم من علماء الكلام واليه ينتسب الجاحظية وهم فرقة من المعتزلة اتبعوا تعاليمه (١) . وهو الى ذلك من اكثر المؤلفين العرب انتاجاً وقد كثر الاقتباس عنه (٢) . وكان لقوة ابتكاره ونباهته وعلمه وهجائه اثر كبير في شهرته غير ان قبح منظره حمل المتوكل على صرفه بعد ان كان قد دعاه لتأديب بعض ولده (٣) .

كتب في الجواهر

لم يكن تقدم العرب في علم المعادن — وهو قرين الكيمياء — عظيم القدر . غير ان ولعهم بالاحجار الكريمة والتفاتهم الى ما ينسب الى المعادن من خصائص سحرية يوضحان ما خلفوه من كتب في الجواهر تزيد عن الخمسين . واقدم المخفوظ منها كتاب لعطارد ابن محمد الحاسب (او الكاتب (٤)) يرجع الى القرن التاسع . على ان اشهرها كتاب « أزهار الافكار في جواهر الاحجار » (٥) لشهاب التيفاشي المتوفى في القاهرة سنة ١٢٥٣ . وقد عرض فيه لاربعة وعشرين حجراً كريماً ذاكراً اصلها ومواطنها وصفاءها وثمنها ومعدداً منافعها الطبية والسحرية ولم يشر فيه الى غير المصادر العربية باستثناء بلينيوس وكتاب ارسطو في الاحجار وهو ملفق . وقد وفق البيروني الشهير في تعيين الثقل النوعي الى حد دقيق لثمانية عشر حجراً كريماً ومعدناً .

الجغرافية

لقد كانت هناك عوامل دينية دفعت بالمسلمين الى دراسة الجغرافية منها فريضة الحج وامر توجيه المساجد عند بنائها نحو مكة وتعيين القبلة عند الصلاة . اضف الى ذلك ان علم التنجيم الذي كان يتطلب تعيين خطوط الطول والعرض لكل موضع في الارض كان له اثره العلمي ايضاً في هذا السبيل . وفوق ذلك فان التجار المسلمين كانوا قد بلغوا بين القرن السابع

١) البغدادي، مختصر الفرق بين الفرق ص ١١٧ — ١٨ .
٢) ياقوت ج ٦ ص ٧٥ — ٨ يذكر اكثر من ١٢٠ كتاباً له .
٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٨ — ٩ .
٤) الفهرست ص ٢٧٨ . اما كتابه « منافع الاحجار » فمحفوظ في مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس De Slane, *Catalogue des manuscrits arabes* (Paris, 1893-5), no. 2775[3] .
٥) نشره ريثري (فلورنسا ، ١٨١٨) .

والتاسع بـلاد الصين بحراً و براً ووصلوا الى جزيرة زنجبار واقاصي شواطىء افريقيـة جنوباً وتوغلوا الىروسية شمالا ولم تصدهم غرباً الا امواج بحر الظلمات. وكان من الطبيعي حين يعود التجار الى اوطانهم ان يقصوا الأخبار عما شاهـدوه في اسفارهم فتثير في نفوس الشعب عامة الرغبة في التعرف على احوال البلدان القاصية والشعوب الغريبة . وكان اول ما كتب في العربية في وصف الصين وشواطىء الهند بيان في اسفار سليمان التاجر السيرافي . وقد دوّن هذا البيان سنة ٨٥١ كاتب مجهول وفيه يروي سليمان هذا ان بصم أصابع اليد عوضاً عن الامضاء كان امراً مألوفاً في الصين (١) . ومن بيان هذه الرحلة وسواها نشأت تدريجياً تلك الحكايات المضافة الى السندباد البحري. وان اقدم بيان جغرافي موثوق عن روسية كتبه احمد ابن فضلان ابن حماد الذي انفذه المقتدر سنة ٩٢١ الى ملك البلغار وكان هذا الملك يقيم حول نهر الفولكا. وقد حفظ اكثر هذا البيان في الموسوعة الجغرافية التي صنفها ياقوت المعروفة بمعجم البلدان . وأشار المسعودي (٢) الى تجار مسلمين بين القبائل السلافية في الدرين ولعلها منطقة قرب البريبت وهو فرع من فروع الدنيبر .

المظاهر اليونانية

نقلت جغرافية بطليموس الى العربية مراراً اما عن اليونانيـة مباشرة او عن الترجمات السريانية . واهـم من نقلهـا يعقوب ابن اسحاق الـكندي قبل سنة ٨٧٤ وثابت ابن قرة المتوفى سنة ٩٠١ . وقد اعتمد عليها الخوارزمي الشهير في وضعه كتاب « صورة الارض » (٣) الذي أصبح نموذجاً للابحاث الجغرافيـة التي وضعت من بعد ونبهت الناس لأهمية الدراسات الجغرافية وحرّكت اهتمام الباحثين للقيام بكتابات مبتـكرة جديدة . وقـد ألحق الخوارزمي بكتابه المذكور خريطة هي ايضاً صورة الارض رسمها هو وتسعة وستون عالماً باشارة من المأمون وهي اول خريطة في الاسلام تظهر السماوات والارض . وقـد عرف المسعودي (٤)

---

١) سلسلة التواريخ ، نشر لانغلي ص ٤٤ .
٢) ج ٣ ص ٦٤ .
٣) نشره هنس متسك (ليبزغ ، ١٩٢٦).
٤) ج ٢ ص ٣٠٨ .

الذي عاش في النصف الاول من القرن العاشر هذه الخريطة ورجع اليها . وظل لجغرافية الخوارزمي تأثير على المؤلفين المسلمين حتى القرن الرابع عشر كما يتضح من مراجعة تاريخ ابي الفداء .

قبة الارض

وكان جغرافيو العرب الأول قبل ذلك قد اخذوا عن علماء الهند فكرة القول بان للعالم مركزاً سموه « ارين » [١] وهو تحريف لاسم مدينة هندية « اجيني » (اوزيني في جغرافية بطليموس) حيث كان يقوم مرصد فلكي . وقد زعموا انه على خط الطول لهذه المدينة كانت قبة الارض [٢] . وجعلوا مركز الارين هذا على خط الاستواء بين طرفي الشرق والغرب . ومما زعموه ايضاً ان خط الطول الرئيسي في الغرب انما هو على بعد تسعين درجة من هذا المركز الوهمي . واعتاد جغرافيو الاسلام عامة قياس خط الطول ابتداء من خط الطول الاول الذي عمل به بطليموس وموقعه في الجزائر المعروفة اليوم بجزائر الكناري .

وكانت اول الرسائل العربية الاصيلة في الجغرافية شبه دليل او بيان للطرق والمسافات . وكان اول من نشط لتأليفها ابن خرداذبه (المتوفى نحو ٩١٢) الفارسي الأصل وكان يتقلد شؤون البريد والاخبار في منطقة الجبال (مادي) فبدأ هذه الابحاث بكتاب سماه « كتاب المسالك والممالك » [٣] وظهرت اول نسخة منه حوالي سنة ٨٤٦ . وكان هذا الكتاب ذا فائدة خاصة بسبب ما فيه من المعلومات الطوبوغرافية التاريخية وقد استعان به ابن الفقيه وابن حوقل والمقدسي وكتاب الجغرافية المتأخرون . وفي سنة ٨٩١ ـ ٢ وضع ابن واضح اليعقوبي الشيعي العباسي [٤] الذي عاش في ارمينية وخراسان « كتاب البلدان » [٥] فنهج فيه نهجاً جديداً ملتفتاً بنوع خاص الى التفاصيل الطوبوغرافية والاقتصادية . ثم ظهر قدامة

١) وقد قيل فيه ايضاً « اجين » و « ازين » و « اذين » الخ . ابن رسته ص ٢٢ ؛ المسعودي ، التنبيه ص ٢٢٥ ؛ ابو الفداء ، تقويم ، نشر رينو ودي سلان ص ٣٧٦ .

٢) ابو الفداء ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ ؛ ابن رسته ص ٢٢ وما يلي ؛ البيروني ، تحقيق ص ١٥٨ .

٣) نشره دي غويه (ليدن ، ١٨٨٩) .

٤) كان جده عتيقاً للخليفة المنصور ومن هنا كنيته « العباسي » انظر ياقوت ج ٢ ص ١٥٦ ـ ٧ .

٥) نشره دي غويه (ليدن ، ١٨٩٢) .

(وهو مسيحي المولد) وكان قائماً بامر حسابات الدخل في الادارة المركزية ببغداد فانهى بعد سنة ٩٢٨ « كتاب الخراج » الذي عالج تقسيم اراضي الخلافة الى ايالات او امصار وتنظيم مصلحة البريد والضرائب في كل مقاطعة. ثم قام جغرافي عربي آخر من اصل فارسي اسمه ابن رسته فوضع نحو سنة ٩٠٣ كتاب « الاعلاق النفيسة » (١). وفي تلك السنة ايضا انهى ابن الفقيه الهمذاني « كتاب البلدان » (٢) وهو كتاب شامل في الجغرافية اقتبس عنه كثيراً المقدسي و ياقوت .

الجغرافيون الادباء

ان عهد كبار الجغرافيين لم يبدأ حتى اواسط القرن الرابع الهجري وذلك حين ظهر الاصطخري وابن حوقل والمقدسي . اما الاصطخري فقد ولد في اصطخر (پرسبوليس) ولمع حول منتصف القرن العاشر واخرج كتابه « مسالك الممالك » (٣) مزيناً بالخرائط الملونة لكل بلاد على حدة . وكان اعتماده في كتابه على الأصول الجغرافية التي وضعها ابو زيد البلخي (المتوفى ٩٢٤) الذي زها في بلاط السامانيين. وهذه الأصول مفقودة الآن . غير ان الطريقة التي ابتدعها البلخي والاصطخري في وضع الجغرافية لم تعن بالبلدان الخارجة عن نطاق الاسلام ودار البحث عندهما بالاكثر على وصف الخرائط والرسوم . ولم يكن كتّاب هـذه المدرسة الا رجال اسفار . والاصطخري اول كاتب بعـد المسعودي (٤) اشار الى مطاحن الهواء في سجستان . ثم جاء ابن حوقل وهو الرحالة الذي سافر حتى اسبانيـة فنقح خرائط الاصطخري واصلح جغرافيته (بنـاء على طلب منه) ثم عمد اليها بعد مدة وكتبها ثانية وانتحلها لنفسه بعنوان « المسالك والممالك » (٥). والى هذه المدرسة ترجع جغرافيـة المقدسي وهو يفوق من سبقه ابتكاراً وقد ولد ببيت المقدس ـ ومن هنا دعي المقدسي او المقدّسي ـ وزار بلدان الاسلام

١) نشره دي غويه (ليدن ، ١٨٩١ـ٢).
٢) نشره دي غويه (ليدن ، ١٨٨٥) .
٣) نشره دي غويه (ليدن ، ١٨٧٠) .
٤) ج ٢ ص ٨٠ وانظر في وصف المطاحن وهيئتها : الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (سانت بترزبرغ ، ١٨٦٦) ص ١٨٢ .
٥) نشره دي غويه (ليدن ، ١٨٧٣) وهناك نسخة أخرى تعرف بصورة الارض نشر فون كرامر في

ما عدا الاندلس وسجستان والهند . وفي ٩٨٥ ـ ٦ وضع سفراً يشمل بيان اسفاره التي دامت عشرين حولا سماه «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم»(١) فجاء حافلاً بالحقائق المفيدة والطريفة.

وفي هذه الحقبة نفسها زها الجغرافي اليماني العالم الأثري الحسن ابن احمد الهمداني المتوفى سنة ٩٤٥ في سجن بصنعاء ، وقد ترك لنا كتابين هما « الاكليل » (٢) و « صفة جزيرة العرب » (٣) ويعدان من انفس المصادر التي بين ايدينا عن جزيرة العرب في الجاهلية والاسلام . اما الرحالة الشهير المسعودي الذي عرف في هذه الحقبة ايضاً فسيأتي الكلام عنه حين نعرض للمؤرخين . ولنذكر هنا ايضاً رسائل اخوان الصفا(٤) فان فيها فصلاً يلم بالجواهر المعدنية (٥) وفيه شرح لنظرية الادوار الكونية التي تتغير البقاع بموجبها فتصبح الاراضي الصالحة للزرع قفاراً والقفار اراضي زراعية وكذلك تصبح الحزون بحاراً والبحار حزوناً او جبالا.

ياقوت

وقبل انقضاء العصر العباسي ظهر في الاسلام اعظم الجغرافيين الشرقيين قاطبة وهو ياقوت ابن عبد الله الحموي (١١٧٩ ـ ١٢٢٩) مؤلف القاموس الجغرافي المعروف بـ « معجم البلدان » (٦) الذي رجعنا اليه غير مرة فيما سبق . ووضع ايضاً قاموسا آخر في الادباء لا يقل عنه اهمية هو « معجم الادباء » . وقد ولد ياقوت هذا في آسية الصغرى وكان ابواه يونانيين ثم أسر صغيراً ونقل الى بغداد فابتاعه فيها تاجر من حماة ـ ومن هنا عرف بالحموي . وقد قرأ وهو عند سيده شيئا في النحو واللغة ثم شغله سيده عدة سنين بالاسفار في متاجره ثم اعتقه فاشتغل ياقوت بالنسخ ليكفل اوَد عيشه واخذ يتنقل في البلدان في تجارة المخطوطات . ومضى الى خوارزم وصادف وهو فيها خروج التتر فانهزم (١٢١٩ ـ ٢٠) بنفسه لا يلوي على شيء

مجلدين (ليدن ، ١٩٣٨ـ٣٩) وقد زعم بعض المستشرقين خطأ ان ابن حوقل قصد الاندلس بصفة داع سري للفاطميين .

١) نشره دي غويه (ليدن ، ١٨٧٧) .
٢) نشره الكرملي (بغداد ، ١٩٣١) .
٣) نشره ملر في مجلدين (ليدن ، ١٨٨٤ـ٩١) .
٤) نشرها الزركلي (مصر) في مجلدين .
٥) ج ٢ ص ٨٠ وما يلي ؛ قابل المسعودي ، التنبيه ص ٣ .
٦) نشره وستنفلد في ٦ مجلدات (ليبزغ ١٨٦٦ـ٧٣) .

« كبعثه يوم الحشر من رمسه » (١) . وكان خط اول نسخة من معجم البلدان في الموصل سنة ١٢٢٤ ثم اكملها سنة ١٢٢٨ في حلب حيث مات بعد سنة وان معجمه الذي يورد فيه اسماء المواضع على ترتيب حروف الهجاء هو حقا موسوعة تحوي الى جانب هذه الذخيرة من الفوائد الجغرافية حقائق نفيسة في التاريخ وعلم السلالات البشرية وعلم الطبيعة .

غير ان الجغرافية الاسلاميـة الوصفية لم تؤثر كثيراً في الفكر الاوربي في العصور الوسطى لان التصانيف الموضوعة فيها لم يتيسر لها مترجمون ينقلونها الى اللاتينية . وليس ينكر أنه قد تسربت الى الغرب بعض المعلومات الجغرافية الفلكية ومنها نظرية تكاد تكون صحيحة لاسباب المد والجزر اوضحها ابو معشر ، وقياس طول الدرجة الارضية التي وضعهـا الفرغاني في كتاب له في الفلك (٢) ترجم فيما بعد ، وكذلك بعض الاخبار الجغرافية اليونانية كتلك التي نقلت عن ارسطو و بطليموس فانها قد عادت الى الغرب بفضل العرب . ولكن الجانب الاوفر من مخلفات الجغرافيين العرب لم تتعد نطاق الاسلام فلم تصل الى الغرب . فـلم يعرف الغرب اذاً تلك المآثر الجغرافية الرائعة التي تشمل وصف الشرق الاقصى وافريقية الشرقيـة والسودان و براري روسية وفن الرسم وصنع الخرائط الموضعية والعالمية والتصدي لكل بلاد بمفردها باعتبار انها وحدة قائمة بذاتها وايضاح العلاقة بين السكان و بين البيئة او الطبيعة . واهم ما عني به الغرب اللاتيني من الكتب العربية هو امر اخراج التقاويم السنوية وتقاويم النجوم والاستدلال بدوائر البروج على الطوالع والاقدار واستكناه المعنى الخفي في كلام الاسفار المقدسة بواسطة الشروح على ارسطو . وجل هذه المادة العلمية سواء اكانت فلكية تنجيمية ام جغرافية انما بلغت الغرب عن طريق الاندلس وصقلية . اما مآثر البطروجي القرطبي والزرقلي الطليطلي والادريسي البلرمي (من بلرم) فسنلم بها عند الكلام على الاندلس وصقلية .

كتابة التاريخ

ان اكثر المؤلفات التاريخية العربية الاولى وضعت في الحقبة العباسية ولم يحفظ مما كتب

---

١) ابن خلكان ج ٣ ص ١٦٢ .

٢) كذلك يعود الفخر للعرب في اطلاع الغرب على آثـار جغرافية عديدة للاغريق قائمة على مقطعات لارسطو وبطليموس .

في العصر الاموي الا النزر اليسير . وكانت اول مادة في هذه المؤلفات قد تحدرت عن طريق الاساطير التي تنوقلت شفاهاً في الجاهليـة ومن القصص والاخبار الدينية التي حيكت حـول شخص النبي وسيرته . وقد امتاز في ميدان الاخبار عن الجاهلية هشام الكلبي الكوفي (المتوفى ٨١٩) ولم يحفظ لنا من مؤلفاته المئة والتسعة والعشرين التي ذكرهـا له الفهرست (١) سوى ثلاثة معروفة (٢) الا ان نتفاً من مؤلفاته المفقودة قد اوردها الطبري وياقوت وسواهمـا من المؤرخين .

واول المؤلفات المبنيـة على الاحاديث الدينيـة والتقليد الديني هي « سيرة رسول الله » لمحمد ابن اسحاق المدني المتوفى في بغداد سنة ٧٦٧ وكان جدّه يَسار احد الغلمان النصارى الذين سباهم خالد ابن الوليد سنة ٦٣٣ من عين التمر في العراق (٣) . ولـكن هـذه السيرة نفسهـا التي وضعهـا ابن اسحاق لم تصلنا الا في روايـة متأخرة لابن هشام (٤) المتوفى في القـاهرة سنة ٨٣٤ (٥) . ثم وضعت كتب في حروب الاسلام الاولى والفتوحات منها « كتب المغازي » لموسى ابن عقبة (٦) (المتوفى ٧٥٨) وللواقدي (٧) (المتوفى ٨٢٣) وكلاهما من المدينة ولسواهما . وقد خلف لنا ابن سعد كاتب الواقدي (٨) (المتوفى في بغداد سنة ٨٤٥) أول كتاب كبير في الطبقات (٩) ذكر فيه سير الرسول والصحابة والتابعين حتى زمنه . وكان من مؤرخي الفتوحات الاسلامية الأول ابن عبد الحكم المصري (المتوفى ٨٧٠-٧١) ويعد كتابه « فتوح مصر واخبارها » (١٠) اقدم وثيقة محفوظة في فتوح مصر وافريقية الشماليـة والاندلس ، واحمد ابن يحيى البلاذري (المتوفى ٨٩٢) واشهر مؤلفـاته « فتوح

١) ص ٩٥-٨ .
٢) اشهرها كتاب الأصنام وقد نشره أحمد زكي (القاهرة ، ١٩١٤) .
٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٨٢ .
٤) نشر سيرة ابن هشام وستنفلد في مجلدين (غوتنفن ١٨٥٨-٦٠) .
٥) ابن خلكان ج ١ ص ٥٢٠ .
٦) جمعه ابن قاضي شهبة سنة ١٣٨٧ .
٧) نشره فون كريمر (كلكتا ، ١٨٥٦) وانظر ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢٤-٦ .
٨) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢٦ .
٩) نشره ساخو في ٩ مجلدات (ليدن وبرلين ، ١٩٠٤-٢٨) .
١٠) نشره تشارلز توري (نيو هافن ، ١٩٢٢) .

البلدان » (١) و « انساب الاشراف » (٢) وهو اول من جمع قصص الفتوح المختلفة وحبكها معاً في مؤلف واحد عام ، وكانت المؤلفات التاريخية قبله تقتصر على ذكر فتح واحد او واقعة واحدة خاصة .

أقدم المؤرخين الرسميين

وقد آن الاوان لظهور التأليف التاريخي الرسمي مبنياً على هذه الأساطير والتقاليد والأحاديث والسير والانساب والحكايات. وكان المثال الذي احتذاه المؤلفون فارسياً في الأصل على طريقة « خذاي نامه » (كتاب الملوك) وكان قد نقله الى العربية ابن المقفع (المتوفى ٧٥٧) بعنوان « سير ملوك العجم » . وكما اعتمدت المؤلفات العربية في الطب والفلسفة الأصول اليونانية هكذا خضعت في التاريخ والانشاء الأدبي للنظم الفارسية. وكانت الفكرة في وضع تاريخ عالمي تكون فيه الحوادث الأولى مقدمة لتاريخ الاسلام مستمدة من التقليد اليهودي المسيحي . اما طريقة الاخراج فقد ظلت مقيدة باسلوب رواية الحديث النبوي بمعنى ان كل حادثة كانت تروى بلسان احد شهود العيان او المعاصرين ثم يتناقلها الحفاظ الى ان تتصل براويها الاخير وهو المؤلف فيذكرها ويذكر سلسلة الاسانيد كلها وتسمى هذه الكتب بالكتب المسندة او المعنعنة ـ يحدث فيها واحد عن آخر عن ثالث وهلم جراً .

ومن هنا افادت هذه الطريقة في وضع اصول التحقيق والتدقيق وفي تعيين تاريخ الحوادث بحيث كان يذكر بدقة حتى الشهر او اليوم الذي تقع فيه . الا ان مبلغ صدق الرواية لم يقم عادة على تمحيص الكلام المروي وفحصه ونقده بل قام على اتصال الاسانيد وعدم انقطاعها والثقة براويها . واذا استثنينا عنصر ابداء الرأي الشخصي في اختيار سلسلة الرواة وتتبع الاسناد وترتيب الروايات وتنسيقها فان اهتمام المؤرخ بالروايات نفسها وتحليلها ونقدها ومعارضتها وتمحيصها كان قليلاً .

---

١) نشره دي غويه (ليدن ، ١٨٦٦) وترجمه الى الانكليزية حتي ومرغتن Hitti, *The Origins of the Islamic State* (New York, 1916), 1st pt.; 2nd pt. F. C. Murgotten(New York, 1924).

٢) نشر الورت ج ١١ (غرايفزفالد ، ١٨٨٣) وغويتين ج ٥ (القدس ، ١٩٣٦) وشلوسنجر ج ٤ ب (القدس ، ١٩٣٨) .

ومن اوائل هؤلاء المؤرخين الرسميين محمد ابن مسلم الدينوري (١) المعروف بابن قتيبة وقد توفي في بغداد سنة ٨٨٩ بعد اخراجه « كتاب المعارف » (٢) وهو مختصر في التاريخ. ومعاصره ابو حنيفة احمد ابن داود الدينوري (٣) (المتوفى ٨٩٥) وقد عاش في اصبهان (اصفهان) ودينور (في العراق العجمي) والف كتباً اشهرها « الاخبار الطوال » (٤) وهو تاريخ عام من وجهة النظر الفارسية . وكان كلاهما ايراني الاصل ولهما غير التاريخ آثار تذكر في الادب وفقه اللغة . وقد ظهر في العصر نفسه ابن واضح اليعقوبي الجغرافي المؤرخ وله في التاريخ كتاب (٥) شامل عام ينتهي عند سنة ٢٥٨ / ٨٧٢ وقد حفظت فيه الفكرة الشيعية القديمة الخالصة . ومن رجال هذه الطبقة ايضاً حمزة الاصفهاني الذي عاش وعمل في اصفهان حيث توفي في حدود سنة ٩٦١ . وقد عرفت مدوناته التاريخية (٦) النقدية الى حد ما في اوربا الحديثة قبل ان تعرف كثير من الكتب غيرها . وهناك ايضاً مؤرخ آخر فارسي الجنس هو مسكويه (٧) (المتوفى ١٠٣٠) وقد تقلد منصباً سامياً في بلاط عضد الدولة البويهي وألف تاريخاً عاماً (٨) ينتهي عند سنة ٣٦٩ / ٩٧٩ - ٨٠ . وكان مسكويه فيلسوفاً وطبيباً ايضاً ويعد من مؤرخي الطبقة الاولى التي كان يتسلم زعامتها الطبري والمسعودي دون منازع .

الطبري

ولد ابو جعفر محمد ابن جرير الطبري (٨٣٨ - ٩٢٣) في طبرستان وهي البلاد الفارسية الجبلية المحاذية للساحل الجنوبي من بحر قزوين وترتكز شهرته على تاريخه العظيم المفصل

١) انظر الفهرست ص ٧٧ - ٨ ؛ النووي، تهذيب الاسماء ص ٧٧١ ؛ السمعاني، الانساب ورقة رقم ٤٤٣ .

٢) نشره وستنفلد (غوتنغن ، ١٨٥٠) .

٣) انظر الفهرست ص ٧٨ ؛ ياقوت ، ادباء ج ١ ص ١٢٣ - ٧ .

٤) نشره فلاديمير غويرغاس (ليدن ، ١٨٨٨) .

٥) نشره هوتسما في مجلدين (ليدن ، ١٨٨٣) .

٦) تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، نشره غتوالت (ليبزغ ، ١٨٤٤) وترجمه الى اللاتينية (ليبزغ ، ١٨٤٨) .

٧) يعرفه البعض بابن مسكويه ولكن مسكويه اقرب الى الصواب . ياقوت ج ٢ ص ٨٨ ؛ القفطي ص ٣٣١ .

٨) تجارب الامم نشر اميدروز في مجلدين (اكسفورد ، ١٩١٤ - ٢١) وترجمه مرغوليوث الى الانكليزية (اكسفورد ، ١٩٢١) .

الدقيق المسمى « اخبار الرسل والملوك » (١) وعلى شرحه المشهور للقرآن المعروف بتفسير الطبري (٢) وقد وضع التفسير في الاصل بشكل اكبر . وهو فضلاً عن انه اقدم الشروح فانه يعد اعظمها واوسعها . وكان الطبري اول من نشط لهذا العمل الخطير فاصبح تفسيره مصدراً استقى منه مفسرو القرآن معلوماتهم فيما بعد . وكذلك كان تاريخه النفيس العام ، وهو اول تاريخ كامل في اللغة العربية ، مصدراً استقى منه المؤرخون اللاحقون امثال مسكويه وابن الاثير وابي الفداء . ولا يخرج المؤلف فيه عن نظام التواريخ الاسلامية الاخرى من حيث سرد الحوادث مرتبة على اساس السنين الهجرية . والواقع ان تاريخه يبدأ بخلق العالم وينتهي عند سنة ٩١٥/٣٠٢ . وعلى هذا الاسلوب جرى الواقدي قبله في تدوين الاخبار كما جرى مسكويه وابن الاثير وابو الفداء (٣) (١٢٧٣ — ١٣٣١) والذهبي (٤) (١٢٧٤ — ١٣٤٨) بعده . ويقال ان تاريخ الطبري كان في اصله عشرة اضعاف حجمه الآن . وقد راعى المؤلف في تدوين الوقائع طريقة الاسناد التي ألفها رواة الحديث . وفضلاً عن استعانته بالمصادر الادبية والتاريخية المتداولة في عصره كمؤلفات ابن اسحاق والكلبي والواقدي وابن سعد وابن المقفع وطائفة من الاخبار التاريخية المترجمة عن الفارسية فقد جمع في كتابه كثيراً من المعلومات التي سمعها في اثناء اسفاره وما اخذه عن شيوخه في بغداد وغيرها من مراكز الفكر . وقد بلغت به اسفاره في طلب العلم الى فارس والعراق والشام ومصر (٥) . واحتاج مرة الى قوته الضروري فباع ردني قميصه واشترى بثمنها خبزاً . ويمكن ان نكون لانفسنا فكرة عن غيرته للعلم ونشاطه في العمل مما اشيع عنه من انه مكث اربعين سنة يكتب في كل يوم منها اربعين ورقة (٦) .

---

١) نشره دي غويه في ١٥ مجلداً (ليدن ، ١٨٧٩ — ١٩٠١) .
٢) اسمه الكامل « جامع البيان في تفسير القرآن » في ٣٠ مجلداً (بولاق ١٣٢٣ — ٩) .
٣) انظر تاريخه المسمى ايضاً « المختصر في اخبار البشر » في ٤ مجلدات (القسطنطينية ، ١٢٨٦) .
٤) انظر كتابه « دول الاسلام » في مجلدين (حيدر آباد ، ١٣٣٧) .
٥) الفهرست ص ٢٣٤ .
٦) ياقوت ج ٦ ص ٤٢٤ .

المسعودي

هو ابو الحسن علي المسعودي (١) الملقب بـ « هرودتس العرب » وقد ابتدع طريقة تدوين التاريخ حسب المواضيع ، فلم ينظم الحوادث حول السنين بل حول الدول والملوك والشعوب وهي طريقة جرى على منوالها ابن خلدون وصغار المؤرخين . وكان من اقدم المؤرخين الذين احسنوا الاستعانة بالقصة او النكتة التاريخية في سياق البحث . وكان ينتمي الى المعتزلة القائلين بحرية الفكر ورحل وهو شاب في طلب العلم على عادة العلماء في زمانه فسار من بغداد (٢) مسقط رأسه الى الشرق حتى زنجبار نفسها وزار اكثر الاقطار الاسيوية ولكنّ هناك مجالاً للشك في انه بلغ الصين ومدغسكر . اما العقد الاخير من حياته فقد قضاه في مصر والشام عاملاً في تنسيق المواد التي جمعها في مصنّف كبير يقع في ثلاثين مجلداً حُفظ لنا موجز منه عنوانه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » (٣) تنتهي حوادثه في سنة ٣٣٦ / ٩٤٧. وقد تجلت في هذه الموسوعة التاريخية الجغرافية الفكرة الجامعة في نفس المؤلف وحب الاستطلاع العلمي بحيث حملته على البحث في ما يقع وراء نطاق المواضيع الاسلامية البحتة مما يتعلق بتاريخ الامم الهندية والايرانية والرومانية والعبرانية وديانات هذه الشعوب. وقبل وفاته في الفسطاط بمصر سنة ٩٥٦ اختصر آراءه في فلسفة التاريخ والطبيعة واضاف الى ذلك ما اتصل به من الآراء الفلسفية المعروفة عن درجات الارتقاء الفاصلة بين المعدن والنبات والحيوان (٤) ووضعها في كتاب يقابل بكتاب بلنيوس اسمه « التنبيه والاشراف » (٥) .

وقد بلغ فن التأليف التاريخي العربي اعلى مراقيه فيما خلفه الطبري والمسعودي ، واخذ بعد مسكويه (المتوفى ١٠٣٠) يسير بخطى سريعة نحو الانحطاط . وقد اختصر عز الدين ابن الاثير (٦) (١١٦٠ – ١٢٣٤) محتويات تاريخ الطبري ووضعها في كتابه « الكامل في

١) متحدر من عبدالله ابن مسعود .
٢) أخطأ الفهرست ص ١٥٤ في حسبانه من المغرب . قابل ياقوت ج ٥ ص ١٤٨ .
٣) نشر وترجمة دي مينارد ودي كورتي في ٩ مجلدات (باريس ١٨٦١ — ٧٧) .
٤) قابل « رسائل اخوان الصفا » ج ١ ص ٢٤٧ — ٨ .
٥) نشره دي غويه (ليدن ، ١٨٩٣ — ٤) .
٦) ولد بجزيرة ابن عمر على دجلة وزها في الموصل . ابن خلكان ج ٢ ص ٣٥ — ٦ .

التـاريخ » (١) موصلاً ذكر الحوادث حتى سنة ١٢٣١ . اما القسم الذي خصه بالحروب الصليبية فهو تحفة جديدة. وقد وضع ابن الاثير كتاباً هاماً آخر هو « أسد الغابة » (٢) وهو مجموعة لسبعة آلاف وخمسمئة سيرة من سير الصحابة . اما معـاصره سبط ابن الجوزي (٣) (١١٨٦ – ١٢٥٧) الذي ولد في بغداد وكان ابوه في الاصل مملوكا تركيا فمن مصنفاته « مرآة الزمان في تاريخ الايام » وهو كتاب يبحث في التاريخ منذ خلق العالم الى سنة ١٢٥٦ (٤) . وكان من رجال هذا العصر العباسي المتأخر قاضي القضاة في سورية ابن خلكان (المتوفى ١٢٨٢) وهو اول مسلم ألف معجماً قومياً لتراجم اعيان الأمة. وقد أصدر قبله ياقوت معجمه في الادباء كما لخص ابن عساكر (المتوفى ١١٧٧) سير الاعيان من ابناء دمشق موطنه في ثمانين مجلدا (٥) .

وظلت كتب الطبري والمسعودي وابن الأثير وزملائهم بعيدة عن متنـاول الغربيين في العصور الوسطى كما كانت اكثر الذخائر الجغرافية والتاريخية الموضوعة بغير لغـات الغرب . اما في العصر الحديث فقد نقلت بعض هذه الكتب الى لغات اوربا الحديثة . غير ان هذا لايعني ان مؤلفي العرب لم يكن لهم فضل على العلوم الاجتماعية فهذا العالم الاميركي سارتون (٦) في عرضه لتاريخ العلوم وذكره لمآثر العرب والمسلمين في ميدان العلوم الاجتماعية وغيرهـا في ذلك العصر يقول : ان الجانب الاكبر من مهام الفكر الانساني حمل اعباءه المسلمون . فالفـارابي اعظم الفلاسفة كان مسلماً وابو كامل (٧) وابراهيم ابن سنان (٨) اعظم علماء الرياضيات كانا مسلمين . والمسعودي اعظم رجال الجغرافيـة والموسوعات كان مسلماً وكذلك

---

١) نشر تورنبرغ في ١٣ مجلداً (ليدن ، ١٨٦٧ — ٧٤) .

٢) في ٥ مجلدات (القاهرة ، ١٢٨٠) .

٣) نسبة الى جده لامه ابن الجوزي (المتوفى ١٢٠١) .

٤) نشر القسم الثامن منه جويت (شيكاغو ، ١٩٠٧) .

٥) التاريخ الكبير، نشر منه عبد القادر بدران واحمد عبيد السبعة الاجزاء الأولى (دمشق، ١٣٢٩ — ٥١) .

٦) Sarton, *Introduction to the History of Science*, vol. i (Baltimore, 1927), p.624.

٧) شجاع ابن أسلم المصري الذي نقح في اوائل القرن العاشر كتاب الجبر للخوارزمي .

٨) حفيد ثابت ابن قرة عاش ٩٠٨ — ٤٦ . اما طريقته لتربيع الشكل المخروطي فقد كانت ايسر الطرق قبل اختراع « حساب التمام والتفاضل » بكامله .

قل في الطبري اعظم المؤرخين .

علوم الدين

ولنتقدم الآن الى الحركات الفكرية التي اوجدتها الفطرة العربية الاسلامية وأهمها الالهيات والحديث والفقه وفقه اللغة واصول اللغة . فقد كان اعظم العلماء في هذه الميادين عرباً على نقيض الطب والفلك والرياضيات والكيمياء التي كان رجالها اغراباً من اصل سرياني او يهودي او فارسي .

ثم ان اهتمام المسلمين العرب وعنايتهم اتجهت باكراً لهذه الفروع العلمية التي دعت اليها العاطفة الدينية. فضرورة تفهم معاني القرآن وايضاح غوامضه وشرحها اصبحت الحافز الاكبر لدراسة الالهيات العميقة وللابحاث اللغوية الدقيقة . ونشأ من احتكاك المسلمين بالنصارى في دمشق خلال القرن الاول للهجرة نوع من التفكير الفلسفي اللاهوتي الذي افضى الى نشوء مدرستي المرجئة والقدرية الفكريتين (١) .

اما مصدر العقائد الدينية فالقرآن الكريم وتليه السنة (٢) وهي عبارة عن اعمال النبي وكلامه وتقريره . وقد تنوقلت السنة اول الامر شفهاً الى ان جاء القرن الثاني للهجرة فدونت وجمعت في الحديث . فالحديث اذن هو نص محفوظ يدور على عمل أتاه النبي او أمر اقره او هو كلام قاله . على انه قد يطلق بصفة اوسع على ما عمله او قاله الصحابة والتابعون وكان للحديث النبوي أثر عظيم في تطور الفكر الاسلامي بالرغم من انه دون القرآن منزلة.فالحديث كلام الرسول والقرآن كلام الله . وفي الحديث يلتفت الى المعنى الملهم به قبل كل شيء . اما القرآن فاللفظ فيه كالمعنى معجز إلهي وهو المصدر الاول الأعلى للفقه والكلام ثم يتلوه الحديث . وليس بين شعوب الارض كلها غير المسلمين من انشأ من مجموعة الاحاديث الدينية وكنوز الكتب التي تعنى بالالهيات علماً قائماً بذاته .

علم الحديث

لم يطل الامر بالمسلمين المتدينين الاتقياء حتى رأوا ان علم الحديث هو العلم الحقيقي دون

١) سنعالج الفرق الاسلامية في فصل قادم .

٢) معنى لفظة « السنة » الاساسي « السيرة » او « الطريقة » ثم نشأت للكلمة معان أخرى اصطلاحية.

سواه (١) . فكان طلاب العلم يرتحلون في طلبه امتثالا للحديث المرفوع « اطلبوا العلم ولو في الصين » . قاطعين المسافات الطوال ومجابهين المشقات في اسفارهم في اقطار الاسلام . واصبحت الرحلة في طلب العلم (٢) تحسب في عداد الاعمال المستحسنة التي يحث عليها الدين. ومن يمت وهو يقوم بها فكأنه مات في الجهاد .

وفي خلال القرنين الاول والثاني ونصف القرن الثالث ازداد الحديث المنسوب الى النبي وغزرت مادته. وكان كلما نشب خلاف بين فريقين من المسلمين دينياً كان او سياسياً او اجتماعياً عمد كل من الفريقين الى حديث النبي محاولا ان يظفر بما يؤيد دعواه غير مبال ان يكون ذلك الحديث صحيحاً او غير صحيح . وقد ادى الى وضع الحديث وزيادته وتعميمه وتوسيع نطاقه امور كثيرة منها الخلاف السياسي بين علي وابي بكر والخصومة بين معاوية وعلي والعداء بين بني العباس و بني امية والمنافسة بين العرب وغير العرب . هذه الاسباب وامثالها من الامور الطارئة هيأت السبيل لتلفيق الحديث على النبي ونشره . زد على هذا ان صناعة وضع الحديث اصبحت من الموارد التي تدر علي اصحابها مالا كثيراً . وقد اقرّ ابن ابي العوجاء قبل اعدامه في الكوفة سنة ٧٧٢ انه وضع اربعة آلاف حديث حرّم فيها الحلال وأحل الحرام واذاعها في الناس (٣) . وقد يقال بوجه عام ان الاحاديث المنسوبة الى مدرسة المدينة كانت اكثر قيمة او اقرب الى الثقة من احاديث مدرسة الكوفة الا انه ليس كل رواة الحديث في المدرسة الاولى ممن تعتمد روايتهم او يصح الأخذ بما نقل عنهم . فقد نسب الى ابي هريرة الصحابي المعروف بغيرته واندفاعه في نقل الحديث ونشره انه روى اكثر من ٥٣٠٠ حديث (٤) وليس من شك في ان كثيراً منها قد حمل عليه. ونقلت عائشة ٢٢١٠ أحاديث واخرج انس ابن مالك ٢٢٨٦ وعبد الله ابن عمر ابن الخطاب ١٦٣٠ (٥) .

١) راجع فصل « العلم » في البخاري ج ١ ص ١٩ وما يلي .

٢) راجع ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٧٦ ؛ Alfred Guillaume, *The Traditions of Islam* (Oxford, 1924), pp. 68-9 .

٣) الطبري ج ٣ ص ٣٧٦ ونقل عنه ابن الأثير ج ٦ ص ٣ ؛ قابل البغدادي ، مختصر ص ١٦٤ .

٤) ابن حجر ، الاصابة ج ٢ ص ٢٠١ وقد قيل في سبب لقبه « ابي هريرة » اقوال كثيرة منها ولعه بالقطط . ابن قتيبة ، المعارف ص ١٤١ ؛ ابن سعد ج ٤ قسم ٢ ص ٥٥ .

٥) النووي ص ١٦٥ ، ٣٥٨ .

وفي كل حديث تام اسناد ومتن والمتن يتلو الاسناد ويجب ان يكون مروياً بنصه الأصلي حرفياً كأن تقول مثلاً: حدثني فلان قال حدثنا فلان عن فلان عن فلان قال حدثني فلان انه سمع النبي قال كذا وكذا .... وهذه الصيغة نفسها درج عليها بعض المؤلفين في كتابة التاريخ والأدب الحكمي . وفي كل هذه المواضيع كان النقد سطحياً يقتصر على معالجة الرواة ومقدار صدقهم وثقتهم وامانتهم في النقل واتصال اسانيدهم اتصالا لا غبار عليه . وعلى هذا الأساس صنّفوا الحديث وجعلوا منه الصحيح والحسن والضعيف(١) . اما الاهتمام الزائد بنقد الحديث خارجياً (اي من جهة اسناده فقط) فقد أدّى الى مثل الحكاية التي يروونها من ان محدّثاً ركب سفينة فشرب دون مبالاة قدح خمر قدمه له نصراني فقال له النصراني : انها خمرة . فقال المحدث : من اين علمت ؟ قال : اشتراها غلامي من يهودي . فقال المحدث للنصراني : « ما رأيت احمق منك نحن اصحاب الحديث نتكلم في مثل سفيان ابن عيينة ويزيد ابن هارون افنصدق نصرانياً عن غلامه عن يهودي ؟ والله ما شربتها الا لضعف اسنادها (٢) .

كتب الحديث الستة

وقد كان ان جمعت في القرن الثالث للهجرة كتب الحديث الستة فاصبحت مرجعاً في هذا الباب . واولها بل اوثقها عند السنة « صحيح » محمد ابن اسماعيل البخاري (٨١٠ – ٧٠) (٣) وقد جمع فيه ٧٢٧٥ حديثاً كان قد استخلصها من ٦٠٠٠٠٠ حديث سمعها من الف شيخ في مدة ست عشرة سنة قضاها سائحاً دارساً في العراق والشام والحجاز ومصر (٤) ورتبها بموجب مواضيعها كالصلاة او الحج او الجهاد الخ . ولم يضع البخاري في صحيحه حديثاً الا توضأ قبل ذلك وصلى ركعتين(٥) . وقد رد متون الاحاديث كلها الى اسانيدها واسانيدها الى متونها فأقر له الناس بالحفظ واذعنوا له بالفضل ورفعوا صحيحه الى المنزلة الاولى بعد القرآن فكان له اعظم تأثير على العقلية الاسلامية . وقد دفن البخاري بجوار سمرقند ولا يزال قبره

١) راجع ابن عساكر ج ٢ س ١٨ وما يلي ؛ ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٧٠ وما يلي .
٢) التواجي ص ١٧ .
٣) الجامع الصحيح ، في ٨ مجلدات (بولاق ، ١٢٩٦) .
٤) النووي ص ٩٣ ، ٩٥–٦ .
٥) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٣١ .

هناك مزاراً يؤمه الحجاج اكراماً لقدر صاحبه .

وهناك كتاب آخر في الحديث يكاد يضاهي صحيح البخاري هو صحيح مسلم ابن الحجاج النيسابوري (المتوفى ٨٧٥) وتماثل محتوياته ما في صحيح البخاري ولو ان الاسانيد قد تختلف. ويلي الصحيحين اربعة كتب أخرى في الحديث اتفق المسلمون على احلالها محلاً رفيعاً في امور الدين هي « سنن » ابي داود البصري (المتوفى ٨٨٨) و « جامع » الترمذي (المتوفى حوالي ٨٩٢) و « سنن » ابن ماجه القزويني (المتوفى ٨٨٦) و « سنن » النسائي المتوفى في مكة سنة ٩١٥ (١) .

وفضلاً عن ايضاح الحديث لمعاني القرآن وشرحها بما يقرّبها الى الافهام فانه قد حمل الى المسلمين تعاليم الرسول وبيّن واجبات المؤمن في كل مناحي الحياة كبيرها وصغيرها . واذا اخذنا مثلاً قصة الاسراء التي وردت فيها آية قرآنية واحدة (الآية الاولى من سورة الاسرى) فانها تبرز في الحديث مقرونة بوصف شائق مسهب عرفه الغرب فيما بعد وظهر أثره فيما كتبه دانتي . ويشمل الحديث كذلك كثيراً من الحكم والنوادر والامثال والكرامات او العجائب المنسوبة الى النبي وهذه الامور مستقاة من مصادر مختلفة ومنها الانجيل . وقد اخرج ابو داود (٢) حديثاً مرفوعاً فيه ما يقرب كثيراً من الصلاة الربانية ـ ابانا الذي في السموات ـ واخرج البخاري (٣) ومسلم (٤) حديثاً عن ابي هريرة مرفوعاً الى النبي (وقد نقل عن ابي هريرة كثير من هذا القبيل) فيه : « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعته يمينه». وفي هذا وأمثاله ما يدل على قبول الاسلام لكثير من حكم الامم الأخرى وليس من شك في ان الحديث أدب الاسلام .

الشريعة:

ليس في العصور الوسطى بعد الرومان من عني غير العرب بعلم الشريعة وجعله نظاماً

---

١) هناك طبعات كثيرة لهذه الكتب طبعت في مصر والهند ولكنها غير علمية .

٢) (القاهرة ، ١٢٨٠) ج ٢ ص ١٠١ .

٣) ج ٢ ص ١٠٥ .

٤) (دلهي ، ١٣١٩) ج ١ ص ٣٣١ .

مستقلاً ذا أصول وقد كان هذا النظام وهو الفقه (١) مبنياً في الدرجة الاولى على القرآن والسنة وهما الأصلان الرئيسيان وليس من شك في ان الفقه تأثر بالنظام اليوناني الروماني . و بواسطة الفقه اتصلت الشريعة (٢) (وهي أوامر الله المنزلة في القرآن والموضحة في الاحاديث) بالاجيال التابعة . وتشمل هذه الوصايا القوانين التي يجب ان تراعى بشأن الصلاة (العبادات) والواجبات المدنية والشرعية (المعاملات) والقوانين الجزائية (العقوبات) .

وليس في آيات القرآن التي تزيد عن ستة آلاف ما يختص بالتشريع سوى مئتي آية من السور المدنية واكثرها في سورة البقرة وسورة النساء . ولم يلبث الامر طويلاً حتى اتضح ان الشرع الذي تضمنته هذه الآيات لم يلم بكل انواع القضايا المدنية والجزائية والسياسية التي اخذت تعرض للمسلمين بعد استقرارهم في سورية والعراق وسواهما من الاقطار فاصبح من الضروري ان يلجأوا الى الافتاء . ويعتمد الافتاء قاعدتين اساسيتين : القياس اي الاستدلال عن طريق المقارنة والتشبيه ، والاجماع اي اتفاق الامة . و بهاتين القاعدتين — القياس والاجماع — اصبح للفقه اصلان جديدان اضافهما الى الاصلين الرئيسيين — القرآن والحديث . اما « الرأي » وان يكن قد اعتمد عليه بعض الفقهاء فانه لم يرتق الى منزلة الاصول الاربعة المذكورة . وهناك حديث دار بين النبي و بين معاذ ابن جبل يوم عيّنه قاضياً على اليمن يلخص دستور الفقه الاسلامي . قال النبي : « يا معاذ بم تحكم ؟ قال : « بكتاب الله » . قال : فان لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فان لم تجد ؟ قال : اجتهد رأيي . قال النبي : الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضاه . » (٣)

مذاهب السنة الاربعة وأئمتها

كان الامام ابو حنيفة النعمان ابن ثابت — وهو مولى فارسي الاصل (٤) — على رأس المدرسة العراقية التي تقول بوجوب اعمال الرأي والاستنباط في الامور الفقهية مناقضة بذلك

---

١) معناه الأصلي « المعرفة » او « الحكمة » .

٢) « الشريعة » في الأصل الطريقة ومورد الشارب ثم اصبحت تفيد معنى « الطريق الصواب الذي يتبع » .

٣) الشهرستاني ص ١٥٥ .

٤) الفهرست ص ٢٠١ ؛ ابن خلكان ج ٣ ص ٧٤ .

المدرسة المدنية التي تعتمد الحديث[١] . وقد زها ابو حنيفة في الكوفة و بغداد وتوفي سنة٧٦٧. وكان قد احترف التجارة ثم مال عنها الى الفقه فاصبح اعظم علمائه في الاسلام وقد افضى بتعاليمه شفهياً لتلاميذه ومنهم ابو يوسف (المتوفى ٧٩٨) الذي دوّن في مصنفه « كتاب الخراج » [٢] زبدة آراء شيخه . على ان ابا حنيفة لم يبتدع قانون القياس بل دعا اليه وعمل به كما انه دعا بشدة ايضاً الى حق الاستحسان [٣] اي العدول عن القياس متى اقتضت العدالة ذلك . وكان كمعاصره الامام مالك في المدينة في انه لم يفكر قط في تكوين مذهب شرعي ، ومع ذلك فقد اصبح مؤسس أقدم مذاهب الشرع الاسلامي وأوسعها واكثرها تساهلاً . والى مذهبه ينتمي نصف العالم السني تقريباً . وقد اعترف به رسمياً في كل البلدان التي كانت تخضع للسلطنة العثمانية الزائلة وفي الهند الاسلامية واواسط آسية ويعده فون كريمر [٤] أعلى ما اوجده الاسلام من نظم دينية شرعية .

اما مدرسة الشرع في المدينة فمؤسسها الامام مالك ابن أنس (حوالي ٧١٥ ـ ٩٥) [٥] ويعد لكونه من ابناء المدينة اقرب المشترعين لفهم حياة النبي وعقليته . وله مصنفه المعروف بالموطأ [٦] وهو اقدم مجموعة للشريعة الاسلامية بعد مصنَّف [٧] زيد ابن علي (المتوفى٧٤٣) وفي الموطأ وقد حوى الفاً وسبعمئة حديث دوّنت السنّة وانعقدت للاجماع صيغته الأولى الرسمية بموجب عرف المدينة فأصبح المرجع الأعلى للمذهب المالكي ثم انتشر هذا المذهب في المغرب والاندلس وحلّ محل المذهبين الناشئين هناك مذهب الاوزاعي (المتوفى ٧٧٤) ومذهب الظاهري [٨]

---

١) الشهرستاني ص ١٦٠ — ٦١ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٧٢ .

٢) (القاهرة ، ١٣٤٦) .

٣) ان « الاستحسان » عند الحنفية و « الاستصلاح » عند المالكية و« الراي » يغلب استعمالها كالفاظ مرادفة للقياس .

٤) *Culturgeschichte*, vol.i, p. 497.

٥) قابل ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠١ .

٦) (دلهي ، ١٣٠٢) وانظر ايضاً كتابه المدونة الكبرى (القاهرة ، ١٣٢٣) في ١٦ مجلداً .

٧) مجموع الفقه ، نشره غريفيني (ميلان ، ١٩١٩) .

٨) هو داود ابن خلف الاصبهاني (ابن خلكان ج ١ ص ٣١٢) وكني بالظاهري لقوله بوجوب اخذ معنى القرآن والحديث الظاهر دون الباطن الا ان تعاليمه لم تعش بالرغم من ان ابن حزم القرطبي (٩٩٤– ١٠٦٤) المؤلف المشهور كان من دعاتها .

(٨١٥ ـ ٨٣) ولا يزال الى يومنا معمولا به في انحاء افريقية الشمالية باستثناء الوجه البحري من مصر وفي شرق جزيرة العرب . وقد بلغت دراسة الشرع الاسلامي بعد ابي حنيفة ومالك شأواً عظيما واصبحت اكثر العلوم العربية اتساعاً .

ثم ظهرت مدرسة ثالثة للشرع توسطت بين العراق المتساهل والمدينة المحافظة ودعت الى سبيل الاعتدال قائلة بلزوم القياس مع بعض التحفظ وهي المدرسة الشافعية التي اسسها الامام محمد ابن ادريس الشافعي القرشي المولود في غزة سنة ٧٦٧ . ولقد درس الشافعي على مالك في المدينة ولكنه قضى حياته في بغداد والقاهرة (١) حيث توفي سنة ٨٢٠ ولا يزال ضريحه في سفح المقطم مزاراً يقصده الزائرون . ولا يزال المذهب الشافعي متبعاً في الوجه البحري من مصر وفي شرق افريقية وفلسطين وغرب الجزيرة العربية وجنوبها وسواحل الهند وجزر الهند الشرقية . ويبلغ عدد اتباعه ثلاثة وسبعين مليوناً يقابلهم من الحنفيين مئة وثمانية عشر مليوناً ومن المالكيين ثلاثون مليوناً ومن الحنابلة ثلاثة ملايين .

وآخر المذاهب السنية الاربعة المذهب الحنبلي نسبة الى الامام احمد ابن حنبل تلميذ الشافعي واحد اصحاب الحديث المتشددين . وقد عرف الحنابلة بشدة المحافظة وطالما وقفوا سداً منيعاً في وجه تيار الحركات التجددية التي نظمها المعتزلة في بغداد . ولقد صمد ابن حنبل للمحنة التي تعرّض لها فأهين وسيق مكبلاً بالحديد في زمن المأمون وسيم العذاب بامر المعتصم ولكنه صبر على ذلك كله ولم يجزع بل لزم ايمان السلف الصالح (٢) . وكان له مقام عظيم في نفوس الناس بحيث قدّر من حضر جنازته ببغداد سنة ٨٥٥ (٣) بثمانمئة الف رجل وستين الف امرأة واصبح ضريحه مزاراً مكرماً في الاجيال اللاحقة ودعي اماماً كابي حنيفة ومالك والشافعي . وكان للاحاديث المجموعة في مسنده (٤) والتي تزيد على ثمانية وعشرين ألفاً اهمية خاصة ولكن ليس للمذهب الحنبلي اليوم اتباع كثيرون غير الوهابيين .

---

١) ياقوت ، ادباء ج ٦ ص ٣٦٧ وما يلي ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٢١٥ـ١٦ .
٢) ابن عساكر ، تاريخ ج ٢ ص ٤١ وما يلي .
٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢٨ .
٤) في ٦ مجلدات (القاهرة ، ١٣١٣) .

وان مبدأ الاجماع الذي اوضحه الشافعي قد جعل في ايدي الجماعة الاسلامية أداة يسهل بها تكييف السنن والمعتقدات طبقاً لمتطلبات الزمن . ومن الطبيعي ان يكون للرأي العام دور هام في بيئة ليس لها كنيسة جامعة (بالمعنى المتعارف في بعض البلدان المسيحية) او اكليروس او هيئة تشريعية مركزية . فبمبدأ الاجماع هذا تم للاسلام جمع القرآن واقراره رسمياً كما تم جمع كتب الحديث الستة واقرارها . وبالمبدأ نفسه قبلت المعجزات المنسوبة الى النبي وسمح بطبع القرآن على الحجر وقرّ رأي الامة على انه ليس من المتحتم ان يكون الخليفة قرشياً و بذلك صحت الخلافة لآل عثمان . اما الشيعة فلهم مذهبهم الخاص وهم لايقبلون الاجماع بل يقولون باسبقية الآراء التي حكم بها الأئمة المعصومون من ذرية علي . اما المذاهب الاربعة السنية المذكورة فقد اغلقت باب الاجتهاد واكتفت بما دونته من رسوم الدين المنقولة والتعاليم والشرائع المقتضاة للتقدم الاجتماعي . واصبح الحق في تفاسير اخرى للقرآن والسنة وابداء الرأي على طريقة القياس امراً لا صلاحية لأحد من اهل السنة فيه . اما الشيعة فلا يزال فيها العلماء المجتهدون وهؤلاء ان يمثلوا الامام المستور فيتكلموا باسانه ويعربوا عن آرائه .

ولم يقم بعد بين العلماء من حاول ان يتبين العلاقة بين الشرع الاسلامي والشرع الروماني البيزنطي الذي كان قد توطد في سورية وفلسطين ومصر قروناً عديدة . على ان بعض المستشرقين يرون أثر الشرع الروماني لا في بعض الاحكام فحسب بل فيما هو اهم من ذلك في المبادىء والأساليب . فقد اعترف القانون المدني الذي وضعه الامبراطور يوستنيانوس بطريقة القياس والرأي . وقد تظهر بعض آثار الانظمة البيزنطية في معاملات البيع والشراء الاسلامية اما غير ذلك من الشرائع التي تلم بمسائل الوصاية والارث والايجار والاستخدام فلعلها أثرت عن طريق المصادر اليهودية أو التلمودية او تعاليم الاحبار . ومن الغريب أن الأثر الروماني لم يظهر بشكل أوضح في النظام الشرعي الذي خلّفه الاوزاعي السوري الذي عاش في بيروت [١] وتوفي ٧٧٤ . فقد كانت هذه المدينة مركزاً لمدرسة شرعية

---

١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٩٣ .

رومانية حتى القرن السادس للميلاد .

الفلسفة الادبية

ان الشريعة الاسلامية التي ألممنا بها آنفاً اعدت للمسلم من التعاليم ما ينظم حياتـه من جميع نواحيها الدينية والسياسية والاجتماعية وما يضبط علاقاته العائلية والمدنية وشؤونه المختلفة مع غير المسلمين . وهي كذلك اساس السلوك والآداب الخلقية في المجتمع الاسلامي . و بموجبها صنفت اعمال المرء الى خمسة انواع هي اولا الفرض اي ما اوجبه الله بدليل قطعي يجزى فاعله خيراً ويعاقب تاركه . ثانياً المستحب مما يجزى المرء على فعله ولا يلام على تركه . ثالثاً الجائز المباح . رابعـاً المكروه الذي يستنكر ولكن لا يعاقب صاحبـه عليـه . خامساً الحرام الذي يستحق مرتكبه العقاب .

ومع ان التصانيف الاخلاقية المبنية على القرآن والحديث كثيرة فانها لا تشمل كل ما صنّفه العرب في علم الاخلاق (١) . فهناك على الاقل ثلاثة انواع اخرى . أولها كتب الأدب التي تعنى بحسن السلوك وآداب التصرف وهي ترجع بالاكثر الى أصول هنـدية فارسية من النوادر والامثال والحكم وتمثلها الدرة اليتيمة (٢) لابن المقفع (وقد اعدم حوالي ٧٥٧) وهي تمتدح الاعتدال والشجاعة والكرم والفصاحة والمهارة في العمل . ومن هذا القبيل امثال لقمان، ايسوب العرب ، ورسالة اخلاقية للماوردي (المتوفى ١٠٥٨) (٣) الذي اشتهر بما دوّنه من الاصول الدستورية ففي هذه الرسالة حكم منسوبة الى الرسول والصحابة وهي لا تزال تدرس في بعض مدارس مصر وسورية. اما النوع الثاني فهو فلسفي يرجع الى تعاليم ارسطو والمدرسة الافلاطونية الجديدة والمدرسة الفيثاغورية الجديدة . واهم هذه المؤلفات الاغريقية التي استمد منها العرب كتاب ارسطو الذي نقله حنين او ابنه اسحاق (٤) بعنوان « كتاب الاخلاق » فوضعت عليه أسس علم الاخلاق العربي وغرضه كغرض ارسطو والافلاطون تسهيل الحصول

١) انظر حاجي خلفه ج ١ ص ٢٠٠-٢٠٥ .
٢) نشرها شكيب ارسلان (بيروت ، ١٨٩٧) .
٣) ادب الدنيا والدين ، الطبعة السادسة عشرة (القاهرة ، ١٩٢٥) .
٤) قابل الفهرست ص ٢٥٢ .

على السعادة الارضية . واجلّ المصنفات في هذا الموضوع كتاب « تهذيب الاخلاق » (١) لمسكويه وهو افضل كتاب ادبي بين الكتب الفلسفية الاسلامية الراجعة الى المدرسة الافلاطونية الجديدة . وفي رسائل اخوان الصفاء ـ ومنها واحدة هي التاسعة تُعنى بالاخلاق ـ مجموعة من الافكار الادبية الاغريقية يتخللها تأملات تنجيمية ونظريات غيبية نفسية . وتظهر في كتابات اخوان الصفاء ميول خاصة لجعل المسيح او سقراط مثالاً للرجل الكامل . مع ان السنّة تعتبر محمداً الرجل الكامل والشيعة علياً. اما الطبقة الثالثة من كتب الاخلاق او الفلسفة الادبية فيمكن تسميتها بـ « الكتب العقلية الصوفية » ومن رجالها الغزّالي و بعض المؤلفين الصوفيين ممن سنتناولهم في فصل قادم . وفي كل هذه الفلسفات الاخلاقية ينوّه الاسلام بفضائل معيّنة كالتسليم لارادة الله والقناعة والصبر ويعدّ الرذائل عللاً نفسية وليس لها سوى فيلسوف الاخلاق طبيباً . اما تصنيف هذه العلل فقائم على تحليل القوى النفسية واظهار ما لكل قوة من فضيلة او رذيلة .

الادب

في اوائل الدولة العباسية نشأت بين الشعوب المغلوبة ولا سيما الفرس حركة حرية بالدرس ترمي الى مقاومة روح السيادة والافضلية التي كان يبديها المسلمون العرب وقد تسمّت هذه الحركة بالشعوبية (راجع سورة الحجرات : ١٣) وكان قوامها الدعوة الى التسوية بين كل المسلمين . ومع انها كانت تتجلى بين الخوارج والشيعة بشكل سياسي حزبي وتصطبغ في بعض الاوساط الفارسية بصبغة دينية كالزندقة وما اشبه فانها قد اتخذت على العموم شكلاً من الجدل الأدبي وراحت تسخر بما يدّعيه العرب من تفوق عقلي وتزعم بدورها ان التفوق في الشعر والادب كان لغير العرب . وقد ناصر الشعوبية من رجال الادب جماعة كالبيروني وحمزة الاصفهاني بينما دافع عن العرب جماعة من العرب وغير العرب اصلاً منهم الجاحظ (٢) وابن دريد (٣) وابن قتيبة والبلاذري . وكان بمناسبة هذه الخصومة بين الفريقين ان وضعت

١) طبع مراراً في القاهرة وليس بينها طبعة علمية .

٢) البيان ج ٣ ص ٩ وما يلي .

٣) من اصحاب المعاجم توفي في بغداد سنة ٩٣٣ ،وقد هاجم الشعوبية في كتاب الاشتقاق ، نشره وستنفلد (غوتنغن ، ١٨٥٤) .

طائفة من القطع او الرسائل المبتكرة في الادب العربي .

وما نسميه بالأدب العربي لم يكن عربياً صرفاً فرجاله مختلفو الاجناس وهو يمثل بمجموعه انتاج حضارة لا انتاج شعب معين [١] . حتى في ميادين فقه اللغة ومفرداتها وصرفها ونحوها وهي علوم عربية الأصل والروح تجلى فيها نبوغ العرب وابتكارهم — نقول حتى في هذه الميادين — فانّا نقرأ عن أعلام لم يكونوا عرباً . فالجوهري (المتوفى حوالي ١٠٠٨) الذي أصبح معجمه [٢] نموذجاً لأصحاب المعاجم اللاحقين (وقد رُتّب على أساس الحرف الاخير من حروف الفعل المجرد) كان تركياً من فاراب [٣] ومعاصره ابن جنّي المتوفى في بغداد سنة ١٠٠٢ وهو صاحب الخصائص في فقه اللغة كان ابوه مملوكا يونانياً [٤] .

الأدب بمعناه الدقيق

بدأ الادب العربي في معنـاه الضيق بالجاحظ شيخ أدباء البصرة (المتوفى ٨٦٨) و بلغ قمتـه في القرنين الرابع والخامس للهجرة في كتابات بديع الزمان الهمذاني (٩٦٩ — ١٠٠٨) والثعـالبي [٥] النيسابوري (٩٦١ — ١٠٣٨) والحريري (١٠٥٤ — ١١٢٢) . ومن مزايا النثر في هذا العصر الميل (تأثراً بالادب الفارسي) الى التعمل والتأنق . فالايجاز والاقتصـاد اللفظي و بساطة العبارة التي اتصفت بها العهود الاولى زالت واحتل مكانها اسلوب الزخرفة والاناقـة والتبسط في المجاز والاقبال على السجع . وكانت الدراسات الانشائية الكتابية في هذا العصر تغلب على الدراسات العلمية . وهو من الوجهة الفكرية عصر احتضار عاشت فيه طبقة من مرتزقة الأدب كانت الحاجة تدفع الكثيرين منهم الى التنقل في طول البلاد وعرضها ديدنهم المشاحنات على المسائل اللغوية التافهة والمناظرات الصرفية والنحوية العقيمة والتغلب على سواهم في الشعر والنثر توصلاً الى نيـل هبات الامراء والكبراء . وفي هذه الحقبة ظهرت

١) في مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٧ — ٩ فصل موضوعه « في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم من العجم » .
٢) الصحاح في جزئين (بولاق ، ١٢٩٢) .
٣) ياقوت ، ادباء ج ٢ ص ٢٦٦ .
٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٥ .
٥) عرف بالثعالبي لانه كان فراء . ابن خلكان ج ١ ص ٥٢٢ . واشهر كتبه يتيمة الدهر ٤ اجزاء (دمشق ، ١٣٠٢) وهي مجموعة لاشعار معاصريه .

« المقامة » فكانت لوناً جديداً من ألوان الأدب العربي .

والى بديع الزمان الهمذاني يرجع الفضل الأكبر في وضع « المقامة » وهي ضرب من الرواية القصصية يعمد المؤلف فيها الى تسخير المادة التي يجب ان تتكون منها القصة في سبيل ابراز براعته اللفظية فيجهد نفسه في عرض مواهبه الشعرية وما اوتي من بلاغة وفصاحة . وفي الواقع ان المقامة كفن انشائي لم تكن وليدة عقل واحد بل كانت نتيجة لتطور طبيعي طرأ على النثر المسجوع والكلام المرصع الذي كان يمثله ابن دريد وسواه من المنشئين المتقدمين . و بعد ان كتب الهمذاني مقاماته (١) جاء الحريري البصري (٢) فوضع مقاماته (٣) على الطريقة نفسها . وقد ظلت حتى اواخر القرن الماضي تعد من امتع كنوز الأدب الصناعي عند العرب . وفي المقامات التي صنفها الحريري وغيره شيء غير الصناعة البيانية والنكتة الأدبية التي يعتبرها اكثر القراء مزيتها الوحيدة اذ كثيراً ما تستخدم النكتة الأدبية بشكل خفي لنقد ظاهرة اجتماعية او توجيه النظرة لعبرة اخلاقية . ومنذ ايام الهمذاني والحريري اصبحت « المقامة » اكمل مظاهر الانشاء الأدبي والروائي في اللغة العربية التي لم تخرج بعد الدراما الحقيقية . وانا لنلمح في القصص الاسبانية والايطالية القديمة من ادب الصعاليك والأدب الواقعي بعض وجوه الشبه بالمقامة العربية .

وقبل ظهور المقامة ظهر اعظم مؤرخ للادب العربي وهو ابو الفرج الاصبهاني او الاصفهاني (حوالي ٨٩٧ ـ ٩٦٧) ويرجع نسبه الى مروان آخر خلفاء بني امية . ولقد زها ابو الفرج في حلب وفيها أخرج كتابه الكبير « الاغاني » (٤) جامعاً فيه ذخائر الشعر والأدب . وهو كتاب لا بد لدارس الحضارة الاسلامية من الوقوف عليه وقد نعته ابن خلدون في مقدمته

---

١) نشرها محمد عبده (بيروت ، ١٨٨٩) .

٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٨ .

٣) نشرها دي ساسي في جزئين (باريس ، ١٨٤٧-٥٣) وترجمها الى الانكليزية برستون Theodore Preston (London, 1850) .

٤) في ٢٠ جزءاً (بولاق ، ١٢٨٥) ونشر برنو الجزء الحادي والعشرين (ليدن ، ١٨٨٨) ثم اصدر جويدي فهرس الاجزاء كلها (ليدن ، ١٩٠٠) وتطبعه الآن دار الكتب المصرية طبعة علمية وقد أخرجت حتى هذا التاريخ (١٩٥٠) ١١ جزءاً .

بقوله : « انه ديوان العرب ... وهو الغاية التي يسمو اليها الأديب وأنىّ له بها » (١) واهدى ابو الفرج اغانيه الى سيف الدولة الحمداني فأعطاه الف دينار (٢) . ثم ان الخليفة الاندلسي الحكم الثاني ارسل له مثل ذلك . وذُكر ان الوزير البويهي الصاحب ابن عباد (المتوفى ٩٩٥) كان يستصحب في اسفاره حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها فلما وصل اليه كتاب الاغاني استغنى به عنها (٣) .

الف ليلة وليلة

وفي هذه الحقبة قبيل منتصف القرن العاشر وضع في العراق النص الاول للكتاب الذي عرف بعدئذ بِ « الف ليلة وليلة » (٤) . وكان واضعه الجهشياري (٥) (المتوفى ٩٤٢) وقد بناه على أساس كتاب فارسي قديم اسمه « هزار أفسان » أي الف قصة يحوي حكايات هندية الأصل.قيل احضر الجهشياري المسافرين فأخذ عنهم احسن ما يعرفون من الأسمار والخرافات وأضافها الى ما في الكتاب (٦) . الا ان محور القصة وهيكلها واسماء ابطالها و بطلاتها ومنهن شهرزاد مستمدةمن الأصل الفارسي.و بمرور الزمن اضيفت الى هذه المجموعة حكايات جديدةمن مصادر لا تحصى هندية و يونانية وعبرانية ومصرية وغيرها . وتسربت الى المجموعة حكايات شرقية من مختلف الالوان أضيفت اليها مع الزمن وتطرقت اليها ايضاً نوادر ونكات ادبية وغراميات من بلاط هارون الرشيد . غير ان الكتاب لم يستكمل شكله الاخير حتى اواخر عصر المماليك بمصر . وقد كان في تنوّع مادة الكتاب واختلاف النزعات فيه ما حدا باحد النقّاد العصريين الى ان يقول بشيء من الدعابة : « ان « الف ليلة وليلة » مجموعة حكايات فارسية روتها الملكة أستير (٧) على طريقة بوذا لهارون الرشيد في القاهرة في اثناء القرن الرابع

---

١) ص ٤٨٧ .
٢) ياقوت ج ٥ ص ١٥٠ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ١١ .
٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١١ وقابل ج ١ ص ١٣٣ .
٤) لقد أثبتت طبعة بولاق (١٢٥١ و ١٢٧٩) النص العربي الأصلي بحذافيره .
٥) وهو معروف بالاكثر لكتابه « كتاب الوزراء والكتاب » نشره هانز فون مزك (ليبزغ، ١٩٢٦).
٦) الفهرست ص ٣٠٤ وقابل المسعودي ج ٤ ص ٩٠ .
٧) قابل الفهرست ص ٣٠٤ بالطبري ج ١ ص ٦٨٨ و ٦٨٩ .

عشر من التاريخ الميلادي » . وكان اول من نقلها الى لغة غربية غالاند (١) « Galland » فقد ترجمها الى الافرنسية ثم نقلت بعد ذلك الى لغات اوربا وآسية الحديثة الرئيسية ونالت مكانة كبرى فأصبحت اشهر ذخائر الادب العربي في الغرب. بل ان شهرتها في الغرب تفوق شهرتها في الشرق الاسلامي نفسه. وكانت اول ترجمة لها الى الانكليزية بقلم ادورد وليم لين (٢) « Edward William Lane » . وهي ترجمة غير كاملة ولكنها دقيقة وقد قرنت بشرح واف قيّم وقد طبعت مراراً . ثم ظهرت ترجمة جون پاين (٣) « John Payne » فكانت احسن الترجمات في اللغة الانكليزية وهي كاملة الا انها خالية من الشرح . اما السر رتشرد برتن (٤) « Sir Richard Burton » فقد وضع ترجمة اقتفى فيها اثر پاين ما عدا الأقسام الشعرية وقد اجتهد برتن في ان تكون ترجمته أحسن من غيرها محاولا اظهار صبغة الكتاب الشرقية .

الشعر

كانت اشعار الجاهليـة وهي تمثل عصر البطولة في الشعر العربي نموذجاً لشعراء العصر الأموي . ثم قـام شعراء العصر العباسي فاعتـبروا الشعر الأمـوي من الأدب الكلاسيكي (المدرسي) ولـكن ظهرت في العصر العبـاسي بواعث جديـدة حملت ارباب الشعر على الانحراف عن هذا الأسلوب العرفي المدرسي فسلكوا في اشعارهم طرقاً جديدة . ومن هـذه البواعث الحركة الدينية التي نشطها العرش العباسي والمؤثرات الثقافية والروحية والاجتماعيـة المنبعثـة بالاكثر من حياة الفرس (٥) ثم الرعاية الـتي خصّ الخلفاء بهـا الشعراء والصلات والعطايا التي اغدقوها عليهم . ومع ذلك فقد ظل فن القريض اشد الفنون محافظة على القديم واستمر يفيض بروح البادية طوال العصور التي مر بها . ولا يزال هناك حتى في عصرنا الحالي بعض قارضي الشعر في القاهرة ودمشق و بغداد يستهلون قصائدهم بالوقوف على اطـلال

---

١) في ١٢ مجلداً (Paris, 1701-17) .

٢) في ٣ مجلدات (London 1839-41). Ed. with illustrations by E.S. Poole, 3 vols. (London, 1859) .

٣) في ٩ مجلدات (London, 1882-4) .

٤) في ١٦ مجلداً (London and « Benares », 1885-8) .

٥) انظر المقدسي ، امراء الشعر في العصر العباسي (بيروت ، ١٩٤٦) ص ٤٤-٧ .

الحبيب واستيقاف الركب وتشبيه عيون الحبيب بعيون المها دون ان يروا في ذلك ما يناقض روح العصر .

وفي طليعة المحدثين من شعراء هذا العصر العباسي الشاعر الفارسي الضرير بشار ابن برد وقد قتله المهدي سنة ٧٨٣ بسبب هجائه لوزيره فيما يقول البعض . والأرجح ان سبب قتله كان الزندقة وما كان يكتم من تعاليم زرادشت وماني . وكان بشار من اشد الناس تبرّماً بالناس وهو القائل : الحمد لله الذي ذهب ببصري ... لئلا ارى ما ابغض (١) . وهو يعدّ من المجددين الذين خرجوا على اساليب الشعر القديم (٢) .ومن دعاة المدرسة الشعرية الجديدة ابو نواس (٣) (المتوفى حوالي ٨١٠)وهومن امّ فارسية وكان نديم الأمين ابن الرشيد ويمتاز بخمريّاته . ولا يزال اسمه مقروناً الى اليوم بالظرف والمجون . وفي الواقع قلّ هناك من يزاحمه في ميدان شعر المجون وبراعة الأسلوب فهو شاعر الخمر والتهتك والعبث في التاريخ الاسلامي دون منازع . وان في غزله المذكر (اي تشبيبه بالغلمان) وخمرياته التي ما زالت تستهوي القارىء والشارب معاً ما يعكس صورة الحياة الاجتماعية المترفة في ذلك العصر (٤) . ويقوم غزل ابي نواس على مقطوعات شعرية مقتضبة يتراوح عدد ابياتها بين الخمسة والخمسة عشر بيتاً وقد جارى فيها طريقة الفرس الذين الفوا هذا الأسلوب قبل العرب بازمان .

وكما مثّل ابو نواس بعبثه ومجونه ناحية المرح من حياة البلاط كذلك مثّل ابو العتاهية (٥) (٧٤٨ الى حوالي ٨٢٨) ناحية الزهد والتقشف والتشاؤم في الحياة ونبذ الدنيا والتنديد بسوء العاقبة . وقد كان ينتسب الى قبيلة عنزة بالولاء ، ونشأ متهتكاً اول الأمر . ثم هاله استهتار الطبقة المترفة فانقلب زاهداً وثار على اللهو وابتعد عن أباطيل الحياة البغدادية واخذ ينظم

---

١) الاغاني ج ٣ ص ٢٢ .

٢) راجع مجموعته التي حررها احمد القرني تحت عنوان بشار ابن برد : شعره واخباره (القاهرة ، ١٩٢٥) ؛ الاغاني ج ٣ ص ١٩ـ٧٣ ، ج ٦ ص ٤٧ـ٥٣ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ١٥٧ ؛ ابن قتيبة ، الشعر ص ٤٧٦ـ٩ .

٣) الحسن ابن هانىء . ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٠ .

٤) راجع ديوانه نشر محمود واصف (القاهرة ، ١٨٩٨) ؛ الاغاني ج ١٨ ص ٢ ـ ٨ ؛ ابن قتيبة ، الشعر ص ٥٠١ـ٢٥ .

٥) اسماعيل ابن القاسم . انظر سيرته في الاغاني ج ٣ ص ١٢٦ـ٨٣ ؛ المسعودي ج ٦ ص ٢٤٠ـ٥٠ ، ٣٣٣ـ٤٠ ج ٧ ص ٨١ـ٧ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ١٢٥ـ٣٠ .

قصائده الزهدية المشبعة باحتقار الدنيا وحطامها بشكل شجيّ يعبّر عن العواطف الدينية الرقيقة عند عامة الناس . ومع ان الرشيد كان يجري عليه في كل سنة خمسين الف درهم فانه لبس الصوف وتزهّد وقصر همه على الوعظ وشعر الزهد ويعدّ من هذه الناحية ابا الشعر الزهدي عند العرب (١) .

وقد ظهر في الامصار لا سيما الشام في الحقبة العباسية نفر من أئمة الشعر اشهرهم ابو تمام (المتوفى نحو ٨٤٥) وابو العلاء . وكان والد ابي تمام خمّاراً او عطّاراً نصرانياً بدمشق اسمه ثادوس (ثدّايوس) فحرّفه ابو تمام عند اسلامه الى اوس (٢) . ونبغ ابو تمام في الشعر وتنقّل في الاقطار الاسلامية وتردد الى بلاط الخلفاء ومدح المأمون والمعتصم والواثق . ولكن شهرته ترتكز بالاكثر على جمعه « ديوان الحماسة » (٣) الذي يحوي الكثير من درر الشعر العربي . اما « ديوان الحماسة » (٤) الآخر الذي جمعه البحتري (٨٢٠–٩٧) سالكاً فيه طريق ابي تمام فهو دون حماسة ابي تمام .

وكانت هذه الرعاية التي حظي بها الشعراء من خلفاء بني العباس ووزرائهم وعمّالهم سبباً في ان يصبح الشعراء مداحين ويصبح الشعر بضاعة مطلوبة . الا انها دفعت بالشعراء الى التزلف والتمليق والتكلّف والاسراف في الصناعة اللفظية والخروج عن جادّة الاعتدال والمبالغة وما اليها من الامور التي كادت تصبح من مميزات الشعر العربي . وكان الشعر العباسي كأكثر الشعر العربي في شتى عصوره موضوعياً اقليمياً في طبيعته غنياً بصبغته المحلية ولكنه لم يستطع ان يتخلص من قيود الزمان والمكان ليحلّ مكانة تؤهله ان يكون في عداد الشعر العالي .

---

١) راجع ديوانه (بيروت ، ١٨٨٧) .

٢) انظر الاغاني ج١٥ ص٩٩–١٠٨ ؛ المسعودي ج٧ ص١٤٧–٦٧ ؛ ابن خلكان ج١ص٢١٤–١٨ .

٣) نشرها بعنوان « اشعار الحماسة » فريتاغ (بون ، ١٨٢٨) واضاف اليها شرحاً في مجلدين (بون ، ١٨٤٧–٥١) .

٤) اخراج فوتوغرافي مع فهارس – اصدرها غاير ومرغوليوث (ليدن ، ١٩٠٩) .

الفصل الثامن والعشرون

التربية والتعليم

تبدأ تربية الولد في المنزل فما يدرك العهد الذي يستطيع فيه ان يحسن النطق حتى يتولى والده امر تعليمه « الكلمة » المأثورة : « لا اله الا الله » . فاذا بلغ السادسة ترتب عليه القيام بفرض الصلاة وبها تبدأ تربيته الرسمية (١) .

التعليم الابتدائي

وكان الكتّاب مدرسة الولد الابتدائية وكان ملحقاً بالمسجد ان لم يكن المسجد ذاته . وقد قام منهاج الدراسة فيه على قراءة القرآن ثم على تعلم الكتابة . وقد لاحظ ابن جبير (٢) عند زيارته دمشق في سنة ١١٨٤ ان التمارين الخطية كانت لا تؤخذ من القرآن بل من الشعر وذلك « تنزيهاً لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات او المحو » . وكان الطالب يتعلم مع القراءة والخط الصرف والنحو وقصص الأنبياء لا سيا الأحاديث المختصة بالسيرة النبوية وقواعد الرياضيات الأساسية والأشعار الا ما كان غرامياً . وكان مساق الدرس في منهاج الدراسة قائماً على الحفظ وقوة الذاكرة . وكان الأذكياء من الطلبة في كتاتيب بغداد اذا حفظوا المنهاج يحمل واحدهم على دابّة ويسار به في شوارع المدينة وينثر عليه اللوز وقد حدث مرة ان اصابت لوزة عين تلميذ فذهبت ببصره (٣) . ولا يزالون في بعض الأوساط الى هذا اليوم يحتفون بالصبي اذا ختم القرآن اي اكمل حفظه . وكان الولد اذا انهى حزباً من القرآن منح عطلة يوم او بعض اليوم .

وكانت ابواب التعليم الديني الأولي مفتوحة للبنات ولكن الرغبة في زيادة تعليمهن لم

---

١) قابل الغزالي ، احياء ج ١ ص ٨٣ .

٢) ص ٢٧٢ .

٣) الاغاني ج ١٨ ص ١٠١ .

تكن عظيمة . وقد جاء في الحديث : « وخير الخلق المرأة المغزل » [١] . وكان لأبناء اليسار مؤدبون يعلمونهم اصول الدين وحسن الأدب وفن النظم . وكثيراً ما كان هؤلاء المؤدبون من الأعاجم . اما غاية التربية الأرستقراطية ومثلها العليا فيمكن ان ندركها من وصية الرشيد الى مؤدب ابنه الأمين حين قال له : « اقرئه القرآن ، وعرّفه الآثار ، وروّه الأشعار ، وعلّمه السنن ، و بصّره مواقع الكلام و بدأه ، وامنعه الضحك الا في اوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرنّ بك ساعة الا وانت مغتنم فيها فائدة تفيده اياها من غير ان تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ و يألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة فان اباهما فعليك بالشدة والغلظة » [٢] . واذن فقد كان المؤدب يستعين بالعصا لتقويم الأخلاق اذا لزم الأمر وقد رضي الخليفة نفسه كما يتضح مما ذكرنا ان يطبق امرها على ابنائه . وقد جاء في « رسالة السياسة » [٣] لابن سيناء فصل « في تدبير الرجال ولده » يقول فيه : ان الوالد قد يحتاج الى الاستعانة باليد بعد الارهاب الشديد .

ولم يكن لمن يدرّس في الكتاب معلماً كان او فقيهاً منزلة عالية في الهيئة الاجتماعية . وقد قال بعض الحكماء : « لا تستشيروا معلماً ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء » [٤] بل بلغ الأمر باحد قضاة المأمون ان منع شهادة المعلمين امام المحاكم . وفي الأدب العربي طائفة كبيرة من النوادر المبنية على الاعتقاد بان المعلم بليد او أحمق بحيث ضرب به المثل فقيل : « احمق من معلم كتّاب » [٥] ولكن رجال الطبقة العالية من المعلمين كانوا بوجه عام موضوع احترام عظيم . وكانت هناك رابطة تربطهم في شكل نقابة . وكان الشيخ اذا انهى الطالب عنده مساق الدراسة المفروض اعطاه اجازة بذلك . وقد وضع الزرنوجي [٦] رسالة في فن

---

١) قابل المبرد ص ١٥٠ .
٢) المسعودي ج ٦ ص ٣٢١ — ٢ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٧٥ — ٦ .
٣) نشرها لويس معلوف في « المشرق » ج ٩ (١٩٠٦) ص ١٠٧٤ .
٤) الجاحظ ، البيان ج ١ ص ١٧٣ .
٥) الجاحظ ، البيان ج ١ ص ١٧٣ .
٦) تعليم المتعلم طريق التعلم ، نشر كسباري (ليبزغ ، ١٨٣٨) ص ١٤ — ١٩ .

التعليم سنة ١٢٠٣ خصص فيها فصلاً لما يترتب على الطالب من الاحترام والاعتبار لحرفة التدريس . وذكر القول المأثور المنسوب الى الامام علي « من علمني حرفاً صرت له عبداً » . وتعد رسالة الزرنوجي هذه اشهر الرسائل الموضوعة في العربية في موضوع التربية وهناك نحو اربعين رسالة في الموضوع نفسه لا يزال اكثرها محفوظاً في مكتبات العالم ولم يطبع بعد (١) .

دور التربية العالية

كان بيت الحكمة اول دار للدراسة العالية في الاسلام . وقد اسسه المأمون سنة ٨٣٠ في عاصمته فهو علاوة على كونه دار ترجمة كان معهداً للعلم ودار كتب عامة وله مرصد ملحق به . وكانت المراصد التي ظهرت في ذلك الزمن مدارس لتعليم الفلك كما كانت المستشفيات التي ظهرت لأول مرة في هذه الحقبة مراكز للدراسات الطبية . ولكن اول مؤسسة علمية في الاسلام (٢) بالمعنى الصحيح هيأت للطلاب اسباب العيش واصبحت مثالاً لما قام بعدها من دور التعليم العالية هي المدرسة النظامية التي بناها في سنة ١٠٦٥–٧ نظام الملك وزير السلطان الب ارسلان وولده ملكشاه وولي عمر الخيام . ولقد سلك السلاجقة في رعايتهم للفنون ومناصرتهم للعلم مسلك بني بويه وسواهم من السلاطين الاعاجم الذين اغتصبوا الملك في الاسلام . فقد كانوا يتنافسون في ذلك استرضاء للشعب فيما يظهر . وقد خصصت المدرسة النظامية لتعليم الفقه لا سيما اصول المذهب الشافعي والنظام الاشعري السنّي . وكان علم الأدب فيها قائماً على دراسة القرآن والشعر القديم كما كان قائماً في جامعات اوربا بعد ذلك على الدراسات الكلاسيكية . وكان الطلاب يتناولون الطعام في هذا المعهد العالي وتجري على كثير منهم رواتب سنوية . ويزعم البعض ان جامعات اوربا الاولى قد اقتبست بعض تفاصيل التنظيم من المدرسة النظامية (٣) . وكان لطلاب المدرسة النظامية كلمة موحّدة نستدل على ذلك من قيامهم مرة على متولي امر المخالفات من قبل المحكمة سنة ١١٨٧ وضربهم اياه حين جاء ليختم

---

١) انظر لانحتها في : Khalil a. Totah, *The Contribution of the Arabs to Education* (New York, 1926), pp. 67-76.

٢) راجع السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٦ — ٧ وقابل القزويني ، آثار ص ٢٧٦ .

٣) راجع . Reuben Levy, *A Baghdad Chronicle* (Cambridge, 192J), p. 193

غرفة طالب يسكن في المدرسة وقد توفي دون وارث (١).

وكانت النظامية مدرسة فقه رسمية اعترفت بها الدولة . وقد أشار ابن الأثير (٢) الى حادثة ذكر فيها ان مدرّساً بالنظامية صدر له التعيين ولكنه لم يؤذن له بالتدريس الى ان جاءت موافقة الخليفة على تعيينه . والظاهر انه كان ينتدب للتدريس عالم واحد فقط (٣) يعاونه مُعيدان او اكثر (٤). ويقوم عمل المُعيد على تلاوة المحاضرة نفسها بعد انتهاء الدرس وايضاحها لمن لم يفهمها من الطلاب . وقد حضر ابن جبير (٥) محاضرة في المدرسة النظامية اثر صلاة العصر لفقيه المدرسة المشار اليه بالتقديم في العلوم الاصولية ، فصعد الاستاذ المنبر وخطب خطبة سكون ووقار ثم رشقه الطلاب شآبيب المسائل من كل جانب ودفعت اليه عدّة رقاع فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها الى ان فرغ منها وقد حان المساء فنزل وافترق الجمع . وفي المدرسة النظامية هذه قام الغزالي بالتدريس اربع سنوات (١٠٩١-٥) (٦). وقد ذكر الغزالي في كتابه الاحياء (٧) شيئاً عن التربية فندّد في الفصل الذي افتتح به الكتاب وموضوعه العلم بالفكرة القائلة ان هدف التربية هو ادخال المعرفة الى العقل وشدّد على وجوب تحريك الشعور الاخلاقي في الطالب . فهو من هذه الناحية اذن أول مؤلف في الاسلام ربط مسألة التربية ربطاً وثيقاً بنظام اخلاقي عميق. ومن المدرّسين المتأخرين في النظامية بهاء الدين المعروف بابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين . وقد اخبرنا في مذكراته التي اوردها ابن خلكان (٨) ان جماعة من الطلاب شربوا قدراً من البلاذر محلولا بالماء لاجل سرعة الحفظ والفهم فحصل لاحدهم الجنون وجاء الى المدرسة وهو عريان ليس عليه شيء يستر عورته

---

١) ابن الأثير ج ١١ ص ١١٥ .
٢) ج ١١ ص ١٠٠ .
٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٢٣ .
٤) انظر ابن خلكان ج ٣ ص ٤٣٠ .
٥) ص ٢١٩-٢٠ .
٦) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٤٦ ؛ المنقذ من الضلال (القاهرة ، ١٣٢٩) ص ٢٩-٣٠ .
٧) ج ١ ص ٣-٩ ؛ ايها الولد ، نشر وترجمة هامر برجستال (فينا ، ١٨٣٨) وترجمها للانكليزية G. H. Scherer (Beirut, 1933).
٨) ج ٣ ص ٤٣٥ وما يلي .

فضحك منه الفقهاء وسألوه عن الحال فقال لهم : « كنا اجتمعنا وشربنا حب البلاذر (١) فأما اصحابي فانهم جنوا وما سلم منهم الا انا وحدي » .

وقد نجت المدرسة النظامية من الكارثة التي انزلها بالعاصمة الفاتح هولاكو سنة ١٢٥٨ كما نجت من الغارات المتأخرة التي قام بها التتر الى ان وُحد بينها وبين المدرسة المستنصرية وذلك سنة ١٣٩٥ بعد ان دخل تيمورلنك بغداد بسنتين . اما المدرسة المستنصرية هذه فقد بناها الخليفة العباسي المستنصر (٢) - ومن هنا اسمها - سنة ١٢٣٤ لدراسة المذاهب الاربعة وكان فيها ساعة من نوع المزولة موضوعة عند المدخل الامامي . وهي مجهزة بالحمامات والمطابخ وفيها مستشفى ودار للكتب. وقد زارها ابن بطوطة (٣) سنة ١٣٢٧ حين نزوله بغداد ووصف بناءها وصفاً مفصلاً . ولعل بناء المستنصرية اليوم هو كل ما خلفه لنا الزمن من الابنية العباسية وقد جعل اليوم مخزناً تابعاً لادارة الكمارك في بغداد .

وقد عزي الى الوزير السلجوقي نظام الملك انشاء بضع مدارس دينية غير المدرسة النظامية في نيسابور وسواها من مدن الامبراطورية . وكان نظام الملك اعظم من شمل التربية العالية برعايته قبل عهد صلاح الدين . واخذت تظهر مدارس اخرى على شكل النظامية في خراسان والعراق وسورية . ولما كان بناء المدارس يعدّ من النوافل في الاسلام فقد كثرت اشارة الرحالين الى ما وجدوه منها في الاقطار . وقد احصى ابن جبير (٤) نحو ثلاثين مدرسة في بغداد ، ونحو عشرين في دمشق . وكانت دمشق اذ ذاك في عصرها الذهبي في ظلّ صلاح الدين الايوبي ، كذلك احصى ابن جبير ستاً او اكثر في الموصل وواحدة في حمص .

وقد كان علم الحديث في جميع هذه المدارس الدينية العالية اساس التدريس وكان للاعتماد على الذاكرة فيها شأن عظيم . واذا صدقنا الاخبار المروية فان قوة الحفظ بلغت في تلك الأيام درجة فائقة . فهذا الغزالي يكتسب لقب حجة الاسلام لحفظه ٣٠٠ الف حديث وهذا أحمد ابن

---

١) من لفظة بلادر الفارسية. ويقال ان المؤرخ الشهير البلاذري مات من شراب حب البلاذر ومن هنا اسمه.
٢) ابو الفداء ج ٣ ص ١٧٩ .
٣) ج ٢ ص ١٠٨ - ٩ .
٤) ص ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨٣ - ٤ .

حنبل يروى عنه انه كان يحفظ مليوناً [١] . وقد امتحن البخاري في مئة حديث قلبت متونها واسانيدها وجعل متن هذا الاسناد لاسناد آخر فردّ كل متن الى اسناده وكل اسناد الى متنه فأقر له الناس بالحفظ [٢] . وراح الشعراء ينافسون اصحاب الحديث في الحفظ . وقد روي ان المتنبي قرأ كتاباً اعاره اياه احد باعة الكتب فحفظه كله ولم يعد لهحاجة في شرائه . وهناك نوادر كثيرة من هـذا القبيل تروى للتدليل على قوة الحافظة عند ابي تمام والمعرّي وغيرهما .

سينة البالغين

لم تكن تربية البالغين قائمة على اساس منظم الا ان المساجد في كل المدن الاسلامية كانت مراكز تربوية . فاذا ما حل زائر في مدينـة ما قصد جامعها وهو واثق انه سيجد فيـه شيخا يعطي درساً في الحديث . وهذا ما فعله المقدسي [٣] فيما يقول عند زيارته السوس . وقد وجد هذا الجغرافي الرحالة وهو من رجال القرن العاشر كثيراً من الحلقات والمجالس يعقدها الفقهاء وقرّاء القرآن والأدباء في المساجد [٤] في فلسطين (موطنه) وفي سوريـة ومصر وفارس . وكان الامام الشافعي يرأس حلقة من امثال هذه الحلقات في مسجد عمرو بالفسطاط حيث كان يلقي دروساً متنوعة كل صباح حتى مماته سنة ٨٢٠ [٥] . وقد اشار ابن حوقل [٦] الى حلقات في سجستان . ولم تكن هذه الحلقات او المجالس مقتصرة على الدروس الدينية بل كثيراً ما كانت تعالج فيها المواضيع اللغوية والشعرية [٧] . وكان مباحاً لكل مسلم ان يحضر هذه المحاضرات التي كانت تلقى في المساجد والتي ظلت حتى القرن الحادي عشر اداة لتوسيع مدى العلم في الاسلام .

ثم ان هذه الحلقات التي كانت تعقد في المساجد تذكرنا بمجالس اخرى كانت تقـام في

١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٨ .
٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٠–٣١ .
٣) ص ٤١٥ .
٤) المقدسي ص ١٨٢ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٤٣٩ .
٥) ياقوت ، ادباء ج ٦ ص ٣٨٣ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ج ١ ص١٣٦ .
٦) ص ٣١٧ .
٧) ياقوت ج ٤ ص ١٣٥ ، ج ٦ ص ٤٣٢ .

بيوت الطبقة الأرستقراطية وافراد الهيئة الاجتماعية المثقفة وتعرف بمجالس الأدب (١) . وقد اخذت هـذه المجالس بالظهور منـذ اوائـل العصر العباسي . وكانت المسابقـات الشعريـة والمجادلات الدينية والمؤتمرات الأدبية تعقـد في مجالس خلفائه الأول . وقـد تحدر الينا بعض الكتب مما يرجع الفضل في وضعها الى هذه المجالس نفسها (٢) .

دور الكتب

وكانت المساجد تستخدم كمستودعات للكتب واصبحت خزائنها غنية بالكتب لا سيما الدينية التي كان الناس يهبونها لها او يقفونها فيها على القراء . ومن جملة الذين وقفوا كتبهم الخطيب البغدادي (١٠٠٢ـ٧١) وقد وقفها على المسلمين وسلمها قبل مماته لأحد اصدقائه (٣) . وكانت هناك خزائن كتب اخرى انشأها الأغنياء والوجهاء وهي شبه عمومية وكانت تضم كتباً في مواضيع متنوعة كالمنطق والفلسفة والفلك وسواها (٤) . وكان في متناول العلماء وذوي المكانة ان يصلوا حتى الى المكاتب الخاصة ليقرأوا ما يريدون . وكان في الموصل قبل منتصف القرن العاشر خزانة كتب لجميع العلوم جعلت وقفاً على كل طالب لا يُمنع احد من دخولها واذا جاءها غريب يطلب الأدب وان كان معسراً اعطاه صاحبها ورقاً يكتب عليه (٥) . اما خزانة الكتب التي بناها عضد الدولة البويهي (٩٧٧ ـ ٨٢) بشيراز فقد كانت كتبهـا مرتبـة ترتيبـاً في الخزائن والدفاتر منضّدة على الرفوف لكل نوع بيت . ولهـا فهارس باسماء الكتب وعليها وكيل وخازن ومشرف (٦) . وكان في البصرة في ذلك القرن خزانـة كتب أجرى صاحبها المال على من قصدها ولزم القراءة والنسخ فيهـا (٧) . وازدهرت في الريّ في الزمن نفسه دار كتب فيها اكثر من اربعمئة حمل جمل من الكتب وقد وضع لها فهرس في

---

١) الاغاني ج ١٨ ص ١٠١ .
٢) انظر ص ٤٣٤ من هذا الكتاب .
٣) ياقوت ج ١ ص ٢٥٢ ، ج ٤ ص ٢٨٧ .
٤) انظر مثالا على ذلك في المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٦٧ .
٥) ياقوت ج ٢ ص ٤٢٠ .
٦) المقدسي ص ٤٤٩ . انظر ايضاً ياقوت ج ٥ ص ٤٤٦ .
٧) المقدسي ص٤١٣ .

عشرة مجلدات ضخمة (١) . وكثيراً ما كانت المكاتب منتدىً للعلماء يتداولون فيها الأبحاث العلمية والمناظرات الأدبية . وقد قضى ياقوت ثلاث سنوات في دور الكتب بمرو وخوارزم يجمع المعلومات لكتابه « معجم البلدان » ولكنه اضطر الى الفرار سنة ١٢٢٠ عند وصول جحافل جنكيزخان الذي جعلها طعماً للنيران .

حوانيت الوراقين

لقد ظهرت حوانيت الوراقين في مطلع العصر العباسي ايضاً وكانت من العوامل التي ساهمت في التربية العلمية . وقد ذكر اليعقوبي (٢) ان بغداد في زمانه (٨٩١) كانت تباهي بان فيها اكثر من مئة حانوت للورّاقين في سوق واحدة . والظاهر ان كثيراً منها كانت دكاكين صغيرة قرب المساجد كالتي نألفها اليوم في دمشق والقاهرة وسواهما من المدن العربية . ولكن بعضها دون شك كانت من السعة بحيث تعرض فيها الكتب ويلتقي فيها الخبراء والهواة . اما باعة الكتب فقد كان أكثرهم من الخطاطين او النسّاخين او المتأدبين الذين جعلوا حوانيتهم لا مخازن كتب فحسب بل مراكز للأبحاث الراقية. ولم يكن مقامهم الاجتماعي وضيعاً وقد كان ياقوت في اول عهده في العمل كاتباً لبائع كتب . وكان ابن النديم الورّاق نفسه (المتوفى ٩٦٥) بائع كتب او أميناً لمكتبة ليس غريباً ان يكون الفهرست كتابه القيّم في الأصل فهرساً لها . ونجد فيه (٣) ان عراقياً جمّاعاً للكتب كانت له خزانة اكتنز فيها القديم من المخطوطات فيها الجلود والصكاك وقرطاس مصر والورق الصيني والورق التهامي وجلود ادم وورق خراساني . وعلى كل مدرج توقيع الكاتب وتحته شهادات خمسة او ستة اجيال من العلماء .

الورق

كان المسلمون حتى اوائل القرن الثالث للهجرة يكتبون على الرقوق او البردي . وقد روي ان بعض الطروس التي نهبت في اثناء الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون محيت الكتابة عنها

١) ياقوت ج ٢ س ٣١٥ .
٢) ص ٢٤٥ .
٣) ص ٤٠ .

و يبعث ثانية لتستعمل من جديد (١) . و بعد القرن الثالث اخذ الورق الصيني يرد الى العراق الا ان صناعة الورق ما لبثت أن أتقنها اهل البلاد انفسهم. ولقد قدّمنا ان أسرى من الصينيين ادخلوا الى البلاد الاسلامية سنة ٧٥١ فن صنع الورق من القنب والكتان والياف الحشيش (٢). ولعل اسم الورق العربي القديم ـ كاغد ـ هو لفظ صيني الأصل جاء عن طريق الفارسية . ومن سمرقند تطرقت هذه الصناعة الى العراق . وكان اول من ادخل صناعة الورق الى بغداد الفضل ابن يحيي البرمكي (٣) الذي كان عامل خراسان سنة ٧٩٤ . ثم قام اخوه جعفر فاستعمل الورق بدل الرقوق في دواوين الحكومة (٤) . وسلكت مدن أخرى سبيل بغداد فأنشأت مصانع الورق على الأصول المتّبعة في سمرقند . ونشأ معمل في تهامة لصناعة الورق من الياف الحشيش (٥) . وكان ورق سمرقند في زمن المقدسي (٦) لا يزال افخر ما يصنع ولكن في القرن التالي اي القرن الحادي عشر للميلاد ظهرت انواع من الورق الفاخر كانت تصنعها مدن سورية كطرابلس مثلاً (٧) . وقد سرت هذه الصناعة في اواخر القرن التاسع من غربي آسية الى الدلتا بمصر حيث كانت كثير من المدن فيها تصدر البردي منذ ازمان متطاولة الى البلدان اليونانية حيث كان يستعمل للكتابة ويسمى قراطيس (٨) . ولم يأت آخر القرن العاشر حتى حلّ الورق محلّ البردي والرقوق في جميع انحاء العالم الاسلامي .

مستوى الثقافة:

لا جدال في انه كان هناك طبقة من الرجال المثقفين ثقافة عالية في مطالع العصر العباسي

١) الفهرست ص ٢١ .

٢) W. Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, 2nd. ed. (Oxford, 1928), pp. 236-7 وقابل الفهرست ص ٢١ .

٣) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٥٢ .

٤) المقريزي ، خطط (نشر فييت) ج ٢ ص ٣٤ ؛ قابل القلقشندي ج ٢ ص ٤٧٥ـ٦ .

٥) انظر الفهرست ص ٤٠ .

٦) ص ٣٢٦ من كتابه .

٧) Nasir-i-Khusraw, *Sefer Nameh*, ed. and tr. Charles Schefer (Paris, 1881), p. 12. tr. p. 41 .

٨) المفرد قرطاس من اليونانية ، انظر اليعقوبي ص ٣٣٨ ؛ القلقشندي ج ٢ ص ٤٧٤ .

ولكن ليس من السهل تقرير مستوى الثقافة بين العامة من الناس . وقد اورد ياقوت (١) قصة عالم ضاقت به الحال كثيراً ومرضت ابنتاه فقالت له زوجته « هات شيئاً من كتبك نبيعه او نرهنه » فضن عليها بذلك . اما درجة العلم التي كان يصل اليها المثقفون منذ عهد الرشيد الى القرن الثاني عشر فنستطيع ان نستدل على شيء منها من الأجوبة التي اجابت بها الجارية تودّد العلماء على اسئلتهم كما ذكرتها « الف ليلة وليلة » (الليلة رقم ٤٣٨ ــ ٦١) فقد ذكروا انها قالت : العقل عقلان موهوب ومكسوب والعقل يقذفه الله في القلب فيصعد شعاعه في الدماغ . وخلق في الانسان ثلاثمئة وستون عرقاً ومئتان واربعون عظماً وخمس حواس . والانسان مركب من اربعة عناصر هي الماء والتراب والنار والهواء . وقد جعلت تودد المعدة امام القلب والرئتين مروحتين له . ثم زعمت ان الكبد فيه الرحمة والطحال فيه الضحك والكليتين فيهما المكر . وقالت ان لرأس ابن آدم خمس قوى هي : الحس المشترك والخيال والمتصرفة والواهمة والحافظة والمعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء . اما الكواكب السبعة عندها فهي الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل (٢) .

---

١) ج ١ ص ٣٨ــ٩ .

٢) وهي الكواكب نفسها التي وردت في بطليموس . اما الخمسة الأخيرة فهي التي عرفها الاشوريون والبابليون Jastrow, *Civilization of Babylonia*, p. 261.

الفصل التاسع والعشرون
الفنون الجميلة

لقد اظهر العربي كشكل سامي في فنّه وشعره ميلاً واعجاباً بالدقائق والتفاصيل و بما هو ذاتي غير موضوعي وكان قليل العناية والمقدرة على الجمع بين الاجزاء وتنسيقها في كيان واحد شامل . على انه لم يبلغ في هندسة البناء والتصوير في عهده الاول تقدماً معيناً وقف عنده كما وقف في مجهوده العلمي بعد القرن العاشر .



صورة المتوكل على قطعة من النقود الفضية

هندسة البناء

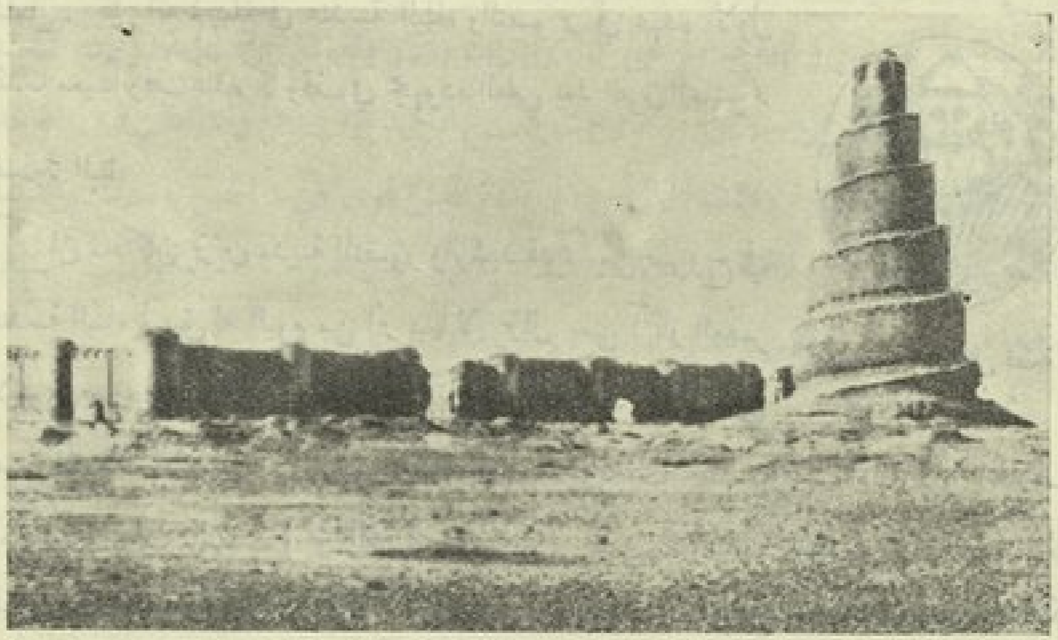
ان ما كان يزيّن مدينة المنصور والرشيد قديماً من صروح في هندسة البناء لم يبق له اليوم من اثر بينما لا يزال من آثار العصر الاموي صرحان يعدّان من افخر ما تبقّى من فن البناء الاسلامي هما المسجد الأموي بدمشق وقبة الصخرة في بيت المقدس . اما دار الخلافة المعروفة بباب الذهب (او القبة الخضراء) التي شيّدها المنصور ، وقصر الخلد الذي بناه لنفسه ، وقصر الرصافة الذي بناه لوليّ عهده المهدي (١) ، وقصور البرامكة في الشماسية (٢) ، وقصر الثريا الذي انفق في بنائه المعتضد (٨٩٢ ـ ٩٠٢) اربعمئة الف دينار (٣) حين أعاد مقرّ الخلافة الى بغداد بعد ان نقل الى سامرا ، وقصره بجوار الثريا المعروف بـ «التاج» (٤) وقد اكمله بعده المكتفي (٩٠٢ ـ ٨) ، ودار المقتدر (٩٠٨ ـ ٣٢) الفريدة المعروفة بـ « دار الشجرة » لانه كان في بركتها شجرة من الذهب والفضة ، والقصر البويهي المعروف بـ « المعزّية » نسبة الى معزّ الدولة (٩٣٢ ـ ٦٧) وقد بلغت اكلافه مليون

---

١) الخطيب ج ١ ص ٨٢ـ٣ .
٢) احد احياء الجانب الشرقي من بغداد .
٣) المسعودي ج ٨ ص ١١٦ . وقد فاض دجلة بعد قرنين فهدم هذا القصر .
٤) الخطيب ج ١ ص ٩٩ وما يلي .

دينار (١) ، كل هذه وغيرها من المباني الفخمة التي شادها العباسيون اندثرت وعفت رسومها ولم يبق لها اثر يشعرنا بعظمتها وفخامتها . فالدمار الذي جرّته الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون ، وما انزله بالعاصمة سنة ١٢٥٨ هولاكو من هدم وتخريب ، وعوامل الفناء الطبيعية قد اتت على كل هذه الأبنية في بغداد حتى ليتعذر علينا اليوم تعيين امكنة الكثير منها بالضبط .

اما في غير بغداد فأطلال العباسيين لا يمكن ارجاع عهد اقدمها الى ما قبل عهد المعتصم (٨٣٣ ـ ٤٢) مؤسس سامرّا وولاية المتوكل (٨٤٧ ـ ٦١) باني المسجد الجامع (٢) فيها . وقد بلغت نفقة بنائه سبعمئة الف دينار (٣) . وهو بناء مستطيل تدل قناطر نوافذه ذات



الملوية في جامع سامرا الكبير (القرن التاسع)

الزخرف المجزأ على تأثير هندي . ولكن ليس في الجدار القبلي منه أثر للمحراب ولا في مسجد ابي دُلَف بالقرب من سامرّا الذي يرجع عهده الى منتصف القرن التاسع . والظاهر ان المحراب استحدث في سورية بالأكثر على غرار كرسي الأسقف في البيع (٤) . وقد ارتفع قبالة جدار

١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٦ .

٢) اليعقوبي ص ٢٦٠ ؛ المقدسي ص ١٢٢ .

٣) ياقوت ، بلدان ج ٣ ص ١٧ .

٤) Ernest T. Richmond, *Moslem Architecture, 623 to 1516* (London, 1926), p.54; cf. Ernest Herzfeld, *Erster vorläufiger Bericht über die Ausgrabungen von Samarra* (Berlin, 1912), p. 10 .

المسجد الجامع في سامراً من الخارج برج يسمى الملوية اليوم يشبه شكل الـ « زِغورات » البابلية فقلد ابن طولون هذا البرج في تشييد مئذنـة المسجد الذي بناه سنة ٨٧٦ ـ ٩ وظهرت فيه القنطرة المروّسة للمرة الثالثة وكانت قد ظهرت قبلاً في مسجد عمرو (٨٢٧) ومقياس النيل (٨٦١) . اما البقايا المحفوظة في الرقّة التي ترجع الى آخر القرن الثامن فتعكس الفن الاسيوي ولا سيما الفارسي بخلاف الأبنية الأموية التي تحمل اثر الفن البيزنطي السوري. وفي العهد الساساني (٢٢٦ ـ ٦٤١) نشأ عند الفرس نوع من هندسة البناء يمتاز بصفات خاصة منها القبة البيضية الشكل او الاهليلجية والقنـاطر القوسية والابراج اللولبية والشرفات المسننة في القلاع للدفاع الحربي وحجارة الآجر المغشى بمادة زجاجية لامعة والسطوح المسقوفة بالمواد المعدنيـة . وقد اصبح هـذا النوع من الفن البنائي عند الفرس من اقوى العوامل في تشكيل الفن العباسي .

التصوير

وكما ان الاسلام لم يستطع ان يقطع دابر الشرب في المجتمع الاسلامي رغم استنكاره الشديد للخمر كذلك فان عداوة الفقهاء للفن التصويري لم تحل دون ارتقائه على أساليب اسلامية صرفة . وقد قدمنا ان المنصور أقام على قبة قصره تمثـال فارس لعله كان للاستدلال على اتجاه الريح، وان الامين أنشأ حراقات له على دجلة في اشكال الاسود والنسور والحيتان ، وان المقتدر ايضاً كانت له ايضاً دار فسيحة تحف بها جنينة غناء فيها شجرة وسط بركة كبيرة مدورة امام ايوانها . وقد رُوي انه كان لهذه الشجرة ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة، لكل غصن فروع كثيرة تعلوها طيور من الذهب والفضة اذا مرّ الهواء عليها أبانت العجائب من انواع الصفير والهدير . وفي جانب الدار عن يمين البركة تماثيل لخمسة عشر فارساً على خمس عشرة فرساً ومثلها عن يسار البركة قد ألبسوا انواع الحرير المدبج مقلدين بالسيوف وفي ايديهم المطارد يتحركون على خط واحد فيظن ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد (١) .

اما الخليفة المعتصم باني سامراً (٨٣٦) فقد جعل الملاط في جدران قصره مزخرفاً كزخرف « قصير عمرة » فيه نقوش تظهر فيها اجسام نساء عاريات ومشاهد للصيد لعلها من صنع بعض

١) الخطيب ج ١ ص ١٠٠ـ١٠٥ وانظر ص ٣٧٦ من هذا الكتاب .

أهل الفن من النصارى . وقد بلغت سامراً في عهد خلفه الثـاني المتوكل غاية مجدها [١] وقد عوّل هذا في تزويق جدران قصره على مصوّرين بيزنطيين لم يمنعهم مانع من وضع صورة كنيسة فيها رهبان بين مجموعة الصور التي صنعوا [٢] .

ولم يُعن الاسلام بالتصوير في المساجد الا في عهد متأخر ولكن هذا الفن لم يكن له قط من الأهمية ما كان له في الديانتين البوذية والنصرانية . واقدم أثر يشير الى صورة تمثـل النبي شاهدها مسافر عربي في اواخر القرن التاسع وذلك في بلاط احد امراء الصين [٣] لعلها كانت من صنع النساطرة ؛ اما الصور التي تمثل البراق فهي مأخوذة عن نمـاذج اتصلت بالعرب عن طريـق الفرس . ومنهـا صورة الرأس البشري والجسد الحيواني المجنّح الذي يعـود الى فن الأشوريين . ولكن التصوير الاسلامي الديني لم يظهر جلياً حتى اوائل القرن الرابع عشر . والظاهر انه مستمد من رسوم الكنائس النصرانية الشرقية وبالأخص اليعقوبية والنسطورية كما اظهرت بحوث ارنولد [٤] ، وقد نشأ عن صناعة زخرفة الكتب . اما الزخارف الدقيقـة فقد كان فيها للفن المانوي بعض الأثر [٥] . واول من سعى الى وضع تاريخ لمصوري المسلمين هو المقريزي (المتوفى ١٤٤٢) الا ان مصنفه مفقود اذ لم يكن هناك لهذا الموضوع شأن يذكر .

واقدم ما وقع عليه الباحثون من المخطوطات العربية ذوات الصور المصغرة لا يرجـع الى ما قبـل القرن الثالث عشر للميـلاد . وهي « كليلة ودمنة » و « مقامات » الحريري و « الأغاني » [٦] وتظهر فيها صور هي امـا من صنع النصارى او من صنع فنانـين تأثروا بتقاليد مستمدة من مصادر نصرانية وذلك لأن من كان يرغب في ذلك من المسلمين متغاضياً

---

١) قد بحث في الابنية التي انشأها المتوكل اليعقوبي ص ٢٦٦ — ٧ وياقوت ج ٣ ص١٧ — ١٨ وقدخمن هذا الأخير اكلافها بـ ٢٩٤ مليون درهم .

٢) Ernst Herzfeld, *Die Malereien von Samarra* (Berlin, 1927), pls. lxi, lxiii.

٣) المسعودي ج ١ ص ٣١٥ — ١٨ .

٤) Arnold, *Painting in Islam* (Oxford, 1928), ch. iii.

٥) Thomas W. Arnold and Adolf Grohmann, *The Islamic Book* (London, 1928), p. 2.

٦) انظر : *Bulletin de l'Institut d'Égypte* vol. xxviii (Cairo, 1946), pp. 1-5 حيث تجد صورة صغيرة للنبي يرجع عهدها الى سنة ١٢١٧/١٨ .

عن تعاليم الفقهاء كان لا بد له اولا من الاعتماد على مصورين يعاقبة او نساطرة الى ان ظهر بين المسلمين انفسهم فنانون مستقلون . وقد كانت فارس بتقاليدها وميولها الفنية الهندية الايرانية غنية بمثل هؤلاء الفنانين . ومن الخطأ ان يظن ان هذا النتاج الفني انما ترعرع في فارس بتأثير الميول الشيعية لان الشيعة لم تنتشر في فارس بحيث تصبح دين الدولة حتى قيام الدولة الصفوية سنة ١٥٠٢

الفنون الصناعية

وقد كان الفرس منذ اقدم الازمنة اساتذة في فن الزخرفة والتلوين . و بمساعيهم بلغت فنون الاسلام الصناعية درجة عالية من الرقي . فحياكة السجاد فن صناعي يعود الى زمن الفراعنة في مصر وهو من خصائص الفرس . وكانوا يستحسنون على السجاد مشاهد الصيد والحدائق ويستعملون حجر الشبّ لتثبيت الألوان . وكانت اوربا تعظّم شأن المنسوجات الحريرية المزخرفة المصنوعة على الأنوال اليدوية في مصر وسورية بحيث ان الصليبيين وغيرهم من أهل الغرب كانوا يفضلونها على سواها كلفائف لبقايا قديسيهم .

وفي صناعة الخزف وهي ايضاً قديمة العهد جداً اتقن الصنّاع تقليد الجسم البشري والنباتات والاشكال الهندسية والابيغرافية (المنقوشة) اتقاناً لا نراه في أي فن اسلامي آخر (١) . وبالرغم من تحرج اهل الشرع وحملتهم على الفن القالبي (صنع التماثيل) والتصويري في القرن الثاني والثالث للهجرة فان صناعة الفخار والمعادن ظلّت تخرج في العصور الوسطى قطعاً رائعة لا مثيل لها . وانتشر الآجر القاشاني مزوّقاً بانواع الزهور وقد اخذ العرب هذه الصناعة عن الفرس فانتقلت الى دمشق وذاع امرها وعمت كما عمت الفسيفساء في زخرفة الأبنية من الداخل والخارج . وقد امتازت الاقبية العربية على سواها في انها تتكيف تبعاً للعوامل الزخرفية فاصبحت موضوعاً فنياً شائقاً في الفنون الاسلامية . وأتقن طلي الزجاج بالميناء، وتشبته بالذهب ، خاصة في انطاكية وحلب ودمشق و بعض المدن الفينيقية القديمة كصور وغيرها. وبين كنوز متحف اللوفر بفرنسا والمتحف البريطاني بانكلترا والمتحف العربي

---

١) Gaston Migeon, *Les arts musulmans* (Paris, 1926), pp. 36-7.

بالقاهرة آثار فتانة من سامرا والفسطاط منها الآنية والأقداح والمزهريات والأباريق والقناديل التي كانت تستعمل في المنازل والمساجد مطلية طلياً زاهياً براقاً لامعاً او مغشاة بمواد معدنية مصقولة تتماوج فيها الوان قوس قزح .

فن الخط

كان من اغراض فن الخط ان يخلد كلام الله في الصحف ومن هنا استمد مكانته . وقد جاء في القرآن الكريم تأييداً لهذه المكانة قوله تعالى في اول سورة القلم : « ن والقلم وما يسطرون » وفي سورة العلق : اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم (١) وقد نشأ هذا الفن في القرن الثاني للهجرة ولم يأت القرن الثالث حتى اصبح اشرف فن يرغب فيه (٢) . وهو فن اسلامي خالص كان له اثر كبير في التصوير وبه وجد المسلم منفذاً للتعبير عما في طبيعته من تذوق للجمال حين كان يؤبى عليه ان يعبرّ عن هذه الناحية الفنية في نفسه في ميدان التصوير او تمثيل الكائنات الحية . ولقد كان للخطاطين مكانة وكرامة اعلى بكثير مما كان للمصورين حتى ان الأمراء انفسهم كانوا يسعون لنيل الحظوة الدينية بكتابة القرآن . وتحفظ لنا كتب الأدب والتاريخ اسماء عدد من الخطاطين ممن اغدقت عليهم النعوت الطيبة بخلاف اصحاب هندسة البناء والمصورين وصناع الأواني المعدنية الذين اسدل التاريخ حجابه على ذكرهم . ومن واضعي اسس فن الخط عند العرب الريحاني (٣) (المتوفى ٨٣٤) الذي زها في عصر المأمون واتقن اسلوب الخط المعروف باسمه . وابن مقلة (٨٨٦ ـ ٩٤٠) الوزير العباسي المشهور ، وكان الخليفة الراضي امر بقطع يده فلم يمنعه ذلك عن اجادة الخط بيسراه بل كان يشد القلم على ساعده الأيمن ويكتب به ايضاً (٤) . ومنهم ايضاً ابن البواب (٥) (المتوفى ١٠٢٢ او ١٠٣٢) وقد دعي بذلك لأن اباه كان بواباً يلازم باب الخليفة ببغداد وهو واضع اسلوب الخط المعروف بالمحقق . وآخر من برع من اصحاب

١) الآية ٣ — ٥ .
٢) انظر القلقشندي ج ٣ ص ٥ وما يلي . ج ٢ ص ٣٠ ؛ وما يلي .
٣) الفهرست ص ١١٩ ؛ ياقوت ، ادباء ج ٥ ص ٢٦٨ وما يلي.
٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٧٤ ؛ الفخري ص ٣٦٨ ، ٣٧٠ — ٧١ ؛ ياقوت ج ٣ ص ١٥ .
٥) ابن خلكان ج ٢ ص ٣١ وما يلي ؛ النويري ج ٧ ص ٣ - ٤ .

القلم في الحقبة العباسية ياقوت المستعصمي خطاط البلاط في عهد آخر الخلفاء العباسيين واليه ينسب الخط الياقوتي. على اننا لو اردنا ان نحكم على الفن الخطي مما وصلنا من آثار ياقوت(١) وسواه من الخطاطين العرب لما استطعنا ان نحله محلاً عالياً. ولعل الخط هو الفن الوحيد الذي لا يزال يمثله في العصر الحديث رجال في القسطنطينية والقاهرة و بيروت ودمشق لهم آثار خطية تفوق بجمالها اروع ما اخرجه القدماء.

وليس الخط فقط بل كل الفنون المتصلة به كالزخرفة بالألوان وتزيين الكتب والتذهيب وصناعة التجليد يرجع نشوؤها وازدهارها الى علاقتها بكتاب الله. وقد بدأ فن زخرفة الكتب وتزيين المصاحف منذ اواخر العهد العباسي و بلغ القمة في اواخر عهد المماليك. وهنا ايضاً يلاحظ ان فن التصوير النسطوري واليعقوبي كان له اعظم الأثر. ويجيء بعد الخطاط رتبة المذهب ولم ينحصر فن التذهيب في القرآن بل صار يستخدم في تزيين الكتب على انواعها.

الموسيقى

وكما ان استنكار اصحاب الشرع للموسيقى لم يؤثر في دمشق كذلك هو لم يؤثر في بغداد. وقد اخذ المهدي الخليفة العباسي نفسه برعاية هذا الفن فبدأ حيث انتهى الخلفاء الامويون المتأخرون واحضر اليه سياطاً(٢) المكي (٧٣٩ - ٨٥) صاحب الصوت الشجي الذي قالوا في صوته « ادفأ للمقرور من حمّام محمّى »(٣) ثم احضر ايضاً تلميذ سياط ابراهيم الموصلي (٧٤٢ - ٨٠٤) الذي غدا بعد استاذه امام الأصول الموسيقية الكلاسيكية عند العرب. وكان ابراهيم هذا من اسرة فارسية شريفة(٤) وقد خطفته خارج الموصل في حداثته عصابة من الأشقياء فتعلم بعض اغانيهم وهو أول من وقع الايقاع بالقضيب(٥). و بلغت براعته بالموسيقى انه كان يستطيع اذا أخرجت اليه ثلاثون جارية فضرىن جميعاً طريقة

---

١) انظر B. Moritz, *Arabic Palaeography* (Cairo, 1905), pl. 89.
٢) عبدالله ابن وهب مولى خزاعة؛ الاغاني ج ٦ ص ٧.
٣) الاغاني ج ٦ ص ٨ ونقله النويري ج ٤ ص ٢٨٩.
٤) الفهرست ص ١٤٠؛ ابن خلكان ج ١ ص ١٤؛ النويري ج ٤ ص ٣٢٠.
٥) العقد ج ٣ ص ٢٤٠.

واحدة وغنين في الاوتار وتراً غير مستوٍ ان يشير الى احداهن قائلاً يا فلانة شدّي مثناك فتشده وتستوي الاوتار (١) . ثم جاء الرشيد بعد المهدي فاستلحق ابراهيم به واتخذه نديماً ومنحه ١٥٠ ألف درهم وكان يصله بعشرة آلاف درهم كل شهر وقد اعطاه يوماً مئة الف درهم على صوت واحد غناه به فأعجبه. وكان لابراهيم منافس دونه مرتبةً هو ابن جامع القرشي ابن سياط بالتبني. وفي العقد ان ابراهيم أشد المغنين تصرفاً في الغناء وابن جامع احلاهم نغمة (٢) . وقد سأل الرشيد احد المقربين اليه من المغنين : ما تقول في ابن جامع ؟ فأجاب : وما أقول في العسل الذي حيثما ذقته فهو طيب (٣) .

وكان بلاط الرشيد بأبهته واناقته قد اخذ يرعى الموسيقى والغناء كما رعى العلم والفن فأصبح موئل الغناء ومقصد ارباب الموسيقى (٤) . وقد زها في ظله نفر من اقطاب الموسيقى اجريت عليهم الأرزاق يرافقهم طائفة من المغنين والمغنيات من عبيد واماء، وقد تركت هذه العصبة من اهل الفن آثاراً ادبية خالدة من قصص الغناء في الكتب كما ترى في «الأغاني» (٥) و « العقد » و « الفهرست » و « نهاية الأرب » وفوق هذه كلها في كتاب « الف ليلة وليلة » . وقد روي انه اشترك في مهرجان موسيقي كبير الفان من هؤلاء المغنين والمغنيات تحت رعاية الخليفة الرشيد . اما ابنه الأمين فقد أحيى مرة ليلة لهو رقص فيها اهل البلاط ذكوراً واناثاً حتى مطلع الفجر . وبينما كان جند المأمون محيطاً ببغداد كان الأمين جالساً على ضفة دجلة وحوله خواص جواريه يطربنه (٦) .

ومن المغنين الذين رعاهم الرشيد مخارق (المتوفى ٨٥٤) وهو تلميذ ابراهيم الموصلي وكانت قد اشترته احدى المغنيات وهو حدث اذ سمعته ينادي على اللحم الذي يبيعه ابوه فأعجبت

---

١) الاغاني ج ٥ ص ٤١ .
٢) ج ٣ ص ٢٣٩ .
٣) العقد الموضع نفسه ؛ قابل الاغاني ج ٦ ص ١٢ .
٤) العقد ج ٣ ص ٢٣٩ وما يلي .
٥) ان في هذا الكتاب من ذخائر المعلومات عن نواحي الحياة الاجتماعية المختلفة عند العرب ما لا يباريه فيه كتاب آخر وهو الى جانب ذلك تاريخ الموسيقى منذ ايام الجاهلية الى ايام المؤلف الاصبهاني (٨٩٧–٩٦٧) . والاصبهاني اعظم مؤرخ الموسيقى انجبته العرب.
٦) المسعودي ج ٦ ص ٤٢٦–٣٠ .

بصوته ثم باعته من آل الزبير وانتهى امره في ان اصبح من عبيد الرشيد فأعتقه ووصله بمئة الف دينار (١) وادناه من مجلسه . وقد روي عن مخارق انه توسط دجلة في احدى الليالي واندفع يغني بأعلى صوته فما بقي احد من ملاّح ولا غلام ولا خادم الا بكى . وظهرت الشموع والسرج من جانبي دجلة في صحون القصور والدور تتساعى بين يدي اهلها يستمعون غناءه (٢) .

وكان من ندماء المأمون والمتوكل اسحاق ابن ابراهيم الموصلي (٧٦٧ - ٨٥٠) عميد أهل الموسيقى في عصره (٣) . وقد تمثلت فيه بعد ابيه روح الموسيقى العربية الكلاسيكية . اما مكانته كموسيقي ملمّ بالصناعة بوجه عام فليس ما يدانيها بحيث قيل فيه انه « اعظم من أنجبهم الاسلام في هذا الفن » (٤) .وقد ادعى اسحاق كما ادعى ابوه من قبل وكما ادعى زرياب بعد ، أن الجن كانت تلهمه الالحان .

ان هؤلاء وسواهم من أرباب الموسيقى والغناء الذين نشأوا في ظلال الخلفاء الوارفة ولا تزال اسماؤهم مقرونة بأسماء الخلفاء كانوا اكثر من موسيقيين . فقد مُنحوا من الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر وقوة الحافظة قدراً كبيراً . وكانوا فوق ذلك يحفظون كثيراً من الاشعار المختارة والنوادر المستملحة وغير ذلك من ضروب الفنون فهم اذن مغنّون وشعراء وعلماء تثقفوا بالثقافة العلمية في عصرهم . ويأتي بعد هؤلاء مرتبة الضاربون واهمهم أصحاب الأعواد اما الضاربون على الرباب فقد كانوا أدنى مرتبة . ويلي الضاربين طبقة القيان اللاتي كن يشتركن في الحفلات من وراء الستار . وقد كنّ من الزين الضرورية في بيوت الحريم واصبحت تربيتهن وتثقيفهن من الصناعات الهامة . وقد ربّى اسحاق جارية حتى برعت فبذل له فيها رسول صاحب مصر عشرة آلاف دينار فلم يبعها وساومه رسول امبراطور الروم فيها على ثلاثين الفاً ثم اوصلها رسول صاحب خراسان الى اربعين الف دينار واحتال اسحاق على امره معهم بان اعتقها وتزوجها (٥) .

١) الاغاني ج ٢١ ص ٢٢٦ ، ج ٨ ص ٢٠ .
٢) الاغاني ج ٢١ ص ٢٣٧-٨ ؛ قابل النويري ، نهاية الأرب ج ٤ ص ٣٠٧ .
٣) انظر ابن خلكان ج ١ ص ١١٤ وما يلي ؛ الفهرست ص ١٤٠-٤١ ؛ الاغاني ج ٥ ص ٥٢ ومايلي ؛ النويري ج ٥ ص ١ وما يلي .
٤) Farmer, *Arabian Music*, p.125.
٥) الفخري ص ٢٧٦-٩ .

لقد فاق بنو العباس في بغداد بني امية في دمشق بمن خرج منهم من المغنـين والمنشدين والضار بـين على العود . فمن آل العباس نبغ ابراهيم ابن المهدي (اخو الرشيد) الذي نازع المأمون الولاية سنة ٨١٧ . وقد اكتسب شهرة عظيمة في الموسيقى والغناء (١) . امـا الواثق (٨٤٢ ـ ٧) فكان يضرب على العود وقد صنع مئة صوت (٢) فكان بذلك اول موسيقي بين الخلفاء. ومن بعده قام المنتصر (٨٦١ ـ ٢) والمعتز (٨٦٦ ـ ٩) فأظهرا مقدرة في الشعر والموسيقى (٣) . الا ان الخليفة الذي برع في الموسيقى هو المعتمد (٨٧٠ ـ ٩٢) . وقد ألقى الجغرافي الشهير ابن خرداذبه في حضرته خطبة في الموسيقى والرقص تعد من الأصول الهامـة التي بين ايدينا عن حالة هذين الفنين في ذلك العصر (٤) .

اصحاب الموسيقى النظرية

وكان هناك من جملة الكتب اليونانية الكثيرة التي نقلت الى العربية في العصر العباسي بضعة كتب تبحث في الموسيقى النظرية . منها اثنان لأرسطو نقلهما الى العربيـة الطبيب النسطوري الشهير حنين ابن اسحاق (٨٠٩ ـ ٧٣) الواحد تحت عنوان « كتاب المسائل » والثاني « كتاب النفس » (٥) . وقد ترجم حنين ايضاً كتاباً لجالينوس بعنوان « كتاب الصوت » . ومما ينسب اصله الى اقليدس كتابان في العربية هما « كتاب النغم » ولم يكن من تأليف اقليدس اصلاً و « كتاب القانون » (٦) . اما ارستوكسنس من رجال القرن الرابع قبل الميلاد فقد عرف خاصة بـ « كتاب الايقاع » (٧) كما ان نيكوماكس ابن ارسطو عرف بـ « كتاب الموسيقي الكبير » (٨) . وقد عدّ « اخوان الصفاء » ـ وكان بعضهم فيما يظهر من اصحاب النظريات في الموسيقى ـ هذا الفن فرعاً من الرياضيات و بجلوا فيثاغورس باعتباره

١) ابن خلكان ج ١ ص ١٢ وما يلي ؛ الطبري ج ٣ ص ١٠٣٠ وما يلي .
٢) الاغاني ج ٨ ص ١٦٣ . نقله النويري ج ٤ ص ١٩٨ .
٣) النويري ج ٤ ص ١٩٩ .
٤) المسعودي ج ٨ ص ٨٨ـ١٠٣ .
٥) ويمكن ان يكون مترجمه ابنه اسحاق (المتوفى ٩١٠) .
٦) الفهرست ص ٢٦٦ ؛ القفطي ص ٦٥ .
٧) الفهرست ص ٢٧٠ .
٨) الفهرست ص ٢٦٩ .

مؤسساً للموسيقى النظرية(١) . وقد استمد العرب من هذه الكتب وغيرها من كتب الاغريق آراءهم العلمية في الموسيقى واصبحت لهم ثقافة قائمة بذاتها في مبادىء نظرية الصوت الفيزيائية والفسيولوجية. ومن هنا كانت الناحية العلمية الرياضية للموسيقى العربية مستمدة من أصول يونانية اما الناحية العملية فنماذجها كما اظهرت ابحاث فارمر (٢) عربية بحتة . وفي هذا العهد استعيرت لفظة « موسيقي » (و بعدئذ موسيقى) عن اليونانية وأطلقت على مناحي هذا العلم النظرية وخصصت لفظة « الغناء » القديمة ـ وقد كانت الى ذلك الزمن تفيد الغناء والموسيقى معاً ـ للفن العملي . اما لفظتا « قيثار » و « ارغن » وكثير من الالفاظ الفنية اليونانية الأصل فانها لا تزال تستعمل في العربية حتى الآن ومن الواضح ان الارغن جيء به من بلاد البيزنطيين. ولقد عاش فى القرن الثاني عشر اثنان من صنّاع الارغن هما ابو المجد ابن ابي الحكم الدمشقي (المتوفى ١١٨٠) وابو زكرياء يحيى البياسي الذي اتصل بصلاح الدين وكان في خدمته (٣) .

وكان زعيم الكتّاب الموسيقيين الذين تبعوا المدرسة الاغريقية الفيلسوف الكندي الذي زها في الشطر الثاني من القرن التاسع . وتظهر في كتبه اول معالم الأثر اليوناني . ونجد في واحد من الكتب الستة المنسوبة اليه اول استعمال صريح لعلامات الموسيقى عند العرب . ولم يكن الكندي وحيداً في علم الموسيقى النظرية بل ان عدداً من رجال الفلسفة الاسلامية والطب كانوا كذلك ايضاً . وقد وضع الرازي (٨٦٥ ـ ٩٢٥) كتاباً في هذا الفن أشار اليه ابن ابي اصيبعة (٤) وليس غريباً ان يكون وضع غير كتاب واحد . واما الفارابي (المتوفى ٩٥٠) فقد كان يجيد الضرب على العود وهو اعظم من كتب في اصول الموسيقى بين كتاب العصور الوسطى . فانه علاوة على اشتغاله باخراج طائفة من الشروح على مختلف كتب اقليدس المفقودة اليوم قد وضع ثلاثة ابحاث مبتكرة منها « كتاب الموسيقي الكبير » (٥)

---

١) رسائل اخوان الصفاء ج ١ ص ١٥٣ .

٢) *Arabian Music*, pp. 200-201; « *Music* » in *The Legacy of Islam*, ed. Thomas Arnold and Alfred Guillaume (Oxford, 1931), pp. 356 *seq.*

٣) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٥٥ ، ١٦٣ .

٤) ج ١ ص ٣٢٠ .

٥) ذكر قبلا في ص ٥٠٤ من هذا الكتاب .

وكان اهم مرجع في الشرق . اما في الغرب فأعظم كتبه اثراً واكثرها شهرة هو كتاب «احصاء العلوم » (١) وهو اقدم كتاب في هذا الموضوع وقد نقل الى اللاتينية . وقد نقلت ايضاً الى اللاتينية تآليف ابن سيناء (المتوفى ١٠٣٧) الذي خص كتباً سابقة لعهده وعقد في «الشفاء» بحثاً في الموسيقى وتآليف ابن رشد (المتوفى ١١٩٨) واصبحت هذه التآليف كتباً مدرسية في اوربا الغربية . اما الغزالي فقد كان لدفاعه عن السماع (٢) الأثر الأكبر في ما بلغته الموسيقى من شأن في الطرق الصوفية .

ومما يؤسف له ان معظم هذه الرسائل الفنية قد فقدت في اصولها العربية . فالموسيقى العربية وعلاماتها وما كانت تقوم عليه من اصول النغم والايقاع ظلت تنقل بالسماع من جيل الى جيل الى ان تلاشى امرها . ان الأغاني العربية اليوم فقيرة بالأنغام غنية بالايقاع وليس بين ارباب الموسيقى العربية الحديثة من يستطيع ان يشرح جلياً الكتب الباقيـة في موضوع الموسيقى القديمة او يفقه تماماً علاماتها القديمة وتعابيرها الفنية الموضوعة لها . ويمكن ان ترجع كثير من هذه المصطلحات الى اصول فارسية او هندية .

---

١) نشره عثمان محمد امين (القاهرة ، ١٩٣١) .

٢) الإحياء ج ٢ ص ٢٣٨ وما يلي .

الفصل الثلاثون

الفرق الإسلامية

لقد أطلنا الكلام في تاريخ المئتين والخمسين سنة الاول من العصر العباسي (٧٥٠ – ١٠٠٠) لان هذه الفترة الطويلة كانت عصر تكوين وفيها طبعت الحضارة الاسلامية بطابع خاص لايزال الى يومنا هذا. ففي الفقه والشرع وفي العلم والفلسفة وفي الأدب والعلوم الاجتماعية والانسانية نرى الاسلام اليوم فعلاً مثلما كان قبل تسعة قرون. وقد استمرت مذاهبه الفكرية القديمة الى اليوم واكثر ما يظهر ذلك في الفرق المختلفة التي نشأت فيه.

الخصومة بين العقل والدين

لقد كان اول ظهور حركة المعتزلة العقلية في عصر بني امية فما انبثق فجر العصر العباسي حتى عظم امرها لا سيما في عهد المأمون الذي دفعته نزعاته الفلسفية الى جعلها دين الدولة الرسمي. وعملاً بنصيحة قاضيه المعتزلي ابن ابي دؤاد (١) أصدر سنة ٨٢٧ اعلاناً خطيراً جهر فيه بعقيدة خلق القرآن فخالف بذلك رأي المحافظين من المسلمين في ان كتاب الله غير مخلوق بمعنى انه كان وجد بشكله اللفظي منذ الأزل (٢). وما لبثت عقيدة خلق القرآن الجديدة ان اصبحت محك الايمان وترتب على رجال الدولة ومنهم القضاة ان يسلموا بها. وفي سنة ٨٣٣ رأى المأمون الا يعيّن من القضاة من لم يوافقه في مسألة خلق القرآن، وفيها ايضاً كتب بانشاء ديوان المحنة لامتحان من انكر عقيدته (٣). وبذلك انقلبت تلك الحركة التي كانت ترمي الى تحرير الفكر فأصبحت أداة لقمع حريته.

---

١) انظر ابن خلكان ج ١ ص ٣٨–٤٥؛ الطبري ج ٣ ص ١١٣٩ وما يلي.
٢) انظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص ١٦٩–١٧٠.
٣) نص هذه الأوامر التي وضعها المأمون محفوظ في الطبري ج ٣ ص ١١١٢–١٦.

المحنة او « ديوان التفتيش »

لم يكن هذا اول عهد الاسلام باضطهاد المارقين فان الخليفة هشام ابن عبد الملك (٧٢٤-٤٣) امر بقتل الجعد ابن درهم لاظهاره مقالته بخلق القرآن [١] كما امر بصلب غيلان ابن يونس الدمشقي لاظهاره القول بالارادة المطلقة [٢]. ثم ان المهدي والهادي صلبا عدداً من الزنادقة. ولكن المحنة التي وضعها المأمون كانت اول «ديوان تفتيش» منظم لقمع دابر المارقين عما يرتئيه.

وقد اضطهد المأمون بالمحنة كثيرين اعظمهم قدراً الامام احمد ابن حنبل [٣] شده بالحديد وساقه الى المنفى وسامه العذاب والاهانة فأصرّ ابن حنبل على قوله. وان اخبار ثباته واخلاصه لمذهب السلف الصالح لصفحة لامعة في تاريخ المحافظين. واستمر الاضطهاد في خلافة المأمون وخلفيه الا ان المتوكل انقلب في السنة الثانية من ولايته على المعتزلة واعاد عقيدة السلف.

وكان من زعماء المعتزلة في هذا العهد النظام (المتوفى نحو ٨٤٥) وقد نشط لدحض الآراء الثنوية الفارسية فقال ان الشك اول لوازم العلم [٤] وفي تعاليمه ما يذكّر بتعاليم انكساغورس. ومن تلاميذه الجاحظ البصري (المتوفى ٨٦٨ - ٩) صاحب المؤلفات المتنوعة الواسعة [٥]. وكان من زعماء الاعتزال الأوائل ايضاً معمّر ابن عبّاد السُلَمي [٦] (المتوفى نحو ٨٣٥) وهو قدري متأثر بالتعاليم الهندية.

انتصار الاشعرية

اما في مضمار الفقه فان الرجل الذي قهر المعتزلة وقوّض دعائم نظرياتها واعاد لايمان السلف منزلته العالية فأصبح بعده تراث اهل السنة فهو ابو الحسن علي الأشعري البغدادي (المتوفى ٩٣٥-٦) [٧] وهو من ذرية ابي موسى الأشعري احد الحكمين في صفّين. وكانت

---

١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٩٦-٧.
٢) المصدر نفسه ص ١٩٧؛ الطبري ج ٢ ص ١٧٣٣.
٣) الطبري ج ٣ ص ١١٣١ وما يلي.
٤) انظر البدع المنسوبة اليه في الشهرستاني ص ٣٧-٤٢؛ البغدادي، مختصر ص ١٠٢-٩.
٥) ابن حزم ج ٤ ص ١٤٨؛ الخياط، كتاب الانتصار، نشر نيبرغ (القاهرة، ١٩٢٥) فهرس الكتاب.
٦) راجع الشهرستاني ص ٤٦-٨؛ البغدادي ص ١٠٩-١٠.
٧) انظر كتابه مقالات الاسلاميين، نشر رتر (القسطنطينية، ١٩٢٩) ص ١٥٥-٢٧٨؛ الشهرستاني ص ٦٥-٧٥.

المعتزلة في نظر بعض أهل التقى قد رفعت رأسها ولكن امرها انتهى بظهور الاشعري. وقد قرأ الاشعري في حداثته على فقيه معتزلي اسمه الجبّائي [١] (المتوفى ٩١٥ ـ ١٦) ولكنه تاب بعد حين عن القول بالعدل وبخلق القرآن وأقلع عن آراء أهل الاعتزال [٢] ونشط للرد على تعاليم شيوخه منهم . فشهر فضائحهم وحار بهم بسلاحهم من منطق وفلسفة واصبح فوق ما كان له من مآت متعددة مؤسس علم الكلام في الاسلام. و بعده اخذت النزعة المدرسية الرامية الى التقريب بين تعاليم الدين و بين مبادىء الفكر اليوناني تصبح أعلى مطالب التفكير الاسلامي شأنها في ذلك شأن النزعة التي عرفت في الحياة المسيحية في العصور الوسطى . والى الأشعري ينسب ايضاً استنباط مبدأ «بلا كيف» الذي يقضي على العبد باطاعة أوامر الدين والتزامها بلا ممانعة. ومن آثار هذا المبدأ انه أخمد حرية الفكر واوقف البحث العلمي . وقد كان الغرض من المدرسة النظامية التي أسسها الوزير السلجوقي نشر الطريقة الاشعرية في الفقه الاسلامي .

الغزّالي

وقد ظهر الغزّالي [٣] بعد الاشعري فكان اعظم فقهاء الاسلام دون منازع واليه يعود الفضل في تثبيت نظام الاشعرية على شكل مستقر واتخاذ تعاليمها عقيدة اسلامية شاملة . وقد اعتمده أهل السنة والمحافظون حجة وقالوا لو كان نبي بعد النبي لكان الغزالي .

ولد ابو حامد الغزالي سنة ١٠٥٨ في طوس بخراسان وفيها مات سنة ١١١١ . وقد أظهر في اختباراته الشخصية الدينية كل ما في الاسلام من مظاهر ومعان روحيـة واليك ما قاله عن نفسه :

« ولم أزل في عنفوان شبابي مذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن وقد أناف السن على الخمسين اقتحم لجّة هذا البحر العميق ... واتوغل في كل مظلمة ... واستكشف

---

١) انظر الشهرستاني ص ٥٤ وما يلي ؛ البغدادي ص ١٢١ .

٢) الفهرست ص ١٨١ .

٣) بتشديد الزين نسبة الى غزال من الغزل اما روايتها مخففة فضعيفة ؛ محمد ابن ابي شنب في مجلة المجمع ج ٧ (١٩٢٧) ص ٢٢٤ ـ ٦ . وقابل Duncan B. Macdonald in *Journal Royal Asiatic Society* (1902), pp. 18-22.

ابراز مذهب كل طائفة ... لا أغادر باطنياً الا واحب ان اطّلع على بطانته ، ولا ظاهرياً الا واريد ان اعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً (١) الا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً الا واحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً الا واترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً الا واتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته . وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الأمور دأبي وديدني من اول امري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في جبلتي لا باختياري وحيلتي » (٢) .

شبّ الغزالي على سنّة الاسلام ثم اخذ بمذهب التصوف وما كاد يبلغ العشرين حتى حرر نفسه من ربقة الماضي والتقاليد الموروثة . وفي سنة ١٠٩١ تعيّن للتدريس في النظامية ببغداد حيث تطرق الشك الى تفكيره وغلب على عقله . و بعد سنوات اربع عاد الى التصوف بعد جهاد داخلي عنيف حطم قواه الجسمانية والأدبية . لقد عجز العقل عن شفائه فانقلب زاهداً يجوب الأرض ناعماً بالسعادة النفسية وراحة البال ، و بعد اثنتي عشرة سنة قضاها في التنسك في مواضع مختلفة منها سنة حج فيها الى مكة وسنتان قضاهما معتزلا في سورية رجع الى بغداد واعظاً ومعلماً . وفي هذه المدينة وضع اهم آثاره : « احياء علوم الدين » (٣) ولقد انعشت صوفية هذا الكتاب الشريعة الاسلامية واوضحت طريق السنة و بالأحياء وغيره من تآليف الغزالي كـ « فاتحة العلوم » (٤) و « مقاصد الفلاسفة » (٥) و « الاقتصاد في الاعتقاد » (٦) بلغت تأملات اهل السنة وافكارهم ذروة اكتمالها . و بفضل هذه المصنفات

---

١) اي من اتباع الافلاطونية الجديدة .

٢) المنقذ من الضلال ، نشر شمولدرز (باريس، ١٨٤٢) ص ٤ـ٥ فايل C.Field, *The Confessions of Al-Ghazzali* (London, 1909), pp. 12-13 وان القسم الذي يحتوي سيرة الغزالي مما كتبه عن نفسه يكاد ان يوازي اختبارات القديس اوغسطين .

٣) في ٤ مجلدات (القاهرة ، ١٣٣٤) وهناك طبعات أخرى .

٤) (القاهرة ، ١٣٢٢) .

٥) نشر بويج (بيروت ، ١٩٢٧) .

٦) الطبعة الثانية (القاهرة ، ١٣٢٧) .

انزل الفقه عن العرش الذي كان قد احتله واستعملت اصول الكلام الاغريقي لوضع نظام عملي واتيح للاسلام ولمذهب السنة مجال لتذوق الفلسفة . وقبل سنة ١١٥٠ ترجمت شذرات من هذه الكتب الى اللاتينية فأثرت تأثيراً ظاهراً في الحركة المدرسية النصرانية واليهودية . وقد تأثر توما الاكويني وهو من كبار اللاهوتيين عند النصارى عن طريق غير مباشر بافكار الغزالي وكذلك تأثر بسكال . وان ذلك الثوب الفكري المدرسي الذي نسجه الاشعري والغزالي لا يزال ثوب الاسلام الى اليوم اما النصرانية الغربية فقد توفقت في الخروج من ردائها المدرسي لا سيما ايام الثورة البروتستانتية .

التصوف

لبست حركة الزهد والتقشف في الاسلام ثوب التصوف وليس التصوف مجموعة تعاليم بل هو بالاكثر وجهة تفكير وشعور في الامور الدينية . ويمثل حركة معاكسة للنظر العقلي في الدين وحصره في قوالب لا تتغير . اما نفسياً فأساس التصوف تشوق المرء الى تقرب فردي مباشر الى الله واتحاد شخصي بالحقيقة الدينية . والتصوف شأن سواه من الحركات الاسلامية يعود بأصوله الى القرآن والحديث. ففي القرآن آيات تذمّ الحياة الدنيا وتمدح التائبين العابدين الحامدين وتحضّ على التوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا (النساء : ٩٦ ، البراءة : ١١٣ ، الاحزاب : ٤٧). بل ان علاقة محمد بالله لها ناحية تصوفية ترتكز على الشعور المباشر بالحضرة الالهية. وقد اصبح اصحاب التصوف يعدّون انفسهم المفسرين الحقيقيين لتعاليم النبي الباطنية الواردة في الحديث .

كان التصوف الاسلامي في بدئه مقصوراً على الحياة الزهدية القائمة على الاعتزال والتأمل كما كان الحال عند النساك النصارى ثم اصبح في القرن الثاني للهجرة و بعده حركة تجمع معتقدات من مصادر شتى نصرانية وافلاطونية جديدة وغنوستية و بوذية وتتدرج من مذاهب السلوك الى مذهب الاتصال بالله وشمول الالوهية. اما لبس الصوف فأخوذ عن رهبان النصارى ومنهم ايضاً اخذت فكرة العزوبة او التبتل التي لم تكن من الاسلام في شيء . وفي التأملات الفردية والتنبه الطويل والانصراف الى الخلوات شيء من تأثير الصوامع السريانية . اما نظام

« الطريقة » (١) عند المتصوفين الاسلاميين الذي نشأ في القرن الثالث عشر وفيه « الشيخ » و « المريد » كما كان عند النصارى الكاهن والمبتدىء فهو نظام يحاكي نظام الرهبنة بالرغم من الحديث المنسوب الى النبي « لا رهبانية في الاسلام » . كذلك حلقات الذكر (٢) وهي الطقس الديني الوحيد في الاسلام فانها تنمّ عن أصل مسيحي (٣) وتشير التقاليد الصوفية المختصة بالآخرة و بالمسيح الدجال (٤) الى أثر متصوفين اصلهم نصارى و يهود .

الزهد

وردت لفظة صوفي في الادب العربي لاول مرة في منتصف القرن التاسع وكان ذلك اشارة الى طبقة من الزهاد (٥) . واول من اطلق عليه هذا الاسم حسب بعض الروايات المتأخرة المنجم الشهير جابر ابن حيان (زها نحو ٧٧٦) الذي ادعى لنفسه مذهباً خاصاً في الزهد . اما معاصره ابراهيم ابن ادهم البلخي (المتوفى نحو ٧٧٧) فانه انموذج لهذه الحياة الزهدية القائمة على الهدوء والقنوت . وفي الاسطورة الصوفية التي تقص خبر اهتداء ابراهيم الى مذهب التصوف ما يدل على انها وضعت على اساس قصة بوذا (٦) . فهي تروي ان ابراهيم كان من ابناء الملوك فخرج يوماً للصيد و بينا هو في طلب صيده هتف به هاتف « ألهذا خلقت ام بهذا امرت ؟ » فنزل عن دابته وصادف راعياً لابيه فأخذ جبة الراعي وكانت من صوف فلبسها واعتكف على الزهد والورع . وفي اسطورة اخرى ان ابراهيم كان من اهل النعم فبينما هو مشرف ذات يوم من قصره اذ نظر الى رجل بيده رغيف يأكل في فيء القصر ثم يشرب ماء و ينام فلما استيقظ سأله ابراهيم عن حاله فأخبره انه أكل الرغيف فشبع وشرب الماء فروي ونام نوماً طيباً بلا همّ . فقال ابراهيم في نفسه : « فما اصنع انا بالدنيا والنفس تقنع

---

١) اشارة الى « طريق » في سورة الاحقاف : ٢٩ وما يلي .

٢) اشارة الى ما في سورة الأحزاب : ٤١ .

٣) Reynold A. Nicholson, *The Mystics of Islam* (London, 1914), p. 10 .

٤) من مشيحا دجالا بالآرامية ؛ قابل متى ٢٤ ؛ ٢٤ ؛ رؤيا يوحنا ١٣ : ١–١٨ ؛ دانيال ١١ : ٣٦ .

٥) الجاحظ ، البيان ج ١ ص ٢٣٣ .

٦) T. Duka in *Journal Royal Asiatic Society* (1904) , pp . 132 *seq* .

بما رأيت ؟ » فلبس الصوف وخرج سائحاً (١) . وخرج ابراهيم الى سورية حيث نشأت المنظمة الصوفية الأولى وهناك اخذ يعتاش بعرق جبينه .

سلوك المتصوفين

ولم تلبث هذه الحركة الزهدية ان تأثرت بالمؤثرات النصرانية والأفكار الهيلينية فأصبحت في القرن الثاني للهجرة طريقة تصوفية واخذت تعتبر عند اصحابها كسبيل عاطفي لتطهير النفس البشرية بحيث تتعرف الى الله وتتوصل الى محبته والاتحاد به لمجرد المحبة والاتحاد لا لاكتساب الرضوان والثواب في الآخرة . وهذه « المعرفة » بالله عند اهل التصوف هي شكل من الغنوستية (المعرفة) عند اليونان يرتقي اليها السالك بما اوتيه من النور الباطني وهي غير « العلم » بالله الذي يتيسر عن طريق العقل او بواسطة الرضوخ للتقاليد المرعية . وقد أنشأ عقيدة « المعرفة » هذه ابو سليمان الداراني (المتوفى ٨٤٩ ـ ٥٠) وضريحه في داريا بجوار دمشق وكان لا يزال مزاراً يقصده الزائرون حتى ايام ياقوت (٢) . ولكن اول صوفي اخذ بمذهب « السلوك » دون التزهد هو معروف الكرخي (المتوفى سنة ٨١٥) المنتمي الى مدرسة بغداد . كان معروف نصراني الأصل او لعله كان على مذهب الصابئة (٣) وقد شهر حين تصوف بحب الله او « عشق الله » وجعلت له كرامة الأولياء، ولا يزال قبره في الجانب الغربي من بغداد (الكرخ) مزاراً الى يومنا هذا . وكان الناس في زمن القشيري (٤) (المتوفى ١٠٧٤) يعتبرون الصلاة عنده دواء يشفي المرضى . و بموجب قانون السلوك ليس من كائن الا الله فالله هو الجمال السرمدي وليس سبيل الى الله الا الحب . فالحب اذن جوهر السلوك عند المتصوفين .

---

١) انظر ابن عساكر ج ٢ س ١٦٧ ـ ٩٦؛ الكتبي ج ١ ض ٣ ـ ٥ ؛ القشيري ، الرسالة (القاهرة ، ١٢٨٤) ص ٩ ـ ١٠ .

٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٥٣٦ .

٣) قابل الهجويري ، كشف المحجوب ، ترجمة نكلسن (ليدن ، ١٩١١) ص ١١٤ .

٤) الرسالة ص ١٢ .

الاتصال بالله

وتطوّر التصوّف من التأمل النظري البحت ـ مذهب السلوك الفلسفي ـ الى مذهب « الاتصال بالله » . وقد تم هذا الانتقال في عهد الترجمة عن اليونانية و بتأثير الأفكار الهيلينية وكان زعيم مذهب الاتصال بالله ودعامته الكبرى ذو النون (١) المصري الذي كان والداه من النوبة (٢) وتوفي في الجيزة سنة ٨٦٠ . و يعتبره اصحاب التصوّف عامة مؤسس العقيدة الصوفية و يعدونه من اقطابهم الأول و يقرنون اسمه كلما ذكر بعبارة « قدّس الله سره » . وفي الواقع قد جعل ذو النون للصوفية شكلها الدائم فقد ادخل اليها الفكرة القائلة ان حقيقة معرفة الله لا يتوصل اليها الا بواسطة « الوجد » . وكان ذو النون على ما روى المسعودي (٣) يطوف بين الآثار الدارسة بوطنه مصر فيسعى الى حل رموز كتاباتها قصد استخراج اسرار العلوم القديمة منها .

شمول الألوهية

ولم يكن الانتقال من مذهب الاتصال بالله الى القول بـ « شمول الألوهية » صعباً وقد تم بتأثير الفكر الهندي الايراني. وقد حفظ لنا صاحب « الأغاني » (٤) صورة واحدة على الأقل ظهرت في تضاعيفها وجهة النظر البوذية . اما النساك الزنادقة الذين وصفهم الجاحظ (٥) فهم اما من معاشر الساذو الهنود والنساك البوذيين او مقلديهم (٦) . وقام بايزيد (٧) البسطامي (المتوفى حوالي ٨٧٥) وكان جده مجوسياً فأحدث القول بقانون الفناء الذي تنعكس عنه فكرة « النرفانا » البوذية . وجاء بعده فارسي آخر هو الحلاّج الذي جلد سنة ٩٢٢ وعلّق

---

١) اى صاحب الحوت وهو لقب أطلق على يونس في سورة الانبياء : ٨٧ واسمه الحقيقي ثوبان ابو الفيض ابن ابراهيم .

٢) القشيري ص ١٠ ؛ الهجويري ص ١٠٠ .

٣) ج ٢ ص ٤٠١ ـ ٢ .

٤) ج ٣ ص ٢٤ .

٥) الحيوان ج ٤ ص ١٤٦ ـ ٧ .

٦) Ignaz Goldziher, *Vorlesungen über den Islam*, ed. F. Babinger (Heidelberg, 1925), p. 160 .

٧) تحريف « ابو يزيد » في التركية . انظر القشيري ص ١٧ ـ ١٨ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٤٢٩ .

على خشبة ثم ضربت عنقه وأحرق في المحنة العباسية لقوله : « انا الحق » وقد كان صلبه سبباً في ان يكون اعظم شهيد صوفي . وتظهر نظريته الصوفية في البيتين التاليين :

« أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا
فـاذا ابصرتني ابصرتـه   واذا ابصرته ابصرتنا » (١)

ولا يزال قبره بغربي بغداد ، الى اليوم يعتبر كقبر وليّ . الا ان اعظم القائلين بالوحدة والشمولية هو محيي الدين ابن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٠) الاندلسي وضريحه في سفح جبل قاسيون بدمشق قائم اليوم وسط مسجد كبير يعرف باسمه. وهو بعكس متصوفي السنّة كالغزالي والجنيد البغدادي (المتوفى ٩١٠) (٢) قـد سعى الى جعل التصوف علماً محصوراً في حلقات السالـكين . واليه ترجع فكرة شمول الالوهية القائلة بان الله كل الوجود .

الشعر الصوفي والفلسفة الصوفية

لم يعرف العرب في ميدان الشعر الصوفي سوى علم واحد هو ابن الفارض (١١٨١ - ١٢٣٥) واهم قصائده التائية الـكبرى (٣) وهي انشودة رائعة في الحب الالهي بينما كان اكثر شعراء الطبقة الاولى عند الفرس امثال سعدي وحافظ وجلال الدين الرومي من المتصوفين. اما في الفلسفة الصوفية فقد قام في العالم العربي عالمان كبيران يعدّان من اعظم اصحاب العقول في الاسلام هما الفارابي والغزّالي . والى هذا الاخير يرجع الفضل في التوفيق بين التصوف على ما فيه من نزعـات غير سنّية وبين الاسلام وهو الذي أدخل مذهب التصوف في مجرى التفـكير العقلي الاسلامي .

الطرق الصوفية

ظل التصوف طوال القرون الخمسة الاولى اختباراً دينياً شخصياً . ومع انه قد نشأ بعض

---

١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٦١ وقابل R. A. Nicholson, *Studies in Islamic Mysticism* (Cambridge, 1921), p. 80; Louis Massignon, *al-Hallâj : martyr mystique de l'Islam* (Paris, 1922), vol. ii, p. 518.

٢) القشيري ص ٢٤ - ٥ ؛ الهجويري ص ١٢٨ - ٣٠ .

٣) ديوان ابن الفارض ، نشر امين خوري ، الطبعة الثالثة (بيروت ، ١٨٩٤) ص ٦٥ - ١٣٢ .

الحلقات من المريدين والسالكين والتفت حول بعض الشخصيات من كبار المتصوفين او حول ذكرى شهدائهم كالحلاج مثلاً فان هذه الحلقات نفسها كانت ضيقة ولم يكن لها سوى نفوذ محلي موقت. ولكن ما كاد ينتهي القرن الثاني عشر للميلاد حتى اخذت الهيئات الصوفية المنظمة في الظهور . وأول منظمة او طريقة صوفية هي القادرية نسبةً الى عبد القادر الجيلاني او الجيلي (١٠٧٧ ـ ١١٦٦) (١) الفارسي الذي لمع في بغداد . وتتصف هذه الطريقة بالتساهل وعمل الخير . ولها اتباع منتشرون في جميع انحاء العالم الاسلامي ومنها الجزائر وجاوا وغينيا. وتلي القادرية في القدم الطريقة الرفاعية التي أسسها احمد الرفاعي (المتوفى١١٧٥) واعضاؤها كاعضاء الطرق الأخرى يقومون باعمال غريبة كابتلاع الجمر والأفاعي الحية والزجاج او خرق اجسادهم بالمسلات والسكاكين . ثم ظهرت الطريقة المولوية وتنتسب الى الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي المتوفى في قونيـة سنة ١٢٧٣ . وقد خرج جلال الدين على المـأثور من تقاليد الاسلام فأقام للسماع (الموسيقى) مكاناً في مراسيم طريقتـه الصوفية . وظلت زعامة هذه الطريقـة متوارثة في ابناء جلال الدين واحفاده وكان يتمتع الزعيم منهم بشرف تقليد السلطان الجديـد من خلفاء بني عثمان السيف .

ولقد نشأت طرق اخرى في مختلف الأقطار الاسلامية على مر الزمان (٢) تتفاوت وجوه التصوف فيها بين الزهدية الصامتة و بين الاباحية الحلولية التي تقول بشمول الألوهية.والغالب ان مؤسس كل طريقة كان يصبح امام مذهب صوفي ويكتسب شيئاً من الصفات الالهية او شبه الالهية ويصبح مقرّه بعد موته مقام تقديس واحترام . واهم الطرق الصوفية في افريقيـة الطريقـة الشاذلية (٣) التي اسسها علي الشاذلي (المتوفى ١٢٥٨) ولم تزل قوية في مراكش

---

١) أهم المحفوظ من سيرته هو في الذهبي ، تاريخ الاسلام ، نشره مرغوليوث في *Journal Royal Asiatic Society* (1907), pp. 267-310. وانظر ذكر كراماته في الشطنوفي ، بهجة الاسرار (القاهرة ، ١٣٠٤) . وبهامشه ٧٨ خطبة للجيلاني عنوانها فتوح الغيب .

٢) انظر الشعراني ، الطبقات الكبرى (القاهرة ، ١٢٩٩) .

٣) انظر قوانين حكم الإشراق لابي المواهب الشاذلي (دمشق ، ١٣٠٩) وقد ترجمـه الى الانكليزية Edward J. Jurji, *Illumination in Islamic Mysticism* (Princeton, 1938).

وتونس بنوع خاص ولها فروع تعرف باسماء خاصة . وتتميز مراكش بكرامة الأولياء اكثر من اي صقع اسلامي آخر . اما الطريقة السنوسية التي كان مقرها واحة كفره وقبلها جغبوب فقد اسسها سنة ١٨٣٧ الشيخ الجزائري السنوسي وتختلف عما سبقها من الطرق في انها مؤسسة دينية ذات اغراض سياسية وحربية . واهم طرق التصوف بمصر طريقة البدوي نسبة الى احمد البدوي (المتوفى سنة ١٢٧٦) ومركزها طنطا . اما في تركيا فأهم الطرق الطريقة البكتاشية المشهورة بما كان لها في الماضي من علاقة بالانكشارية وقد قامت في اوائل القرن السادس عشر وهي تدعو الى التبتل واكرام الامام علي وفي تعاليمها شيء من أثر المسيحية . ويظهر انها اقرب الى فرقة دينية منها الى مذهب صوفي . اما طريقة الدراويش في آسية الصغرى فانها فضلاً عن تأثرها بديانات آسية الصغرى القديمة قد احتفظت بآثار الشامانية التي جاء الترك بها من أواسط آسية .

ويمكن ان نعدّ الصوفية المنظمة الكهنوتية الوحيدة في الاسلام ويسكن اعضاؤها الدراويش (١) منازل خاصة بهم تعرف بالتكايا او الزوايا او الرباطات وتكون هذه المنازل بمثابة أندية اجتماعية في الوقت نفسه وهو أمر لم يعرف في المساجد . وقد يكون في الطريقة عدا الشيوخ والمريدين طبقة ثالثة من المنتسبين وهم اعضاء علمانيون يخضعون لارشاد رئيس الطريقة.

السبحة

وفضلاً عن التنسك والطقوس الدينية (٢) أدخل المتصوفون الى الاسلام اموراً اخرى منها استعمال السبحة عند المسلمين (٣) . ولا ينكرها اليوم من المسلمين سوى الوهابيين فانهم يعتبرونها بدعة في الاسلام . وهي هندية الأصل ولعل المتصوفين استعاروها من البيع النصرانية الشرقية لا من الهند مباشرة. وفي زمن الحروب الصليبية اتصل امرها بالعالم الغربي الكاثوليكي. وقد وردت اول اشارة الى السبحة في الادب العربي في شعر لابي نواس (المتوفى نحو ٨١٠) (٤).

١) لفظة « درويش » العربية مستعارة من الفارسية ومعناها في الأصل طارق الابواب اي مستعط .

٢) انظر نقداً بقلم مسلم سني هو ابن الجوزي ، نقد ص ٢٦٢ وما يلي .

٣) Ignaz Goldziher in *Revue de l'histoire des religions*, vol. xxi (1890), pp. 295-300; *Vorlesungen*, p. 164.

٤) ديوان ص ١٠٨ . قابل ابن قتيبة ، الشعر ص ٥٠٨ .

وكان الجنيد المتصوف المشهور (المتوفى ٩١٠) ببغداد يجلس متعبداً وفي يده سبّحة فلما عاتبه احدهم قائلاً : « انت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة ؟ » أجاب : « طريق به وصلت الى ربي لا أفارقه » (١) .

تكريم الاولياء

وفوق هذا فقد أحدث أهل التصوف عادة تكريم الاولياء على طريقة النصارى تلبية لطلب الزهّاد الراغبين في الحصول على واسطة بينهم و بين الله . ومع انه ليس في القرآن والاسلام ما يزكي تكريم الاولياء او تقديسهم فالرأي العام قد أقرّ ذلك مستنداً الى كرامات يقوم بها الوليّ . ولم يأت القرن الثاني عشر حتى كان قد زال المعتقد العام عند السنّة والشيعة انّ الدعاء الى الأولياء شرك وذلك بتأثير الصوفية التي سعت الى التوفيق بين كرامة الولي من ناحية و بين العقيدة القديمة من ناحية أخرى . وتنزع الصوفية الى المساواة بين « احباء الله » فلا فرق عندهم بين رجل وامرأة في هذا السبيل (٢) . ومن هنا كان لرابعة العدوية البصرية (نحو ٧١٧ ـ ٨٠١ وهي امرأة متصوفة شريفة المسلك والخلق) اعلى مراتب الاولياء عندهم ، ثم اصبحت بعد ذلك سيدة الأولياء عند السنّة . وكانت رابعة في حداثتها مملوكة ولكن سيدها رأى هالة من النور حولها وهي تصلي فأعتقها واستنكرت رابعة الزواج فقضت عمرها منقطعة الى الزهد والعمل للآخرة تحث السالكين على التوبة والصبر والشكر والرهبة والفقر والتوكل . وقد سئلت مرة هل تبغض الشيطان فأجابت ان حبها لله لم يترك مجالا لبغض الشيطان . وظهر لها النبي في حلم فسألها هل تحبه فقالت ان حبها لله قد امتلك وجودها فلم يخلف موضعاً لبغض احد او حب أحد غيره (٣) . وقد روي انها قالت في مناسبة أخرى : « ما عبدت الله خوفاً من الله ... ولا حباً للجنة... ولكني عبدته حباً له وشوقاً اليه » (٤) .

---

١) القشيري ص ٢٥ .

٢) يخص ابو نعيم (المتوفى ١٠٣٨) قسماً من كتابه الكبير حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ج ٢ (القاهرة ، ١٩٣٣) ص ٣٩ـ٧٩ للنساء المتصوفات والوليات .

٣) فريد الدين عطار ، تذكرة الأولياء ، نشر نكلسن ج ١ (ليدن ، ١٩٠٥) ص ٦٧ .

٤) ابو طالب (المكي) ، قوت القلوب (القاهرة ، ١٩٣٢) ج ٣ ص ٨٣ . راجع بشأن رابعة العدوية
Margaret Smith, *Rābiá the Mystic and her Fellow-Saints in Islam* (Cambridge, 1928).

ومن هؤلاء المتصوفين الذين امتلأت قلوبهم بحب الله السهروردي الذي قتل في حلب (١١٩١) متهماً بالزندقة بامر الملك الظاهر وابيه صلاح الدين وهو اذ ذاك ابن ست وثلاثين. وفي دعاء منسوب اليه ما يظهر ان مذهب المتصوفين كان مديناً في فكرة الاتصال بالله للفلسفة الأفلاطونية الجديدة وللنصرانية ايضاً (١).

الشيعة

وهناك حركة دينية اخرى استكملت نشأتها في زمن العباسيين وتشعبت فرقاً لعبت ادواراً هامة في تاريخ الاسلام والخلافة وهي الشيعة. ولم يكن حظ الشيعة في الخلافة العباسية بافضل منه في الخلافة الأموية وذلك بالرغم من انه كانت لهم يد تذكر في نقل السلطة من ايدي الأمويين الى ايدي بني العباس. ولم يكن عطف المأمون على الشيعة واتخاذه الخضرة (شعارهم) شعاراً له بدل السواد وعقده البيعة بولاية العهد لعلي الرضا (٢) احد ائمتهم ليجدي كثيراً او يدوم نفعه فقد قام المتوكل بعد المأمون وكان شديد التحامل عليهم فأعاد سنة ٨٥٠ حركة الاضطهاد وهدم قبر علي في النجف وحرث قبر الحسين في كربلاء (٣). ومن هنا هذا البغض الذي تكنّه له الشيعة الى اليوم. وفي سنة ١٠٢٩ اقصى الخليفة القادر خطيباً من الشيعة من جامعه في بغداد ووضع محله سنّياً (٤). وكان من نتيجة هذه العداوة المستمرة للشيعة والاضطهاد الدائم ان لجأت الشيعة الى اتخاذ مبدأ التقيّة (٥) بحيث اخفت ميولها الدينية محافظة على السلامة واتقاء للضرر. وكان الخوارج (٦) قد اقروا التقية مبدأ دينياً ولكن الشيعة جعلته امراً جوهرياً في الدين وأضافت اليه فكرة اساسية هي ان المؤمن اذا ملك امره الأعداء لزم عليه — لزوماً لا جوازاً فقط — التظاهر بالمذهب السائد وقاية له ولأبناء دينه (٧).

---

١) Louis Massignon, *Recueil de textes inédits concernant l'histoire de la mystique en Pays d'Islam* (Paris, 1929), pp. 111-12.

٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٥٤٤–٥ .

٣) الفخري ص ٣٢٥ ؛ المسعودي ج ٧ ص ٣٠٢–٣ .

٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٧٨ .

٥) معناها الحرفي « الخوف والحذر » سورة آل عمران : ٢٧ .

٦) الشهرستاني ص ٩٢–٩٣ .

٧) Goldziher, *Vorlesungen*, p. 203.

ومع ان الشيعة كانت اقلية مضطهدة فقد قام ابناؤها بثورات تجلت فيها روح البطولة وان لم تتكلل دائماً بالنجاح . وقد ثابروا عليها مجاهرة او تحت ستر التقية داعين بالولاية لامـام من ذرية علي . والامام الخليفة عندهم خلافاً للسنة لا يرث عن النبي الملـك الدنيوي فحسب بل يرث عنه ايضاً حق تفسير الشريعة وينتج عن هـذا ان الامام معلم معصوم ثم اضافوا الى عصمته (١) تنزهه عن الاثم (٢) وخلافاً لعقائد السنة ايضاً والصوفية قالت الشيعة بان الحقيقة الدينية لا يمكن الحصول عليها الا من تعاليم لمام كهذا محميّ حماية الهية من المعاصي. والامام الاول في عرف الشيعة هو علي يخلفه ابنه الحسن ثم الحسين (٣) . وذرية هـذا الأخير هي أشهر الذريتين . فقد كان منها تسعة ائمة من الأئمة الاثني عشر الذين تتبعهم الفرقة الاثنا عشرية ـ اهم فرق الشيعة. ومن هؤلاء الأئمة التسعة لقي اربعة حتفهم بالسم وهم جعفر (٧٦٥) في المدينة وموسى (٤) (٧٩٩) في بغـداد وعلي الرضا (٥) (٨١٨) في طوس ومحمد الجواد (٨٣٥) في بغداد . وقد قتل آخرون في ثوراتهم على صولة الخلفاء او بايدي الجلادين . ومنذ اختفى (٢٦٤/٨٧٨) الامام الثاني عشر محمد او تغيب في كهف بجامع سامرّا وكان شاباً ولم يترك ذرية اصبح الامام المستتر او الامام المنتظر (٦) . وهو عندهم حيّ لا يموت في حالة غيبة موقتة وهو المهدي الذي سيظهر فيحكم العالم قاطبة ويرجع الدين الحقيقي ويكون ظهوره فاتحة عصر يسبق نهاية العـالم . وانه وان كان مستتراً فهو الامام المدبّر وهو « قائم الزمان » . وقد سادت في فارس الاثنـا عشرية بعد سنة ١٥٠٢ وذلك بنفوذ الدولة الصفوية التي ادّعت التحدّر من الامام السابع موسى الكاظم . ومنذ ذلك الحين اصبح شاه ايران يعتبر ممثلاً للامام

---

١) البغدادي ، اصول ج ١ ص ٢٧٧ـ٩ .

٢) الشهرستاني ص ١٠٨ـ٩ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ص ١٦٤ـ٥ .

٣) تتميز ذرية الحسن والحسين في ان المنتسب الى الحسن يسمى شريفاً والى الحسين سيداً ولهم الحق في لبس العمائم الخضر . إن اشراف مكة ومنهم ملك العراق وملك شرقي الاردن اليوم واشراف مراكش متحدرون من الحسن ابن فاطمة الاكبر .

٤) قابل اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٩ .

٥) اليعقوبي ج ٢ ص ٥٥١ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٥٧٧ .

٦) الشهرستاني ص ١٢٨ ؛ البغدادي ، مختصر ص ٦٠ـ٦١ ؛ ابن حزم ج ٤ ص ١٣٨ ؛ النوبختي ، فرق الشيعة ، نشر رتر (القسطنطينية ، ١٩٣١) ص ٨٤ـ٥ . قابل ابن خلدون ، المقدمة ص ١٦٦ . ولا يزال السرداب الذي تغيب فيه معروفاً في سامرا .

المستتر والمجتهدون وسطاء بينه و بين الامة .

وهكذا أصبحت عقيدة الامام المهدي امراً جوهرياً عند الشيعة وهي الى اليوم أهم فارق بينها و بين السنّة . ومع ان أهل السنة ينتظرون مجيء من يعيد مجد الدين فانهم لا يشدّدون على ذلك ولا يسمون الامام المنتظر مهدياً (١) .

واليك لائحة تظهر نسب الأئمة الاثني عشر :

١) علي (المتوفى ٦٦١)

٢) الحسن (ت ٦٦٩)

٣) الحسين (ت ٦٨٠)

٤) علي زين العابدين (ت نحو ٧١٢)

زيد

٥) محمد الباقر (ت ٧٣١)

٦) جعفر الصادق (ت ٧٦٥)

اسماعيل (ت ٧٦٠)

٧) موسى الكاظم (ت ٧٩٩)

٨) علي الرضا (ت٨١٨)

٩) محمد الجواد (ت ٨٣٥)

١٠) علي الهادي (ت٨٦٨)

١١) الحسن العسكري (ت ٨٧٤)

١٢) محمد المنتظر «المهدي» (اختفى ٨٧٨)

---

١) لقد كان الاعتقاد برجوع المهدي داعياً الى ان يظهر كثير من الذين ادعوا انهم المهدي في التاريخ الاسلامي .

الاسماعيلية

لقد كانت الشيعة تربة خصبة لانشاء شتى الفرق . وفي حديث نبوي : « تفرقت اليهود على احدى وسبعين فرقة او اثنتين وسبعين والنصارى مثل ذلك وتفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة » (١) وقد تشعبت اكثر الفرق الاسلامية عن الشيعة .

ولم يكن الاثناعشرية الفرقة الشيعية الامامية الوحيدة فان جماعة اخرى وافقتهم من حيث الأئمة الستة الأول حتى جعفر الصادق ثم خالفتهم في سوق الامامة من بعده فجعلتها في بكره اسماعيل (المتوفى ٧٦٠) عوضاً عن اخيه موسى . وجعلت اسماعيل الامام السابع والأخير . وهكذا فان هذه الفرقة قد اعتبرت الأئمة الظاهرين سبعة فقط فعرفت بـ « السبعية » وتعرف ايضاً بالاسماعيلية نسبة الى اسماعيل الامام الأخير . وكان جعفر قد عين ابنه اسماعيل خلفاً له ولكنه عاد عن ذلك لأمر اخذه على اسماعيل وعين ابنه الثاني موسى . وقد وافقت اكثرية الشيعة على هذا التغيير فكان الامام السابع بين الائمة الاثني عشر . ولكن البعض الآخر زعموا ان الامام لعصمته لا يمكن ان يؤخذ عليه شيء ثانوي كشرب الشراب مثلاً وظلوا تابعين لاسماعيل الذي مات قبل والده بخمس سنوات واصبح اسماعيل عندهم الامام المهدي المستور (٢) .

ويشبه النظام الاسماعيلي الفيثاغورية القديمة من حيث اعتبار العدد « سبعة » مقدساً . وقد جعلت السبعية النظام الكوني والحوادث التاريخية امراً مرتباً على هذا العدد وهم يتبعون في حدوث الكائنات فلسفة « غنوصتية » مبنية الى حد على الافلاطونية الجديدة ويجعلون التجليات سبعة هي : ١ً الله ٢ً العقل ٣ً النفس ٤ً المادة الأصلية ٥ً الفضاء ٦ً الزمن ٧ً عالم الارضين والبشر . ولهذا العالم سبعة انبياء مشترعين يسمى كل واحد منهم « الناطق » وهم : آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم محمد التام ابن اسماعيل . وبين كل نبين ناطقين سبعة انبياء صامتون اولهم الأساس ومن جملة الصامتين اسماعيل وهارون وبطرس وعلي

---

١) ابن الجوزي ، نقد ص ١٩–٢٠ . قابل البغدادي ، مختصر ص ١٥ .
٢) النوبختي ص ٥٧–٨ ؛ البغدادي ، مختصر ص ٥٨ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ص ١٦٧–٨ .

ويوازي الصامتين طبقة أدنى منهم وهي مرتبة على اساس السبعة او الاثني عشر وهم من زعماء الدعاية ويعرف واحدهم بـ « الحجة » ثم المبشرون العاديون ويعرفون بالدعاة (١) .

الباطنية

وقد نظّم الاسماعيليون طريقة للدعوة السياسية الدينية من اتقن ما عرفه العالم الاسلامي فكانوا يرسلون من المراكز التي اعتزلوا فيها دعاة ينشرون عقيدة الباطنية (٢) في انحاء العالم الاسلامي . ويزعم أهل المدارس الفكرية الباطنية التي لم تكوّن نظاماً مستقراً ان القرآن يمكن تفسيره على سبيل المجاز وان الحقيقة الدينية يمكن ايضاحها بواسطة الكشف عن المعنى الباطني الذي قصد من المعنى الظاهر ان يكون حجاباً له يستره عن عيون الناس. وكان المريد يتدرج بتأن وهدوء في مراق بطيئة دقيقة حتى يعلو ذروة العقائد الباطنية الخفية بعد ان يكون قد أقسم يمين الكتمان . ومن هذه التعاليم او العقائد الباطنية فكرة نشوء الكون متجلياً عن الجوهر الالهي وتناسخ الأرواح وحلول الألوهية في اسماعيل وانتظار رجعته مهدياً . والمراتب التي يتدرج فيها المريد سبعة وقد تكون تسعة (٣) وهي تذكرنا بدرجات الماسونية اليوم .

وكان من رجال هذه الحركة الباطنية عبد الله ابن ميمون القدّاح وكان ابوه قداحاً في الأهواز غير معروف نسبه ثم انتقل الى بيت المقدس . اما عبد الله هذا فهو الذي اكمل النظام السياسي الديني للحركة الاسماعيلية التي اشرنا اليها من قبل . وقد جعل البصرة اولا مقره ثم انتقل الى سلمية (٤) في شمالي سورية . وكان ينفذ من هذين المركزين هو وخلفاؤه بعده الدعاة سراً الى انحاء العالم الاسلامي . وكان هؤلاء الدعاة يبدأون ببث روح الشك الديني فيمن يريدون ان يحملوه على قبول دعوتهم ثم يوجهون انتباهه ويشوقونه لانتظار المهدي الذي كان

---

١) الشهرستاني ص ١٤٥ـ٧ ؛ ابن الجوزي ص ١٠٨ـ٩ ؛ الايجي ، المواقف ج ٨ (القاهرة، ١٣٢٧) ص ٣٨٨ـ٩ . وراجع W. Ivanow, *A Guide to Ismaili Literature* (London, 1933).

٢) البغدادي ، اصول ص ٣٢٩ـ٣٠ ؛ الشهرستاني ص ١٤٧ وما يلي ؛ ابن الجوزي ص ١٠٨ .

٣) ان الاشراق الذي يستمده المتجد في سلك هذا الدين تدريجياً كان مألوفاً قبل هذا الزمن عند المانوية وبعض مدارس الفكر الاغريقية .

٤) انظر الاصطخري ص ٦١ ؛ ابن الفقيه ص ١١٠ ؛ ياقوت ج ٣ ص ١٢٣ .

على وشك الظهور . وهكذا استغل ابن القداح الفارسي الوضيع العداوة المضطرمة بين العرب والفرس من المسلمين لتأسيس جمعية سرية ذات مراتب تشمل العرب وغير العرب ودفعهم الى ان يستعينوا بالدين لهدم الخلافة بحيث يكون هو وذريته من بعده حكاماً على المسلمين وهي خطة هائلة في تصميمها كما كانت مدهشة في سرعة تنفيذها . وكان من نتائجها قيام الدولة الفاطمية في تونس ومصر .

القرامطة

وقبل موت عبد الله هذا (حوالي سنة ٨٧٤) ظهر بين رجال الدعوة الباطنية رجل يقال له حمدان قرمط (١) كان في ابتداء امره فلاحاً في سواد العراق ثم انضم الى جماعة عبد الله وكان من غلاة دعاته . وكان حمدان قد رأى في النجوم فيما يروى انه سيُدال من العرب الى الفرس (٢) . وقد تبعه خلق كثير بحيث اصبح مؤسس فرقة باطنية تعرف بالقرامطة نسبة اليه . وقد تجلت في حركته هذه روح العداوة القديمة بين الفلاحين من اهل البلاد و بين ابناء الصحراء . وابتنى لنفسه سنة ٨٩٠ مقراً رسمياً بجوار الكوفة يعرف بدار الهجرة (٣) اصبح مقر الحركة الجديدة وعظم امره وكثر عدد تابعيه من سكان البلاد الأصليين لا سيما الفلاحين والصناع المعروفين في المصادر العربية بالنبط ، ودخل في دعوته ايضاً عدد من العرب انفسهم فاشتدت فرقته مناعة بهم . وكانت هذه الحركة في الأصل منظمة سرية ذات صبغة اشتراكية وكان يفرض على من يريد الانضمام اليها ان يتكرس رسمياً . وكان للهيئة كلها ارزاق جارية من ثروة مشتركة مستمدة مما يؤديه الأعضاء تبرعاً في الظاهر ولكنه في الحقيقة سلسلة من الضرائب المتزايدة . وقد أباح قرمط الاشتراكية في النساء والاموال (الالفة) (٤) . ولقد كان لبلاشفة الاسلام هؤلاء كما دعاهم احد الكتاب العصريين قانون ايمان يقوم على مبدأ

---

١) اشتقاق اللفظة غير ثابت . والمؤلفون العرب يجعلونها عربية من قولك قرمط الرجل في مشيه اي قارب بين خطواته . البغدادي ، المختصر ص ١٧١ ؛ الفهرست ص ١٨٧ ؛ السمعاني ص ٤٤٨ ب. ولعلها من أصل آرامي بمعنى معلم سري : الطبري ج ٣ ص ٢١٢٥ ، ٢١٢٧ ؛ ابن الجوزي ص ١١٠ .

٢) الفهرست ص ١٨٨ .

٣) قابل ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٦ .

٤) وهناك فرق أخرى لها مثل هذا الآراء . انظر ابن حزم ج ٤ ص ١٤٣ .

السؤال والجواب مبني على تفسير القرآن تفسيراً رمزياً يتكيف تبعاً لمقتضيات كل الأديان والأجناس . وهم يشددون على التساهل والمساواة ويجعلون العمال والصناع صنوفاً لهـا مراسيم كمراسيم النقابات اليوم . واقدم وصف لتنظيم هذه النقابات الاسلامية ورد في الرسالة الثامنة من رسائل اخوان الصفاء الذين كانوا على الارجح قرامطة . وفي رأي ماسينيون ان حركةهذه النقابات اتصلت بالغرب فأثرت في تكوين النقابات فيه والماسونية (١) .

وكانت حركة القرامطة بما فيها من آثار الاشتراكية والميول الثورية بمثابة ورم خبيث في جسم الخلافة لا سيا وان اتباعها كانوا يبيحون سفك دماء خصومهم ولو كانوا مسلمين . وقبل ان يتم انتظامهم ساهموا في ثورة الزنج بالبصرة هـذه الثورة التي كادت بين سنتي ٨٦٨ و٨٨٣ ان تقوض اركان الخلافة نفسها . وقد تمكن القرامطة بزعامة ابي سعيد الجنّابي (٢) وهو في الأصل من دعاة قرمط (٣) نفسه ان يؤسسوا سنة ٨٩٩ دولة مستقلة على شواطىء خليج فارس الغربي . واتخذوا الاحساء(٤) مباءة تحصنوا بها وجعلوها قاعدة دولتهم واصبحت هذه الدولة أساس قوتهم ومصدر الرعب للخلافة في بغداد . وكان القرامطة يقومون بغارات متواصلة من مقرهم الجديد على البلدان المجاورة. فالجنّابي تولى اخضاع اليمامة حوالي سنة ٩٠٣ ثم غزا عُمان . اما ابنه ابو طاهر سليمان الذي خلفه فقد اتلف وخرب معظم العراق الجنوبي ، وقطع طريق الحج (٥) ، وبلغت فظائعه انه احتل مكة سنة ٩٣٠ وحمل الحجر الاسود (٦) منها الى هجر ولم يرجع الحجر اليها حتى سنة ٩٥١ أي بعد ان ظل بايدي القرامطة نحواً من عشرين سنة وكان ارجاعه بامر الخليفة الفاطمي المنصور (٧) . وبين القرن العاشر والقرن

١) مادة « Karmatians », *Encyclopaedia of Islam.*
٢) كانت جناب بلدة في فارس قريبة من مصب نهر على خليج العجم . الاصطخري ص ٣٤ .
٣) ابن حوقل ص ٢١٠ .
٤) الهفوف اليوم . ابن الاثير ج ٨ ص ٦٣ .
٥) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٤ـ٥ ، ١٣٢ـ٣ ، ١٥٨ـ٩ ، ٢٣٢ .
٦) مسكويه ، تجارب الامم ، نشر أميدروز ج ١ (اكسفورد ، ١٩٢٠) ص٢٠١ ؛ ابن الأثير ج ٨ ص ١٥٣ـ٤ .
٧) قابل البغدادي ، مختصر ص ١٧٦ـ٧ ؛ ابن الأثير ج ٨ ص ١٥٣ـ٤ .

الحادي عشر كان اتباع قرمط والجنابي يشنون الغارات من مقرهم في سلمية ويعيثون فساداً في ارض الشام والعراق ويستبيحون الدماء (١) بل بلغت الفتن والقلاقل والاضطرابات التي أثاروها ارض خراسان واليمن فأصبحت هي بدورها مراكز للفتن والنقمة .

الحشاشون

لقد سقطت دولة القرامطة على ان تعاليمهم انتقلت الى الفاطميين في مصر ومن هؤلاء نشأت الطريقة الدرزية ثم الفرقة الاسماعيلية الجديدة المعروفة بالحشاشين (٢) في ألموت وسورية. وقد عرفت حركة الحشاشين عند اصحابها بـ « الدعوة الجديدة » (٣) وهي مدينة في نشأتها للحسن ابن الصباح (المتوفى ١١٢٤) وهو في الراجح فارسي من طوس وقد زعم انه يمت بنسبه الى ملوك حمير القدماء في جنوبي الجزيرة . اما الدوافع التي اغرته بتأسيس هذه الحركة فمصدرها طموحه الشخصي ورغبته في الثأر لأهل ملته . وقد انصرف ابن الصباح في حداثته وهو في الري (٤) الى درس نظام الباطنية وتعاليمها ثم نزل مصر فمكث فيها عاماً ونصف عام ثم قفل راجعاً الى موطنه ولزم الدعوة للفاطمية (٥) . وكان ان استولى في سنة ١٠٩٠ هو واتباعه على حصن جبلي منيع الى الشمال الغربي من قزوين يعرف بقلعة « ألموت » وهو ذو موقع حربي خطير في اطراف جبال البُرز على ارتفاع عشرة آلاف ومئتي قدم فوق سطح البحر على الممر الذي هو اقصر طريق بين شواطىء بحر قزوين ومرتفعات ايران . وقد ادى احتلاله لألموت ــ او « عش النسر » كما يفيد معنى الكلمة على الأرجح ــ الى ان يكون بيده ويد خلفائه بعده حصن على غاية ما يكون من الأهمية وكان الاستيلاء على هذا الحصن اول حادثة تاريخية في حياة الحشاشين .

ومن ألموت اخذ « داعي الدعاة » واتباعه يشنون الغارات على الاماكن المجاورة فملكوا

---

١) الطبري ج ٣ ص ٢٢١٧ وما يلي ؛ المسعودي ، التنبيه ص ٣٧١-٦ ؛ مسكويه ج٢ ص١٠٨-٩ .
٢) شاربو الحشيش وهو نبات مسكر يذهب بالعقل .
٣) الشهرستاني ص ١٥٠ .
٤) ومن هنا تسميته بالرازي ؛ ابن الأثير ج ١٠ ص ٣٦٩ .
٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٠٤ ؛ ج ١٠ ص ١٦١ .

عدة قلاع أخرى وكانوا توصلاً الى اغراضهم لا يحجمون عن ارتكاب اي امر حتى صار الاغتيال بالخنجر عندهم فناً قائماً بذاته. وكان نظامهم يرتكز على ما سبقه من عقائد الاسماعيلية وقد أدى الى نوع من اللاأدرية يرمي الى تحرير المريد من ربقة العقيدة وتنشئته على عدم الحاجة للأنبياء وبكلمة كان ينشأ المريد مجازفاً مغامراً لا يؤمن بشيء ولا يخاف من شيء.

ويلي « داعي الدعاة » مرتبة جماعة من الزعماء يسمى كل منهم « الداعي الكبير » ويوكل اليه شؤون مصر من الامصار، تليهم طبقة الدعاة العاملين ثم يأتي اخيراً الفدائيون (١) وهم ابداً على استعداد لتنفيذ أوامر السيد الأكبر « داعي الدعاة » . وقد ترك لنا ماركو بولو الذي مرّ بجوار قلعة ألموت سنة ١٢٧١ أو ١٢٧٢ صورة رائعة ـ وان تكن متأخرة ـ للطريقة التي كان يجري عليها سيد ذلك الحصن في تخدير الفدائيين ببنج « الحشيش » . فبعد ان يذكر البستان المحيط بالجوسق والقصور التي ابتناها داعي الدعاة يقول : « ولم يكن يسمح لأحد ان يدخل البستان الا اذا كان [داعي الدعاة] قد انتقاه ليكون من جماعته الحشاشين وكانت على مدخل البستان قلعة عظيمة يعجز اي جيش في الارض عن فتحها وليس لها مدخل آخر . وكان يستخدم في بلاطه عدداً من الغلمان الذين يميلون للقتال تتراوح اعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين. وكانت طريقة ادخالهم الى البستان ان يأتي بأربعة منهم على حدة او بستة او عشرة ويناولهم قدح شراب خاص حتى يناموا فاذا ناموا أمر بحملهم على الأكتاف ونقلهم الى البستان فاذا أفاقوا وجدوا انفسهم فيه . وكانوا حين يفيقون ويرون انفسهم في ذلك الموضع البهيج الرائق يحسبون انهم في الجنان وقد أحاطت بهم طائفة من الحور والجواري يسايرنهم فتمتلىء نفوسهم لذة .....

فاذا أراد الشيخ الكبير [داعي الدعاة] ان يفتك بأمير ما قال لأحد غلمانه : قم الى فلان اقتله ومتى رجعت تحملك ملائكتي الى جنة النعيم واذا مت دون ذلك أرسل ملائكتي اليك يعودون بك الى الجنان (٢) » .

---

١) او الفداويون . قابل ابن بطوطة ج ١ ص ١٦٦ـ٧ .

٢) *The Book of Ser Marco Polo, the Venetian*, tr. Henry Yule, 2nd. ed.(London, 1875), vol. i, pp. 146-9. وقابل وصفاً على النسق نفسه لما كان يجري في حصن مصياد منسوباً لابن خلكان في : *Fundgruben des Orients*, vol. iii (Vienna, 1813), ed. and tr. Hammer, pp.201-6.

وكان اغتيال نظام الملك وزير السلطنة السلجوقية المشهور سنة ١٠٩٢ على يد فدائي من هؤلاء متنكر بزي صوفي (١) اول حادثة في سلسلة من حوادث الاغتيال الخفية التي روعت العالم الاسلامي وألقته في مضطرب من الفوضى والارتباك . وفي هذه السنة ارسل ملكشاه السلطان السلجوقي عسكراً لتأديب اصحاب القلعة ولكن حاميتها خرجت ليلاً على جيش المحاصرين وردتهم خاذلين . وقد فشلت مساع اخرى لتذليلهم من قبل الخلفاء والسلاطين الى ان جاء هولاكو المغولي الذي قضى على الخلافة ببغداد فاستولى على القلعة في سنة ١٢٥٦ مع ما يتبعها من قلاع ايران (٢) .

وقبل ختام القرن الحادي عشر تمكن الحشاشون من تثبيت اقدامهم في الشام وقد استمالوا الى فرقتهم رضوان ابن تُتُش امير حلب السلجوقي (المتوفى ١١١٣) وفي سنة ١١٤٠ كانوا قد احتلوا حصن مصياد (٣) وحصوناً كثيرة في سورية الشمالية كحصن الكهف والقدموس والعلّيقة (٤) . اما شيزر على العاصي فقد احتلها الحشاشون احتلالاً موقتاً ويدعوهم اسامة ابن منقذ (٥) بالاسماعيلية . ومن اشهر دعاتهم في الشام راشد الدين سنان (المتوفى ١١٩٢) الذي اقام في مصياد ولقب بشيخ الجبل (٦) وعرفه الصليبيون وكان رجال راشد الدين هم الذين ألقوا الرعب في نفوس الصليبيين . وبعد ان فتح المغول مصياد سنة ١٢٦٠ قدم بيبرس احد سلاطين المماليك فأوقع الضربة القاضية بالحشاشين سنة ١٢٧٢ . ومنذ ذلك الحين تفرق شملهم وتشتتوا ما بين شمالي سورية وفارس وعُمان وزنجبار والهند على الأخص حيث يقيم منهم حوالي مئة وخمسين الفاً ويعرف واحدهم بالخوجه او المولى (٧) وهم اليوم خاضعون لرئاسة أغا خان

١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٥٦ .

٢) بما ان كتب الحشاشين ومدوناتهم قد اتلفت آنذاك فان معلوماتنا عن هذه الفرقة الغريبة مستمدة بالأكثر من مصادر معادية لها .

٣) او مصياف ومصيات وهي في سفح جبل النصيرية الى ناحية الشرق . ابن الأثير ج ١١ ص ٥٢ ؛ ابو الفداء ج ٣ ص ١٦ .

٤) ابن بطوطة ج ١ ص ١٦٦ .

٥) كتاب الاعتبار ، نشر حتي ص ١٥٩–١٦٠ .

٦) قابل: William of Tyre. «Historia rerum» in *Recueil des historiens des croisades: historiens occidentaux*, vol. i, (Paris, 1844), p. 996.

٧) وهناك ايضاً الداودية في غوجارات بالهند وعددهم يزيد على مئة الف وهم من الاسماعيلية ولكنهم لا يتبعون « اغا خان » .

الهندي من بومباي الذي يرجع نسبه الى آخر « داعي دعاة » في ألموت ومنه الى اسماعيل الامام السابع . واليه تصل اعشار اموال المؤمنين من جميع الأنحاء حتى من سورية وهو يتنقل في الاغلب بين باريس ولندن وله ولع شديد بسباق الخيل .

النصيرية

ان نصيرية سورية الشمالية الذين سبق عهدهم في سورية عهد الدروز في لبنان هم ايضاً فرقة من الفرق الاسماعيلية الباقية . ويرجع اسمهم الى محمد ابن نُصير الذي ظهر في الشطر الثاني من القرن التاسع وهو من اتباع الامام العلوي الحادي عشر الحسن العسكري (١) (المتوفى ٨٧٤) . وفي رأي دوسو (٢) أن لنا في اتباع ابن نصير مثالا عجيباً لجماعة انتقلت رأساً من الوثنية الى الاسماعيلية وهذا ما يعلل وجود فروق ظاهرة بينهم و بين سواد الاسماعيلية .

وهم كسواهم من غلاة الشيعة (ما عدا الاسماعيلية) يقولون بتجسد الالوهية في علي (٣) ومن هنا اطلق اسم العلويين عليهم منذ عهد الانتداب الافرنسي . ويختلفون عن الدروز والفرق الاسلامية الاخرى في ان لهم في طقوسهم ما يشبه القدّاس وهم يعّيدون بعض اعياد النصارى كعيد الميلاد والعيد الكبير . ويستعملون بعض الاسماء النصرانية مثل متّى و يوحنا وهيلانة و كاترينا . وعدا ذلك فان ديانتهم التي يحافظون على كتمانها اكثر من الدروز تنم عن بقايا عقائد وثنية . و يعدون اليوم نحو ثلاثمئة الف شخص اغلبهم من أهل الزراعة و يقطنون البلاد الجبلية في شمالي سورية واواسطها وتجدهم منتشرين حتى كيليكية .

فرق شيعية أخرى

ان فرق النصيرية والحشاشين والدروز والقرامطة وغيرها من الفرق الاسماعيلية هي في نظر الشيعة نفسها (اي الاثني عشرية التي تؤلف اكثرية الشيعة) من الغلاة وذلك لانها تغض

---

١) وردت اول اشارات هامة لابن نصير وقومه في مخطوطات حمزة وسواه من اصحاب الجدل عندالدروز في اوائل القرن الحادي عشر .

٢) René Dussaud, *Histoire et religion des Nosairis* (Paris, 1900), p. 51.

٣) الشهرستاني ص ١٤٣ــ٥ .

من الوهية الله وتتغاضى عن ان محمداً هو آخر النبيين[١] . ومن الغلاة فرقة قالت ان الله ارسل جبريل الى علي فأخطأ في طريقه الى محمد لانه كان يشبهه [٢] ومن متطرفي الغلاة المتأخري النشأة « التختجية » (قطّاع الخشب) الذين يقطنون غربي الاناضول وال « علي الاهية » من اهل فارس وتركستان واقربائهم ال « قزل باش » (حمر الرؤوس) من اهالي الاناضول الشرقي وال « بكتاشية » في تركية والبانيا .

وعلى نقيض هؤلاء الزيدية في اليمن وهم اتباع زيد[٣] (حفيد الحسين) الذي يحسبونه مؤسس فرقتهم فهم اقرب الفرق الشيعية الى اهل السنة واكثرها تساهلاً من وجوه كثيرة . وبين الطرفين الغلاة من ناحية والزيدية من ناحية اخرى تقع الاثنا عشرية فهي درجة وسطى بين فرق الشيعة . اما الزيدية فتخالف بقية الشيعة في انها لا تعتقد بالامام المستور ولا تمارس المتعة ولا تبيح التقيّة على انها توافقها في معاداة التصوف . اما عدد ابناء الملل والنحل الشيعية جميعاً فلا يزيد على الثلاثين مليوناً او عشرة بالمئة من جميع المسلمين .

١) اما فرق الغلاة الأخرى فراجع بشأنها البغدادي ، مختصر ص ١٤٥ وما يلي ؛ الشهرستاني ص ١٣٢ وما يلي ؛ ابن حزم ج ٤ ص ١٤٠ وما يلي ؛ الاشعري ، مقالات ج ١ ص ٥–١٦ .

٢) البغدادي ص ١٥٧ .

٣) انظر لائحة نسب الأئمة الاثني عشر في ص ٥٣١ من هذا الكتاب .

الفصل الحادي والثلاثون

تجزؤ الخلافة ونشوء دويلات في الغرب

١ . في الاندلس

لم يكن قد انقضى على تأسيس الخلافة العباسية اكثر من خمس سنوات حين بلغ قرطبة عبد الرحمان الداخل فتى بني امية العظيم بعد ان نجا بطريقة عجيبة من المذبحة الكبرى التي دشّن بها العباسيون عهدهم الجديد . ولم يطل به الأمر في الأندلس اكثر من سنة حتى أنشأ فيها دولة مستقلة زاهرة . وكانت الأندلس اول مقاطعة انشقت عن الخلافة العباسية حين كانت هذه في اول عهدها ثم تبعتها مقاطعات اخرى .

٢ . الادارسة

وفي سنة ٧٨٥ ساهم ادريس ابن عبد الله وهو من احفاد الحسن في احدى ثورات العلويين التي كانت تتكرر كثيراً في المدينة . ولكن الثورة اخمدت فهرب ادريس من المدينة الى مراكش في المغرب (١) حيث اسس ملكاً للادارسة دام نحو قرنين (٧٨٨ ـ ٩٧٤) . واتخذ الأدارسة (٢) مدينة فاس (٣) عاصمة لدولتهم وكانت هذه الدولة اول دولة شيعية في التاريخ . وقد استمد الأدارسة قوتهم من البربر الذين برغم انتمائهم الى السنة كانوا دائماً يناصرون الحركات الانفصالية . على ان هذه الدولة وقد وقعت بين مصر والأندلس كأنها بين

---

١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٨ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٢ ـ ١٤ ؛ ابن عذاري ، بيان ج ١ ص ٧٢ ومايلي ، ص ٢١٧ وما يلي .

٢) راجع Stanley Lane - Poole, *The Mohammadan Dynasties* (London, 1893, reproduced 1925), p. 35; E. de Zambaur, *Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam* (Hanover, 1927), p. 65.

٣) بناها ادريس . انظر ابن ابي زرع (الفاسي) ، روض القرطاس في اخبار ملوك المغرب، نشر تورنبرغ (ابسالا ، ١٨٤٣) ص ١٥ .

شقي كلاّبة لم تلبث ان سقطت تحت الضربات المتتابعة التي سددها اليها احد قواد الحكم الثاني (٩٦١ ــ ٧٦) الخليفة الأندلسي [١] .

٣ . الاغالبة

وبينا كان الادارسة يقتطعون لأنفسهم امارة في غربي افريقيــة كان الاغالبة السنيّون ينتهجون خطة مثلها الى الشرق منهم. فقد كان هارون الرشيد عقد سنة ٨٠٠ لابراهيم ابن الأغلب [٢] على المنطقة التي سماها العرب «افريقية» (افريقية الصغرى اي تونس) . ولكن ابن الأغلب (٨٠٠ ــ ٨١١) حكم مستقلاً عن بغداد فلم تتجاوز سلطة بغداد بعد ذلك حدّ مصر الغربي . واكتفى الاغالبة بلقب أمير ولكنهم قلّما عنوا بنقش اسم الخليفة على مسكوكاتهم اقراراً بزعامته الروحية على الأقل . واتخذوا القيروان (وريثة قرطجنة) عاصمةً وجعلوها طيلة القرن الذي سادوا فيه (٨٠٠ ــ ٩٠٩) قاعدة لنشر سيادتهم على مناطق البحر الابيض الوسطى.

وقد جاء بعد ابراهيم رجال من ذوي الاقتدار مثله فاصبحت امارتهم مركز الدائرة في ذلك الكفاح التاريخي بين آسية واوربا. وقد تمكنوا باسطولهم الحسن العدة ان يجتاحوا شواطىء ايطاليا وفرنسا وكورسيكا وسردينيا . وفي سنة ٨٢٧ أرسل احدهم وهو زيادة الله الاول (٨١٧ ــ ٣٨) حملة بحرية على صقلية البيزنطية وكان قد وجه عليها من قبل غارات قرصانية عديدة . وأدّت هــذه الحملات المختلفة وما عقبها من حملات أخرى الى احتلال صقلية التام سنة ٩٠٢ [٣] فاصبحت هذه الجزيرة كما سنرى قاعدة بحرية خطيرة لتوجيه الحملات على البر الاوربي وبالاخص على ايطاليا . واستولى الاغالبة ايضاً على مالطة وسردينيا وذلك بواسطة قرصانهم الذين نفذوا بغاراتهم الى رومة وفي الوقت نفسه تكررت غارات القرصان المسلمين من كريت على جنوبي بحر ايجه بحيث اخذوا في منتصف القرن العاشر يهددون شواطىء بلاد اليونان نفسها. وقد عثر اخيراً في اثينا على ثلاثة رقم كوفية تُشعر بوجود جالية عربية فيها لعلها كانت

---

١) ابن ابي زرع ص ٥٦ــ٧ .

٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٠٦ وما يلي ؛ ابن عذاري ج ١ ص ٨٣ .

٣) انظر ابن الأثير ج ٦ ص ٢٣٥ وما يلي ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٨ــ٢٠٤ .

تسكن هناك وظلت حتى مطلع القرن العاشر (١) .

اما جامع القيروان الذي لا يزال قائماً الى الآن مضاهياً مساجد الشرق الشهيرة فقد باشر تشييده زيادة الله مكان المسجد البسيط الذي كان بناه عقبة مؤسس القيروان ثم اتم بناءه ابراهيم الثاني (٨٧٤ - ٩٠٢) . وكان احد الولاة الذين خلفوا عقبة قد جمّل المسجد باعمدة من رخام استخرجها من اخربة قرطجنة فاستعمل الأغالبة هذه الأعمدة نفسها في الجامع الجديد. وكذلك فان المئذنة المربعة في هذا المسجد الجامع كانت من بقايا مسجد عقبة الراجع الى العصر الأموي وهي اذن اقدم المآذن الباقية في افريقية و بها ادخل طراز المئذنة السوري الى الشمال الغربي من افريقية حيث بقي ولم يحل محله الطراز المزخرف الفارسي او المصري . وفي السوري يعتمد على الحجارة بينما يعتمد في الطراز الآخر على القرميد . و بهذا الجامع اصبحت القيروان عند مسلمي الغرب رابعة مدن الاسلام المقدسة بعد مكة والمدينة و بيت المقدس .

وكان في زمن الأغالبة ان تم انتقال افريقية من بلد لاتيني اللغة مسيحي الدين ظاهراً الى بلد عربي اللغة اسلامي الدين وسقطت افريقية الشمالية اللاتينية التي هيأت للقديس اوغسطين ذلك المحيط الثقافي الذي نشأ فيه سقوطاً لا نهوض بعده . وهو انقلاب سريع تام ربما لم يكن له مثيل في جميع البلدان التي فتحها الاسلام . اما المقاومة التي ظهرت فيما بعد فقد صدرت عن بعض القبائل البربرية التي لم تكن قد أخضعت تماماً وكانت هذه المقاومة نفسها من قبيل الحركات الحزبية الدينية .

وكان آخر الاغالبة زيادة الله الثالث (٩٠٣ - ٩) (٢) وهو الذي فرّ هارباً سنة ٩٠٩ امام الجيش الفاطمي دون ان يبدي ادنى مقاومة (٣) . اما الفاطميون الذين قهروا الاغالبة وخلفوهم سنة ٩٠٩ في شمالي افريقية وانتزعوا الملك سنة ٩٦٩ من ايدي الاخشيديين في مصر وجنوبي سورية فسنفرد لهم فصلاً خاصاً . ونعرض الآن للدولة الطولونية التي سبقت

---

١) D. G. Kampouroglous, « The Saracens in Athens », *Social Science Abstracts*, vol. ii (1930), no. 273; G. Soteriou, « Arabic Remains in Athens in Byzantine Times », *ibid*. no 2360.

٢) انظر لائحة الاغالبة في Lane-Poole, p. 37; de Zambaur, pp. 67, 68

٣) ابن عذاري ج ١ ص ١٤٢-٦ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ٢٠٥-٧ ؛ ابن ابي زرع ص ٦١ .

الاخشيدية في مصر والشام .

٤ . الدولة الطولونية

كان مؤسس الدولة الطولونية (٨٦٨ ـ ٩٠٥) التي لم تعمر كثيراً احمد ابن طولون . وكان ابوه تركياً من سبي فرغانة ارسله سنة ٨١٧ أمير بخارى الساماني هدية الى المأمون(١) . ونشأ احمد نشأة عالية فعيّن سنة ٨٦٨ نائباً لوالي مصر . ولكنه ما كاد يتسلمها حتى استقل بها (٢) . فقد حدث في اثناء ثورة الزنج ان احتاج الخليفة المعتمد (٨٧٠ ـ ٩٢) الى المال فاستنجد بالنائب على مصر فلم ينجده . وكان ذلك فاتحة فصل جديد في تاريخ مصر اصبحت بعده دولة مستقلة حافظت على سيادتها طوال العصور الوسطى . وقد كانت ثروة مصر حتى ذلك الزمن تتسرب الى بغداد وجيوب العمال الذين كانوا يحكمونها اما الآن فقد ظلت الاموال في البلاد وان يكن معظمها قد انفق في سبيل الاسرة المالكة . وكان قد تقلّب على مصر منذ احتلالها حتى عهد ابن طولون نحو مئة والٍ استغلوا خيراتها وكان معدل مدة الحكم للواحد منهم لا تتجاوز السنتين والربع (٣) . وفي العهد الطولوني أثرت البلاد وأقبلت على عصر رخاء نسبي .

وقد عزز ابن طولون دولته الناشئة بنظام عسكري متين ، ودعم سلطانه بجيش من مئة الف محارب نواته حرس خاص من الترك والزنوج . واخذ على الجند والموالي وبقية الناس البيعة لنفسه على ان يعادوا من عاداه ويوالوا من والاه (٤) . ولما توفي سنة ٨٧٧ والي سورية استولى احمد ابن طولون عليها دون كبير مقاومة (٥) . ولأول مرة منذ ايام البطالسة اصبحت مصر ذات سيادة دولية ولأول مرة منذ عهود الفراعنة حكمت سورية . واراد احمد ابن طولون

---

١) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٩٥ ، ج ٤ ص ٢٩٧ .

٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٦١٥ وما يلي ؛ الطبري ج ٣ ص ١٦٩٧ .

٣) قابل لوائحهم في الكندي ، نشر غويست ص ٦ ـ ٢١٢ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢ ـ ١٠ ؛ de Zambaur, pp. 25-7.

٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٦٢٤ .

٥) ابن خلدون ج ٤ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ ؛ الكندي ص ٢١٩ وما يلي .

ان يوطد ولايته على سورية بعد ان فتح سواحل الشام فأنشأ قاعدة بحرية في عكا (١) وبقيت سورية بعد ذلك تابعة لوادي النيل بضعة قرون .

الاشغال العامة

ولقد اهتمت الدولة الطولونية بامور الزراعة والري وهما اهم مرافق البلاد الاقتصادية فعمل احمد ابن طولون على تحسين مقياس النيل في جزيرة الروضة بالقرب من القاهرة . وكان اول من بنى هذا المقياس هناك والٍ أموي سنة ٧١٦ ليحل محل المقياس القديم الذي صنع في ممفيس (٢) . وكان حكم هذه الدولة اول حكم منذ الفتح العربي ساعد على ان تشتهر مصر كمركز للفن ومقام لبلاط ملكي فخم . وازدانت القطائع (٣) وهي الأحياء الجديدة في الفسطاط عاصمة مصر بابنية فخمة منها البيمارستان الذي ابتناه احمد ابن طولون (٤) فبلغت نفقاته ستين الف دينار والمسجد الجامع الذي لا يزال معروفاً الى اليوم باسم جامع احمد ابن طولون ايضاً وهو من اهم مباني الاسلام الدينية. ويظهر في مئذنته - وهي اقدم المآذن في مصر - اثر الهندسة البنائية المألوفة في سامرا حيث قضى احمد فجر حياته . وقد كلف بناء الجامع مئة وعشرين الف دينار (٥) ويمتاز باعمدة الآجر التي فيه والقناطر المروّسة القديمة . وقد نقش على اطار خشبي تحت سقفه كتابة بالخط الكوفي فيها نحو سدس القرآن (٦) .

وعقب أحمد ابن طولون خمارويه ابنه (٨٨٤ - ٩٥) (٧) وكان مبذّراً فبنى قصراً جعل فيه « قاعة مذهبة » مطلية جدرانها بالذهب ومزوقة بنقوش نافرة وصور بينها صورته

---

١) ياقوت ج ٣ ص ٧٠٧ - ٨ .

٢) المقريزي ، نشر فييت ، ج ١ ص ٢٤٧ - ٥٠ .

٣) المقريزي (بولاق) ج ١ ص ٣١٣ وما يلي .

٤) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نشر جينبل ، ج ٢ (ليدن، ١٨٥٥) ص ١١ ؛ الكندي ص ٢١٦ .

٥) ابن خلكان ج ١ ص ٩٧ ؛ ابن تغري بردي ج ٢ ص ٨ .

٦) ان افضل وصف لهذا المسجد قد اورده نحو ١٤٢٠ المقريزي (بولاق) ج ٢ ص ٢٦٥ وما يلي ؛ نقل عنه السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٢ - ٤ .

٧) كان لأحمد ثلاثة وثلاثون ولداً بينهم ١٧ صبياً منهم خمارويه هذا . ابن تغري بردي ج ٢ ص ٢١ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١ .

وصورة نسائه ومغنياته (١) ويعد هذا القصر من ابدع الابنية الاسلامية وأروعها . وقد حفرت صورة خمارويه وصور نسائه في الخشب بالحجم الطبيعي وعلى رؤوسهم جميعاً التيجان المذهبة وليس خافياً ان الصور التي تمثل الاحياء أمر نادر جداً في الفن الاسلامي. وقد شيد القصر وسط بستان كبير زرعت فيه الزهور العطرة على هيئة كلمات عربية وفيه اشجار غريبة الاصل قد نمت حول احواض الماء المصفحة بالذهب (٢) . ومن الغرائب التي فيه ايضاً مأوى للطيور (٣) وحديقة للحيوانات (٤) ولكن أغرب ما فيه بركة من الزئبق تطفو على سطحها وسائد من جلد منفوخة تتدلى من حبال حريرية ربطت الى أعمدة من فضة وكان يضطجع عليها الامير حين يساوره الأرق فتهتز به برفق وتدني النعاس الى عينيه. وقد وجدت آثار الزئبق في موضع القصر بعد زمنه بسنين (٥) . وقبل ان مات خمارويه اغتيالا زوّج ابنته قطر الندى من الخليفة المعتضد وفرض لها مهراً قدره مليون درهم وأهداها فوق ذلك ألف هاون من الذهب وتحفاً أخرى نادرة المثال (٦) . ولشدّة تبذيره وبذخه كان يعدّه المحافظون رجلاً مارقاً من الدين وقد ذكر عنه انه استطاع ان يشرب اربعة ارطال خمر في جلسة واحدة (٧) . وروي انه حين أنزلت جثته في القبر سمع الناس من جانب المقبرة التي دفن فيها ابوه قبله قرّاء القرآن يتلون « خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم » (٨) .

وتمثل الدولة الطولونية بوادر النزعة السياسية التركية الجامحة التي ظهرت في الخلافة وقد استطاع الترك بعد هذا ان يؤسسوا كثيراً من الدويلات التركية . وكانت دولة ابن طولون مثالا لكثيرٍ من الدويلات التي شيدت على انقاض الخلافة او انفصلت عنها ولم يعد لها علاقة بها

---

١) ابن تغري بردي ج ٢ س ٥٧ــ٨ ؛ المقريزي ج ١ س ٣١٦ــ١٧ .
٢) ابن تغري بردي ج ٢ س ٥٦ .
٣) المصدر نفسه س ٥٦ــ٥٧ .
٤) المصدر نفسه س ٦٠ــ٦١ .
٥) المصدر نفسه س ٥٨ــ٩ ؛ المقريزي ج ١ س ٣١٧ .
٦) ابن خلكان ج ١ س ٣١٠ . قابل ابن خلدون ج ٤ س ٣٠٧ــ٨ ؛ الطبري ج ٣ س ٢١٤٥ــ٦ ؛ ابن تغري بردي ج ٢ س ٥٥ .
٧) التنوخي ، جامع التواريخ ، نشر مرغوليوث ج ١ (لندن ، ١٩٢١) س ٢٦١ .
٨) سورة الدخان : ٤٧ .

غير الاعتراف بسلطة الخليفة الاسمية . وتبرهن سيرة احمد ابن طولون عن مقدار القوة العسكرية والسياسية التي يستطيع ان يصل اليها القائد الطموح حين يعتمد على مناصرة الجيش ويستأثر بالسلطة السياسية على حساب الحكومة المركزية . الا ان الدولة الطولونية ومثلها الاخشيدية وكثير من الدويلات الأخرى التي نشأت لم تكن ترتكز على اساس قوي في البلاد التي تولتها ولذلك لم تعش طويلاً . وكان مصدر الضعف فيها عدم وجود جماعة كبيرة بين ابناء البلاد من عنصرها تناصرها . فرؤساء هذه الدويلات انفسهم كانوا دخلاء، اضطروا ان يعتمدوا على حرس مأجورين من الأجانب كانوا قوام جيوشهم . ولا يدوم حكم مثل هذا الا اذا كان القائم به من ذوي الكفاءة النادرة والشخصية البارزة. فاذا ما فترت همة الحاكم او السلطان او كلّ ساعده او مات، سرى الانحلال الى جسم الدولة كلها . فلا عجب اذا كانت الدولة التي شيّدها ابن طولون قد عادت الى حوزة العباسيين في ولاية شيبان (٩٠٤ ـ ٥) ابنه رابع الملوك الطولونيين [١] .

٥ . الدولة الاخشيدية

عادت مصر وسورية الى حكم العباسيين ولكن حكمهم لم يكن موطد الاركان فما كادت تنقضي عليه مدة يسيرة حتى ظهرت في الفسطاط دولة تركية أخرى فرغانية الاصل [٢] تعرف بالدولة الاخشيدية (٩٣٥ ـ ٦٩) . وكان مؤسسها محمد ابن طغج (٩٣٥ ـ ٤٦) قد وكّل اليه الخليفة أمر مصر فنظم احوال البلاد المضطربة [٣] وفي سنة ٩٣٩ منحه الخليفة الراضي

---

١) الكندي ص ٢٤٧ ـ ٨ . وفيما يلي شجرة نسب الدولة الطولونية :

١) احمد ابن طولون (٨٦٨ ـ ٨٤)

٢) خمارويه (٨٨٤ـ٩٥)

٣) جيش (٨٩٥ـ٦) ٤) هارون (٨٩٦ـ٩٠٤) قطر الندى ٥) شيبان (٩٠٤ـ٥)

٢) ابن سعيد . المغرب في حلى المغرب ، نشر تلكوست (ليدن ، ١٨٩٩) ص ٥ .

٣) الكندي ص ٢٨٨ ؛ مسكويه ج ١ ص ٣٣٢ ، ٣٦٦ حاشية ؛ ابن تغري بردي ج ٣ ص ٢٧٠ .

لقباً اميرياً ايرانياً هو الاخشيد . وفي السنتين التاليتين سلك الاخشيد الطريق الذي سلكه قبله ابن طولون فاستقل بالامر نوعاً ما واستولى على سورية وفلسطين ولم تمض سنة اخرى حتى ضم مكة والمدينة الى دولته واصبحت شؤون الحجاز - القطر الذي كان يتأرجح بين الشرق والغرب - مرتبطة بمصر طيلة بضعة قرون من الزمن.

خصيّ زنجي

ولم يكن ابنا الاخشيد اللذان تعاقبا على الامر بعده يحكمان الا بالاسم فقد أسندت مقاليد الامور في الدولة الى خصيّ حبشي قدير اسمه كافور ابو المسك كان الاخشيد قد اشتراه فيما يقال من تاجر زيت بثمانية دنانير . وقد تولى كافور منفرداً ادارة مصر بين سنة ٩٦٦ و٩٦٨ (١) واستطاع ان يدافع عن مصر والشام وينازع دولة الحمدانيين التي ظهرت في شمالي سورية . وقد خلد المتنبي (٢) شاعر سيف الدولة الحمداني واشهر الشعراء في ذلك العصر اسم كافور بمديحه له وهجائه . وكانت حادثة هذا الخصيّ الاسود الذي نهض من حضيض الضعة الى منصة السلطان، الاولى من نوعها في الاسلام ولكنها لم تكن الاخيرة . وكان امراء الدولة الاخشيدية وبنوع خاص الاخشيد نفسه يغدقون العطايا من اموال الدولة على رعاياهم استمالة لقلوبهم شأنهم في ذلك شأن أمراء الدويلات الاخرى . فقد روي ان مطبخ محمد الاخشيد هذا كان يدخله كل يوم من الأرزاق مئة نعجة ومئة خروف ومئتان وخمسون من الأوز وخمسمئة فرخ طير والف حمامة ومئة اناء من الحلوى . وحين مدح احد الشعراء كافوراً فقال:

ما زلزلت مصر من خوف يُراد بها   لكنها رقصت من عدله طربا

اجازه بالف دينار. (٣) واذا استثنينا ضروب البذخ والترف هذه فان الدولة الاخشيدية لم تقم باي مأثرة في سبيل الحياة الفنية والأدبية ولم تخلف شيئاً يذكر من المآثر العامة . وكان آخر امرائها ابو الفوارس احمد وقد ولي الأمر وهو ابن احدى عشرة سنة وفي عهده سقطت الدولة

---

١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٨٥-٩؛ ابن خلدون ج ٤ ص ٣١٤-١٥؛ ابن تغري بردي ج ٢ ص ٣٧٣ .
٢) ديوان . نشر ديتريصي (برلين ، ١٨٦١) ص ٦٢٣ - ٧٣٢ ؛ ابن سعيد ص ٤٥ - ٦ .
٣) ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور (مصر ، ١٣١١) ج ١ ص ٤٤ .

الاخشيدية (١) بيد جوهر قائد الفاطميين وكان ذلك سنة ٩٦٩ .

٦ . الحمدانيون

وكان ينافس الدولة الاخشيدية في مصر دولة بني حمدان الشيعيين في شمالي سورية . وكان بنو حمدان اول الأمر في شمالي العراق وكانت الموصل عاصمتهم (٩٢٩ ـ ٩١) ويرجع اصلهم الى حمدان ابن حمدون (٢) من قبيلة تغلب . وفي سنة ٩٤٤ دخلوا شمالي سورية بقيادة سيف الدولة فاستولوا على حلب وحمص واقصوا عامل الاخشيد . وقد كانت الشام التي لم تنس مجدها القديم ايام الأمويين موطناً للفتنة والاستياء والثورة على العباسيين . وقد اسس سيف الدولة (٩٤٤ ـ ٦٧) الحلبي دولة في شمالي سورية دامت حتى سنة ١٠٠٣ . اما خلفه الثاني سعيد الدولة (٩٩١ ـ ١٠٠١) فقد كان تابعاً للفاطميين في مصر . وضاقت هذه الدولة آخر الأمر ذرعاً بما كابدته من عداء البيزنطيين في جبهة والفاطميين في أخرى فاستسلمت لهؤلاء الاخيرين في تلك السنة (٣) .

---

١) ١ . طغج

١) محمد الاخشيد (٩٣٥ ـ ٤٦)

٢) ابو القاسم أنوجر (٩٤٦ ـ ٦٠) ٣) علي (٩٦٠ ـ ٦٦) ٤) ابو المسك كافور (٩٦٦ ـ ٨)

٥) احمد (٩٦٨ ـ ٩)

ان النجمتين ✲✲ تدلان على ان العلاقة هي بين سيد وعبد لا والد وولد .

ورد اسم أنوجر باشكال مختلفة : قابل ابن تغري بردي ج ٢ ص ٣١٤ ؛ الكندي ص ٢٩٤ ؛ ابن خلدون ج ٤ ص ٣١٤ ؛ ابن الاثير ج ٨ ص ٣٠٣ ؛ مسكويه ج ٢ ص ١٠٤ .

٢) الطبري ج ٣ ص ٢١٤١ .

٣) ١) سيف الدولة ابو الحسن علي (٩٤٤ ـ ٦٧) .

٢) سعد الدولة ابو المعالي شريف (٩٦٧ ـ ٩١) .

٣) سعيد الدولة ابو الفضائل سعيد (٩٩١ ـ ١٠٠١)

٤ ـ ا) ابو الحسن علي (١٠٠١ ـ ٣) ٤ ـ ب) ابو المعالي شريف (١٠٠١ ـ ٣)

ازدهار الأدب

ان سيف الدولة مدين في شهرته في التاريخ العربي اولاً لمناصرته للعلم والأدب ثم لجهاده في مناضلة الروم بعد ان أعيا قواد الاسلام امرهم . وان حلقة الأدب التي رعاها هذا الامير الحمداني الشاعر (١) لتعيد الى الذهن ذكرى الرشيد والمأمون فقد ضمت فئة من الاعلام فيهم الفارابي الفيلسوف الموسيقي الشهير وكان يتقاضى تقاعداً يومياً من خزينة الدولة مقداره اربعة دراهم فقط وذلك لسد حاجاته البسيطة . وفيهم الاصبهاني مؤرخ الأدب والموسيقى الشهير الذي أهدى سيّده نسخة من كتابه الاغاني خطها بيده فأنعم عليه بالف دينار . وابن نباتة (المتوفى ٩٨٤) خطيب البلاط اللسن الذي كانت مواعظه البليغة (٢) المسجوعه تنفذ في القلوب وتحرّك عواطف القوم لمواصلة الجهاد على بيزنطة . وفوق هؤلاء المتنبي شاعر البلاط (٩٠٥ — ٦٥) الذي رفعه اسلوبه الشعري وما فيه من روعة وفخامة ومبالغة ودقة في الصنعة وجمال الحكم الى ان يكون اشهر شاعر في الاسلام الى يومنا هذا . وليس هناك شعر شائع بين الطبقات المختلفة شيوع شعره (٣) ولقد قال فيه احد القدماء : «أما شعره فهو في النهاية» (٤) . ولد المتنبي بالكوفة وكان ابن سقاء فيما يروى ثم تردد الى بادية السماوة حيث قيل انه ادعى النبوءة فسمي بالمتنبي (٥) وقد دخل المتنبي حلقة سيف الدولة وفيها نخبة من العلماء والادباء فكرّمه سيف الدولة فعظم على الامير ابي فراس الحمداني (٦) ابن عم سيف الدولة وهو شاعر معروف ان ينال المتنبي مثل ذلك الاكرام واخذ يخفض من شأنه واخيراً انتهى الامر في ان سيف الدولة لم يظهر له العطف الذي كان يؤمله فتركه ولبى دعوة قيم الدولة الاخشيدية كافور ونال ما ناله من خلع وجوائز ولكنه لم ينل ما كان يؤمله من امارة او ولاية فانقلب

---

١) ابن خلكان ج ٢ ص ٦٦ — ٨ ؛ التنوخي ص ١٣٤ .

٢) خطب ابن نباتة وقد طبعت مراراً في القاهرة وبيروت .

٣) نشر ديوانه ديتريصي ثم بعده ناصيف اليازجي (بيروت ، ١٨٨٢) . وقد أقيم له عيد الفي سنة ١٩٣٥ لمرور الف سنة على وفاته (٣٥٤ هـ .) في سورية ولبنان وغيرها .

٤) ابن خلكان ج ١ ص ٦٣ . انظر نقداً قديماً فيه في الثعالبي ، اليتيمة ج ١ ص ٧٨ — ١٦٤ .

٥) اسمه التام ابو الطيب احمد ابن حسين .

٦) انظر ديوانه نشر نخلة قلفاط (بيروت ، ١٩٠٠) وانظر الثعالبي ج ١ ص ٢٢ — ٦٢ .

حانقاً وترك مصر .

وقد نبغ في اواخر هذه النهضة القصيرة في شمالي سورية رجل فذ هو ابو العلاء المعري (٩٧٣ ـ ١٠٥٧) (١) فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة . ظهر ابو العلاء في زمن اضطربت فيه الاحوال السياسية وفي بيئة ساد فيها الفساد والانحطاط فجاء شعره مرآة لعصره يغلب فيه الشك والتشاؤم . وكان المعري من قبيلة تنوخ اليمنية وقد ولد في معرّة النعمان واليها نسبته وفيها قبره الى اليوم . وقد جُدد بناء هذا القبر سنة ١٩٤٤ في عيده الالفي . اصيب المعري بالجدري وهو في الرابعة من عمره فذهب الجدري ببصره على ان ما فقده من باصرته استعاض عنه ببصيرته وشدة حافظته ونشأ على العلم والادب وتردد الى الاوساط العلمية في طرابلس وانطاكية وحلب ثم ارتحل سنة ١٠٠٩ الى بغداد واقام فيها سنة وسبعة اشهر فأخذ ببعض آراء اخوان الصفاء وآراء اخرى هندية الاصل . ثم رجع الى المعرة ولزم منزله ملتمساً نوعاً من العزلة فيه منقطعاً عن اكل اللحوم شأن النباتيين. ومن مؤلفاته في اواخر حياته «اللزوميات» (٢) و « رسالة الغفران » (٣) ويظهر فيهما انه كان يتخذ العقل هادياً له والتشاؤم والشك منهجاً . وان رسالة الغفران هذه قد تركت فيما يرى بعض المستشرقين اثراً بيّناً في رواية دانتي « الملهاة الالهية » (٤) وقد نقلت بعض رباعياته الى الانكليزية . وقد لاحظ كثير من الباحثين الذين درسوا شعره وشعر عمر الخيام الفارسي ـ المتوفى بعده بمدة ستين سنة ـ تشابهاً وصلة بينهما بل رأوا ما يدل على ان الخيام قد تأثر بآراء المعري . وبالمتنبي والمعري ختم عهد الشعر العربي العالي . ولم يقم بعدهما في الاسلام شاعر بلغ منزلتهما .

غارات على بلاد الروم

وبعد ان ثبّت سيف الدولة سلطانه في شمالي سورية اخذ يقوم بالغزوات المنظمة الى بلاد

---

١) راجع طه حسين ، ذكرى ابي العلاء (القاهرة ، ١٩١٤) .

٢) اللزوميات او لزوم ما لا يلزم . نشر عزيز زند في جزئين (القاهرة ، ١٨٩١ ، ١٨٩٥) وترجم بعضها الى الانكليزية امين الريحاني . (New York , 1918)

٣) نشرها كامل الكيلاني في قسمين (القاهرة ، ١٩٢٣) وترجم بعضها نكلسن في مجلة الجمعية الاسيوية الملكية سنة ١٩٠٠ و ١٩٠٢.

٤) Asin, *Islam and the Divine Comedy* , tr . Sunderland.

الروم . وقد بدأ هذه الغزوات سنة ٩٤٧ واستمر بها حتى مماته سنة ٩٦٧ بحيث لم تمر سنة من هذه السنين العشرين لم يغز بها بلاد الروم [١] . وقد بسم له النصر اولا فاستولى على مرعش وغيرها من المدن الواقعة على الحدود وكاد ان يخرج الروم ولكن القيادة البيزنطية افسدت عليه خططه وقد كانت بيد بطلين من قواد الروم اصبح كل منهما فيما بعد امبراطوراً همـا نقفور (Nicephorus Phocas) وابن شمشقيق [٢] (John Tzimisces) . ففي سنة ٩٦١استطاع نقفور ان يصل الى حلب وينتزعها من ايدي الحمدانيين ما عدا القلعة وقد قتل ما يزيد على عشرة آلاف من شبانها وجميع الاسرى الذين اخذهم في الحرب ودمر قصر سيف الدولة نفسه. واقام فيها بعد فتحه نحو ثمانيـة ايام وسراياه تضرب في ظاهر المدينـة وتسبي وتغنم ثم رحـل عنها [٣] . و بعد ان اصبح امبراطوراً (٩٦٣ ــ ٩) انتزعت عساكره قبرس من ايدي العرب واحتلت كيليكية [٤] و بذلك مهد السبيل لفتح سورية . وفي آخر سني ملكه دخـل جيشه انطاكية ــ المدينة التي طالما اراد الروم انتزاعها من العرب لانها كرسي البطاركة ومدينة القديسين والمجامع الكنسية الاولى . وكانت تضارع بيزنطة نفسها في المكانة الدينية . و بقيت انطاكية في ايدي الروم من ٩٦٩ الى ١٠٨٤ . ولم يلبث قائد نقفور بعد استيلائه على انطاكية ان سار الى حلب حيث حاصر سعد الدولة (٩٦٧ ــ ٩١) ابن سيف الدولة واضطره الى قبول صلح مذل ثم انصرف عنه [٥] . اما الامبراطور ابن شمشقيق (٩٦٩ ــ ٧٦) فقد اتخذ سياسة الحزم في ضبط ما فتحه الروم في كيليكية وشمـال سورية وتوطيد الحكم فيه . وجعل نصب عينيه تحرير بيت المقدس من يد العرب فغادر انطاكية في شبه حملة صليبية ودخل دمشق ولكنه لم يستطع التوغل في فلسطين . وفي اوائل عهده خرج بنو حبيب في نصيبين ــ وهم بنو عم الحمدانيين ــ بذراريهم ومواشيهم وثقلهم في اثني عشر الف فارس هرباً من الضرائب

---

١) انظر يحيى ابن سعيد الانطاكي ،تاريخ،نشره وترجه الى الافرنسية I. Kratchkovsky and A. Vasiliev in *Patrologia Orientalis*, vol. xviii, pp. 768 *seq* .

٢) ابن الاثير ج ٨ ص٤٠٧ ؛ ابو الفداء ج ٢ ص ١١٠ .

٣) مسكويه ج ٢ ص ١٩٢ ــ ٤ ؛ يحيى الانطاكي ص ٧٨٦ ــ ٧ .

٤) ياقوت ج ٣ ص ٥٢٧ .

٥) يحيى الانطاكي ص ٨٢٣ ــ ٤ .

المفروضة عليهم والتجأوا الى بلاد الروم فتنصروا بأجمعهم واوثقوا ملك الروم من انفسهم وعادوا الى بلاد الاسلام فشنوا الغارات عليها (١) وخلف ابن شمشقيق باسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥) فشخص بنفسه يدافع عن ممتلكاته السورية التي اخذ يهددها الفاطميون من مصر وذلك برغم القوى التي كانت تهدده في الوقت نفسه من شمالي افريقية حيث استطاع العرب هناك ان يحتلوا صقلية وكثيراً من جزر بحر ايجه . وفي مطلع القرن الحادي عشر عقد صلحاً مع الحاكم الفاطمي فلم يجر بينهما قتال بعد ذلك . وهكذا وسعت الجهود التي بذلها باسيل وسلفاه نقفور وابن شمشقيق حدود الامبراطورية البيزنطية شرقاً على حساب المسلمين حتى نهر الفرات وقلب سورية الشمالية (٢) . وكان عهدهم ازهى عهود بيزنطة في تاريخ علاقاتها على الشرق (٣) .

١) ابن حوقل ص ١٤٠ - ٤١ .
٢) ابن الاثير ج ٨ ص ٤٤٠ - ٤١ .
٣) Vasiliev, *Byzantine Empire*, vol i, p. 381 .

الفصل الثاني والثلاثون

إمارات مختلفة في الشرق

وبينما كانت تتجزأ الخلافة الى دويلات اكثرها عربية في الغرب كان الامر نفسه يجري على يد الترك والفرس في الشرق .

١ . بنو طاهر

واول من أسس دولة شبه مستقلة في الجانب الشرقي من الخلافة طاهر ابن الحسين الخراساني وهو القائد الذي كان المأمون قد عينه على الجيش فحقق له النصر في النزاع الذي نشب بينه وبين اخيه الامين . وقد ذكر ان هذا القائد وأصله من الموالي الفرس كان يضرب بالسيف في قتاله ضد الامين بيسراه كما يضرب بيمناه بحيث لقبه المأمون ذا اليمينين (١) وكان أعور فقال فيه احد الشعراء :

يا ذا اليمينين وعين واحدة   نقصان عين ويمين زائدة (٢)

وكان المأمون يثق به فكافأه على مناصرته له في ان استعمله سنة ٨٢٠ على خراسان وكل البلاد الواقعة شرقي بغداد فجعل مرو عاصمة ولايته . ومات طاهر بعد ذلك بسنتين ولكنه قبل ان يموت استطاع ان يمسك عن الدعاء للخليفة في الخطب ايام الجمع (٣) . وتتابع على الحكم بعده جماعة من بيته دانوا للخلافة اسمياً ولكنهم استقلوا بالفعل ووسعوا نطاق ولايتهم حتى حدود الهند. ونقلوا قاعدتهم الى نيسابور حيث ظلت لهم السلطة حتى سنة ٨٧٢ (٤) حين أزاحهم الصفاريون .

---

١) الطبري ج ٣ ص ٨٢٩ ؛ ابن خلكان ج ١ ص ٤٢٤ وقابل المسعودي ج ٦ ص ٤٢٣ .

٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٢٢ ؛ ابن الاثير ج ٦ ص ٢٧٠ .

٣) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٥٥ ، ٢٧٠ .

٤) المسعودي ج ٨ ص ٤٢ ؛ الطبري ج ٣ ص ١٨٨٠ .

٢. بنو الصفار

يرجع تأسيس الدولة الصفارية الى يعقوب ابن ليث الصفار (٨٦٧ _ ٧٨) وقد نشأت في سجستان وملكت فارس احدى واربعين سنة (٨٦٧ _ ٩٠٨) . وكان الصفار كما يستدل من اسمه يشتغل بصناعة النحاس ظاهراً وينصرف الى اعمال اللصوصية سراً . وكان لمهارته وفروسيته وشدة شوكته قد استرعى انتباه عامل الخليفة على سجستان ونال اعجابه فعهد اليه بقيادة جيشه (١) . والظاهر انه خلف الوالي نفسه على سجستان واصبح سلطانها واضاف الى ممتلكاته كل فارس تقريباً واقاليم الهند المتاخمة لها بحيث بلغ به الامر اخيراً ان يتهدد بغداد عاصمة الخليفة المعتمد(٢) . ولم يطل امر الدولة الصفارية واديل من سطوتها في اكثر ممتلكاتها الى دولة جديدة هي الدولة السامانية (٣) .

٣. بنو سامان

ملك بنو سامان فارس وما وراء النهر من سنة ٨٧٤ الى ٩٩٩ . ويرجع نسبهم الى سامان احد نبلاء بلخ من اتباع زرادشت . وكان مؤسس دولتهم نصر ابن احمد (٨٧٤ _ ٩٢) الا ان موطد الدولة هو اسماعيل (٨٩٢ _ ٩٠٧) اخو نصر فهو الذي انتزع خراسان سنة ٩٠٣ من قبضة بني الصفار (٤) . نشأ بنو سامان عمالا مسلمين لبني طاهر ثم ما لبثوا ان وسعوا ملكهم في عهد نصر الثاني ابن احمد (٥) (٩١٣ _ ٤٣) وهو الرابع من ولاتهم الى اعظم حد بلغه فاستولوا على سجستان وكرمان وجرجان وما وراء النهر وخراسان وتمتعوا بسلطة مستقلة وان كانوا يدينون في الظاهر للخليفة في بغداد . وكانوا في نظر الخليفة امراء اي حكاماً

---

١) ابن الاثير ج ٧ ص ١٢٤ _ ٥ ؛ ابن خلكان ج ٣ ص ٣٥٠ _ ٥١ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٦٠٥ ؛ مستوفي قزويني ، تاريخي كوزيدا نشر برون ج ١ (ليدن ، ١٩١٠) .

٢) الاصطخري ص ٢٤٥ _ ٧ .

٣) المسعودي ج ٨ ص ٤١ _ ٥ ؛ الطبري ج ٣ ص ١٦٩٨ _ ١٧٠٦ ، ١٨٨٠ _ ٨٧ .

٤) ابن الأثير ج ٧ ص ١٩٢ _ ٥ ، ٣٤٦ _ ٧ ، ج ٨ ص ٤ _ ٦ ؛ الاصفهاني ، تاريخ ص ٢٣٦ _ ٧ ؛ الطبري ج ٣ ص ٢١٩٤ . تاريخي سيستان ، نشر بهار (طهران ، ١٩٣٥) ص ٢٥٦ .

٥) راجع مستوفي قزويني ج ١ ص ٣٨١ _ ٣ ؛ ابن الأثير ج ٨ ص ٥٨ _ ٦٠ ، ١٥٤ _ ٦ .

لهذه المقاطعات بل عمالا على الخراج لا اكثر برغم استقلالهم في الشؤون الداخلية .

وعلى يد السامانيين تم للاسلام تدويخ ما وراء النهر نهائياً وكادت بخارى عاصمتهم وسمرقند سيدة مدنهم ان تسبقا بغداد كموئلين للعلم والفن . ولم ترتق فيهما الدراسات العربية فحسب بل الفارسية ايضاً . وقد قدّم الرازي الشهير كتابه الطبي المعروف بالمنصوري الى أحد امراء بني سامان الا وهو ابو صالح منصور ابن اسحاق السجستاني وهو ابن اخي اميرهم الثاني. اما الامير الساماني نوح الثاني (٩٧٦ ـ ٩٧) (١) فقد استدعى ابن سيناء ـ حين كان ابن سيناء يافعاً دون العشرين ـ الى بخارى فزارها واطلع على خزانة كتبها (٢) الملكية الغنية حيث هيّىء له ان يستمد من العلوم تلك الثروة العظيمة . وفي هذا العصر اخذ ينشأ الأدب الفارسي الحديث ، ويكفي دلالة على ذلك ان الفردوسي (حوالي ٩٣٤ ـ ١٠٢٠) وضع اول اشعاره فيه . وفيه ايضاً نقل البلعمي وزير منصور الاول (٣) (٩٦١ ـ ٧٦) مختصر تاريخ الطبري الى الفارسية (٤) وهو من أقدم كتب النثر المحفوظة في الفارسية . وكان الفرس منذ الفتح الاسلامي قد درجوا على استعمال العربية أداةً للتعبير الادبي ولكن على يد هذين الكاتبين اخذ الأدب الفارسي الاسلامي يسير نحو التقدم .

ولم تنج الدولة السامانية من عناصر التهديم والفوضى التي قضت على سواها من الدول في العصر نفسه برغم انها كانت من أرقى الدول الايرانيـة واكثرها علماً واستنارة . فعلاوة على المشاكل التي كانت تواجهها من حيث مطامع الكبراء العسكريين وسرعة توالي الامراء على العرش بدا خطر جديد يهدد كيان الدولة وهو ظهور قبائل الترك البدوية في الشمال . حتى في الشؤون الداخلية فان القوة كانت تتحول تدريجياً الى ايدي الموالي الترك الذين كان بنو سامان قد ملأوا بلاطهم منهم . اما المنطقة السامانية الى الجنوب من جيحون فقد انتزعها سنة

١) راجع ابن الأثير ج ٩ ص ٦٩ وما يلي .
٢) ابن أبي اصيبعة ج ٢ ص ٤ .
٣) هناك وصف شائق لاحوال البلاد الداخلية في عصره ذكره شاهد عيان. ابن حوقل ص ٣٤١ ـ ٢ ، ٣٤٤ ـ ٥ .
٤) مستوفي قزويني ج ١ ص ٣٨٥ .

٩٩٤ الغزنويون الذين وصلوا الى ما وصلوا اليه من القوة بفضل احد هؤلاء الموالي . ووقعت المنطقة في شمال هذا النهر في ايدي جماعة من الايلاق من خانات تركستان الذين استولوا سنة ٩٩٢ على بخارى و بعد تسع سنوات قضوا على الدولة السامانية المحتضرة . وهكذا نرى لأول مرة قبائل طورانية من آسية الوسطى تحتل المقام الأول في شؤون العالم الاسلامي . ولم يكن النزاع الذي قام بين العنصر الايراني والعنصر الطوراني في سبيل السيطرة على الأقطار التي تقع على حدود الاسلام سوى مقدمة لتطورات اشد خطورة . وسنرى فيما سيمر معنا كيف لعب الترك دورهم العظيم في السياسة الدولية حتى تسلموا معظم صلاحيات الخليفة في بغداد وابتلعوا معظم اقسام الخلافة وآل امرهم اخيراً الى تأسيس خلافة عثمانية في استانبول « بغداد البوسفور » .

٤. الغزنويون

وكان من الموالي الأتراك الذين رفعهم بنو سامان الى مراتب الشرف واسندوا اليهم المناصب العالية رجل اسمه الب تكين . وكان هذا في اول امره من الحرس الملكي ثم ارتقى الى رئاسة الحرس (١) فولاية خراسان سنة ٩٦١ . ولم يمض عليه امد طويل في هذه الوظيفة حتى نقم عليه الأمير الساماني الجديد فعزله وانصرف الب تكين الى اطراف المملكة في الشرق . وهنا استطاع في سنة ٩٦٢ ان ينتزع غزنة (في افغانستان) من قبضة ولاتها الوطنيين وينشىء فيها دولة مستقلة (٢) نمت وكبرت بحيث أصبحت فيما بعد امبراطورية تشمل افغانستان والبنجاب (٩٦٢ ـ ١١٨٦) . اما مؤسس الدولة الغزنوية الحقيقي فهو سُبكتكين (٩٧٦ ـ ٩٧) مولى الب تكين وصهره . وكان امراء غزنة الستة عشر الذين خلفوه كلهم من سلالته. وقد وسع سبكتكين ممتلكاته بحيث ضمت بشاور في الهند واقليم خراسان في فارس هذا الاقليم الذي كان قد وليه من قبل لبني سامان .

محمود الغزنوي

وكان اعظم من ظهر في هذه الدولة محمود الغزنوي (٩٩٩ ـ ١٠٣٠) ابن سبكتكين .

---

١) ابن حوقل ص ١٣ ، ١٤ يشير اليه باسم الب تكين حاجب صاحب خراسان .
٢) مستوفي قزويني ج ١ ص ٣٩٣ = ج ٢ ص ٧٨ .

وكانت عاصمته غزنة على قمة هضبة عاليــة تشرف على سهول الهند الشمالية وتتصل بها عن طريق وادي كابل . وقد يسّر هذا الاتصال لمحمود ان يقوم بغارات متتابعة على البلاد التي تجاوره من الشرق فنظم بين سنة ١٠٠١ و١٠٣٤ ما لا يقل عن سبع عشرة حملة على الهنــد أدّت الى الاستيلاء على بلاد البنجاب وقصبتها لاهور وعلى ملتان و بعض انحاء السند (١) . وقد تثبتت بعد هذا قدم الاسلام في البنجاب . وعاد محمود من هذه الغــارات يحمل الغنائم النفيسة من هيــاكل الهندوس التي استباحها فاكتسب مكانة عظيمة غبطه عليها معاصروه وذلك لانه هدّم الاصنام وناصر الروح الاسلامية المحافظة التي لا ترضى عن البدع ولا تحتمل رؤية الصور والتماثيل المنحوتة واصبح من ابطال الاسلام الأول الذين احرزوا لقب «الغازي» (٢) وقد أطلق عليه لانه أبلى في حربه التي شنّها على الــكفار .

كذلك افلح محمود في توسيع دولته غرباً فقد اغتصب العراق العجمي وفيه الري واصبهان من بني بويه وهم من الشيعة وكانوا اذ ذاك قد ملكوا بغداد واستبدوا بشؤون الخلافة . اما محمود فبصفته سنياً فانه اعترف منــذ اول ظهوره بالسيادة الاسمية للخليفــة القــادر (٩٩١ - ١٠٣١) (٣) وقد نال منه فيما بعــد لقب يمين الدولة (٤) . واكتفى هو وخلفاؤه من بعــده بنقش لقب « امير » او « سيد » على مسكوكاتهم . وذهب بعضهم الى ان محموداً كان اول من تمتع بلقب سلطان (٥) في الاسلام ولكن الشواهد من المسكوكات تدل على ان هذا اللقب الرفيع لم يتخذه رسمياً احد قبل السلاجقة . وقد اتسعت ممتلكات محمود بحيث ضمت حين بلغت اوجها الهند الشمالية شرقاً والعراق العجمي غرباً وخراسان وطخارستان وقاعدتهــا بلخ وقسماً مما وراء النهر شمالا وسجستان جنوباً (٦) . اما عاصمته فقد جمّلها بالمباني البديعة واسس

---

١) مستوفي قزويني ج ١ ص ٣٩٥ وما يلي ؛ البيروني ، تحقيق ص ١١ ؛ M. Nāzim, *The Life and Times of Sultan Mahmud of Ghazna* (Cambridge, 1931) , pp. 86 *seq* .

٢) مستوفي قزويني ج ١ ص ٣٩٦ .

٣) انظر هلال الصابي، «تاريخ الوزراء (ملحق تجارب الامم لمسكويه ج ٣) نشر اميدروز ص ٣٤١-٥ .

٤) مستوفي قزويني ج ١ ص ٣٩٥ .

٥) ابن الاثير ج ٩ ص ٩٢ .

٦) هلال الصابي، ص ٣٤٠ ، ٣٨٦ .

فيها مدرسة عالية للعلوم وقف لها الأملاك وجعل بلاطه العامر الموئل الرئيسي للشعراء ورجال العلم . والتف حوله جماعة من الأدباء والنابغين منهم المؤرخ العربي العتبي (١) (المتوفى ١٠٣٦) والعالم المؤرخ المشهور البيروني والشاعر الفارسي اللامع الفردوسي الذي احتفي بمرور الف سنة على مولده في آسية واوربا واميركا سنة ١٩٣٤ ـ ٥ . وقد ذكر عن الفردوسي انه لما قدم ملحمته العظمى « الشاهنامة » التي تشتمل على ستين الف بيت الى الامير المذكور محمود فكافأه عليها بستين الف درهم بدلا من ستين الف دينار كما كان قد وعده هجاه ثم فر من وجهه خوفاً على حياته .

وقد كان ظهور الدولة الغزنوية اول نصر للعنصر التركي على العنصر الايراني في ميدان الزعامة في العالم الاسلامي . ومع ذلك فان الدولة الغزنوية لم تختلف كثيراً عن الدولة السامانية او الدولة الصفّارية . فقد كانت تستند الى السيف حتى اذا وهنت اليد التي كانت تحمل السيف ضعفت الدولة وتقوّض كيانها . وهذا ما جرى بالفعل بعد موت محمود اذ انفصلت الامصار الشرقية تدريجياً عن العاصمة القصية و بدأت تظهر الدويلات الاسلامية المستقلة في الهند . اما في الشمال والغرب فقد اقتسم خانات تركستان وسلاجقة فارس العظام املاك الغزنويين فيما بينهم . وتمكن غوريّو افغانستان الاشداء في بقاع المملكة الوسطى من تسديد الضربة القاضية الى الغزنويين وأبادوا سنة ١١٨٦ آخر ملك لهم في لاهور .

الحرس الامبراطوري

و بينما كان جناحا النسر العباسي يكتسحان في الشرق والغرب كان قلبه هدفاً لنبال الدخلاء من الفرس والترك . ففي ايام حكومة بني بويه الفرس الشيعيين و بعدهم حكومة السلاجقة الترك السنيين لم يكن قد بقي للخليفة سوى العاصمة ولم يكن له فيها من القوة سوى سلطة وهمية . فقد كانت هناك حركة تمرد في حرس البلاط تبعها ثورة قام بها الزط من الموالي الزنوج فأدّى هذا الى اضعاف سطوة الحكومة المركزية ومهّد السبيل للبويهيين ان يستولوا عليها .

---

١) وله كتاب يميني ـ في العربية أصلا ـ امتدح فيه مفاخر عهد محمود وقد ترجم الكتاب الى الانكليزية James Reynolds (London, 1858) .

وكان الخليفة العباسي الثامن المعتصم (٨٣٣ ـ ٤٢) ابن هارون الرشيد وامّه مولاة تركية أول من اتخذ الترك حرساً خاصاً له استقدمهم مما وراء النهر وكان عددهم يبلغ اربعة آلاف . وكان غرضه من استجلابهم اول الأمر معارضة نفوذ الجنود الخراسانية الذين كان العباسيون مدينين لهم بالخلافة. ثم اخذ سيل الترك يتدفق الى العاصمة بحيث اصبح وجوده خطراً على الخلافة نفسها وغدت مدينة السلام التي بناها المنصور مدينـة الفتن والاضطراب . ولما شعر المعتصم انهناك نقمة في بغداد على تصرف جنده قد تصل الى فتنة، نقل مقره في سنة ٨٣٦ الى عاصمة جديدة أنشأها له ولجنده اسمها سامرّا (١) على بعد ستين ميلاً الى الشمال من بغداد . ويرجع اسم هذه العاصمة الجديدة الى اصل اشوري فحرّفه العرب الى « سر من رأى » وبه عرفت كما يظهر على مسكوكات العباسيين . وقيل في ذلك الزمن ان معنى هـذه التسمية ان من رآها (وقد نزلها الترك) سر (بنجاة بغداد منهم) .

وازدانت سامرّا بالقصور والمساجد التي شيّد معظمها المعتصم وابنه المتوكل (٨٤٧ ـ ٦١) وبقيت مقراً للخلافة مدة ست وخمسين سنة (٨٣٦ ـ ٩٢) في عهود ثمانية خلفاء متعاقبين. وتعد آثارها اليوم افخر ما تحدر الينا من عصر بني العباس (٢) .

وهذه شجرة نسب للخلفاء العباسيين الذين اقاموا بسامرّا :

٨) المعتصم (٨٣٣ ـ ٤٢)

محمد ٩) الواثق (٨٤٢ ـ ٧) ١٠) المتوكل (٨٤٧ ـ ٦١)

١٢) المستعين (٨٦٢ ـ ٦) ١٤) المهتدي (٨٦٩ ـ ٧٠) ١١) المنتصر (٨٦١ ـ ٢) ١٣) المعتز (٨٦٦ ـ ٩) ١٥) المعتمد (٨٧٠ ـ ٩٢)

وكان ظهور الجند التركي في الدولة العباسية واستبداده بشؤونها شبيهاً بحركة الحرس

١) الطبري ج ٣ ص ١١٧٩ ـ ٨١ ؛ لـمودي ج ٧ ص ١١٨ وما يلي ؛ ياقوت، بلدان ج ٣ ص ١٦ ـ ١٧ .

٢ المقدسي ص ١٢٢ ـ ٣ ؛ Ernst Herzfeld , *Der Wandschmuck der Bauten von Samarra* (Berlin, 1923) .

البريطوري في رومة وجيش الانكشارية في تركية وهو يعتبر بدء عهد انحلال الخلافة وتداعي صرحها . وكان الخليفة في عاصمته الجديدة كالأسير اموره بيد حرسه . وكان قتل الحرس المتوكل في مطلع سنة ٨٦١ بتحريض ابنه (١) اول حلقة في سلسلة من الحوادث كادت تقضي على الخلافة العباسية . وكان المتوكل اول الخلفاء في دور الانحطاط وقد اصبح اكثر الخلفاء بعده رهن مشيئة الجند التركي ينصبونهم على كراسي الخلافة وينزلونهم عنها كما يشاؤون. وكان اكثر قوّاد الجند من الموالي الطامعين الى السيادة . وكان للنساء نفوذ خاص على الموالي وفي البلاط زاد في ارتباك الحال فالخليفة المستضعف المستعين (٨٦٢ ـ ٦) حاصره الحرس في سامرا واضطروه الى التنازل عن العرش ففرّ امامهم الى بغداد حيث قامت امه وهي مولاة في الاصل فقبضت على زمام الدولة بالاشتراك مع قائدين تركيين (٢) . اما ام المعتز الخليفة الذي عقبه (٨٦٦ ـ ٩) فقد ضنت على ابنها بـ ٥٠ ألف دينار يفتدي بها حياته برغم انها كانت تكتنز في دهليز تحت الارض مقدار مليون دينار فضلاً عن حلى نادرة المثال . (٣) وعمت الفوضى في القرنين التاليين بحيث لم يكن للخلفاء من السلطان سوى الاسم فترى الواحد يعتلي العرش وهو لا حول ولا صول له وينزل الى القبر غير مأسوف عليه . وفقد الأمن والسلام الا في بعض الامصار القصية التي سادها أمراء مستقلون قبضوا على زمام الامور بيد من حديد .

ثورة الزنج

وكان من افجع حوادث هذا العصر وأدماها ثورة الزنج (٤) . وكان هؤلاء الزنج قد جيء بهم أصلاً من شرقي افريقية واستخدموا لكسح السباخ في نواحي الفرات الجنوبية . وكان زعيمهم في الثورة « صاحب الزنج » داعيةً محتالا اسمه علي ابن محمد لعله عربي الأصل . فاغتنم الفرصة حين كانت الاحوال مُضطربة في العاصمة والعمال مستائين يتذمرون والشكوى عامة فادعى انه علوي أرسل لخلاصهم بالنبوءة والعلم الروحاني وكان ذلك في ايلول سنة ٨٦٩ .

---

١) الطبري ج ٣ ص ١٤٥٢ ـ ٦٥ ؛ اختصره ابن الأثير ج ٧ ص ٦٠ ـ ٦٤ .
٢) الطبري ج ٣ ص ١٥١٢ ـ ١٣ ؛ نقله ابن الأثير ج ٧ ص ٨٠ ـ ٨١ .
٣) الطبري ج ٣ ص ١٧١٨ ـ ١٩ .
٤) من لفظة «زنك» الفارسية ومعناها «الحبشة» ومنها «زنكبار» التي حرفت الى «زنجبار» العربية .

ودعا الناس الى طاعته فاستجاب الدعوة زمر كثيرة من العبيد التفت حوله. ويزعم الطبري (١) وهو اهم مصدر لدينا عن هذه الثورة ان الخليفة انفذ العساكر لتأديب « عدو الله » « الخبيث » كما يسميه فاستعصم في منطقة كثيرة المستنقعات والاقنية ملائمة لحركاته الحربية وتمكن ورجاله الزنج من رد جند الخليفة على أعقابهم . بل ان الزنج جرياً على مبادىء الخوارج التي اعتنقها زعيمهم ضربوا أعناق الأسرى وغير المحاربين بحد السيف (٢) . وظلت نيران هذه الحرب ملتظية طيلة اربع عشرة سنة (٨٧٠ ـ ٨٨٣) وذلك في عهد الخليفة المعتمد (٨٧٠ ـ ٩٢). وتختلف المصادر في عدد القتلى ومنها ما يجعلهم نصف مليون واكثر . وحدث بعد احدى المعارك الحامية ان بقي من رؤوس القتلى المسلمين التي لم يأت لها طالب عدد كبير فألقاها الزنج في قناة فوافت البصرة فجعل الناس يأتون تلك الرؤوس فيأخذ رأس كل رجل اولياؤه (٣) . وعمّ الخراب البصرة وواسط والاهواز والابلّة ولم تقمع الثورة الا عندما قام الموفق اخو الخليفة فأبلى بلاء حسناً وانزل العقاب بالخارجين . وفي سنة ٨٨٣ قتل صاحب الزنج وسقطت « المختارة » القلعة التي ابتناها و بذلك اخمدت نار ثورة عظيمة لم يعرف في تاريخ آسية الغربية ثورة افظع واشد بلية منها (٤) . وكان في اثنائها ان انفصلت مصر على يد ابن طولون عن صلب الخلافة .

امير الامراء يصل الى الحكم

وعاد مقرّ الخلافة الى بغداد في زمن المعتضد (٨٩٢ ـ ٩٠٢) فأصبحت هي العاصمة بعد ان نابت عنها سامرّا في ذلك مدة تزيد عن نصف قرن . و بهذا تغير مشهد الحوادث التي كانت تمثل ولكن مجراها لم يتغير قط . فقد ظلت مقاليد الحكم بيد الجيش . وفي هذه الحقبة ظهر عبد الله ابن المعتز فنازع المقتدر الخلافة (وكان من ابناء عمومته) وتسلم مقاليدها واتخذ

---

١) ج ٣ ص ١٧٨٥ ، ١٧٨٦ .

٢) المسعودي ج ٨ ص ٣١ ، ٥٨ ـ ٦١ .

٣) الطبري ج ٣ ص ١٧٨٥ ـ ٦ .

٤) Nöldeke , *Sketches from Eastern History* , tr. J. S. Black (London , 1892), p . 174 .

لقب المرتضي ولكنه لم يبق في كرسي الخلافة سوى يوم واحد (١٧ كانون الاول ٩٠٨) خلع بعده واغتيل. وقد كان هذا الخليفة اميل الى الشعر والادب منه الى السياسة. على ان مصنفاته الكثيرة التي ذكرها الفهرست (١) وابن خلكان (٢) لم يصل الينا منها الا القليل.

اما خلافة المقتدر التي دامت اربعاً وعشرين سنة (٩٠٨ - ٣٢) فقد شاهدت ثلاثة عشر وزيراً يرتقون منصة الحكم ثم يسقطون ومنهم من مات قتلاً (٣). وقد زاد في الفوضى وارتباك الحال ان ام الخليفة التركية كانت تتدخل دائماً في شؤون الدولة. وكان من هؤلاء الوزراء الذين وزروا للمقتدر ابن مقلة الكاتب احد واضعي فن الخط العربي (٤). ومنهم علي ابن عيسى الذي تفرّد بصفات المقدرة والنزاهة في ذلك العصر الكثير الفساد والظلم (٥). وقد تقلد عليّ الوزارة مرتين مدة خمس سنوات فاستطاع بما اوتيه من دربة اقتصادية وحنكة في امور المال ان يصلح شؤون الدولة وان يكون مثالاً نادراً في الاقتصاد والتدقيق والكفاءة. وفي عهد المقتدر ظهر عبيد الله الفاطمي (٩٠٩) في شمالي افريقية وعبد الرحمان الثالث الاموي (٩٢٩) في اسبانية واعلن كل منهما خلافته وحقه فيها وفي شعارها والقابها بحيث شاهد العالم الاسلامي في تلك الحقبة ثلاثة خلفاء رسميين في وقت واحد. غير ان المقتدر كان عاجزاً فأسند شؤون الدولة الى الخصيّ مؤنس المظفّر (٦) رئيس حرسه وخصّه بلقب أمير الامراء. ولم يلبث مؤنس طويلاً حتى استبد في الامور وخلع المقتدر وبايع أخاه القاهر (٧). ثم عاد المقتدر الى العرش ولكن قوماً من العساكر المغاربة والبربر قتلوه وحملوا رأسه الى مؤنس (٨). ولم يكن حظ القاهر (٩٣٢ - ٤) باحسن من حظ اخيه فقد خلع ثانية وسملت عيناه فصار اعمى

---

١) ص ١١٦.
٢) ج ١ ص ٤٦٢.
٣) الفخري ص ٣٦٠ وما يلي.
٤) مسكويه ج ١ ص ١٨٥ وما يلي؛ الصابئ، «الوزراء»، نشر امبدروز ص ١٠٩، ٣٢٦، ٣٥٩ - ٦٠.
٥) انظر Harold Bowen, *The Life and Times of Ali Ibn Isà, « the Good Vizier »* (Cambridge, 1928).
٦) مسكويه ج ١ ص ٧٦؛ الطبري ج ٣ ص ٢١٩٩.
٧) مسكويه ج ١ ص ١٩٣؛ ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٧ - ٨.
٨) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٩.

وآخر ما عرف عنه انه كان يستعطي (١) في شوارع بغداد وهو ملتف بكساء قطني وفي رجله قبقاب خشب . وقد لحق اثنين من خلفائه هما المتقي (٩٤٠ ـ ٤٤) والمستكفي (٩٤٤ ـ ٦) ما لحقه من سمل العينين وكان ذلك بايعاز من امير الامراء (٢) . ومن هنا صار لبغداد ان تشاهد ثلاثة ممن وصلوا الى اعلى منصب في الدولة ـ منصب الخلافة ـ قد خلعوا وسملت عيونهم واصبحوا في وقت واحد في احط دركات الحاجة يعيشون عالة على اهل الجود والاحسان . و بلغ الامر بابن رايق امير الامراء في عهد الراضي (٩٣٤ ـ ٤٠) ان خطب له مع الخليفة على جميع المنابر وهو امر لم يعرف في تاريخ الاسلام من قبل (٣) . وقد كان الراضي من الخلفاء القلائل في هذه الحقبة الذين نجوا من الخلع ولكنه مع ذلك لم ينج من الموت قتلاً بايدي الجند . وكان الراضي في نظر مؤرخي العرب خاتمة الخلفاء الحقيقيين بمعنى انه آخر الذين استكملوا مزايا الملك من القاء الخطبة يوم الجمعة والدعوة له من على المنابر وآخر من وصل العلماء وآخر من كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين (٤) . وهو فوق ذلك آخر خليفة دوّن له شعر . و بموته ضاع آخر ما تبقى للخلافة من مهابة وسلطان واصبح امير الامراء هو الذي يتولى امور الدولة الاسلامية (٥) .

٥ . دولة بني بويه

وفي كانون الاول سنة ٩٤٥ طرأ على الخلافة ما هو أشد وادهى وذلك حين استقبل

---

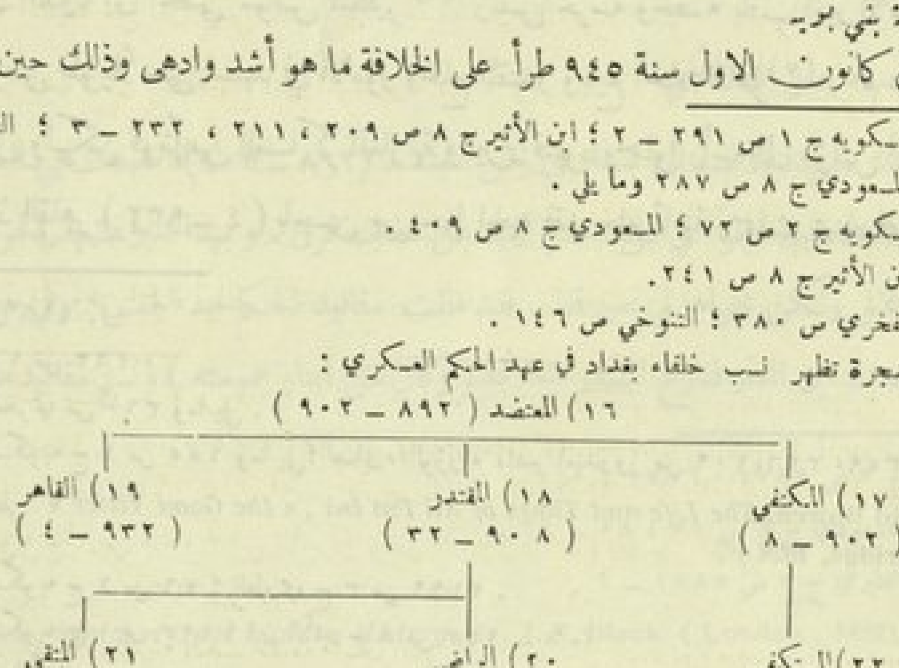
١) مسكويه ج ١ ص ٢٩١ ـ ٢ ؛ ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٣٢ ـ ٣ ؛ الفخري ص ٣٧٥ ؛ المسعودي ج ٨ ص ٢٨٧ وما يلي .

٢) مسكويه ج ٢ ص ٧٢ ؛ المسعودي ج ٨ ص ٤٠٩ .

٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤١ .

٤) الفخري ص ٣٨٠ ؛ التنوخي ص ١٤٦ .

٥) شجرة تظهر نسب خلفاء بغداد في عهد الحكم العسكري :



الخليفة المستكفي (٩٤٤ ـ ٦) في بغداد احمد ابن بويه الظافر وجعله امير الامراء وانعم عليه بلقب معزّ الدولة. وكان والد احمد واسمه ابو شجاع بويه يدّعي الانتساب الى ملوك آل ساسان القدماء، ولعل ذلك من قبيل السعي لتوطيد اركان دولته (١) . فقد كان زعيم قبيلة تنزع للحرب اكثر رجالها جبليون من الديلم في المنطقة الجبلية الواقعة على الساحل الجنوبي من بحر قزوين وكانوا في خدمة آل سامان . واخذ ابناء ابي شجاع الثلاثة وفيهم احمد يتوغلون جنوباً فاحتاوا اصبهان فشيراز وولاياتها (٩٣٤) وفي السنتين التاليتين بلغوا الأهواز (خوزستان اليوم) وكرمان واتخذوا شيراز عاصمة لدولتهم الناشئة . وزحف احمد على بغداد (٩٤٥) فانهزم الحرس التركي من أمامه واصبح الخليفة تحت نفوذ أسياد جدد من الشيعة الفرس لم يكن حظه معهم باحسن من حظه مع الترك . ومع ان معز الدولة لم يكن الا امير الامراء فقد أصرّ على اضافة اسمه الى اسم الخليفة في الخطبة وبلغ به الأمر ان ضرب اسمه على المسكوكات (٢) .

وفي كانون الثاني من سنة ٩٤٦ أمر معز الدولة بسمل عيني الخليفة وخلعه وبايع المطيع (٩٤٦ ـ ٧٤) خليفة جديداً . واقيمت شعائر الشيعة واخصها اعلان المناحة في عاشوراء حداداً على مقتل الحسين (في العاشر من محرّم) والاحتفال البهيج بعيد الغدير تذكاراً لما تذهب اليه الشيعة من ان النبي اختار علياً خليفة له عند غدير الخم (٣) . واصبحت الخلافة في احطّ دركات الذل اذ أصبح امير المؤمنين ألعوبة في يد امير الأمراء غير السنّي . وذهب البعض الى ان بني بويه كانوا اول من اتخذ لقب سلطان في الاسلام والواقع انهم اكتفوا كما تدل النقود التي ضربوها بلقب أمير او ملك يضيفونه الى اسماء فخرية كمعزّ الدولة وعماد الدولة وركن الدولة وهي اسماء أطلقها الخليفة على ابناء بويه الثلاثة في وقت واحد . واخذ يعم

---

١) قابل ابن خلكان ج ١ ص ٩٨ ؛ الفخري ص ٣٧٦ ؛ ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٧ ؛ مستوفي قزويني ج ١ ص ٤١٣ ـ ١٤ ؛ Friedrich Wilken, *Mirchond's Geschichte der Sultane aus dem Geschlechte Bujeh* (Berlin, 1835), p. 13 (النص الفارسي) p. 58 (tr.).

٢) مسكويه ج ٢ ص ١٥٨ ؛ ابن الأثير ج ٨ ص ٣٣٧ ؛ Wilken, p. 21 (text),p. 66 (tr.) ؛ قابل مسكويه ج ٢ ض ٣٩٦ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٩ .

٣) غدير بين مكة والمدينة تذهب الشيعة الى ان النبي قال عنده: من كنت مولاه فعلي مولاه. ابن سعد ج ٥ ص ٢٣٠ ؛ المسعودي ، التنبيه ص ٢٥٥ ـ ٦ . وتذكاراً لهذا القول يحتفل الشيعة في ١٨ ذي الحجة .

استعمال هذه الألقاب الفضفاضة بعدهم . وقد اتخذ عدد من البويهيين الذين خلفوا معز الدولة لقب امير الامراء مع ان هذا اللقب كان قد فقد معناه الحقيقي .

ودرج بنو بويه طيلة القرن (٩٤٥ - ١٠٥٥) الذي سادوا فيه على طريق مبايعة الخلفاء واسقاطهم متى شاءوا وكيف شاءوا . وحكموا العراق من عاصمتهم شيراز في فارس . ومع انه كان لهم ببغداد عدد من القصور الفخمة تعرف مجموعتها باسم دار المملكة (١) فان بغداد نفسها فقدت شأنها الماضي ولم تعد قلب العالم الاسلامي كما كانت قبلاً . وقد اخذت تشاطرها العظمة وتنافسها في ميدان الشهرة العالمية مدن اخرى منها غزنة والقاهرة وقرطبة فضلاً عن شيراز التي ذكرنا .

عضد الدولة

وبلغ عز بني بويه أوجه في زمن عضد الدولة (٩٤٩ - ٨٣) ابن ركن الدولة . ولم يكن عضد الدولة هذا أعظم امراء بني بويه فحسب بل كان ألمع امراء عصره على الاطلاق . فقد وحّد سنة ٩٧٧ الدويلات الصغيرة التي كانت قد ظهرت في فارس والعراق في ظل البويهيين فأنشأ امبراطورية قاربت في اتساعها ما كان لهارون الرشيد . وتزوج من ابنة الخليفة الطائع وزوّج الخليفة من بنته (٩٨٠) وهو يأمل بذلك ان تؤول الخلافة الى احد ذريته (٢) . وكان عضد الدولة اول حاكم في الاسلام لقب بشاهنشاه (٣) . ومع انه اقام في بلاطه بشيراز فقد سعى الى تجميل بغداد فأصلح الاقنية التي كانت قد سدت وابتنى في بغداد وغيرها كما روى خازنه (٤) مسكويه (٥) المؤرخ القدير عدداً من المساجد والمستشفيات وغيرها من الابنية العامة . وقد خصص عضد الدولة الاموال من خزانة الدولة لتنفق على مشاريعه

---

١) الخطيب ج ١ ص ١٠٥ — ٧ .
٢) مسكويه ج ٢ ص ٤١٤ ؛ ياقوت ، ادباء ج ٦ ص ٢٦٦ .
٣) مختصر شاهانشاه الفارسية ومعناها « ملك الملوك » اتباعاً للقب الملكي الايراني القديم . اما « ملك الملوك » في العربية فلعل بهاء الدولة ابن عضد الدولة كان اول من اتخذه لقباً ولقد راق بنوع خاص للملوك الدويلات المتأخرة التركية الأصل .
٤) القفطي ص ٣٣١ .
٥) ج ٢ ص ٤٠٤ — ٨ وانظر ابن الأثير ج ٩ ص ١٦ .

الخيرية ، وكان من ابنيته الرائعة التي شادها مشهد علي . الا ان اعظم مبانيـه البيمارستان البغدادي المعروف بالعضدي الذي انجزه سنة ٩٧٨ ـ ٩ ووقف له مبلغ مئة الف دينار . وكان يشرف على الطبابة فيه اربعة وعشرون من الاطباء تولوا ايضاً تدريس الطب للطلبـة (١) . وتغنى الشعراء ومنهم المتنبي بمناقب عضد الدولة وعظمته وقدّم له العلماء مؤلفاتهم (٢) ومنهم النحوي ابو علي الفارسي فقد قدم له « كتاب الايضاح » . وقد كان لعضد الدولة من وزيره المسيحي النصر ابن هارون خير معين في شتى مشاريعه وقد استطاع نصر بموافقة الخليفـة ان يبني او يرمم عدداً من الكنائس والاديرة (٣) .

واصبح المنهج الذي استنّه عضد الدولة في رعاية العلم والأدب منهجاً لابنه شرف الدولة (٤) (٩٨٣ ـ ٨٩) سلكه من بعده . وقد اقتدى شرف الدولة ايضاً بالمأمون فانشأ قبل وفاته بسنة مرصداً مشهوراً . وكان لعضد الدولة ابن آخر هو خلفه الثاني بهاء الدولة (٥) (٩٨٩ ـ ١٠١٢) وهو الذي خلع الخليفـة الطائع سنة ٩٩١ طمعاً بماله (٦) . وكان لبهاء الدولة وزير فارسي فطن هو سابور ابن اردشير ابتنى سنة ٩٩٣ مدرسة في بغـداد وجعل لها خزانة كتب فيها عشرة آلاف كتاب (٧) واليها كان يتردد المعري ايام كان ببغداد . ولنذكر ايضاً ان « اخوان الصفاء » انما ازدهرت جمعيتهم في ظل بني بويه ولـكن هذه الدولة كانت تتداعى بسبب الحروب الدائرة بين بهاء الدولة وشرف الدولة واخيهما الثـالث صمصام الدولة (٨) . وكانت هذه الخصومات العائلية التي استمرت في عهود خلفائهم ونزعاتهم الشيعية التي كان يستنكرها أهل السنة في بغداد داعياً الى سقوط دولتهم . وفي سنة ١٠٥٥ دخل طُغرل بك

---

١) ابن أبي اصيبعة ج ١ ص ٣١٠ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ؛ القفطي ص ٢٣٥ ـ ٦ ، ٣٣٧ ـ ٤٣٨،٧ .
٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٩ .
٣) مسكويه ج ٢ ص ٤٠٨ .
٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦ ـ ١٧ ؛ الروذراوري ، ذيل (ملحق تجارب مسكويه ج ٣ اميدروز ص ١٣٦ وما يلي .
٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٢ وما يلي ، الروذراوري ص ١٥٣ وما يلي .
٦) ابن الأثير ج ٩ ص ٥٥ .
٧) ابن الأثير ج ٩ ص ٧١ ، ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٦ .
٨) ابن الأثير ج ٩ ص ١٦ ـ ١٩ ، ٣٢ ـ ٥ ، الروذراوري ص ١٨٤ ، ٢٦٠ .

السلجوقي بغداد وقضى على سيادة بني بويه وكان آخر امرائهم في العراق الملك الرحيم (١٠٤٨ ـ ٥٥) وقد قضى سجيناً .

وفيما يلي شجرة نسب للخلفاء العباسيين في عهد السيادة البويهية (٩٤٥ ـ ١٠٥٥) :

١٦) المعتضد

١٧) المكتفي — ١٨) المقتدر — ١٩) القاهر

٢٢) المستكفي (٩٤٤ ـ ٦) — ٢٠) الراضي — ٢١) المتقي — ٢٣) المطيع (٩٤٦ ـ ٧٤)

٢٤) الطائع (٩٧٤ ـ ٩١)

٢٥) القادر (٩٩١ ـ ١٠٣١)

٢٦) القائم (١٠٣١ ـ ٧٥)

٦ ٠ السلاجقة

و بقيام السلاجقة الترك بزغ عصر جديد هام في تاريخ الخلافة والاسلام . ولما ظهروا من الشرق في مطلع القرن الحادي عشر كان الخليفة لا يتمتع بشيء من سلطة الخلافة الحقيقية وكانت امبراطوريته قد تمزقت ارباً اربا . فالامويون قد استتب امرهم في اسبانية وكذلك الفاطميون الشيعيون في مصر وشمالي افريقية ولم يعد لبغداد الى القضاء على شوكة هؤلاء جميعاً من سبيل . اما شمالي سورية والجزيرة العراقية فقد رأينا كيف آل امرهما الى ايدي زعماء من الثائرين العرب نجح بعضهم في تأسيس دولة قوية . ثم ان فارس وما وراء النهر والاراضي الواقعة في الشرق والجنوب قد تقاسمها بنو بويه وامراء غزنة او امتلكها حكام مختلفون يترقب كل منهم الفرصة للفتك بمنافسه ، حتى عمت الفوضى السياسية والعسكرية جميع الانحاء . وتفاقم الخطب بين الشيعة والسنة بحيث خيل للناظر ان دولة الاسلام في طور

النزع الاخير .

تلك كانت حال دولة الاسلام حين ظهر سنة ٩٥٦ زعيم يدعى سلجوق على رأس قبيلته « غزّ » او « اغزّ » التركمانية . وكان قومه هؤلاء الرّحل قد تحدروا من سهول كرغيز في تركستان فاستقروا في شقة من بخارى واعتنقوا المذهب السنّي ونصروه بغيرة وحماسة . وشق سلجوق طريقه في مناطق خانات الايلك ومناطق السامانيين (١) وعزم هو وابناؤه بعده فاستولوا عليها ونشط حفيده المعروف بـ طغرل (٢) فشنّ غارةهو واخوه بلغا فيها حتى خراسان . وفي سنة ١٠٣٧ انتزع الاخوان مرو ونيسابور من ايدي الغزنويين ثم استوليا على بلخ وجرجان وطبارستان وخوارزم وهمذان والري واصبهان . وتداعى صرح بني بويه امام بأسهما فما وافى اليوم الثامن عشر من كانون الاول سنة ١٠٥٥ حتى وقفت قبائل التركمان بقيادة طغرل بك على ابواب بغداد . واضطر البساسيري القائد التركي الذي امّره بنو بويه على بغداد الى مبارحة العاصمة (٣) واسرع الخليفة القائم (١٠٣١ ـ ٧٥) الى استقبال الغازي السلجوقي ونادى به منقذاً .

ولاية طغرل

وغاب طغرل سنة عن بغداد ثم عاد اليها فقوبل بحفاوة فائقة . وطلب مقابلة الخليفة فاذن له في ذلك وجلس الخليفة جلوساً عاماً وهو على سرير عال وعليه بردة النبي وبيده القضيب الخيزران وأجلس طغرل على كرسي وكلّمه الخليفة بواسطة ترجمان وولاّه جميع ماولاه الله من بلاده « وخاطبه بملك المشرق والمغرب » (٤) . اما لقبه الرسمي الذي صار يعرف به

---

١) مستوفي قزويني ص ٤٣٤ ـ ٤٦ ؛ Joannes A. Vullers, *Mirchondi historia Seldschukidarum* (Giessen, 1837), pp. i *seq.*

٢) كان اسم ابيه ميكائيل واسم اخيه داود وعمه موسى . ابن الأثير ج ٩ ص ٣٢٢ وتم هذه الأسماء التي كانت شائعة عند السلاجقة الاول عن تأثير النصرانية (النسطورية في الراجح). انظر القزويني ، آثار ص ٣٩٤ .

٣) ابن خلكان ج ١ ص ١٠٧ ــ ٨ ، ابن تغري بردي ، نشر بير ج ٢ قسم ٢ ص ٢٢٥ .

٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٣٦ ، ابن تغري بردي ج ٢ قسم ٢ ص ٢٣٣ ، عماد الدين الاصفهاني ، تواريخ آل سلجوق ، نشر هوتسما (ليدن ، ١٨٩٩) ص ١٤ .

فهو « السلطان » (١) وكان هذا بداية عصر جديد دخلت فيه الخلافة في حماية دولة جديدة كانت اكثر عطفاً ورفقاً من سابقاتها .

وبينما كان طغرل يقوم بغارة في الشمال ظهر البساسيري سنة ١٠٥٨ على ابواب بغداد وكان قد التحق بالفاطميين واخذ يساعد على نشر دعوتهم . وقد اقبل معه قوم من الديلم وعساكر اخرى فاحتل العاصمة وحمل الخليفة القائم على توقيع وثيقة يتنازل فيها عن حقوقه وحقوق سواه من العباسيين ويبايع فيها منافسه الفاطمي المستنصر (١٠٣٥ـ ٩٤) في القاهرة. وارسل القائم فوق ذلك الى المستنصر شعار الخلافة ومنه البردة والذخائر النبوية وعمامته الخاصة وشباكاً جميلاً من شبابيك قصره . ولكن طغرل بيك لم يلبث طويلاً حتى عادفأرجع القائم الى منصبه وانزل بالبساسيري العقاب فقتله لخيانته (١٠٦٠) وحل نظام جيش الديلم وقضى على سلطان بني بويه .

وكان عهد طغرل بيك (١٠٣٧ ـ ٦٣) وابن اخيه الب ارسلان من بعده (١٠٦٣ ـ ٧٢) وملكشاه ابن الب ارسلان بعدهما (١٠٧٢ ـ ٩٢) من المع الحقب في تاريخ السيادة السلجوقية على الشرق الاسلامي . وقد عظم جيشهم بما انضم اليه من قبائل الترك النشيطة فوسّع السلاجقة ملكهم في جميع النواحي حتى غدت آسية الغربية مرة ثانية مملكة اسلامية موحدة واخذ جيش الاسلام يسترجع ماضي مجده . ان عنصراً جديداً قد دخل في الاسلام الآن فأخذ يشد أزره ويقوّيه في النزاع في سبيل السيادة العالمية. وان خبر هؤلاء السلاجقة الذين كانوا « كفاراً » فقهروا المؤمنين من ملة محمد ثم اعتنقوا الاسلام فانقلبوا حماته الغُيُر ليس فريداً في تاريخ الاسلام . فقد نهج نهجهم اقوام آخرون منهم المغول ابناء عمومتهم في القرن الثالث عشر وانسباؤهم الترك العثمانيون في مطلع القرن الرابع عشر وهكذا فقد كان يقيض للاسلام حين يمر في أشد الازمات والمحن في حياته السياسية من يدخل في حظيرته ويكسبه قوة ونصراً من الناحية الدينية .

---

١) الراوندي، راحة الصدور، بنشر محمد اقبال (لندن ، ١٩٢١) ص ١٠٥ وكان طغرل اول حاكم مسلم حملت مسكوكاته هذا اللقب . انظر Stanley Lane-Poole, *Catalogue of Oriental Coins in the British Museum*, ed. R. S. Poole, vol. iii (London, 1877), pp. 28-9. ولقد اصبح لقب سلطان عند السلاجقة نعتاً لاصقاً باسماء ملوكهم .

الب ارسلان

سار الب ارسلان (البطل الاسد) في السنة الثانية من ملكه فاستولى على آني عاصمة ارمينية النصرانية وهي اذ ذاك مقاطعة بيزنطية (١) ثم واصل بعد ذلك المناوشات مع بيزنطة العدو الدائم . وفي سنة ١٠٧١ فاز على الروم في معركة مازكرت (٢) الفاصلة شمالي بحيرة وان بارمينية واخذ الامبراطور رومانوس ديوغنس أسيراً (٣) . واخذت قبائل السلاجقة الرحل تستقر في هضاب آسية الصغرى التي أصبحت منذ ذلك العهد جزءاً من دار الاسلام . وكان هؤلاء السلاجقة المسلمين الأول الذين استطاعوا ان يثبتوا اقدامهم في بلاد الروم. كما انهم كانوا واضعي الاساس لتتريك آسية الصغرى. وعهد فيما بعد لسليمان ابن قطلمش ابن عم الب ارسلان أمر ادارة هذه المنطقة الجديدة فأسس فيها سنة ١٠٧٧ سلطنة سلاجقة الروم ، وجعل نيقية (ازنيق في التركية) عاصمتها الاولى . وهي نفسها التي اخرج الصليبيون منها قلج ارسلان ابن سليمان وخلفه في الحملة الصليبية الاولى . وبعد سنة ١٠٨٤ أصبحت قونية وهي اغنى مدن البيزنطيين في آسية الصغرى واجملها عاصمة السلاجقة في تلك البلاد . وفي الوقت نفسه كانت دولة السلاجقة في سورية (١٠٩٤ - ١١١٧) التي أسسها تُتُش ابن الب سنة ١٠٩٤ تساهم بدورها مع غيرها من دول الاسلام في صد حملة الصليبيين الأولى . وكانت حلب قد وقعت في يد الب ارسلان (٤) منذ سنة ١٠٧٠ فجعلها حاجزاً منيعاً في وجه الفاطميين واستطاع ان يسترجع من هؤلاء مكة والمدينة .

سلطة السلاجقة في ذروتها

لم يُقم في بغداد أحد من السلطانين الاولين من سلاطين السلاجقة بل وليا عليها مدبراً عسكرياً يحكمها بالنيابة عنهما . اما الب ارسلان فلم يدخل بغداد ولم يرها قط (٥) . بل جعل أصبهان مقراً له وقد كانت مرو عاصمة سلفه . ولم ينقل السلاجقة مقرهم الى عاصمة الخلفاء

---

١) ابن الاثير ج ١٠ ص ٢٥ وما يلي .

٢) وتذكر ايضاً باسم ملازكرد او ملاسجرد .

٣) ابن الاثير ج ١٠ ص ٤٤ وما يلي ، عماد الدين ص ٣٨ وما يلي ؛ Vasiliev, *Byzantine Empire*, vol. 1, p.431 .

٤) ابن الاثير ج ١٠ ص ٤٣ - ٤٤ .

٥) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٣ .

حتى شتاء ١٠٩١ أي قبيل انقضاء عهد ملكشاه . وظل الخليفة كما كان قبلاً العوبة في يد السلطان يفعل به ما يشاء ـ العوبة مشمولة بأبهة المنصب السامي تجلسها على العرش أيدٍ أعجمية فتنعم بعظمة مصطنعة . وكان اسم السلطان يقرن باسم الخليفة على المنابر في خطبة الجمعة . وفي سنة ١٠٨٧ اقترن الخليفة المقتدي (١٠٧٥ ـ ٩٤) بابنة السلطان ملكشاه ورزق منها ولداً فأراد السلطان ان يجعل الخلافة والسلطنة معاً في حفيده هذا فلم يوفق (١) .

وفي عهد ملكشاه (١٠٧٢ ـ ٩٢) استقرت قواعد الملك للسلاجقة واتسعت انحاء المملكة بحيث امتدت من كاشغر شرقاً وهي مدينة في اقصى بلاد الترك الى بيت المقدس غرباً ومن القسطنطينية شمالا الى بلاد الخزر جنوباً (٢) وعبر ملكشاه نهر جيحون مرة فوقع للملاحين الذين نقلوه حوالات مالية على عامل مملكته بانطاكية (٣) . ولكنّ لملكشاه شأناً يفوق شأنه كحاكم امبراطورية واسعة ذلك انه ابتنى الطرق والجوامع واصلح الاسوار وحفر الاقنية وانفق الاموال الطائلة على محطات القوافل في المفاوز وعلى الرباطات وصنع بطريق مكة مصانع وغرم عليها اموالا كثيرة وابطل المكوس والخفارات في جميع البلدان . ويذهب ابن خلكان الى ان السبل في ايامه كانت ساكنة والمخاوف آمنة تسير القوافل مما وراء النهر الى اقصى الشام وليس معها خفير ويسافر الواحد والاثنان من غير خوف ولا رهب (٤) . اما العناية بالصحة العامة والنظافة ببغداد مما ينسبه ابن الاثير (٥) الى الخليفة المتقي فالراجح انها تمت بامر هذا السلطان السلجوقي . ومن مظاهر هذه العناية منعه ارباب الحمامات من اجراء مائها الى دجلة والزامهم بحفر آبار خاصة للمياه القذرة وامره من يغسل السمك ان يعبر الى مكان خاص فيغسله هناك. وهناك حكاية اوردها ابن خلكان (٦) تظهر خلق ملكشاه قال : « توجه ملكشاه لحرب أخيه ودخل مع نظام الملك وزيره مسجداً في طوس فصليا وأطالا الدعاء ثم خرجا فقال لنظام الملك : بأي شيء دعوت ؟ قال : دعوت الله ان ينصرك ويظفرك باخيك . فقال ملكشاه : اما انا فلم أدع بهذا بل قلت اللهم انصر اصلحنا للمسلمين وانفعنا للرعية » .

---

١) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٨٩ ـ ٩٠ . ٢) المصدر نفسه ص ٥٨٧ . ٣) المصدر نفسه ص ٥٨٩ .
٤) المصدر نفسه ص ٥٨٧ . ٥) ج ١٠ ص ١٥٦ . ٦) ج ٢ ص ٥٨٨ .

نظام الملك الوزير الالمعي

كانت دفة الامور طيلة حكم ألب ارسلان وملكشاه بيد وزيرهما الفارسي الالمعي نظام الملك وهو من نوابغ رجال السياسة في تاريخ الاسلام . واذا صدقنا كلام ابن خلكان فقد «صار الامر كله لنظام الملك وليس للسلطان الا التخت والصيد واقام على هذا عشرين سنة» (١)

ومع ان ملكشاه كان غير متعلم ولعله كان امياً كابيه وخاله الاعلى فانه عملاً بمشورة نظام الملك ، قد جمع في سنة ١٠٧٤ - ٥ جماعة من اعيان الفلكيين في مرصده الجديد الذي بناه وامرهم باصلاح تقويم السنة الفارسية (٢) فوضعوا اصول التاريخ الجلالي المشهور الذي سمي بالجلالي اكراماً لملكشاه جلال الدين ابي الفتح. وهذا التقويم في عرف احد الثقات العصريين « ادق في بعض الوجوه من التقويم الذي نتبعه » .

اما نظام الملك فقد كان مثقفاً عالماً (٣) ولدينا من آثاره رسالة فريدة في باب اصول الحكم « سياسة نامة » (٤) الفها على اثر مناظرة علمية امر بها ملكشاه . فقد طلب السلطان من رجال الحكم من اهل خاصته كتباً يضعونها حاوية آراءهم في كيف تكون الحكومة العادلة . ومن جملة الكتب الفارسية الموضوعة في هذه الحقبة تلك التي الفها ناصر خسرو (المتوفى نحو ١٠٧٤) الرحالة الشهير والداعية الاسماعيلي . وكتب عمر الخيام (المتوفى ١١٢٣ - ٤) الشاعر الفلكي الكبير الذي شمله نظام الملك برعايته وساهم مع نظام الملك في اصلاح التقويم المشار اليه آنفاً . ولكن المجد الذي ناله هذا الوزير الفارسي راجع بالأكثر لتأسيسه اول دور علم عالية في الاسلام واخصها « النظامية » التي أسسها في ١٠٦٥ - ٧ ببغداد وتولى التدريس فيها حجة الاسلام الغزالي ردحاً من الزمن .

تجزؤ مملكة السلاجقة:

كان نظام الملك في آخر عمره الطويل كما علمنا قبلاً من الضحايا المشهورين الأول الذين قضوا بيد الحشاشين . وبموته سنة ١٠٩٢ انتهت حقبة المجد التي امتازت بها عهود السلاجقة

---

١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٥٥ .

٢) ابن الاثير ج ١٠ ص ٦٧ - ٨ ولسنا نعلم مكان المرصد بالضبط ولعله كان اما في اصبهان او في الري او نيسابور .

٣) ابن الاثير ج ١٠ ص ١٠٤ ؛ عماد الدين ، تواريخ ص ٣٠ .

٤) نشر شارلز شيفر وترجمه. Charles Schefer (Paris ,1891), tr. Schefer (Paris,1893)

الثلاثة الأول . فقد كان ملكهم على قصره ملكاً رائعاً دانت فيه لهم اكثر الانحاء المتباعدة التي كانت جزءاً من الدولة الاسلامية في عهودها الزاهرة . ولكن هذا المجد الذي شاهدته بغداد والاسلام معاً في عصرهم لم يكن الا سحابة صيف . فبعد وفاة ملكشاه نشبت حروب اهلية بين أبنائه وقعت على اثرهـا قلاقل واضطرابات أثقلت كاهل السلاجقة وأدّت الى تحطيم ملكهم . فامبراطورية السلاجقة وقد اقامها على اساس النظام القبلي قوم بداة رحّل في عاداتهم وانظمتهم لم يكن ممكناً ضبطها الا اذا ظل على رأسها شخصيـة مسيطرة نافذة الأمر . وان نظام الاقطاعيات الحربية الذي استنّه نظام الملك سنة ١٠٨٧ فجعل الاقطاعيات بموجبه وراثية أدّى حالا الى نشوء دويلات تتمتع فعلا بالاستقلال وان تكن السيادة الاسمية ظلت لسلاجقة فارس حتى سنة ١١٥٧ . ومن أهم الفروع التي تشعّبت عن دوحة السلاجقة تلك الأسرة التي حكمت العراق العجمي (١١١٧ ـ ١١٩٤) . اما سلاجقة الروم في ايقونية فقد احتل مكانهم في سنة ١٣٠٠ وما بعدها قوم آخرون من قبيلة الغز نفسها التي ينتمي اليها السلاجقة يعرفون بالترك العثمانيين وهم آخر حماة الدولة الاسلامية . وقـد توغل العثمانيون في اوربا حتى فينا (١٥٢٩) وشيدوا امبراطورية تقارب امبراطورية العرب اتساعاً الا ان امرهم انحصر منذ آخر الحرب العالمية الاولى ضمن نطاق آسية الصغرى او الاناضول .

والناحية الوحيدة التي ترك فيها السلاجقة والترك العثمانيون اثراً في حياة الاسلام الدينيـة تنحصر في دائرة الصوفية كما تظهر في طرق الدراويش المزدهرة في بلاد الترك فعند اهـل هذه الطرق آراء تمثل الشامانية القديمة مختلطة ببعض معتقدات آسية الصغرى الاصلية وتعاليم بعض البدع النصرانية . اما نظام « الفتوة » الذي كان منفذاً لروح البطولة العربية في الاسلام فقـد ظهر عند الترك بشكل جديد يعرف بنظام « الاخيّة » . ولعل « الاخيّة » كانت في الاصل نوعاً من النقابات الاقتصادية . وفي احد فنادق « الاخية » اقام ابن بطوطة [١] اثناء تجواله في آسية الصغرى .

١) ج ٢ ص ٢٦٠ ، ٣١٨ ولا علاقة بين « اخي » ولفظة « أخ » العربية كما توهم ابن بطوطة بل هي لفظة تركية معناها نبيل او ما ينسب الى الفروسية . راجع Franz Taeschner in *Islamica*, vol. iv (1929) , pp . 1 - 47 , vol. v, pp. 285 — 333 ; J .Deny in *Journal asiatique*, ser . 11 , vol. xvi (1920) , pp. 182 — 3 .

ومن الممتع في هذه المناسبة ان نذكر ان صورة النسر ذي الرأسين التي ابتدعتها مخيلة احد كهان السومريين القدماء، وانتقلت منهم الى البابليين فالحثيين قد اقتبسها بعد ثلاثة آلاف سنة السلاجقة الترك واصبحت شعارهم . ثم انتقلت من السلاجقة الى البيزنطيين ومنهم اتصلت بالنمسا وبروسيا وروسية .

بغداد في غفلة عن الحملات الصليبية

ان سيطرة السلاجقة على الخلافة التي بدأت زمن القائم سنة ١٠٥٥ قد دامت حتى سنة ١١٩٤ في عهد الناصر (١) . وفي معظم هذه الحقبة كانت الحروب الصليبية يتفاقم شرها في سورية وفلسطين . غير انه لا السلاجقة ولا العباسيون ابدوا اهتماماً بها . وكأنها لم تكن في نظر الخلافة في بغداد او عند سواد المسلمين امراً ذا بال . ولما فتح الفرنجة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ اقبل وفد من الشام الى بغداد مستغيثاً بأولي الأمر مستنفراً فبكوا وأبكوا وذكروا ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف ولكنهم عادوا من غير قضاء حاجة (٢) . وأحال الخليفة المستظهر (١٠٩٤ ـ ١١١٨) رجال الوفد الى السلطان بركياروق (١٠٩٤ ـ ١١٠٤) خلف ملكشاه الثاني المعروف بملازمته للشراب (٣) والذي به بدأت

١) الخلفاء الذين عاصروا حكم السلطنة السلجوقية :

٢٦) القائم (١٠٣١ـ٧٥)
|
محمد
|
٢٧) المقتدي (١٠٧٥ـ٩٤)
|
٢٨) المستظهر (١٠٩٤ـ١١١٨)

٢٩) المسترشد (١١١٨ـ٣٥)
|
٣٠) الراشد (١١٣٥ـ٦)

٣١) المقتفي (١١٣٦ـ٦٠)
|
٣٢) المستنجد (١١٦٠ـ٧٠)
|
٣٣) المستضيء(١١٧٠ـ٨٠)
|
٣٤) الناصر(١١٨٠ـ١٢٢٥)

٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٤ وقد رقت خطأ ١٩٢ .

٣) ابن خلكان ج ١ ص ١٥٤ .

سلطنة السلاجقة تنحل وانتهت المفاوضات عند هـذا الحد . وفي سنة ١١٠٨ أحدق الفرنج بطرابلس فسار وفد من أهلها الى بغداد على رأسه زعيم المدينة المحاصرة فانقضى امر استغاثتهم ولم يظفروا بطائل . و بعد ثلاث سنوات أقلعت من مصر مراكب فيها امتعة كثيرة لتجار من حلب فوقع عليها الفرنج واخذوها بما فيها فسار جماعة من حلب الى بغداد مستنفرين على الفرنج واجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم ودخلوا جامع السلطان وهو حاضر وكسروا المنبر وكسروا شباك المقصورة و بطلت الصلاة فأرسل المستظهر حينئذ الى السلطان يكل اليه الاهتمام بهذا الفتق فتقدم الى من معه من الامراء بالتجهز للجهاد والسير الى قتـال الفرنج فساروا وهم عدد قليل فلم يصنعوا شيئاً (١) . وهكذا كانت تدور هذه المعارك حامية الوطيس بين النصارى الفرنج والمسلمين وتمثل ادوار هذا النزاع وأمير المؤمنين وسلطانه السلجوقي يقفان موقف المتفرج ازاء هذا الحادث الجلل ولا يبديان شيئاً من الاكتراث .

وكان بعد ذلك في خلافة المقتفي (١١٣٦ ـ ٦٠) أن أخذ الصليبيون يعيثون فساداً بالارض ويضيّقون الخناق على القـائد المسلم زنـكي (٢) فضاق ذرعاً بهم وبعث الى بغـداد يستنجدها على الفرنج ويستحثها فلم يستجب نداءه الا بضعـة آلاف رجل . بينما في الوقت نفسه كان نور الدين ابن زنكي وصلاح الدين الايوبي المشهور يقاتلان النصارى الفرنج و يفلحان في صدهم و يجهزان الجيش على الفاطميـين بمصر . وفي سنة ١١٧١ استطاع صلاح الدين ان يقضي على الخلافة الفاطمية بمصر ولكونه سنياً اسقط اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة في مصر وسورية واستعاض عنه باسم الخليفة العباسي المستضيء . و بهذا عاد هذان القطران فاعترفا بسيادة خلفاء بني العباس الاسمية .

و بعد معركة حطين الفاصلة (١١٨٧) ارسل صلاح الدين الى الناصر خلف المستضيء عدداً من اسرى الفرنج وجانباً من الغنائم فيها صليب من البرونز مغشّى بالذهب قيل انه كان

---

١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٣٣٨ـ٩ ؛ ابن القلانسي ، ذيل ص ١٧٣ .

٢) مؤسس الدولة الاتابكية في الوصل وسورية (اتابك لفظة تركية مؤلفة من « اتا » اي أب و « بك » اي امير . وكان الاتابكة الأول مرشدين او معلمين للصغار من امراء السلاجقة ثم حلوا محلهم أخيراً في السيادة . ابو شامة . الروضتين في اخبار الدولتين ج ١ (القاهرة ١٢٨٧) ص ٢٤ .

يحوي قطعة من عود الصليب الحقيقي فدفن الخليفة هذا الصليب في بغداد (١) .

شاهات خوارزم

وولي الناصر الخلافة من سنة ١١٨٠ الى ١٢٢٥ وكان حكمه اطول حكم في تاريخ العباسيين (٢) فحاول محاولة ضئيلة لآخر مرة ان يحيي معالم الخلافة ويعيد اليها شيئاً من مجدها القديم . ذلك انه وجد فرصة للظهور أثر المشاحنة بين الامراء السلاجقة واعتراف البطل صلاح الدين بالخلافة فحاول استرجاع شيء من سلطته المفقودة في العاصمة فظهر بمظهر الابهة والبذخ واقبل على تشييد الابنية . وكان تحت رعايته ان نظمت وازدهرت حركة « الفتوّة » وهي من المنظمات المؤسسة على الفروسية والبطولة . ويذهب اصحابها الى ان اصلها يرجع الى علي وكانت تضم رجالا من ذوي المناصب والنبل اكثرهم علويّو النسب ويلبس اعضاؤها لباساً خاصاً (٣) ويمارسون طقوساً خاصة عند انخراطهم في سلكها . وكان يزيد ابن معاوية من اوائل الذين اكتسبوا لقب « فتى العرب » في الاسلام ولكن لم يكن لهذا اللقب معنى خاص في زمانه .

على ان محاولات الناصر كلها ذهبت دون طائل . وكانت أول الاخطاء الخطيرة التي ارتكبها تحريضه تكش حاكم خوارزم (١١٧٢ — ١٢٠٠ وهو أحد افراد الاسرة التركية التي ينتمي اليها شاهات خوارزم) (٤) على مهاجمة السلاجقة في العراق العجمي (٥) . وكان

---

١) ابن الأثير ج ١١ ص ٣٥٣ ؛ ابو شامة ج ٢ ص ٧٦ ، ١٣٩ .

٢) قابل مستوفي قزويني ج ١ ص ٣٦٩ . كانت خلافة القائم (١٠٣١ — ٧٥) الثانية من حيث طول المدة في الخلافة العباسية . ومع ان الخليفة الفاطمي المستنصر (١٠٣٥ — ٩٤) يسبق كل الخلفاء من حيث طول المدة في الحكم حسبما جاء في التواريخ الاسلامية فقد اصاب ابن الأثير (ج ١٢ ص ٢٨٦) في قوله ان هذا الخليفة ارتقى الى الخلافة وهو ابن سبع سنين . اما عبد الرحمان الثالث الاندلسي (٩١٢—٩٦١) فانه لم يعلن نفسه خليفة حتى سنة ٩٢٩ .

٣) الفخري ص ٤٣٤ ؛ ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٦٨ ؛ ابن جبير ص ٢٨٠ . انظر Hermann Thorning, *Beiträge zur kenntniss des islamischen Vereinswesens auf Grund von Bast Madad et-Taufiq* (Berlin, 1913); H. Ritter in *Der Islam*, vol. x (1920), pp. 244-50.

٤) ان مؤسس هذه الدولة التي قدر لها ان تلعب الدور الرئيسي في تاريخ آسية الوسطى مدة تزيد على القرن كان في الأصل مملوكاً من غزنة خدم ساقياً ببلاط ملكشاه السلجوقي ثم عين عاملا على خوارزم . الجويني ، القسم الثاني (ليدن ، ١٩١٦) ص ٣ ؛ ابن الاثير ج ١٠ ص ١٨٢ — ٣ .

٥) اي بلاد مادي القديمة . وسمي هذا القطر بالعراق العجمي تمييزاً له عن العراق العربي .

هؤلاء قد خلفوا سلاجقة فارس و بسطوا نفوذهم على بغداد . ودارت الحرب سنة ١١٩٤ بين تكش والسلطان السلجوقي طغرل (١١٧٧ - ٩٤) فانتهت باندحار طغرل و به انتهى امر السلاجقة في العراق وكردستان . وقد ظن الناصر ان الشاه الظافر سيتخلى له عن المناطق التي فتحها ولكن تكش قد هيأ للأمر غير هذا . فنهج نهج السلاجقة واصدر النقود باسمه على انه السلطان وحاول الاستيلاء على الادارة في بغداد تاركاً للخليفة مقام السيادة الاسمية فقط . واستمرت الحرب في زمن ابنه النشيط علاء الدين محمد (١٢٠٠ - ٢٠) فدوّخ سنة ١٢١٠ القسم الاوفر من فارس وقهر بخارى واختها سمرقند واستولى على غزنة (١٢١٤) ثم صمم اخيراً على انزال الضربة القاضية بالخلافة العباسية وتنصيب خليفة علوي . ويقال ان الناصر التمس وقد احرج سنة ١٢١٦ مساعدة حليف جديد كان نجمه قد بدا في الافق الشرقي البعيد ذلك هو جنكيز خان (١١٥٥ - نحو ١٢٢٧) زعيم قبائل المغول الوثنية المخيف (١) . وامام جيش المغول الجرّار المؤلف من ستين الفاً (٢) من الاقوام الهمجية وما انضم اليه من افراد الشعوب المغلوبة الذين جنّدهم جنكيز خان في مسيره غرباً لم يسع علاء الدين الا الهرب فلاذ الى جزيرة في بحر قزوين مات فيها مخذولا سنة ١٢٢٠ (٣) .

ظهور جنكيز خان

وفي هذه الاثناء قدم المغول على خيولهم السريعة وقد تنكّبوا قسيّاً غريبة الشكل فألقوا الرعب ونشروا الهول حيثما حلوا (٤) . ولقد انطمست امام هجماتهم معالم الثقافة في عواصم الاسلام الشرقية وانقلبت الديار التي احتوت القصور الفخمة وخزائن الكتب والمتاحف قاعاً صفصفاً وافناء خاوية لا حياة فيها . وجرت الدماء على طول الخط الذي سلكته جحافلهم تاركة اثراً لا يمحى . فتلك مدينة هراة لم يبق من سكانها الذين بلغوا مئة الف سوى اربعين

---

١) انظر W.Barthold, *Turkestan*, 2nd ed., tr. H.A.R. Gibb (Oxford, 1928), pp. 399-400.
وكان بين قواد جنكيز اثنان من المسلمين حين زحف غرباً . ولقد سبق ان كان هناك اتصال قبل عهد جنكيز بين التجار المسلمين وبين القبائل الرحل من اهل منغوليا الشرقية .

٢) يتراوح عدد الجند في الروايات المختلفة بين ٦٠ الفاً و ٧٠ الفاً والأرجح انها ارقام مبالغ فيها .

٣) مستوفي قزويني ج ١ ص ٤٩٨ .

٤) الجويني قسم ١ ص ١٧ وما يلي ؛ ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٣٤ وما يلي .

الفاً [١] . وتلك مساجد بخارى في عظمتها وحرمتها وتقوى قصادها قد جعلت زرائب لخيول المغول . امـا سمرقند و بلخ فقد استبيحت دمـاء الكثيرين من سكانها او اخـذوا اسرى . وهدّمت خوارزم كلها فأصبحت أثراً بعد عين . وفي رواية متأخرة ان جنكيز خان حين فتح بخارى (١٢١٩) وقف يخطب فقال عن نفسه : انا « آفة من الله ارسلت للناس قصاصاً على معاصيهم » [٢] . ويقول ابن الاثير [٣] وهو مؤرخ معاصر لهذه الحوادث ان فرائصه ترتعد عند سرد هذه الاهوال وانه يتمنى لو ان امه لم تلده . ولما زار ابن بطوطة [٤] بخارى وسمرقند و بلخ وما وراء النهر بعد مضيّ قرن على هجمات المغول وجـد مدناً لا يزال الخراب مسدولا عليها . اما بغداد فقد كان دورها مزمعاً ان يجيء .

وهكذا اجتاح العالم الاسلامي هذا القائد المغولي الذي وضع اساس اكبر امبراطورية شاهدها العالم وقد زعزع رجالها الذين قادهم في النصف الاول من القرن الثالث عشر اركان كل مملكة ما بين الصين والادرياتيك واجتاحوا بعض اجزاء روسية واواسط اوربا حتى شرقي بروسية . وربما لو لم يمت ابن جنكيز خان وخلفه سنة ١٢٤١ لما نجت اوربا الغربيـة من شر هذه القبائل المغولية .

اما الخليفة الناصر فقد قضى سني ملـكه الأخيرة في خوف مستمر وكذلك ابنه الظاهر (١٢٢٥ ـ ٦) وحفيده المستنصر (١٢٢٦ ـ ٤٢) . وقـد بلغ هؤلاء المغول ، او التتر كما تسميهم المصـادر العربية ، في تقدمهم حتى سامرّا فاستولى الذعر على أهل بغداد واخذوا يلجأون الى حصونهم. وتوقف عنهم الخطر الداهم حيناً . على ان ذلك لم يـكن الا من قبيل الهدوء الذي يسبق العاصفة .

---

١) قابل ياقوت ، البلدان ج ٤ ص ٩٥٨ وقد زار ياقوت هراة في سنة ١٢٢٠ اي قبل كارثتها بسنة فقال عنها انها اكبر واغنى مدينة رآها .

٢) الجويني، قسم ١ ص ٨١ .

٣) ج ١٢ ص ٢٣٣ .

٤) ج ٣ ص ٢٥ـ٧ ، ٥٢ ، ٥٨ـ٩ .

الفصل الثالث والثلاثون

انحلال الخلافة العباسية

وكما كانت الفتوحات التي استولى بها ابناء البادية العربية على معظم العالم المتمدن سريعة حاسمة هكذا كان انحلال الدولة العربية بين منتصف القرن الثالث ومنتصف الرابع . فحوالي سنة ٨٢٠ كان قد تم لخليفة بغداد من السلطة الواسعة ما لم يتم لملك آخر في تلك العصور . ولكن لم تستهل سنة ٩٢٠ الا والخليفة قد اضاع كل سلطته حتى في بغداد نفسها . وما وافت سنة ١٢٥٨ حتى سقطت بغداد و بسقوطها زال السؤدد العربي وانتهى تاريخ الخلافة العربية الحقيقية .

واذا بحثنا الاسباب المؤدية الى هذا السقوط وجدنا ان حملات القبائل الهمجية من مغول وترك على قوتها وشدة هولها لم تكن الا ثانوية وكذلك فان نشوء الدول العديدة والامارات المستقلة في قلب الخلافة وعلى اطراف مناطقها كان عرضاً من اعراض داء الخلافة لا سبباً من اسبابه . ومثل الخلافة في ذلك مثل الامبراطورية الرومانية الغربية من قبل وقد اصبحت كعليل على فراش الموت فانتهز اللصوص فرصة مرضه للاجهاز عليه والقبض على ميراثه .

اما العوامل الداخلية لسقوط الخلافة فأهم من العوامل الخارجية . وان القارىء الذي تتبع الفصول السابقة باهتمام قد ادرك دون ريب الاسباب الحقيقية ولاحظ اثرها خلال القرون . فالكثير من الفتوحات الاسلامية لم تكن الا اسميةوكانت امكانية التجزؤ والتفكك تلازم بطبيعة الحال كثيراً من عمليات الفتح السريعة في عصور الخلافة الاولى وتقف في سبيل توحيد الامة . ولم تكن طريقة الحكم وما رافقها من اساليب الاستغلال لموارد البلاد وجباية الخراج ضامنة لاستقرار الحال وثباتها . كما ان الفوارق والحواجز بين طبقات الشعب ــ العرب وغير العرب، والعرب المسلمين والموالي ، والمسلمين واهل الذمة ــ ظلت بارزة

طيلة تلك العهود . حتى في الجماعة العربية نفسها فان العصبية القبلية ظلت متأصلة في النفوس تثير الضغائن بين أهل الشمال وأهل الجنوب . ولم تتم عمليـة الامتزاج بين الفرس الايرانيين والترك الطورانيين والبربر الحاميين و بين العرب الساميين بل بقيت هذه العناصر الغريبة محافظة على نزعاتها القديمة فلم تربطها معاً غايات موحدة . ولم ينس ابنـاء ايران قوميتهم السابقة قط ولم يذعنوا كل الاذعان للنظـام الوطني الجديد . وقد عبّر معاشر البربر عن عصبيتهم القبلية وشعورهم بالفـارق الذي يفصلهم عن سائر العناصر وذلك بمحاولاتهم واقبالهم على الانضواء الى أي حركة انشقاقية او فرقة دينية انفصالية . ولم ينقطع أهل الشام عن انتظار مجيء سفياني يرفع عنهم مذلة الرضوخ لنير العباسيين . وكان ان ظهر ضمن نطـاق الدين نفسه من النزعات المتنـافرة ما لا يقل عن الأحزاب السياسية أثراً في تمزيق الاواصر .ومن هذه النزعات نشأت الشيعة وحركة القرامطة وجماعة الحشاشين وغيرهم . الا ان هذه الفرق لم تقصر همها على الدين . فقد سدّد القرامطة الى الجانب الشرقي من ممتلكات الخلافة العباسية ضربات هائلة . وانتزع الفاطميون بعد ذلك بقليل اكثر الامصار الغربية . والواقع ان الاسلام في ذلك العهد الاخير لم يعد له من القوة ما يساعده على جمع الكلمة بين ابنائه اكثر مما كان للخلافة نفسهـا من القوة لربط الاراضي المجاورة للبحر المتوسط باراضي آسية الوسطى لتكوين دولة واحدة ثابتة الاركان . وقد كانت هناك غير هذه اسباب اخرى اجتماعية ومعنوية لهـذا الانحلال ، فالعرق العربي الفاتح اختلط على مرّ الاجيال بالعرق المغلوب فنجم عن ذلك فقدان صولة الغالب والصفات التي خوّلته السيادة . وبانحطاط الروح القوميّة بـين العرب ضعفت انفتهم وقواهم المعنوية . ولم يطل الامر بدولتهم حتى تسلمتها منهم الشعوب المغلوبة . وكان للتسرّي وما رافقه من نظام الحريم والخصيان واقتناء الجواري والغلمان اثر في تقويض معنويات الامة وحط مقـام المرأة وافساد الرجال وذهاب المروءة منهم . و بتكاثر السراري تكاثر الابنـاء والبنات المولودون من امهات مختلفات في بلاط الخلافة واتسع المجـال للتحاسد والفتن . اضف الى هذا ضروب الترف والبذخ التي ألفوها والتفاتهم الى الشراب والغناء . هذه العوامل وغيرها مما يماثلها قضت على النشاط والحيوية في افراد البيت المالك واورثت اولياء العهد ضعفاً جسدياً

وروحياً. ومما زاد الطين بلة وساعد على ازدياد الاضطراب ان حق ولاية العهد في الخلافة لم يكن قط صريحاً.

ثم يجب ان لا يهمل اثر العوامل الاقتصادية واولها الخراج المرهق وخطة التحكم في شؤون الامصار لمصلحة الطبقة الحاكمة مما آل الى كساد الحياة الزراعية والصناعية. وكان كلما ازداد الحاكمون غنى ازداد الفقراء فقراً. ولما تجزأت الدولة الى دويلات قام كل من اولياء الامر بابتزاز اموال رعيته. وقضت الحروب المتواصلة بانقاص عدد الرجال العاملين فغدت اكثر المزارع مهجورة خربة. وزاد الخراب تكرر الفيضان في سهول العراق الجنوبية. ولحقت المجاعات بمختلف انحاء الامبراطورية وزاد انتشار الاوبئة من طاعون وجدري وملاريا وسواها من الادواء التي كان الانسان يقف امامها في العصور الوسطى مكتوف اليدين ففتكت بالسكان فتكاً ذريعاً. وقد سجلت كتب التاريخ العربية للقرون الاربعة الاولى بعد الفتح ما لا يقل عن اربعين وباءً كبيراً. وكان من نتائج المرض الاجتماعي الاقتصادي ان انقطع مجرى الحياة العقلية والانتاج الفكري المبتكر.

هولاكو في بغداد

وفي سنة ١٢٥٣ غادر هولاكو حفيد جنكيز خان بلاد المغول في جيش جرّار يقصد القضاء على الحشاشين وعلى الخلافة معاً. وهي الحملة الثانية من حملات المغول وقد اكتسحت كل ما كان امامها من الامارات الصغيرة الناشئة على أنقاض الامبراطورية التي بناها شاهات خوارزم. وأرسل هولاكو الى الخليفة المستعصم (١٢٤٢ - ٥٨) (١) يدعوه الى المساهمة معه في الحملة على الحشاشين من فرقة الاسماعيلية فلم يلبِّ دعوته. وفي سنة ١٢٥٦ تمّ للمغول احتلال عدد كبير من قلاع الحشاشين ومنها قلعة أَلَموت مركزهم الرئيسي وذلك دون مقاومة عظمى.

---

١) الخلفاء الأخيرون:

٣٤) الناصر (١١٨٠ - ١٢٢٥)

٣٥) الظاهر (١٢٢٥ - ٦)

٣٦) المستنصر (١٢٢٦ - ٤٢)

٣٧) المستعصم (١٢٤٢ - ٥٨)

٢) رشيد الدين، جامع، نشر كاترمير وترجمته ج ١ ص ١٦٦ وما يلي.

فتقوضت بذلك اركان هذه الفرقة المخيفة من أساسها و بطش المغول حتى بالاطفال. و بينما كان هولاكو يعبر المضيق الشهير على طريق خراسان في ايلول من السنة التالية أرسل اخطاراً الى الخليفة يطلب منه التسليم وهدم سور بغداد الخارجي فردّ عليه الخليفة مراوغاً . وفي كانون الثاني من سنة ١٢٥٨ هاجم هولاكو أسوار بغداد واعمل المنجنيق فيها فثغرها ولم يشعر الناس ببغداد الا ورايات المغول ظاهرة على سورها الداخلي من احد الابراج (١) . وخرج الوزير ابن العلقمي ومعه جاثليق النساطرة ــ وكان لهولاكو زوجة نصرانية ــ للمفاوضة بالصلح . الا ان هولاكو رفض مقابلتهما ولم يلتفت الى قول من كان يزعم ان الحتف نصيب من يجرأ على قهر مدينة السلام او النيل من خلافة آل العباس . وقد قيل له « متى قتل الخليفة اختلّ نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر والنبات» (٢) فلم يعبأ بشيء من هذا وقد نصحه منجموه أن لا يعبأ فأخذ بنصيحتهم . وما جاء اليوم العاشر من شهر شباط حتى اقتحمت عساكره المدينة فخرج الخليفة وثلاثمئة (٣) من خاصته وقضاته خاضعين مسلّمين دون قيد . و بعد ذلك بعشرة ايام أمر بقتل هؤلاء جميعاً . ثم أطلق الفاتحون ايديهم ببغداد وأهلها قتلاً ونهباً وتمثيلاً حتى قضوا على اكثر سكانها ولم يستثنوا أسرة الخليفة . وثقل الهواء بما حمله من كريه رائحة الجيف المنتنة واشلاء القتلى المطروحة في شوارع المدينة بحيث اضطر هولاكو ان يبتعد عن المدينة اياماً . ولعله كان ينوي ان يجعل بغداد مقراً ومسكناً له فلهذا لم يمعن فيها تخريباً امعانه في المدن الاخرى . وقد عامل جاثليق النساطرة معاملة طيبة وابقى على بعض المدارس والمساجد . ولاول مرة في تاريخ الاسلام اضحى العالم الاسلامي دون خليفة يدعى له على المنابر في صلاة الجمعة .

وفي سنة ١٢٦٠ نهد هولاكو الى شمال سورية واخذ يتهددها ففتح حلب وفتك بخمسين الفاً من سكانها ثم دخل حماة وحارم ، وانفذ قائداً لحصار دمشق ولكن وفاة اخيه الخان

---

١) الفخري ص ٤٥٤ ؛ رشيد الدين ج ١ ص ٢٨٤ ــ ٥ .

٢) الفخري ص ١٩٠ ؛ رشيد الدين ج ١ ص ٢٦٠ . ان في كتاب الفخري الموضوع سنة ١٣٠١ م . وقد أهدي لفخر الدين عيسى والي المغول على الموصل رواية شاهد عيان عن سقوط بغداد .

٣) ثلاثة آلاف في رواية رشيد الدين ج ١ ص ٢٩٨ .

الكبير اضطرته الى ان يرجع الى ايران (١) . واتم الجيش الذي تركه في الشام فتح اكثر البلاد السورية . غير انه في السنة نفسها هاجمه عند عين جالوت (الجالود اليوم) قرب الناصرة القائد العظيم بيبرس قائد السلطان قطز (احد مماليك مصر) فقضى عليه (٢) واحتل المماليك سورية ووقفوا سداً منيعاً في وجه تقدم المغول غرباً . وعاد هولاكو بعد ذلك وحاول ان يحالف الافرنج على فتح سورية فأخفق .

وكان هولاكو بصفته مؤسس مملكة المغول بايران الممتدة من نهر جيحون الى حدود الشام ومن جبال القوقاس الى المحيط الهندي اول من اتخذ لنفسه لقب ايل خان (٣). فتوارثه خلفاؤه حتى سابعهم غازان محمود (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤) الذي اصبح المذهب الشيعي في عهده مذهب الدولة الرسمي . وكان في عهد الايلخانات وهم خلفاء هولاكو ان انزلت بغداد عن مكانتها واصبحت قاعدة للعراق العربي فحسب . ومال هولاكو وكان يلقّب غالباً بالايلخان الكبير الى العنصر النصراني في رعيته . وكان يقيم في زمن السلم بمراغة شرقي بحيرة ارمية المالحة حيث ابتنى ابنية كثيرة منها مكتبته الشهيرة ومرصده . وفيها توفي سنة ١٢٦٥ فدفنت معه غانيات جميلات عملاً بالعادات المغولية . وقد سلك هو وخلفاؤه سبيل السلاجقة السابقين فقرّبوا ابناء ايران منهم واستفادوا بعلمهم واقتدارهم في ادارة شؤون الدولة . ومن هؤلاء العلماء المقرّبين الجويني (المتوفى ١٢٨٣) ورشيد الدين (المتوفى ١٣١٨) مؤرخا هذه الحقبة. واستقام الحكم للايلخانات بفارس مدة خمس وسبعين سنة وهي مدة غنيّة بالانتاج الادبي .

وكان الاسلام في مطلع القرن الثالث عشر يكاد ينهار كما رأينا بين ضغط المغول في الشرق وغارات الصليبيين في الغرب فما ان دنا آخر القرن حتى تغيّرت الحال واصبح عزيز الجانب .

---

١) أما « الخان الكبير » الذي ذكره ماركو بولو فهو أخ آخر له اسمه قوبيلاي (المتوفى ١٢٩٤) . وهو الذي نقل العاصمة من قراقرم في بلاد المغول الى بكين . راجع رشيد الدين ج ١ ص ١٢٨ ، ج ٢ نشر بلوشي (ليدن ، ١٩١١) ص ٣٥٠ وما يلي .

٢) ابو الفداء ج ٣ ص ٢٠٩ ـ ١٤ ؛ رشيد الدين ج ١ ص ٣٢٦ ـ ٤٩ ؛ المقريزي، السلوك ترجمة كاترمير *Sultans mamlouks*, vol. i (pt. 2), pp. 96 *seq.*

٣) اللفظة تركية معناها سيد القبيلة (ايل = قبيلة وخان = سيد) وهو زعيم اقطاعي تابع للخاقان (الخان الكبير) الذي كان يقيم اولا في بلاد المغول البعيدة بشمالي صحراء غوبي ثم في بكين .

فقد دحر الصليبيون الى البحر واعترف سابع الايلخانات بالاسلام ديناً للدولة وكان اسلافه يميلون الى النصرانية فجاء ذلك فوزاً جديداً باهراً لدين محمد مماثلاً لفوزه على يد السلاجقة . ولم يكد ينقضي نصف قرن على كفاح هولاكو المريع في سبيل افناء الثقافة الاسلامية حتى قام ابن حفيده غازان فكرّس وقته وقوته بصفته مسلماً لاحياء معالم تلك الثقافة نفسها .

آخر حماة الاسلام

غير ان المغول لم يكونوا هم الذين كتب لهم ان يرفعوا راية الاسلام على بقاع جديدة واسعة . بل كتب ذلك الى اقربائهم الترك العثمانيين (١) آخر حماة الدين الاسلامي . فقد امتدت امبراطوريتهم في عهد سليمان (١٥٢٠ ـ ٦٦) من بغداد على دجلة الى بودابست على الدانوب ومن أسوان بالقرب من اول شلالات النيل حتى بوغاز جبل طارق تقريباً . وفي كانون الثاني سنة ١٥١٧ حين دخل سليم والد سليمان القاهرة عاصمة المماليك ظافراً لقي هناك نكرة يدعى المتوكل يمثل بيت بني العباس الذين احتفظ بهم سلاطين المماليك وأقاموهم صورةً خلفاء عندهم بمصر مدة قرنين ونصف . وقد كان اول خليفة في هذا الفرع عم المعتصم وكان قد نجا من مجزرة بغداد فأخذه بيبرس (١٢٦٠ ـ ٧٧) رابع سلاطين المماليك ونصبه خليفة بابهة واحتفال فخم واطلق عليه لقب المستنصر (٢) . ولم يلبث المستنصر طويلاً حتى قتل في محاولة طائشة قام بها نيابة عن بيبرس لاسترجاع بغداد . وخلفه عباسي آخر سنة ١٢٦٢ اجري له مثل ذلك الاحتفال والمهرجان . ونقل السلطان سليم الخليفة المتوكل معه الى القسطنطينية ثم سمح له بالعودة الى القاهرة حيث قضى سنة ١٥٤٣ و به انتهت خلافة العباسيين الاسمية بمصر . وليس في المصادر المعاصرة لهذه الحوادث ما يؤيد الزعم الذي يردده الكثيرون من ان الخليفة العباسي الاخير قد تنازل عن الخلافة وما لها من حقوق وامتيازات للفاتح العثماني او خلفه في القسطنطينية .

---

١) نسبة الى عثمان جدهم الأعلى وقد ولد حوالي ١٢٥٨ .
٢) ابو الفداء ج ٣ ص ٢٢٢ .

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع

دار الكشاف

للنشر والطباعة والتوزيع

بيروت – لبنان

في ١٤ رجب ١٣٦٩ الموافق اول نوار ١٩٥٠